«سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ»

عصر الأزتك

أمة الشمس والأرض

ديفيد كاراسكو وسكوت سيشونز



ترجمة: ميسون جحا

نبذة عن المؤلفين:

ديفيد كاراسكو:

مدير محفوظات «موزيز ميزو أمريكا» وأستاذ التاريخ والأديان في جامعة برينستون. وتتضمن أعماله السابقة: «مكسيكو موكتيزوما: رؤى العالم الأزتكي» (1992)، «كويتزلكوتل ومفارقة الإمبراطورية: أساطير ونبؤات التراث الأزتيكي» (1982، 1992)، «تبديل المكان: المناظر الطقوسية الأزتكية» (1991)، و«الأديان وميزوأمريكا: المراكز الكونية والطقوسية» (1990).

سوكت سيشونز:

أستاذ في قسم الأديان في جامعة برينستون. كما أنه مساعد إداري في مركز محفوظات «موزير ميزو أمريكا» (جامعة برينستون)، وباحث في «الدين الأفرو- أمريكي: مشروع تأريخ توثيقي (كلية أمهيرست)، ومحرر لموسوعة أكسفورد للحضارات الميزوأمريكية.

«سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ»

عصر الأزتك
أمة الشمس والأرض

ديفيد كاراسكو وسكوت سيشونز

ترجمة: ميسون جحا

مراجعة: سامر أبو هواش

مدارك

كلمة
KALIMA

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

عصر الأزتك : أمة الشمس والأرض
ديفيد كاراسكو، سكوت سيشونز

F1219.73 .C35512 2011
Carrasco, David
[Daily life of the Aztecs]
عصر الأزتك : أمة الشمس والأرض / ديفيد كاراسكو، سكوت سيشونز : ترجمة ميسون جحا : مراجعة سامر أبوهواش.-ط.
1 - أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.
364ص : 15×23 سم -(سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ)
ترجمة كتاب : Daily life of the Aztecs : people of the sun and earth
تدمك: 978-9948-01-860-5
1. الحضارة الازدكية. أ. Sessions, Scott. ب. أبوهواش، سامر، -1972 ج.العنوان. د.السلسة.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
David Carrasco and Scott Sessions
Daily Life of the Aztecs: People of the Sun and Earth

www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

www.mdrek.com
read@mdrek.com
ص. ب: 333577 دبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 3807774 4 00971 فاكس: 3805977 4 00971

عصر الأزتك
أمة الشمس والأرض

المحتويات

شكر وامتنان

يعبر المؤلف والناشر عن شكرهما للجهات التالية لسماحها بالاقتطاف من نصوص أثرت النص:

مقتطفات من مخطوطات فلورنتاين: التاريخ الشامل لإسبانيا الجديدة، لصاحبها بيرناندينو دي ساهاجون، وقد ترجمها وحررها آرثر جي.او آندرسون وشارلز أي ديبي في 13 مجلداً (سانتا في: المعهد الأمريكي للأبحاث وجامعة أوتاوا، 1950–1982)، وقد أعيدت طباعة النصوص بتصريح من جامعة أوتاوا ومعهد الأبحاث الأمريكي.

مقتطفات من كتاب آلفريدو لوبيز أوستن «الفكر والجسد البشري: مفاهيم عن الناهواس القدماء». والكتاب ترجمته ثيلما أورتيز دي مونتيللانو وبيرناردو آر. أورتيز دي مونتللانو(سولت لايك سيتي: جامعة اوتاوا، 1988)، بتصريح من جامعة أوتاوا.

مقتطفات من كتاب فراي دييجو دوران «تاريخ الإنديز في إسبانيا الجديدة»، وقد ترجمته دوريس هايدن (نورمان: جامعة أوكلاهوما، 1955)، وقد أعيدت طباعة النصوص بتصريح من جامعة أوتاوا.

مقتطفات من كتاب ميجيل ليون– بورتيللا «الفكر والثقافة الأزتكية» (نورمان: جامعة أوكلاهوما، 1963) وقد أعيدت طباعة المقتطفات بتصريح من جامعة أوكلاهوما.

مقتطفات من كتاب بيرنال دياز ديل كاستيللو «اكتشاف المكسيك وغزوها» وهو من ترجمة أي.بي. مودسلاي (نيويورك: فارار وستروس وجيروكس، 1965، 1984، لندن: روتليدج وكيجان بول، 1984) وقد أعيدت طباعة المقتطفات بتصريح من فارار وستروس وجيروكس و روتليدج وكيجان بول.

وقد بُذِلَتْ جهود حقيقية من أجل الوصول إلى جميع أصحاب حقوق نشر المواد الواردة ضمن الكتاب، ولكن ثبت، في بعض الحالات، استحالة تحقيق هذه الرغبة.

ويسعد المؤلف والناشر تلقي معلومات تفيد في تقديم الشكر إلى المزيد من الأشخاص في الطبعات اللاحقة للكتاب. وإلى ذلك الحين، يعبر المؤلف والناشر عن أسفهما بشأن إغفال أي اسم أو جهة.

المقدمة

أين هو قلبك؟
إن منحت قلبك إلى كل شيء، فلن تحقق له شيئاً، بل ستقضي عليه.
هل يوجد كل ما نطلب على وجه الأرض؟[1]

هيا نبحث عن الأصدقاء
آن الأوان لأن نعرف بعضنا بعضاً[2]

عند شروق الشمس في كل صباح، اعتادوا على تحيتها بقولهم «أشرقت الشمس... لكن كيف ستسلك طريقها؟ وكيف ستمضي يومها؟ وقد يواجه شعبها بعض الآلام والعقبات»... كما قيل إن من يموتون في القتال يرحلون نحو بيت الشمس، ويقيمون هناك بصحبة نورها»[3]

عندما غزا الإسبان، بقيادة هيرنان كورتيز، للمرة الأولى تينوشتيتلان، عاصمة الأزتك، شبهوها بمدن أوروبا الكبرى، مثل البندقية والقسطنطينية (إسطنبول لاحقاً) وسالاماناكا. لكن، عندما واجه الأزتك الإسبان الغزاة، حاروا في أمرهم، وتساءلوا إن كان هؤلاء أشباه آلهة أم وحوشاً. وفي حقيقة الأمر، نظر الأزتك إلى أنفسهم باعتبارهم «أمة الشمس والأرض»، ونجحوا، عبر الإقناع السياسي والترهيب والحروب، والتجارة، في إنشاء إمبراطورية حكمت أكثر من أربعمائة بلدة وقرية قدَّم سكانها هدايا سخيّة إلى الأسر المالكة وأسواق العاصمة.

يركز هذا الكتاب على الحياة اليومية للأزتك، خاصة أولئك الذين أقاموا داخل

(1) ميجيل ليون ـ بورتيللا، محرر ومترجم، روحية السكان الأصليين في أمريكا الوسطى: أساطير قديمة، خطب، حكايات، عقائد، ترانيم وأشعار مختارة من تراث الأزتك، يوكاتيك وكويشمايا وغيرها من الترجمات (نيويورك، بوليست برس، 1980) ص. 184.

(2) المصدر نفسه، 185.

(3) مخطوطات فلورنتاين وقد وضعها بيرناردينو دي ساهاجون: «التاريخ الشامل لإسبانيا الجديدة»، تحرير وترجمة جي.أو آندرسون وتشارلز أي ديبي، المجلد 13 (سانتا في: معهد الأبحاث الأمريكية، وجامعة أوتاوا (1950 ـ 1982)، المجلد السادس: ص. 216 ـ 217.

جزيرة تينوشتيتلان وحولها. كما يقدم لنا الكتاب فكرة واضحة عن الوجه الإنساني لهذا الشعب، الذي تساءل شعراؤه عن مصير قلوبهم، وجَهد مواطنوه لإقامة صداقات دائمة، ونظر آباؤه وأمهاته إلى أبنائهم بوصفهم «عقوداً ثمينة». كما حيًّا أبناؤه الشمس عند شروقها، وقتلوا أثناء الحروب، وهم على يقين بأنهم، رغم دفنهم في باطن الأرض، أو نثر رماد أجسادهم فوق تراب الوطن، فإنهم سيخلدون في بيت الإله الشمس. ويسعى هذا الكتاب لعقد مقاربة جديدة للعلاقات المركبة بين الممارسات الثقافية والنظام الاجتماعي، والأساطير والرموز الدينية.

كما تظهر الأبيات الشعرية الواردة أعلاه إيمان أبناء الأزتك بأن الأرض والسماء والشمس ليست قوى طبيعية وحسب، بل هي حافلة بقوى مقدسة. ومما ساعد على تكوين هذه المقاربة الجديدة، اكتشافات أثرية حديثة تمت في حوض المكسيك وما حوله، ومن ضمنها الكشف عن معبد الأزتك الأعظم في وسط مدينة مكسيكو، وعند موقع تيوتيهواكان، وهي مدينة الآلهة، وعرفت أيضاً باسم الأهرامات. كما أمكن الاستفادة أيضاً من عدة نصوص مصوّرة رسمت بأيدي سكان أصليين قبل الغزو الإسباني وبعده. وإن الهدف من ذلك هو التركيز على التفاعل بين الأماكن المقدسة والطقوس، ولشرح أساليب التعليم التي اتبعها الأزتك لتدريب صغارهم وفتيانهم لزرع مشاعر الولاء الكبير في نفوسهم، نحو أرض الأزتك وشمسهم وآلهتهم وأسلافهم، ونحو بعضهم الآخر.

وقد وضع الكتاب ونظم كي يبدو كرحلة ضمن جغرافية الأزتك وعلاقتهم بالكون، ومجتمعهم الذي نظم الحياة في المدينة، حيث عمل الأطفال والفتية والمحاربون والتجار ورجال الدين والحكام والفنانون معاً لإرساء دعائم حياة هانئة متوازنة يسودها تقديس الآلهة.

يركز الفصل الأول على إعطاء القارئ صورة شاملة عبر المساحات الجغرافية والخيال الجغرافي لشعب الأزتك. ويستفاد، في هذا السياق، من صور الوعاء الأخضر المائل إلى الزرقة ومن الهرم، في مساعدة القارئ على رؤية الإطار الطبيعي الذي عاش فيه الأزتك وفهمه.

ويبحث الفصل الثاني في كوزمولوجيا (علم الكونيات) الأزتك، والتي تتمثل في تخيلات الشجرة الكونية ومحور الأركان الأربعة. ويواصل الفصل الثالث في نقلنا عبر عالم الخيال لاستكشاف مدينة تينوشتيتلان كجبل للماء، وهو تعبير بلغة (الناهوآتل)[1] بمعنى المجتمع أو المدينة.

كما يركز الفصل الرابع على دورة الحياة البشرية، خاصة أساليب التعليم التي خضع لها أطفال الأزتك كي يصبحوا مواطنين أكفاء نافعين. ويكشف لنا الفصل الخامس البنية الاجتماعية الطبقية ويصعد بنا نحو الهرم الاجتماعي، وكيفية توزيع المناصب في مجتمع الأزتك، والتزامه القوي بالمحافظة على القيود الاجتماعية التي فرضها كبار السن والتقاليد ومتطلبات العمل. ويركز الفصل السادس على المواهب الفنية وبراعة التلوين والتصميم لدى الأزتك، إذ كانت فكرة «الأزهار والأناشيد» هي التعبير المجازي عما يسميه المجتمع الغربي «عروس الشعر». كما يشمل الفصل السابع بحثاً في موضوع القرابين البشرية، وعلاقتها الرئيسة بالحروب. كما يتطرق الكتاب لفكرة القرابين البشريين باعتبارها ممارسة دينية يعبر عنها في إطار تسديد الديون للآلهة.

ويتعامل الفصل الثامن مع حدث هزّ أركان عالم الأزتك، وهو مواجهتهم للأوروبيين، ويبحث في اللقاءات والترجمات وسوء الترجمات، والحروب التي أدت لتدمير عاصمة الأزتك.

أما الفصل الأخير، فيبحث في «الحدث الطويل»، أي كيف صمدت أفكار الأزتك وشعائرهم ومعتقداتهم وتماثيلهم وصورهم، ومازالت لها قيمتها، حتى يومنا الحاضر، داخل المكسيك وما حولها؟ كما يتضمن الكتاب تسلسلاً زمنياً للأحداث، وقائمة بالكلمات الصعبة مع شروح لها، ودليلاً لفظياً، وثبْتاً بالمراجع لمساعدة القارئ على تمييز الأزتك وتقديرهم، في إطار لغوي وتاريخي وثقافي.

إن هذا الكتاب نتاج جهد مشترك طويل الأمد قام به مجموعة من الباحثين في أرشيف أمريكا الوسطى ومشروع الأبحاث.

وقد ساعد في وضع أفكار هذا الكتاب وخرائطه وتواريخه الدقيقة، وقائمة

(1) Nahuatl (ناهوآتل) لغة الأزتك.

الكلمات الصعبة والدليل اللفظي، وثبت المراجع، فضلاً عن تحرير وإعداد المخطوطة، مجموعة من الباحثين ومنهم: بول ويتلي وتشارلز لونج وميرسيا إيليادي، بالإضافة إلى فيليب آرنولد وأنطوني آفيني وإليزابيث بون وجوهانا برودا وروبرت باي وإدوارد كلانيك وجوزيه كويللار ودوريس هايدن وليندسي جونز وإيديلميرا ليناريس وألفريدو لوبيز أوستين وليوناردو لوبيز لوجان وإدواردو ماتوس مو كتيزوما وإتش. بي نيكولسون وسكوت سيشينز. وقد ساهم سكوت سيشينز، على وجه الخصوص، بإعداد البيانات التوضيحية والخرائط وجدول التواريخ وقائمة الكلمات الصعبة والدليل اللفظي وثبت المراجع، إلى جانب تحرير المخطوطة وإعدادها. كما اطلع عدة أشخاص آخرين على فصول معينة، واقترحوا إضافة بعض المعلومات، ومن هؤلاء ابنتي المراهقتين، أوكتافيا ولانا، اللتين حذرتاني من حشو الكتاب بتفاصيل تصيب الطلبة بالملل. كما قدمت ابنتاي اقتراحات مفيدة فيما يتعلق بلغة الكتاب وصوره وكتابته. وقد استفدت أيضاً من ملاحظات وانتقادات عدة مدرسين في معهد المنطقة في ايل باسو (تكساس)، ممن عملت معهم في دورة صيفية نظمتها الكلية الوطنية للعلوم الإنسانية. كما ساعدتني، على وجه الخصوص، المدرّسة شيريل دياني دي لاكريتاز، في تحرير الكتاب بطريقة تعرف الطلاب إلى تاريخ الأزتك. وقد أسعفني الحظ أيضاً بمساعدة قدمها تسعون طالباً من مدرسة ويست ويندسور- بلينسبورو المتوسطة (نيوجيرسي)، والذين قرأوا فصولاً محددة تحت إشراف جوان روديمان، وقدموا مقترحات نقدية ساعدت في تقديم الكتاب بصورة أفضل، ولابدّ من تقديم الشكر لآخرين ساعدوا في تحرير الكتاب ومنهم سامانثا آلدوسين (طالبة في جامعة برينستون) ولوجين ويتلي لدعمهما الكبير خلال مرحلة التأليف.

يسعى هذا الكتاب لتقديم صورة شاملة عن حياة الأزتك، وهو حافل بالصور والرسوم التوضيحية، وخاصة فيما يتعلق بشعائر القرابين البشرية. ومن الأسهل شجب الشعائر الخاصة بالقرابين البشريين عوضاً عن فهمها. ومن الصعوبة بمكان فهم مختلف أشكال الممارسات الخاصة بالقتل الناجم عن تطبيق شعائر معينة، ولكن لابدّ من المحاولة. ومما يدعو للسخرية أن المبدأ الفلسفي الغربي القائل «لا غرابة في أي

شيء بشري» يتخذ معنى جديداً عندما ندرس ديانة الأزتك ونفهمها ونضعها تحت مجهر النقد. وإذ نسعى إلى فهم كل ما يتعلق بهذا الشعب ـ ديانته، تضحياته، شِعره، مدارسه، ملابسه، حروبه وفنه، فإننا قد ندرك أيضاً «أننا عرفنا وجوهنا».

آمل أن يساعد هذا الكتاب في تركيز الاهتمام البشري على شعب الأزتك ما يسمح للقارئ بأن يقدره ويفهمه، وأن يوجه انتقادات بناءة لإبداعات هذا الشعب وقوته التدميرية ومشكلاته ونقاط ضعفه، وقدراته الفائقة ومواهبه.

التسلسل الزمني[1] للأحداث في منطقة وسط المكسيك

من 6500 ق.م. إلى 2000 ق.م: تدجين النباتات الزراعية مثل الذرة والقرع والباقلاء.

من 1800 ق.م. إلى عام 200 ب.م: المرحلة التكوينية.

من 200 - 900 ب.م: المرحلة الكلاسيكية.

من 900 ب.م. إلى 1519 ب.م: ما بعد المرحلة الكلاسيكية.

من 1800 ق.م. إلى 300 ق.م: ازدهار حضارة أولميك على ساحل الخليج وامتد نفوذها إلى وسط وجنوب المكسيك.

من 150 ق.م. إلى 750 ب.م: ازدهار تيوتيهوكان في وسط المكسيك

من 950 ب.م. إلى 1150 ب.م: ازدهار التولتيك في وسط المكسيك

1300: مجموعات المكسيكا تهاجر من الشمال إلى منطقة حوض المكسيك.

1325: تأسيس مستوطنة تينوشتيتلان حول بحيرة تيزكوكو. وفي منتصف القرن، أصبح المكسيكا أتباعاً ومرتزقة لدى التيبانيكس.

1375- 1396: عهد آكامابيشتبلي باعتباره أول تلاتوآني[2] في مدينة تينوشتيتلان.

1396 - 1417: عهد هويتزيلهويتل الذي يعد ثاني تلاتوآني.

1417 - 1427: عهد شيمالبوبوكا الذي يعد ثالث تلاتوآني.

1427 - 1440: عهد ايتزكوآيل الذي يعد رابع تلاتوآني.

1428 - : تحالف المكسيكا في تينوشتيتلان مع مدينتي تيزكوكو وتاكوبا بهدف إلحاق الهزيمة بآزكابوتزالكو والتيبانيكس، ومن التحالف الثلاثي نشأت فيما بعد إمبراطورية الأزتك.

1440 - 1469: موتيكوزوما إيلهويكامينا يحكم خامس تلاتوآني.

1469 - 1481: آكساياكاتل يحكم سادس تلاتوآني.

1473 - : قبائل المكسيكا في تينوشتيتلان يغزون تلاتيلولكو.

---

(1) هذا التسلسل تقريبي.

(2) Tlatoani (تلاتوآني) ملك لشعب الأزتك.

1474 ـ : وفاة نيتزاهوال كويوتل، حاكم تيزكوكو، وكان شاعراً وفيلسوفاً.

1481 ـ 1486: تيزوك يحكم سابع تلاتوآني في تينوشتيتلان.

1486—1502: آهويتزوتل يحكم كثامن تلاتوآني.

1502—1520: موتيكوزوما إكسوكويوتزن يحكم تاسع تلاتوآني.

1519: يصل هيرمان كورتيز والإسبان إلى شاطئ خليج المكسيك بالقرب من مدينة فيراكروز (حالياً)، ويتحالفون مع السيمبوآلان والتلاكسالان ويغزون شولولا، ويواصلون طريقهم عبر حوض المكسيك، ويدخلون مدينة تينوشتيتلان ويحلون ضيوفاً على موتيكوزما إكسكويوتزن.

1520: يعود كورتيز أدراجه نحو الساحل كي يعترض سبيل قوة إسبانية طارئة جاءت من كوبا بهدف اعتقاله. ويقوم القائد العسكري بيدرو آلفارادو بمهاجمة نبلاء من الأزتك وقتلهم أثناء احتفال كبير عند المعبد الكبير. يموت موتيكوزوما ويحكم كويتلاهواك مدينة تينوشتيتلان لمدة قصيرة، ويقود هجوماً يؤدي لطرد الإسبان والتلاكسكالان خارج المدينة، وذلك قبل أن يموت متأثراً بمرض الجدري.

1521: يفرض الإسبان والتلاكسكالان حصاراً على تينوشتيتلان ويغزون المدينة. ويحقق الأزتك آخر صمود لهم في منطقة السوق في تلاتيلولكو. ويستسلم كواتيموك، آخر تلاتوآني ويسلم تلاتيلولكو إلى كورتيز في 13 أغسطس.

1531: تظهر عذراء جوادالوبي لجوان دييجو في تيبياك.

الفصل الأول

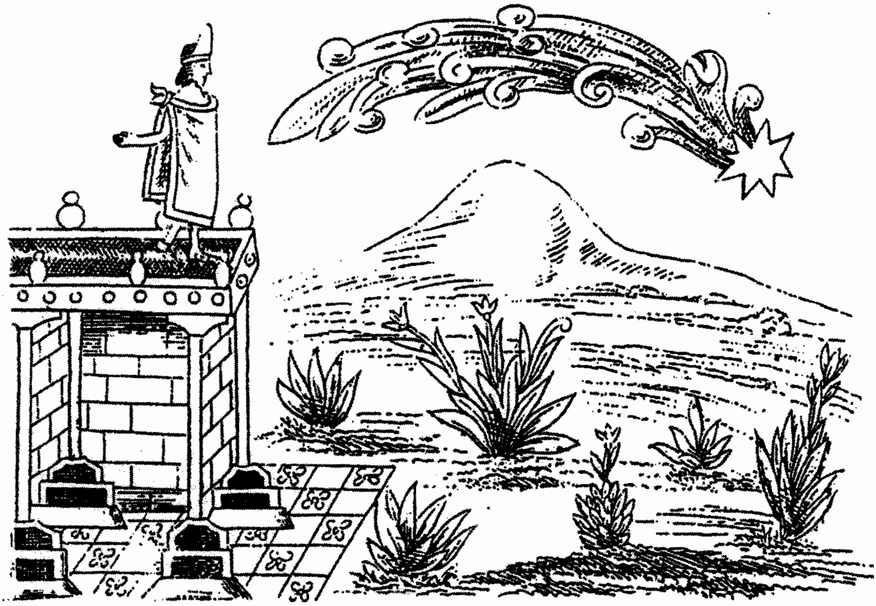
سيماناواك: أرض محاطة بالماء

تشكل الجبال العمود الفقري لهذه الأرض، وهي تمثل تخوماً ثلاثاً لتلك القلعة الطبيعية في أمريكا الوسطى. وتوجد تلك التخوم على شكل جبل أوسط في جنوب ـ وسط المكسيك، وجبل جنوب المكسيك، وثالث يقع في الجزء الجنوبي الشرقي من المكسيك وجواتيمالا. ولطالما عدَّ الجبل الأوسط أهم تلك التخوم، من الناحيتين الاقتصادية والسياسية. ويشبه ذلك الجبل في تكوينه، أحد الأهرامات التي بناها سكانه الأوائل، فيمتاز بقممه الشاهقة، ويطل منه جرفان أحدهما شرقي والآخر غربي، على سواحل ضيقة تمتد نحو سهل واسع تحيط به قمم حصينة تكسوها الثلوج تسهر على حمايته، وتحمل أسماء سيتلالتيبيتل وإيزتاسيهواتل وبوبوكاتيبتل. يتألف هذا الهرم الأوسط من عدة أقسام تفصل فيما بينها حواجز جبلية، ويشكل القسم الأوسط وادي المكسيك، قلب أمريكا الوسطى.

إيريك وولف(1)

في ليلة 11 «موت»[1]، من أواخر الصيف، في العام 13 «السكين الصوان»، صعد نيزاهوالبيلي (الأمير الصائم) إلى سطح قصره. وكان ذاك الرجل هو تلاتوآني (حاكم أو ملك) مدينة الأزتك تيزكوكو. وقد رافقه علماء الفلك في القصر من أجل مراقبة النجوم. وبعد أن بللت أمطار المساء المدن والبلدات المحيطة بالبحيرات الخمس وسط الحوض الكبير، بدت السماء صافية، وأدرك رجال الحاشية أنها ستكون ليلة مناسبة لمراقبة السماء. وكما كان حال أبيه الشهير نيزاهواكويوتل (كويوت الصائم)،

(1) يتكون تقويم الأزتك من دورة 365 يوماً تسمى كزيوفالي (الإحصاء السنوي)، ودورة أخرى شعائرية تتكون من 260 يوماً تسمى «تونالبوهوالي (الإحصاء اليومي) ويشكلان معاً القرن الذي يتكون من 52 سنة، ويعدّ التقويم الأول التقويم الزراعي بما أنه يقوم على حركة الشمس، في حين يسمى التقويم الثاني «التقويم المقدّس». وكل يوم في هذا التقويم يشار إليه برقم من 1 إلى 13 وبجانبه إشارة مرسومة من الإشارات العشرين والتي تشير كل إشارة منها إلى أمر معين. فتبدأ الأيام بـ 1 «حوت»، يليها 2 «ريح»، ثم 3 «بيت» وهكذا دواليك.



حاكم أزتكي يراقب مذنباً عابراً من على سطح قصره (دييجو دوران، مخطوطة دوران. مكسيكو سيتي: آريندورا انترناسيونال 1990، صورة طبق الأصل).

وهو الملك الشاعر ـ الفيلسوف الذي توفي في عام 1474، استقى نيزاهوالبيلي المعرفة والإلهام من خلال تحركات أجرام سماوية محددة وعلاقاتها ببعضها بعضاً. وفي حقيقة الأمر، اعتمد في اتخاذ معظم قراراته وبرامجه الحكومية المهمّة، إلى حد كبير، على إشارات ومعلومات، استقاها هو وعلماء فلك يعملون في بلاطه، من خلال مواقع النجوم والدورة القمرية، ومن المذنبات وحركة الشمس وكوكب الزهرة في موازاة الأفق وعبر السماء.

وكسواه من حكام الأزتك، كانت لديه قناعة كونية وإيمان راسخ بأن الطبيعة ومصيره ومصير أبناء شعبه متضافرون مع آلهتهم (تيتيو) العديدة، والتي أقامت ضمن القوى الطبيعية الوفيرة القريبة والبعيدة. وتخبرنا رواية تاريخية أن حاكم مدينة تيزكوكو كان عالم فلك خَبِر أنماط الأجرام السماوية، وكثيراً ما دعا إلى قصره علماء آخرين من أجل تبادل المعلومات بشأن السماء، وكانوا يراقبون معاً النجوم ويتناقشون في قضايا فلكية. وفي تلك الليلة، كان نيزاهوالبيلي يراقب حركة القمر أو كوكب

الزهرة، أو يتتبع سير مجموعة من النجوم أسموها تيانكوتيزلي (موقع السوق)، وتعرف في حاضرنا باسم مجموعة الثريا، وهي في طريقها نحو السَّمت (أكثر مواقعها عمودية في السماء). وقد تمت تلك الملاحظات عن طريق ربطها بتقويم الأزتك، والذي استخدم لإبقاء المجتمع والكون في حالة تزامن دائم.

في الليلة ذاتها، أي في 17 سبتمبر1492، في التقويم الأوروبي، وعلى بعد أكثر من ألفي ميل، تخبطت ثلاثُ سفن كانت في طريقها، عبر المحيط الهائج، نحو البحيرات وموقع قصر نيزاهوالبيلي، وضلّت طريقها. وقد أمضى القبطان كريستوبال كولون (كريستوفر كولومبس) ورفاقه معظم أوقاتهم في مراقبة النجوم، وهي النجوم نفسها التي تابعها حاكم تيزكوكو. كما سعى الإسبان للحصول على نوع آخر من الإرشاد عبر النجوم، وهو الملاحة الفلكية. وكانوا قد انطلقوا من بالوس في إسبانيا، بتاريخ 3 أغسطس بحثاً عن طريق غربية توصل إلى الأنديز، حيث لابدّ من أن تؤدي اكتشافات حديثة وفرص تجارية لبسط نفوذ إسبانيا وسلطانها على العالم.

وقد توقفت السفن الثلاث، وهي نيريا وبينتا وسانتا ماريا، لبعض الوقت على ساحل جزر الكناري، ثم أبحرت من جديد بتاريخ 9 أغسطس نحو الغرب، مستهدية بما يسمى «خط العرض الدائم»، ودليلها هو النجم القطبي. لكن، في تلك الليلة، حدث شيء غريب. فقد اضطرب البحارة، أثناء تطبيقهم نظام الملاحة الفلكية، عندما وجدوا أن مؤشر البوصلة لم يترافق مع النجم القطبي مثلما هو متوقع. وعلى غرار ما جرى عندما تناقش نيزاهوالبيلي مع علماء الفلك في مدينة تيزكوكو، تباحث كولومبس مع بحارته حول معنى انحراف البوصلة. وقد انتابهم قلق كبير، لكن كولومبس أمرهم بتكرار قياساتهم في الصباح الباكر. وعندما تبين أن مؤشر البوصلة مع النجم القطبي كان صحيحاً، أدرك أن النجم القطبي في حالة حركة، وأعلم بحارته فهدأوا.

وبعد ثلاثين عاماً، التقى أبناء أولئك البحارة مع مراقبي النجوم في إحدى أهم اللحظات والمواجهات في تاريخ العالم. فقد تم تبادل الهدايا والمعلومات واللغات والأطماع، ونشوب معركة أدت لانهيار العاصمة تينوشتيتلان، وزعزعة استقرار إمبراطورية الأزتك. وقد التقى الجانبان على أطراف إمبراطورية الأزتك ووسطها،

وهو عالم ضمّ أكثر من خمسة ملايين نسمة أقاموا في قرابة أربعمائة مدينة وبلدة ضمن منطقة فاقت مساحتها أراضي إسبانيا وفرنسا وإنجلترا مجتمعةً. وقد وقعت أحداث ذلك اللقاء، التي سنرويها في نهاية هذا الكتاب، بشكل رئيس داخل مدينة تينوشتيتلان، موطن موتيكوزوما وأسلافه.

إن معظم القصص التي تروى عن شعوب وثقافات الأمريكتين تبدأ مع وصول الأوروبيين إلى العالم الجديد، سواءً في عام 1492، أو 1519، أو 1534. لكن هذه البداية مع وصول كولومبس إلى اليابسة، أو من لحظة المواجهة بين كورتيز وقبائل المايا في يوكاتان، أو لدى وصول بيزارو إلى بيرو، تقوم على مبالغات كبيرة وتكريس فضل المبادرات (الاكتشافات) الأوروبية، والمشاريع الاستعمارية. لكن شعوب أمريكا الأصليين عملوا في شتى المجالات وحققوا إنجازات قبل تلك التواريخ، في حقول الزراعة والرسم والفلك والحرب والغناء والحب، وخصصوا جوائز قيمة لفنون الشعائر الدينية. ومن هذا المنطلق، ويسعى هذا الكتاب لتسليط الضوء على حضارة الشعوب الأصلية لأمريكا، ولوصف عاداتهم وتنوير العالم بأساليب حياتهم اليومية. وإننا نركز في كتابنا على أحد تلك الشعوب الأصيلة، وهم الأزتك.

وفي حقيقة الأمر، أنشأ الأزتك إحدى أهم وأقوى إمبراطوريتين في نصف الكرة الغربي قبيل وصول الأوروبيين في القرن السادس عشر. كما وصفوا عاصمتهم بأنها «ملكة جميع المستوطنات»، وقد وصفها الإسبان بأنها مكان ينتمي إلى عالم الأساطير. إننا نتجه الآن إلى الحوض الطبيعي العظيم الذي أحاط بالعاصمة، حيث جلس نبلاء الأزتك يراقبون النجوم في سنة 13 سكين حادة.

الهرم والوعاء الأخضر المائل إلى الزرقة

ما هو الوعاء الصغير الأخضر المائل إلى الزرقة المملوء بالفشار؟ لا بدّ من أن يخمّن شخص ما أحجيتنا هذه. إنه السماء.

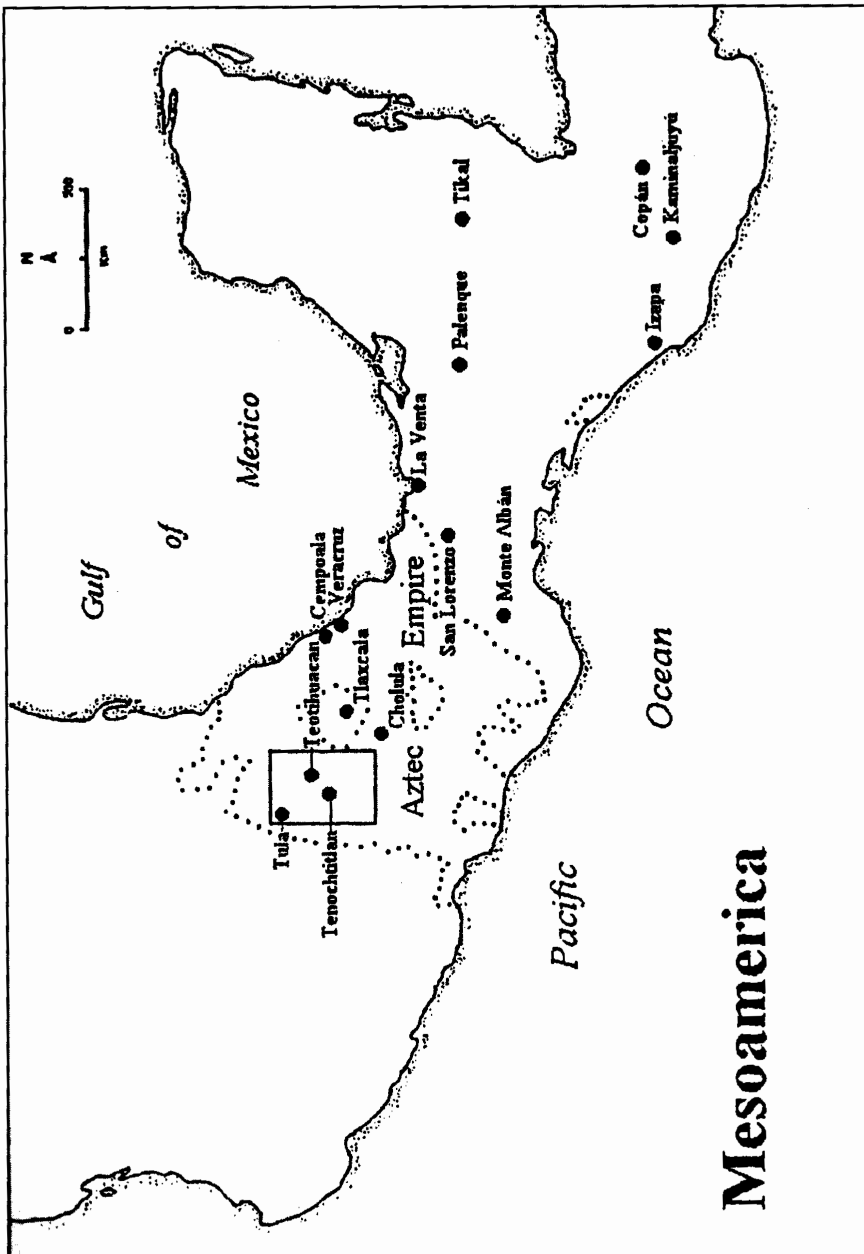
أحجية أزتكية

أنشئت عاصمة الأزتك في وسط حوض أيكولوجي واسع، يقع أعلى هرم جغرافي هائل تنحدر جوانبه تدريجياً نحو سهول أمريكا الوسطى والمحيطات. وقد هاجرت قبائل الأزتك إلى هذا القسم من أمريكا الوسطى خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وأطلقت على عالمها الجديد اسم سيماناواك أو «الأرض المطوّقة بالماء». ولم يقتصر الأمر على تمركز عاصمتهم على سطح جزيرة تقع وسط مجموعة من البحيرات الواسعة، بل إن المكسيكا، كما أسموا أنفسهم، أدركوا أن كتلاً هائلة من المياه، وهي المحيط الهادئ، وخليج المكسيك، والبحر الكاريبي، قد أحاطت بإمبراطوريتهم التي حكموها لاحقاً.

يستخدم هذا الفصل صورتي هرم ووعاء أخضر مائل إلى الزرقة، كوسيلة لتسهيل نقل المعلومة حول المحيط الجغرافي والتاريخي للأزتك(2). تخيل أمريكا الوسطى كهرم، وانظر إليه من خلال التقسيمات التالية. عاش الأزتك عند قمة هرم جغرافي، وقد أثرت هذه الحقيقة الطبيعية على تاريخهم وأسلوب عيشهم وإنجازاتهم وهزائمهم، كما تم تنظيم شعوبهم وفق هرمية اجتماعية، شكلت فيها أعدادٌ كبيرةٌ من العمال الزراعيين وأُسَرَ العامة القاعدة الاقتصادية للمجتمع. وقد دعمت هذه الفئة السكانية الواسعة التنوع طبقة وسطى أصغر شكلها التجار والمقاتلون ورجال الدين.

وعند قمة هذا المجتمع وُجِدَتْ طبقة نافذة أصغر حجماً، لكن عدد أفرادها ليس بالقليل، وهي طبقة النبلاء وكبار المحاربين والفنانين والكهنة، وعلى رأسهم الحاكم وحاشيته. كما تساعدنا هذه الصورة الهرمية في فهم السمة الاحتفالية والشعائرية لهذا المجتمع؛ لأن معظم التجمعات الأزتكية أُنشِئَتْ حول مراكزَ احتفالية مثيرة للإعجاب هيمن عليها معبد على شكل هرم. وقد كانت تلك البنية القائمة على شعائر وطقوس دينية عماد السلطة العمرانية والدينية، والتي تواصل عبرها الكهنة (والكهنة– الحكام مع الآلهة)، وأداروا حياة أتباعهم ممن يعيشون في مستوى أدنى ضمن الهرمية الاجتماعية.

في هذا السياق، تنقل لنا أحجيات وقصائد قديمة أن الأزتك وجيرانهم، اعتبروا السماء فوقهم، والسهل الواسع المرتفع الذي أقاموا فوق سطحه، والمحاط من جميع



خريطة أميركا الوسطى

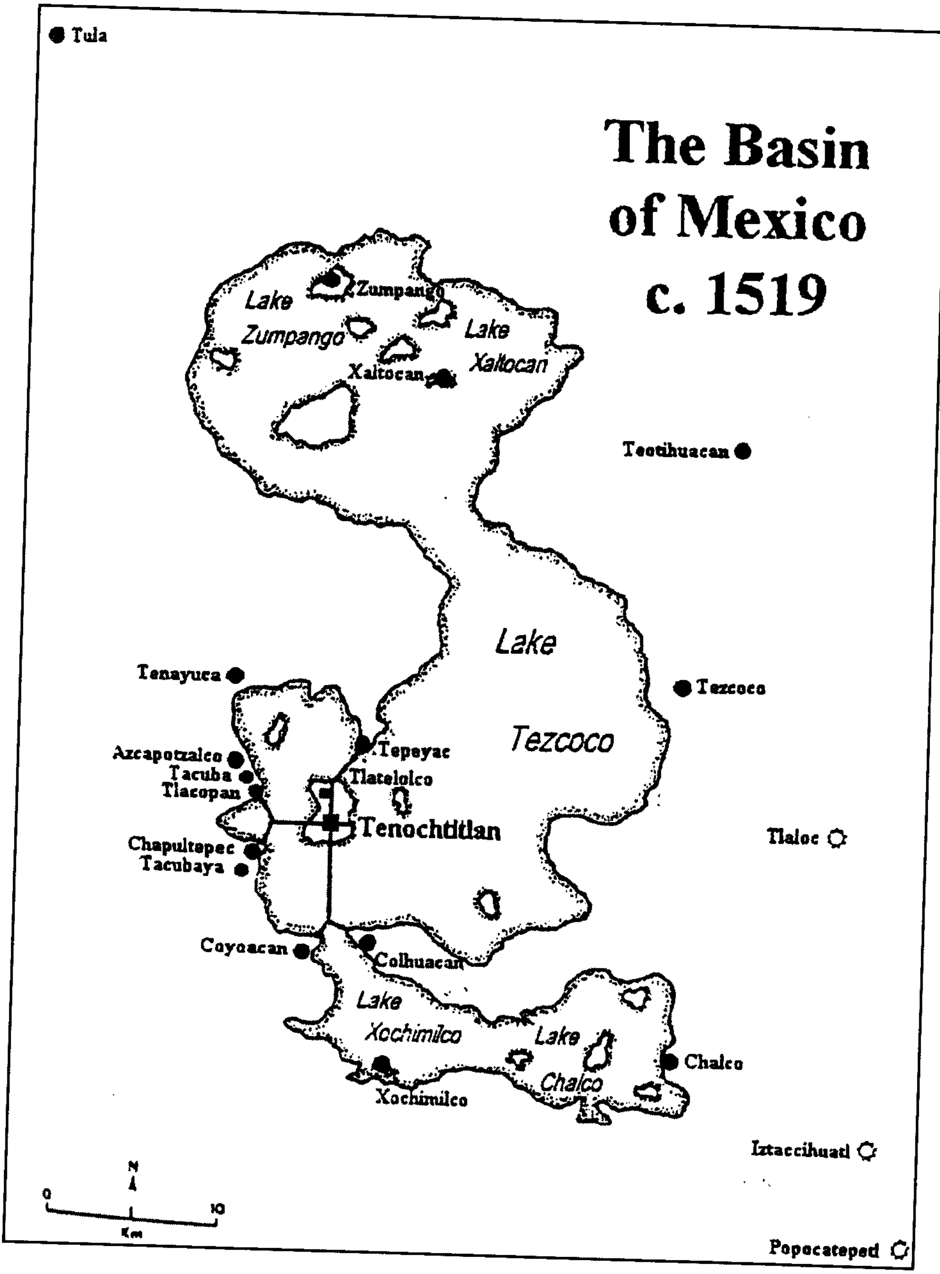
جوانبه بهضاب وجبال، بوصفها أوعية خضراء مائلة إلى الزرقة تحوي المياه الواهبة للحياة والشمس المنيرة للكون.

وفي بعض الأوقات، شبهت الجبال من حولهم بجرار من الماء، وعدّت الوديان التي جرت فيها مياه تلك الجبال أوعية واهبة للحياة. وفي عهد الأزتك، غطت المنحدرات العالية غابات خضراء من أشجار الصنوبر والراتينج (شجرة من الفصيلة الصنوبرية) والسدر والدردار. وإن حكاية هجرة الأزتك إلى ذلك السهل المرتفع بوديانه العديدة المترابطة، حكاية آسرة.

وكما ورد في تاريخهم المقدس، عاشت قبائل المكسيكا قديماً في آزتلان («موطن طائر مالك الحزين الأبيض»)، وهي جزيرة أحاطت بها المياه بعد أن برزت من شيكوموزتوك («موطن الكهوف السبعة»). ووفقاً لروايتهم ورسومهم، يعود أصلهم الأسطوري إلى الإله هيوتزيلوبوشتلي (الطائر الطنان)، وقد برز في الأحلام لقائدهم، وكلّمه من مكان بعيد، وأشار عليه بأن يأخذ قومه لكي يجدوا مكاناً جديداً لهم. وقد نظموا أنفسهم، مستلهمين بأوامر ذلك الإله، وأعدوا العدّة لرحلة طويلة، وعبروا البحيرة، وبدأوا رحلة هجرة شاقة امتدت لأكثر من قرن تخللتها صعوبات وعجائب ومفاجآت. وفي نهاية الرحلة، صعدوا عبر الهضاب الحرجية والجبال المحيطة بحوض المكسيك العظيم، ثم نزلوا نحو الوديان واقتحموا مدناً، وتفاعلوا مع ثقافات وجدت قبل أكثر من خمسة عشر قرناً.

وكما وعدهم، برز لهم الإله في صورة صقر ضخم حطّ فوق شجرة صبّار مزهرة وسط البحيرة. وعند ذاك، أدركوا أنهم وصلوا إلى أرضهم الموعودة. لقد هاجروا ضمن أشد الأنظمة البيئية حيوية وتعقيداً وصعوبة في الأمريكتين.

يشكل حوض المكسيك الركن الجغرافي الرئيس لأرض الأزتك، وهو سهل مرتفع تحيط به من جميع جوانبه سلسلة من الجبال والهضاب. ويرتفع هذا السهل قرابة 2,236 متر عن سطح البحر، ويمتد على مساحة تصل إلى 120 كيلومتراً من الشمال إلى الجنوب، وعلى مساحة 80 كيلومتراً من الشرق إلى الغرب. ويحدّ الحوض من جهة الشرق جبلان من أهم المرتفعات في الأمريكتين، وهما براكين ايزتاكسيآتل المغطاة بالثلوج، وجبل



خريطة حوض المكسيك في عام 1519

بوبوكاتيبتل، الذي ترتفع قممه لأكثر من ستة آلاف متر فوق سطح البحر. ويحد الحوض من الشمال، جبال أقل ارتفاعاً، وهي قريبة من زاكاتيكاس وجواناجواتو، ومن الغرب جبال سييرا مادري، ومن الجنوب جبال سييرا آجسكو غير البركانية. وفي زمن الأزتك، شكل الحوض نظاماً بيئياً مستقلاً، حيث ضخت ينابيع جبلية على الدوام الماء المذاب من ألأمدية الثلجية العالية، كما جرت مياه الأمطار الصيفية، والتي تمتاز بغزارتها أحياناً، نحو بحيرات مترابطة، شكلت في بعض الأوقات، شريطاً مائياً من مستويات ليست شديدة التباين. وقد وفرت تلك البحيرات الضحلة، والتي لم يزد عمقها عن متر إلى ثلاثة أمتار، للسكان وسيلة للنقل والتواصل. كما أثرت البحيرات في الجوانب السياسية والدينية والاجتماعية والتجارية في حياتهم. لكن، في سنوات الجفاف، كانت البحيرات تنكمش إبّان الفصول الجافة، مولّدة صعوبات في الانتقال والتواصل؛ لأن السكان المقيمين في المنطقة اعتمدوا على قوارب الكنو[1] والمراكب الكبيرة في ممارسة نشاطهم التجاري وتبادل المعلومات.

وقد امتازت مياه بحيرتي إكسالتوكان وإكسومبانجو الشماليتين والأعلى نسبياً، بمياه عذبة، في حين صبّتا مياههما في بحيرة تيزكوكو المالحة، وهي البحيرة الوسطى والأكبر مساحة. كما صبت مياه الينابيع والأمطار في بحيرتين جنوبيتين، وهما إكسوشيميلكو وشالكو. وقد غطت النباتات بحيرة إكسوشيميلكو قبل وصول الإسبان. وبمرور السنين، استنزفت تلك البحيرات، رغم بقاء بعض ملامحها إلى هذا اليوم، مما يوفر للطلبة والسياح الزائرين لإكسوشيميلكو فرصة التنقل في قوارب على الطراز الأزتكي عبر حقول شينامبا، أو ما أسماه الإسبان «الحدائق العائمة»، ومن خلف البحيرات، تخللت السهل المرتفع سلسلة من الوديان أحاطت بأحواض وسهول أصغر.

ورغم هذا المظهر لعلاقة آمنة بين الجبال والبحيرات، عانى الأزتك دورة بيئية غير مستقرة ولا منتظمة، إذ بدلاً من تبدل أربعة فصول ـ الربيع ـ الصيف ـ الخريف والشتاء، خلال العام، لا يعرف حوض المكسيك وباقي أجزاء أمريكا الوسطى، سوى

(1) الكنو: زورق طويل خفيف ضيق يقاد بمجذاف.

فصلين، وهما الفصل الماطر والفصل الجاف. ومن المهم إدراك هذه الحقيقة البيئية من أجل فهم ضغوط العمل والعادات الاجتماعية والممارسات الدينية للأزتك. لقد عاشوا في عالم تأرجح بين مراحل وفرة وغنى، وأخرى محدودة الموارد، وبين فصل ماطر بغزارة وآخر جاف يسوده قحط شديد. ورغم ذلك، استطاعوا تطوير نظام زراعي غذّى إحدى كبريات العواصم في العالم، خاصة بين عامي 1470 و 1521.

لقد طوّر أولئك السكان نظاماً حقق وفرة غذائية لقرابة 1,5 مليون نسمة (في منطقة الحوض)، بمن فيهم جيوش ورجال دين وأتباعهم، ومسؤولون حكوميون ونبلاء أثرياء. وقد انعكست أهمية الأمطار في الحفريات الأخيرة في وسط مدينة مكسيكو، حيث أماط علماء آثار اللثام عن محيط المعبد الرئيس للأزتك، والذي أسموه تيمبلومايور، أو المعبد الكبير. فقد اكتشف علماء آثار مكسيكيون، تحت أرضية المعبد، تماثيل وهبات قدمت إلى إله المطر، تلالوك (من يجعل النباتات تعلو وتظهر للعيان). كما تظهر وفرة تلك الأشياء، إلى جانب لوحات عن قرابين شعائرية قدمت على شرف تلالوك، مدى سعي ذلك الشعب لإكرام قوى المطر والزراعة والماء وتقديسها.

نستطيع فهم التحديات التي واجهها أولئك السكان عندما نعلم أن 80٪ من أمطارهم السنوية تهطل خلال الأشهر الممتدة من يونيو إلى أكتوبر، تتبعها برودة وصقيع يمتدان من نوفمبر إلى فبراير. وفي بعض الأوقات، كان الصقيع القاتل يأتي باكراً في شهر سبتمبر، أو متأخراً في مايو، متسبّباً بمصاعب جمّة في مجالي زراعة الأشجار والخضراوات أو حصاد ثمارها. كما أن الأمطار بغزارة أدت، غالباً، لإغراق الوادي الأوسط في شهر مايو، لكنها تأخرت أحياناً إلى منتصف يونيو. وفي الوقت الحاضر، يبلغ معدل الأمطار السنوية 450 ملليمتراً (18 بوصة) في القسم الشمالي من الحوض، و800 ملليمتر (32 بوصة) في القسم الجنوبي. ولذا تركزت أكبر مشكلة واجهها المزارعون في توقيت موسم الإنبات لتجنب الصقيع المدمر. وقد تمثلت الظروف المثالية على شكل مطر خفيف خلال شهري أبريل ومايو، بحيث يؤدي الإنبات المبكر لنمو ثمار الذرة بحلول سبتمبر، قبل أن يأتي صقيع أكتوبر ويقضي عليها. وكما سنرى لاحقاً، بذل الأزتك جهوداً فائقة لتوقيت مدة الإنبات، لكنهم

اعتمدوا أيضاً على مجموعة كبيرة وعجيبة من القوى المقدسة من أجل مؤازرتهم.

الذرة والإبداع

ما الشيء الذي ينحني فوق رؤوسنا في جميع أنحاء العالم؟ إنها شُرّابة الذرة.

أحجية أزتكية

شكلت تربة الحوض الكبير نقطة ارتكاز رئيسة في إنجازات الأزتك الزراعية، والتي كانت، لحسن الحظ، خصبة، خاصة في بعض مناطقها. كما عدت الأرض، باعتقادهم، كائناً مقدساً، وإلهاً منتشراً وعظيماً، أو عدة آلهة مختلفة (أو عدة أوعية مختلفة) وفرت الغذاء للبشر كما ضمت رفاتهم. ولم يُنَمِّ الأزتك المحاصيل وحسب، بل آمنوا، كما سنرى لاحقاً، بأنهم خلقوا من أرواح تلك المحاصيل، خاصة إله الذرة. وفي النص التالي، نأخذ فكرة عامة عن هذه العلاقة البشرية/الزراعية من قصة خلق المايا في (البوبل فاه[1])، حيث ورد في القصة المأثورة «خُلِق جسدا أبينا وأمنا الأوليين من الذرة البيضاء والصفراء فحسب. لقد تشكلت أذرع وسيقان الإنسان من الغذاء فقط». وهكذا شكّل عنصر السيطرة على طاقة الغذاء المختزنة في النباتات أحد أهم الأحداث الثقافية والاجتماعية في تطور الحياة قبل عصر الأزتك، كما كان ركناً أساسياً في الحياة اليومية لأسر المكسيكا. وقد بدأ منذ 6500 عاماً ق.م. توطين عدة أنواع من المزروعات، كما ازدهرت الزراعة بحلول عام 2000 ق.م. في عدة مناطق داخل حوض المكسيك وما حوله. وفي تلك الفترة، اعتمد قدماء السكان في أمريكا الوسطى على ثلاثة محاصيل زراعية، وهي، الذرة والحبوب والبقول. وقد وفرت تلك المجموعة المهمة من المنتجات الزراعية، عند استهلاكها معاً، لسكان أمريكا الوسطى الأصليين، مزيجاً من البروتين الأساسي لغذاء متكامل. لكن قبل ظهور الأزتك بآلاف السنين، كان المحصول الرئيس في أمريكا الوسطى (وما زال) هو الذرة، البيضاء والسوداء والحمراء والصفراء. وإن أكثر الأنواع إنتاجية من الذرة يتطلب نضجه

(1) Popul Vuh: أي «كتاب الجماعة» أو «كتاب المجلس»، وهو مجموعة المرويات التي اكتشفت في القرن السابع عشر، في غواتيمالا، وهي في غالبيتها كناية عن أساطير الخلق لدى مملكة كيتشي.



الإنتاج الزراعي والغذائي في حوض المكسيك

يقوم الرجال الظاهرون على يمين اللوحة بزراعة وحصاد نبات الذرة، فيما تقوم النساء الظاهرات إلى يسار الصورة بطحن وصنع الكعك المحلى من دقيق الذرة. ويبدو من خلفهم ممثل لإله يرتدي زياً مشابهاً لزي إلهة الذرة. وتمتد عبر البحيرة صفوف من أراضي الشامبا إلى مسافات طويلة. كما يمكن مشاهدة بركانين هائلين في أعلى الصورة، وهما بركانا بوبوكاتيبل(الجبل الدخاني) وايزتاسيهواتل. والصورة مأخوذة من لوحة جدارية للفنان دييجو ريفيرا معروضة داخل القصر الوطني في مكسيكو سيتي. (بإذن سكوت سيشينس).

وحصاده مدة ستة أشهر، لكن بعض أنواعها لا يستغرق نضجه أكثر من أربعة أشهر.

وقد واجه الأزتك مشكلة تمثلت في ضعف مقاومة الذرة للصقيع، خاصة أنها نمت سابقاً في مناطق خطوط عرضها أقل من خط عرض الحوض. وكان من نتيجة ذلك أن أدّى تأخر موسم الأمطار أو حدوث الصقيع باكراً، لتعطيل موسم الإنبات وزعزعة الوضع الاقتصادي للأزتك. وفي حقيقة الأمر، تخبرنا الوثائق المتوافرة أن مواسم جفاف قاتلة ومجاعات أصابت الأزتك قبل العقد الخامس من القرن الخامس عشرَ، وما بعده بسنوات، وذلك خلال حكم موتيكزوما الأول (موتيكزوما إيلهوكامينا). كما ورد في أحد التقارير أن بعض الأزتك باعوا أنفسهم للتوتانيك مقابل أربعمائة كوز من الذرة للمرأة الشابة، وخمسمائة كوز للعامل الذكر. كما اضطرت بعض الأسر، خلال تلك الفترات، لبيع أطفالها عبيداً، ومن ثَمَّ شراؤهم ثانية عند عودة الوفرة الاقتصادية. وعند توافر المحاصيل بانتظام، كان النظام الزراعي نموذجاً للاستقرار والإنتاجية.

وفي هذا السياق، يقول أحد الباحثين:

«انتشر نظام ريّ المزروعات في الوادي والمناطق المرتفعة المجاورة. وقد شُقّت قنوات لنقل الماء العذب من الجداول والبحيرة إلى الحقول في الوادي، كما فرض على المزارعين العمل على تنظيف القنوات. وفي حديقة موتكوزوما في هواكستيباك، كانت أساليب الري متطورة إلى درجة أن السكان زرعوا محاصيل استوائية مثل الفانيليا (نبات أمريكي استوائي عطر)، والكاكاو تحت إشراف أربعين مزارعاً، مع أسرهم، جلبهم الحاكم من مناطق حارة نمت فيها تلك المحاصيل. لكن، في مناطق أخرى قاحلة، استحال إنبات محاصيل دون ري، خاصة في الأراضي الجافة حول منطقة ريو بالساس في غرب المكسيك؛ لذا اضْطُرَّ السكان لحفر القنوات، أو بذر حبوب الذرة فوق أراض تغرقها المياه سنوياً»(3).

المعرفة: مصادر معلوماتنا

قبل بضع سنوات، نشرت مجلة «لايف» عدداً حول أهم خمسة وعشرين حدثاً في تاريخ البشرية. وكان أحد تلك الأحداث غزو مدينة مكسيكو سيتي/تينوشتيتلان من قبل الإسبان في عام 1519. وقد أشارت المجلة إلى أن الكاتب الإسباني، فرانسيسكو لوبيز دي جومارا، اعتبر اكتشاف العالم الجديد بمثابة ثاني أهم حدث في تاريخ الإنسانية، وذلك بعد ولادة المسيح عليه السلام. كتب دي جومارا: «إن أهم حدث بعد ولادة المسيح، هو اكتشاف الأنديز، والذي سمي باسم العالم الجديد». ولكنّ باحثاً آخر، وهو كورنيليوس دي باو وصف اكتشاف العالم الجديد بأنه «أشد الأحداث مأساوية في التاريخ البشري».

ومن الطبيعي أن يصنّف أتباع بوذا وكونفوشيوس، وغيرهما من زعماء الديانات والثقافات القديمة، ترتيب الأحداث بشكل مختلف. لكن من المهم الإشارة إلى أن الحياة اليومية للأزتك تمثل جانباً مهماً في تطور المعرفة الإنسانية في تاريخ البشرية. وإننا ندرك أن اكتشاف العالم الجديد، والتفاعل مع شعوب الكاريبي وأمريكا الوسطى، خاصة مع حضارات المايا والإنكا والأزتك، قد أدهشت العلماء والباحثين والحكام والمواطنين الأوروبيين. وقد اضطر هؤلاء للاعتراف بأن «خرائطهم» عن العالم ودروسهم اللاهوتية ومعرفتهم الجغرافية وقواهم السياسية، كانت وسائل محدودة للتفاهم والهيمنة. وعندما وصلت أخبار الأزتك وجيرانهم إلى أوروبا عن طريق سفن حملت أفراداً وسلعاً وأفكاراً من الأمريكتين، اضطر الأوروبيون لطرح أسئلة مثل: «هل هؤلاء بشر؟»، و«هل ينحدرون من صلب آدم وحواء؟»، و«هل من الممكن تحويلهم إلى المسيحية؟»، و«هل نستطيع شنّ حروب مشروعة ضدهم؟».

وفي القرن السادس عشر، كان من الصعوبة بمكان الحصول على معلومات حول الأزتك. وما زلنا بحاجة إلى رسم خطة دراسية فعالة من أجل الاستفادة من المعلومات والمصادر المتوافرة. قال شاهد عيان قدم من أوروبا، إنه وجد عدداً من الأهرامات والنصب التذكارية ومراكز مزخرفة خاصة بالاحتفالات على قمة الهرم الجغرافي في أمريكا الوسطي وجوانبه. كما وُجد في كل مدينة وتجمّع أزتكي مركز شعائري

تكون من معبد مقدس ومسكن للحاكم وتيانكويزتلي، أو موقع السوق. وقد أدار المركز الشعائري شؤون الحياة اليومية، ووفر للسكان الفرصة لكي يتواصلوا ويتبادلوا الأفكار بشأن حياتهم اليومية وسياسات زعمائهم، ولكي يتواصلوا مع آلهتهم، الذكور منها والإناث، بواسطة الطقوس الدينية. ولسوء الحظ، تعرضت جميع تلك المراكز الشعائرية، خاصة أهم الأهرامات والمعابد، لهجمات الغزاة الإسبان والتي أدت لتدمير أجزاء كبيرة منها. وفي الواقع، دمرت أجزاء عديدة من العاصمة التي غطت مساحة قدّرت بستة عشر كيلومتراً مربعاً، واستخدمت بقايا المباني المدمرة لبناء العاصمة الإسبانية الجديدة في القرن السادس عشر. وعند الأخذ بعين الاعتبار حجم ذلك الدمار، كيف لنا أن نتعرف إلى الحياة اليومية لأسر الأزتك وأبنائهم ومدنهم وبلداتهم؟ لذا يجدر بالباحثين في بداية دراستهم طرح السؤال التالي: «ما المصادر المتوافرة التي يمكن الاعتماد عليها لإعادة بناء عالم الأزتك ونشاطاتهم اليومية، وأساليب تعليمهم وحروبهم وتربيتهم لأبنائهم، وألعابهم وتضحياتهم وأزيائهم وموسيقاهم وقوانينهم؟ من أين لنا أن نبدأ؟ وكيف لنا الحصول على تلك المعلومات في ظل الغزو والأمراض والكوارث الاجتماعية التي حلّت بالأزتك في القرن السادس عشر؟».

لكن، لحسن حظ الطلبة، وبالرغم من الدمار المادي للمدينة ومبانيها، ما زالت هناك مجموعة غنية من الآثار والنصوص والصور، فضلاً عن أدلة حية تكشف عن جوانب الحياة اليومية والعامة لشعب الأزتك. وتشكل تلك المجموعة من الأدلة أنواعاً متعددة ومختلفة من الشواهد. كما تتوافر لدينا مجموعة من الكتب المرسومة، وقطع أثرية لا تعدّ ولا تحصى تكشف عن هبات شعائرية سخية، وتماثيل وسجلات مكتوبة بأيدي الأزتك والإسبان والأفراد المهجنين (من أبوين أحدهما أوروبي والآخر هندي أمريكي). وتقدم لنا تلك الأدلة وصفاً للأساطير والتواريخ والتقاويم والطب والحروب والآلهة والمعاملات التجارية اليومية.

وفي هذا السياق، سنركز على أربعة أنواع رئيسة من الشواهد، وهي الآثار واللوحات المصورة أو المرسومة، والوثائق الأثنولوجية (علم نشوء الأعراق) والمكتوبة. وسوف نعمل على تحليلها والاستفادة مما توافر لدينا من معلومات.

الحفريات الأثريّة: استخراج إلهة (معبودة) الأزتك

في ساعات الصباح الباكر، في 21 فبراير 1978، وبينما كان عمال من شركة الكهرباء يعملون على تمديد خطوط خلف الكاتدرائية الوطنية في مدينة مكسيكو سيتي، كشفوا عن جوانب حجر دائري ضخم تعلوه نقوش غير عادية. ولكن نظراً لخشيتهم من أن يعطل الاكتشاف عملهم، ويؤخر بالتالي تسلم أجورهم، قرروا إبقاء أمر الحجر سراً دفيناً. بيد أن مكالمة من مجهول وردت إلى المعهد الوطني لعلم الإنسان والتاريخ، أبلغت عن الاكتشاف، وهَرَعَ علماء الآثار نحو الموقع. وقد دهشوا عندما وجدوا أنفسهم يحدقون في أكبر وأهم تمثال اكتشف في الأمريكتين منذ اكتشاف التقويم الحجري الأزتكي في عام 1790. وسرعان ما أدرك العلماء العارفون بالميثولوجيا الأزتكية أن الحجر، وقطره يساوي 33 متراً، يحمل صورة الآلهة القمر، والتي قطعت إلهة الشمس أطرافها في حرب سماوية جرت أثناء تكوّن عالم الأزتك. وقد غطى رأسَ الآلهة غطاءٌ جميلٌ من ريش الصقور والديك الرومي، وقد حفر عند كل من ذراعيها وساقيها المبتورة أفاع لكل منها رأسان، وزينت بأحجار كريمة حمراء كلون الدماء. وقد أدى الاكتشاف لإجراء حفريات في كامل المنطقة، وبرز إلى النور، خلال السنوات الخمس عشرة اللاحقة، المعبد الكبير لعاصمة الأزتك، تينوشتيتلان.

وقد استخرجت أكثر من 135 هبة قُدّمت إلى الآلهة، وقد وضعت معظمها داخل صناديق حجرية، مما وفر أكثر من ثمانية آلاف قطعة أثرية.

وفي الوقت الحالي، تعد الآثار المكسيكية من أكثر المواقع البحثية والعلمية إنتاجية في العالم. وقد عمل، طوال القرن العشرين، علماء آثار مكسيكيون وفرق أجنبية على الحفر في أساسات مدينة مكسيكو سيتي، وفي مواقع أخرى مهمة في حوض المكسيك وما حوله. وقد أثمرت تلك الجهود إلى الكشف عن مراكز دينية وأهرامات، ومعابد وتماثيل ومدافن، وبقايا بشرية وحيوانية، وقد تمت تلك الاكتشافات في وسط العاصمة الكبيرة، وعلى أطرافها، وفي الوديان والجبال المحيطة بالحوض، وأدت لتغيير نظرتنا عن حياة الأزتك. على سبيل المثال، جرت حفريات وكشوفات قيمة عن حضارات

قديمة شكلت أهمية للأزتك، في مواقع مثل تيوتيهواكان، وهي مدينة تقع إلى شمال شرق مدينة مكسيكو سيتي، وقد شهدت ازدهاراً بدءاً من عام 150 ق.م. وحتى عام 750 ب.م. كما تم التنقيب في موقع تولا، وهو مركز شعائري يقع حالياً في ولاية هيدالكو، شمال مكسيكو سيتي. وقد ازدهرت تولا بين عام 950 إلى 1150 ب.م. وكانت تولا مركز «تولّلان العظيمة» وهي مملكة التولتيك، والتي ورث الأزتك تراثها، وبالتالي حقهم في الحكم.

تلقي تلك الكشوفات الأثرية وغيرها بعض الضوء على الأزتك، لأن حكامهم، بدءاً من آكامابيشتلي، الذي حكم من عام 1376 إلى عام 1396، وصولاً إلى موتيكوزوما اكسوكويوتيزن، والذي بدأ عهده في عام 1502، وكان في السلطة عند وصول الإسبان، قد نظروا دوماً إلى تراث أسلافهم، مستلهمين ثقافتهم وشرعيتهم في الحكم.

وفي الواقع، تكشف الحفريات في وسط مكسيكو سيتي، أن الأزتك أنفسهم كانوا علماء آثار. فقد ذهبوا إلى الأهرامات العظيمة في تيوتيهواكان بعد قرون من انهيار المدينة، واستخرجوا من باطن الأرض أشياء مقدسة، ونقلوها إلى عاصمتهم، حيث أعادوا دفنها كهبات لآلهتهم داخل حدود المعبد الكبير في تينوشتيتلان.

وفي قسم لاحق من هذا الكتاب، سنرى صوراً لتماثيل وسنبحث في معاني الأوعية التي تحمل صوراً أو تمثال تماثيل أشخاص. كما سنرى صوراً وتماثيل لأقنعة دينية، وسكاكين القرابين، وعقوداً من اليشم (حجر كريم)، وكائنات وقواقع بحرية، وقرابين بشرية وتماثيل لآلهة العالم السفلي. وقد عثر على تلك التماثيل والقطع الأثرية في تلك المخابئ المملوءة بالصدقات والهبات. إن دراسة هذا المعبد وغيره من اللقى الأثرية، تساهم في تسليط الضوء، إلى حدٍ ما، على الحياة اليومية للأزتك. سنرى كيف كان المعبد الكبير مقراً للأحداث الأسطورية والقرابين البشرية، والابتكارات العمرانية والقرارات السياسية، والمكان الذي واجه فيه الأزتك الإسبان آخر مرة قبل سقوط المدينة.

بقاء الرماد: حكمة الأحمر والأسود

في عام 1535، أمر خوان دي زوماراجا، وكان أول أسقف إسباني في المكسيك (ورئيس الأساقفة، لاحقاً) بجمع المخطوطات المصورة لعاصمة الناهوا الثقافية، تيزكوكو، ومصادرتها. وقد علم زوماراجا، وغيره من رجال الدين، منذ وقت طويل، أن تلك اللوحات التاريخية المرسومة تصور الأحداث الكونية والتقاويم المكتوبة على جلود الحيوانات ولحاء الأشجار، وهي تصف أفكار السكان الأصليين وعاداتهم طقوسهم اليومية. وقد أصبحت تلك المخطوطات محطَّ شك وريبة شديدين، ولذا أمر زوماراجا، مثلما تشير بعض التقارير، بجمع مئات منها في موقع السوق في المدينة، وقام بإحراقها وتحويلها إلى رماد، ضمن شعيرة شرّعتها التعاليم المسيحية. ومن المحزن القول إنه، من بين مئات المخطوطات المصورة التي وجدت في المكسيك في عام 1521، وكانت تحمل معلومات ورموزاً لتقاليد يعود تاريخها إلى ما قبل ألفي عام، لم يتبق اليوم سوى ست عشرة مخطوطة. وقد استخدمت تلك المخطوطات المصورة، أو «كتب الحكايات» أسلوب الكتابة المصورة لإعطاء معلومات وصورة واضحة حول جميع جوانب الحياة. وعندما أتلفت تلك الكتب، اندثرت إلى حد بعيد، موروثات قديمة قيمة حول التعليم والمعرفة في حقول الطب والفلك والتاريخ والطبيعة وعلم الكونيات. كما تصف لنا مخطوطة نجت من الحريق الأهمية الثقافية والتربوية لتلك المخطوطات: «إن الرجل الحكيم أشبه بنور، شعلة مشعل، أو جذوة لا ينبعث منها دخان. إنه أشبه بمرآة مثقَّبَة. وتتكون أدواته من الحبر الأحمر والأسود، وهو يقدم المخطوطات التوضيحية، كما يدرس تلك المخطوطات». وتشير عبارة «الحبر الأحمر والأسود» إلى الصور المرسومة ضمن الكتب التوضيحية المكونة من لحاء أشجار أو جلود حيوانات، والتي كانت تُثنى وتُلف على شكل أكورديون.

وقد اسْتُخْدِمتْ الكتابة التصويرية في رسم لوحات لحيوانات ونباتات وجبال ورقصات ومعارك أو قرابين؛ لأنها مثلت الأشخاص أو الأماكن أو الأشياء ذاتها. وفي الوقت نفسه، اسْتُخْدِمتْ في لوحات أخرى رموزاً لأشياء تعبر عن أفكار مرتبطة بالصورة. على سبيل المثال، مثلت صورة وردة، في الحالة الأولى، وردة فعلية، لكن

عند استخدام الرمز، قد تمثل الوردة قصيدة أو دماً قربانياً، تبعاً لمضمون الفكرة. وفي هذا السياق، تشير الكتابة التصويرية في صورة لحزمة من عيدان القصب، إلى حزمة من القصب، لكن حزمة من عيدان القصب تظهر في صورة رمزية، قد تشير إلى دورة مؤلفة من اثنين وخمسين عاماً في التقويم الأزتكي. وسوف نأتي على ذكر ودراسة عدد من هذه الصور ضمن هذا الكتاب.

وفي حين لم ينج إلا القليل من «كتب الحكايات» المصورة لمجتمعات الأزتك، فإن عدداً من المخطوطات تتقاسم الرموز نفسها مع الأزتك، ويمكن الاستفادة منها لدراسة الحياة الأسرية وتعليم الأبناء وقوانين القصر وكيفية حساب الوقت، والآلهة، وسلسلة الأنساب، وغيرها من جوانب الحياة الرئيسة. وقد حالفنا الحظ لأن السكان الأصليين واصلوا إنتاج تلك المخطوطات بعد الغزو. ومن أهم المخطوطات المصورة المفيدة لدراسة حياة الأزتك، مخطوطة فيجيرفاري ـ ماير (رسمت قبل وقت قصير من وصول الإسبان)، ومخطوطة بوربونيكوس (رسمت مع وصول الإسبان)، ومخطوطة ميندوزا (وقد رسمت بعد سنوات قليلة من وصول الإسبان). وتمتاز المخطوطتان الأولى والثانية بأهمية خاصة لغناهما بمعلومات عن التقويم والطقوس، في حين تقدم لنا الميندوزا معلومات تاريخية غنية عن حروب المكسيكا ومملكتهم واقتصادهم ودورة الحياة عندهم.

كما تبدو الكتابة التصويرية على الطراز الأصلي في عدد من القطع والهياكل الأثرية الباقية، مما يمكن إجراء مقارنات لمعرفة المفارقات بين الصور المنقوشة على الأحجار، وتلك المرسومة ضمن المخطوطات.

كلمات مكتوبة: موسوعة الأزتك

يعدّ البحث في ثقافات الأمريكيين الهنود تجربة غنية ومثمرة. وإن تاريخ المعرفة والمعلومات المتوافرة حول سكان المكسيك الأصليين، يجب أن تروى في الكتب التعليمية والروايات والأفلام والقصائد والمسرحيات، وذلك من أجل مقاربة وفهم حكمة وعمق تفكير ومآسي ونقاط ضعف الأزتك وجيرانهم. وقد عمل أبناء الأزتك

وأحفادهم، وكذلك الأوروبيون والسكان الهجين، طوال القرن السادس عشر، على كتابة تقارير ورسائل بلغة ناهوآتل (اللغة الأصلية التي تخاطب بها عدد من الهنود في وسط المكسيك)، وكذلك بالإسبانية، وأيضاً بالفرنسية. وقد تحدثت تلك التقارير عن الإيمان بالكونيات والمراكز الشعائرية لدى عدة مجتمعات أزتكية. ومن بين تلك الوثائق المهمة، الليندا دي لوس سوليس (أسطورة الشمس)، والآناليس دي كوا أوتيتلان (سجلات تاريخ كوا أوتيتلان) وهيستويردوميشيك (تاريخ المكسيكا). كما تعد مخطوطات فلورينتاين، والتي تتألف من اثني عشر مجلداً، من أغرب أدوات التعليم وأكثرها فائدةً. وقد أنتجت تلك المخطوطات خلال منتصف القرن السادس عشر على يد كاهن إسباني دعي بيرناندينو دي ساهاجون وطلابه الأزتك. وقد اتبع عند تأليف تلك الوثيقة نموذج الموسوعات الأوروبية القديمة، ونُظِّمَتْ المعلومات الواردة فيها، وقسمت إلى أقسام: (1) الآلهة واللاهوت (2) الإنسان والمجتمع (3) العالم الطبيعي.

وكان ساهاجون كاهن فرانسيسكاني قدم إلى مكسيكو سيتي، في عام 1529، للمشاركة في المشروع الكاثوليكي الإسباني لتنصير السكان الأصليين وغزوهم روحياً. وقد تميز ذلك الرجل بالعلم الواسع، وبقدرة لغوية فائقة، وقد وضع خطة من ثلاث نقاط (1) أن يطلع بقدر استطاعته على اللغات الهندية، (2) وضع مفردات بلغة ناهوآتل للمساعدة في إلقاء العظات ونشر تعاليم الكتاب المقدس، (3) إنشاء سجل وثائقي للثقافة الأصلية يسهّل فهمها ونقلها. لكن كيف شرع ساهاجون في تنفيذ تلك الخطة؟

في عام 1536، أنشأ القصر الإسباني، عبر ممثله حارق الكتب خوان دي زوماراجا، كلية تلاتيلولكو الملكية للصليب المقدس (كوليجيو إمبريال دي سانتاكروز دي تلاتيلولكو)، وأمر مجموعة مختارة من الرهبان الفرانسيسكيين بإدارتها. وقد أنشئت تلك الكلية، كسابقتها كالميكاك (من أشد المدارس الأزتكية صرامة قبل عصر الإسبان) بهدف تدريب الفتية الأصليين وفق الأساليب التعليمية التقليدية التي استقدمت من إسبانيا. وكان ساهاجون أحد المدرسين، وقد وصف بعضاً من سمات تلك المرحلة،



حاكم أزتكي يتفحص مخطوطة، في حين يعكف رسامان على رسم مخطوطات مصورة أخرى. والصورة مأخوذة من لوحة جدارية للفنان دييجو ريفيرا معروضة داخل القصر الوطني في مكسيكو سيتي (بتصريح من سكوت سيشينس).

وقال:

«بعد أن قدمنا إلى هذه الأرض لنشر الإيمان، جمعنا الفتية داخل بيوتنا، كما أمرنا. وبدأنا في تعليمهم القراءة والكتابة والإنشاد. وبعد أن حققوا نجاحاً في تلك المواد الدراسية، بدأنا في تدريسهم قواعد النحو. ولهذا الهدف، أُسِّسَت كلية في مدينة مكسيكو سيتي، في قسم سانتياجو تلاتيلولكو، وقد جمع أفضل الطلاب، وأقدرهم على القراءة والكتابة، من جميع القرى والمناطق المجاورة، وقد أقاموا داخل الكلية وتناولوا وجباتهم فيها»(4).

وعند افتتاح الكلية، سخر رجال دين آخرون من الفرانسيسكانيين في تلاتيلولكو، مدعين أن الهنود لن يتمكنوا من تعلم قواعد النحو واللاتينية وغيرها من المواد التي دُرِّست في الكلية. لكن سرعان ما ثبت خطأ اعتقاد أولئك الساخرين، وفق ما أشار إليه ساهاجون؛ لأنه بعد بضع سنين «تمكن الفتية الأزتك من فهم قواعد النحو، وإجادة اللاتينية كتابةً ونطقاً، ونَظْمَ الأشعار أيضاً»(5).

ورغم استمرار معارضة بعض رجال الدين – الذين أدركوا أن إتقان الهنود للغتهم سيجعلهم يكتشفون ما ورد في الكتاب المقدّس من أن البطاركة اتخذوا عدة زوجات (كبعض الأزتك)، فضلاً عن احتمال اطلاعهم، من خلال كتب أخرى، على أن أمماً أخرى غزت الإسبان قديماً – فقد بقيت الكلية مفتوحة، وبدأت في استقطاب التلاكويلوك الأصليين، أو الرسامين والخطاطين، والذين لعبوا دوراً أساساً في تأليف الموسوعة التي ظهرت لاحقاً.

كما ركزت دروس ساهاجون، وغيره من رجال الدين، على تعليم الطلاب الأصليين التريفيوم (النحو والبلاغة والمنطق)، والكوادريفيوم (الحساب والجبر والفلك والموسيقى)، إلى جانب التعاليم المسيحية الأخلاقية، ودراسة الكتب المقدسة. كما تلقى الطلاب دروساً في الرسم والطب، وكانت النتيجة تكون نخبة مختارة من الطلبة أطلق عليهم ساهاجون وصف «ثلاثييّ اللغة»، لأنهم أجادوا القراءة والكتابة بثلاث لغات، وهي الناهوآتل والقشتالية (الإسبانية) واللاتينية.

وقد ساعد أولئك الطلاب وآخرون ساهاجون في إجراء بحث قيّم حول جوانب عديدة من حياة الأزتك قبيل الغزو الإسباني وبعده. وقد أعد ساهاجون استيانة، وأجرى لقاءات مطولة مع مجموعات من كبار السن كي يستقي معلومات عن آلهتهم وتاريخهم وأشعارهم، ومصادر تفاؤلهم أو تشاؤمهم، وملوكهم وطرائق علاجهم، وعلم الفلك عندهم، ومزروعاتهم وحيواناتهم، وأيضاً تجربتهم مع الغزاة.

ومن الجدير بالذكر أن أولئك العجائز الذين تحدثوا مع ساهاجون بعد عشرين وثلاثين، أو حتى أربعين عاماً من وصول الإسبان، كثيراً ما استخدموا الكتب المصورة الناجية من الحريق، والتي ورد ذكرها آنفاً.

وقد كتب ساهاجون عن العجائز: «قدموا لي جميع المعلومات على شكل صور، لأن تلك هي وسيلة الكتابة التي استخدموها في الأزمنة القديمة». كما قام النحويون (من طلابه الذين درسوا ثلاث لغات، ممن استمعوا إلى «قراءات» عجائزهم للكتب المصورة) بتفسير تلك اللوحات بلغتهم، وسجلوا شروحاتهم أسفل كل لوحة(6)، وقد لا يكون ساهاجون قد أدرك أن ذلك الإلقاء الشفهي كان هو بالضبط وسيلة التعليم التي اتبعها الأزتك في تدريس أطفالهم قبل وصول الأوروبيين. واليوم بتنا نعلم من خلال الآثار الباقية، أن أبناء الأزتك تلقوا التعليم على أيدي معلمين استخدموا كتباً كبيرة وجميلة تحوي صوراً لرموز تعليمية. وهكذا تمثل الأسلوب الرئيس لنقل المعلومة، خلال فترة ما قبل الإسبان، في الوصف الشفهي أو إلقاء المعلومة المرسومة على الصفحات.

وقد استفاد ساهاجون من هذا الأسلوب، أي من خلال استجواب كبار السن الذين تلوا أو فسروا المخطوطات المصورة للطلبة ثلاثيي اللغة، والذين دونوا في ما بعد شروحاتهم، من أجل تسجيل فصول ضُمّت إلى «مخطوطات فلورينتاين»، والتي وفرت لنا معلومات قيمة وغنية عن الحياة اليومية في تينوشتيتلان وعادات سكانها وتقاليدهم. ومن أكثر الأقسام شمولية من المجلدات الاثني عشر، الكتاب السادس، ويحمل عنوان «البلاغة والفلسفة الأخلاقية». كما نجد في الكتاب المذكور صفحةً إثر صفحة، خطباً بليغة حول مختلف الأحداث والتحولات في دورة حياة المجتمع.

ومن أهم ما ورد في الكتاب فقرات تتحدث عن التعليم المناسب للأطفال والفتية. وفي معرض آخر، كتب رجل دين إسباني: «ما من شعب أحب صغاره أكثر من الأزتك. وخذ مثالاً على ذلك، فقرة مأخوذة من الهويهويتلاتولي أو «الأقوال المأثورة» التي جمعها ساهاجون، يخاطب فيها ملكٌ ابنته التي وصلت إلى مرحلة البلوغ: «ابنتي الصغيرة، يا عقدي من الأحجار الكريمة، يا ريش طيري، خَلْقي البشريِّ المولودةُ من صلبي. أنت دمي ولوني وصورتي، أريد أن تعلمي أنك نبيلة وثمينة رغم أنك ما زلت سيدة صغيرة. أنت حجر كريم، أنت فيروزة»(7).

كما تخبرنا كتب أخرى مهمة، صدرت تحت إشراف كهنة كاثوليكيين، رغم سعيهم للقضاء على معتقدات وأفكار الأزتك، أشياء كثيرة عن نظرة أبناء ذلك الشعب إلى بعضهم بعضاً وعن مواقفهم من الطبيعة والآلهة.

الأزتك في الوقت الحاضر: التداوي بالأعشاب

على خلاف الاعتقاد السائد، مازال عدد من المجتمعات في حوض المكسيك وما حوله يطبق بعض الأفكار والممارسات التي سادت قبل وصول الإسبان. ويتحدث أكثر من مليون شخص بلغة ناهوآتل، وهم على دراية بأساليب وطرائق اتبعها أجدادهم في مجالات الطهو والعلاج والصلاة والزراعة والإنبات والتخاطب والنسيج والرسم وسرد الحكايات. ورغم تأثر أفكار أولئك السكان وحياتهم بالثقافة الإسبانية، وبعدد من ابتكارات المكسيكيين في مجالات ثقافية وتِقَنية حديثة، فإنهم ما زالوا يطبقون أنماطاً معيشية سادت قبل العهد الإسباني، وقد اختلطت بالحياة المكسيكية المعاصرة. ويعيش عدد من علماء الإنسان والعاملين في الحقل الاجتماعي على تماس مع بعض تلك التقاليد والعادات القديمة. ومن أمثلة هؤلاء زوجان هما روبيرت باي وإيديلميرا ليناريس، اللذان كرّسا حياتهما لدراسة طرائق زراعة واستعمال مجموعة واسعة من النباتات والفاكهة والأزهار التي تلقى رعاية سكان أصليين وهجين من الأزتك والأوروبيين. وقد تطلبت الدراسة إجراء تجارب ميدانية مكثفة في حوض المكسيك وما حوله بمشاركة شامان (كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المستور

وللسيطرة على الأحداث) ومعالجين ومزارعين وأسرهم. وتهدف الدراسة لاكتشاف بعض التحولات والأشياء الثابتة في ممارساتهم الطبية، ووسائل العلاج التي يتبعونها، منذ أيام الأزتك، وحتى الوقت الحاضر. وسوف نشير إلى بعض هذه الدراسات ضمن هذا الكتاب.

وإلى جانب دراسات علماء نبات مثل باي وليناراس، تتوافر دراسات جديدة حول التقاويم والأساطير والأحلام والأزياء، وأنظمة السوق والاحتفالات العامة، وهي تساعدنا في تكوين صورة شاملة عن الروتين اليومي والمعتقدات والشعائر الدينية التي مارسها عدد من المجتمعات الأصيلة داخل ثقافات البحيرة في وسط المكسيك وحولها.

أصول غامضة مقابل أبحاث مستفيضة

أين الشعوب والثقافات التي خرج منها الأزتك؟ نعلم أن قبائل المكسيكا الذين عرفوا فيما بعد باسم الأزتك هاجروا نحو حوض المكسيك قادمين من الشمال في القرنين الثالث والرابع عشر ب.م. لكن، من أين جاء أسلافهم؟ وقد شكّل هذا السؤال تحدياً للباحثين والمهتمين على حد سواء، وذلك منذ بدايات الاحتكاك مع سكان أمريكا الأصليين، وإلى هذا اليوم. وقد أشار أحد المؤرخين إلى كثرة التساؤلات بشأن أصول الأزتك التي طرحها الإسبان في القرن السادس عشر.

كتب هذا المؤرخ: «حتى قبل انقضاء العقد الأول من الغزو، أصبح أولئك الأشخاص السمر، والذين يسمونهم الهنود، مصدر غموض حيّر الشعب الإسباني والفاتحين والكهنة، والقصر والمواطنين العاديين على حد سواء. ما هي جذورهم؟ من أين جاؤوا؟»(8).

وبمرور السنين، ظهرت بعض الفرضيات، والتي أشارت إحداها إلى وجود أوجه تشابه بين فن العمارة والمعابد والمباني عند قبائل المايا والأزتك ومثيلاتها في مصر. كما قيل ذات يوم، إن مصر هي الموطن الأصلي لحضارات الهنود الأمريكيين بسبب التشابه في هياكل الأهرامات والتقاويم وأشكال الكتابة، ورموز تعزى إلى الآلهة. لكن



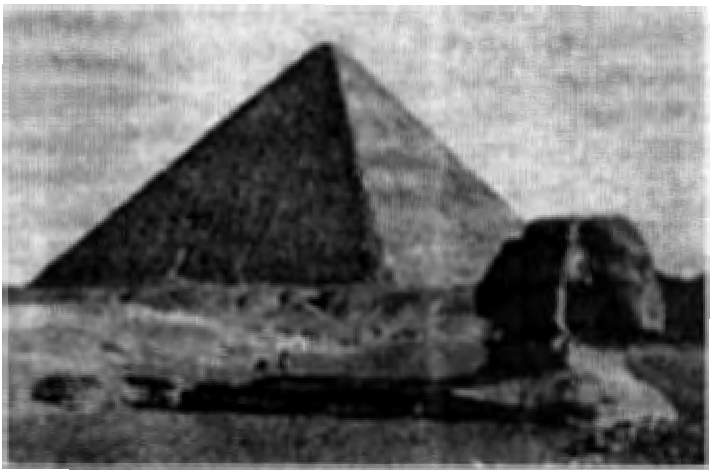
امرأة معاصرة من قبائل الناهوا تستخلص بالطريقة التقليدية عصير نبات الأغاف (الصبار الأمريكي). والصورة منشورة بتصريح من أرشيف أميركا الوسطى.

التدقيق عن قرب يكشف فروقاً لافتة بين استخدامات الأهرامات المصرية ومقاصدها، والأهرامات المعابد في أمريكا الوسطى. فقد بنيت الأهرامات المصرية بهدف أن تكون أضرحة لملوك الفراعنة وأسرهم. وإذ تمتاز الأهرامات بعظمة بنائها وأهميتها الأثرية، فقد استقت أهميتها من عمارتها الداخلية، وليس بوصفها أماكن لممارسة شعائر عامة. أما في عالم المعابد والأهرامات الأزتكية، فقد تم التركيز على الجانب الشعائري الخارجي، والمتعلق بالأساطير والطقوس والدورات الزمنية والاستعراضات الملكية ضمن دورة متواصلة من الشعائر. وصحيح أن الأزتك دفنوا بعض الشخصيات

الرفيعة داخل أهراماتهم ـ معابدهم، لكن الفرق في الشكل العمراني والاستخدامات الشعائرية يؤكد ابتكارهم النوعيّ المستقل، وأنها لم تكن مجرد اختلاف ثقافي عن أهرامات المصريين.

وفي عام 1804، طرح المستكشف الألماني ألكسندر فون هامبولدت فرضية تقول إن شعوباً آسيوية هاجرت إلى العالم الجديد منذ قديم الزمان، وأنهم نقلوا أفكاراً ورموزاً وممارسات شعائرية إلى أسلاف الأزتك والتولتيك. وفي القرن العشرين، سعى المغامر وعالم الأنثروبولوجي ثور هايردال لاستكشاف فكرة التواصل عبر المحيط الهادئ، فبنى طوافة خشبية عريضة سميت كونتيكي، وأبحر بها عبر المحيط الهادئ نحو الأمريكتين. وقد أمل هايردال بإثبات احتمال نجاح البحارة القدماء في القيام بتلك الرحلة، والمساعدة في تطوير حضارة الأمريكتين. وفي وقت لاحق، حاول هايردال إظهار احتمال نجاح شعوب البحر الأبيض المتوسط في عبور الأطلسي نحو الأمريكتين. رغم أن قارباً من أعواد القصب على النسق «المصري» واسمه «را» صممه وبناه سكان أصليون يقيمون حول بحيرة تيتي كاكا في أمريكا الجنوبية. بالإضافة لذلك، افترض علماء آخرون أن يكون بعض الصينيين ومجموعات من جنوب آسيا قد هاجروا نحو الساحل الغربي للأمريكتين، حاملين معهم عناصر حضارية شكلت أسس المراكز الشعائرية والتقاويم وطقوس المايا والأزتك. وفي الآونة الأخيرة، رأى بعض الباحثين أن الثقافات الآسيوية أثرت في منطقة كوستاريكا في أمريكا الوسطى، ونقلت التقاليد الفنية واللاهوتية البوذية إلى العالم الجديد قبل ثلاثة آلاف عام. وعند الأخذ بعين الاعتبار مبدأ انتشار الثقافات، تشير تلك الفرضيات إلى تطور المراكز الثقافية الكبرى في الأمريكتين على أيدي الشعوب المهاجرة الذين تركوا وراءهم مراكز ثقافية في العالم القديم، ونقلوا أسس الحضارة (نصب تذكارية، كتابة، تقاويم وأنظمة متطورة) إلى التراب الأمريكي. لكن تكمن المشكلة في تلك الفرضية، في عدم وجود أية قطعة أثرية تنتمي لحضارة آسيوية أو متوسطية في أي من المواقع الأثرية في العالم الجديد.

وفي بعض الأوقات، طرحت معضلة أصول الأزتك وأسلافهم أفكاراً عجيبة.





الصورة الأولى : الهرم الكبير وتمثال أبو الهول في الجيزة في مصر (فرانسيس فريث، في العقد السابع من القرن التاسع عشر. من آلفريد جريم . ميونيخ لاتيرنا ماجيكا، 1980).
الصورة الثانية: معبد الشمس العظيم في تيوتيهواكان (بتصريح من سكوت سيشينس).

ففي القرن التاسع عشر، تساءل أنثروبولوجيون أوروبيون عما إذا كانت قارة أتلانتيس المفقودة في المحيط الأطلسي، أو قارة مو في المحيط الهادي، تشكلان الموطن الأصلي للحضارات الأمريكية. وعند استخدام وصف أفلاطون لقارة أتلانتيس الأسطورية، يدّعي أنصار فرضية القارة الغارقة، أن الأمريكيين الأصليين نجوا بأنفسهم في اللحظة



ثيور هيردال وبحارته يحاولون عبور المحيط الأطلنطي بواسطة قارب من عيدان القصب يطلق عليه اسم را (الصورة مأخوذة بإذن من متحف كون ـ تيكي، أوسلو، النرويج).

الحاسمة، ونقلوا حضارتهم إلى أمريكا. ومن جديد، تبدو المشكلة في هذا التفسير، بيّنة وسهلة. إذ أين الدليل المادي على صحة الفرضية؟ وإن انعدام الدليل يقود أحياناً لاختراع الدليل. على سبيل المثال، من أكثر الفرضيات إثارة للعجب، فكرة وردت في كتاب «عربات الآلهة» للعالم إيريك فون دانيكين، الذي يقول إن الأهرامات وغيرها من النصب الكبرى في المكسيك وجواتيمالا وبيرو، هي أبنية تركها على الأرض رجال جاؤوا قديماً من الفضاء الخارجي، وإن زيارتهم شجعت على تطور القارة الأمريكية، وليس الإقامة فيها وحسب. كما ذهب فون دانيكين في نظريته أبعد من ذلك، عندما افترض أن تلك الأبنية ما هي إلا نقاط للاستدلال يعتمد عليها رجال سيعودون من الفضاء يوماً ما.

إن إجراء المقارنات غالباً ما يكون أمراً مسلياً، رغم حقيقة أن البشر يجرونها من دون السعي لإيجاد أوجه تشابه أو فروق. إذ في القرن السادس عشر، حاول الراهب الدومينيكاني دييجو دوران، والذي عاش معظم حياته في وسط المكسيك، أن يجد دليلاً ضمن المخطوطات المصورة يفيد بأن الكتاب المقدّس وصل إلى العالم الجديد قبل قرون من قدوم الإسبان. وعندما سمع دوران بالحكايات العديدة حول الزعيم الديني كويتزالكوتل (الأفعى ذات الريش)، توقع أن يكون أحد أنصار المسيح، وهو الرحالة القديس توماس، قد زار العالم الجديد قبل قرون، ونشر نسخة، حُرّفت لاحقاً، من الكتاب المقدّس بين أسلاف الأزتك.

وفي حين تثير مختلف أنواع تلك المقارنات والفرضيات العجب، ويفترض أن تبقى مفتوحة أمام باحثين مستقبليين، يجدر بنا توخي الحذر فيما يتعلق بأفكار الانتشار الثقافي ونظرياتها. ذلك أن بعض تلك الفرضيات، يشير إلى عجز سكان أمريكا الأصليين عن تحقيق مستويات رفيعة من الإبداع الثقافي بأنفسهم، بل احتاجوا إلى دعم وعون ثقافيين من أجانب أذكى وأقدر منهم. وتركز هذه الأفكار في بعض الأحيان، وليس دوماً، على أن ثقافات العالم القديم كانت أرفع مستوى وأكثر تمدناً، وأنها جديرة بإيلائها القدر الأكبر من الاهتمام والتقدير. لكن هذه نظرة خاطئة كلية، وهي نظرة عنصرية للتاريخ والثقافة.

وقد ثبت بوضوح أن ثقافات العالم الجديد، ومن ضمنها حضارات أمريكا الوسطى التي نشأت منها حضارتا الأزتك والمايا، قد تطورت نتيجة إبداع وخلق ثقافي أصلي المنشأ. لكن هذا لا ينفي وجود أوجه تشابه بين العالمين القديم والحديث. إلا أن أوجه التشابه ليست مؤثرة بقدر الفروق الملحوظة في الابتكارات والتنوّع بين الإنتاجات الثقافية في آسيا، وتلك التي ظهرت في حوض المتوسط أو في الأمريكتين، كما بين المجموعات الأمريكية ذاتها. ورغم أن تواصلاً محدوداً قد تمَّ (على ما يبدو) بين ثقافات آسيوية وشعوب الأمريكتين، فإن الأولميك والهواستيك والتلاكسكالان والتولتيك والميكستيك والآوتومي والمايا والأزتك، وغيرهم من الشعوب الأصيلة في نصف الكرة الغربي، قد طوروا ثقافاتهم معتمدين على أنفسهم، من دون مساهمات فعَّالة من حضارات خارجية. وفي حال تمّ ذلك التواصل بالفعل، يحتمل أن تكون الثقافات قد انتقلت في الجهة المعاكسة، أي من أمريكا إلى باقي أرجاء العالم. ولم لا نأخذ بعين الاعتبار أشكال التأثير المتبادل المتنقل في الاتجاهات كافة؟ لقد تركزت تلك المجريات الثقافية، وتبلورت في مختلف المراكز الشعائرية والمدن الرئيسة، كما تَبدَّتْ من خلال السلوكيات اليومية للسكان. وكما سنرى لاحقاً، بدت تلك القدرات الإبداعية واضحة، على وجه الخصوص، في عالم الأزتك.

تنوّع الشعوب

تتركز أهم النقاط التي ساهمت في تكوين الخلفية البيئية والاجتماعية لحياة الأزتك في أن أمريكا الوسطى مكاناً شديد التنوع في المكان والزمان. ويجدر بنا الاطلاع على شيء من هذا التنوع. وكما نعلم أن ثلاث عشرة مستعمرة استخدم سكانها لغات مختلفة قبل ظهور «الإنجليزية» لغة رئيسة للتخاطب، وتأسيس الولايات المتحدة الأمريكية، من الضروري أن نعرف أن مئات المجموعات العرقية عاشت بين السكان الأصليين لأمريكا الوسطى، وتحدّثت بلغات مختلفة. وكما سنرى، أصبحت لغة الأزتك، الناهوآتل، إبَّان نهضتهم، أهم لغة في أمريكا الوسطى. لكنّ عدداً آخر من اللغات استخدمت للتخاطب والغناء من قبل ملايين الأشخاص. ورغم تركيز هذا

الكتاب على المكسيكا أو الأزتك من القرن الرابع عشر وإلى القرن السادس عشر، فإن بعدهم الثقافي لم يكن الأوحد ولا الأكثر تأثيراً فيما حولهم. ولكن يحق لنا التأكيد على أن الأزتك ورثوا عن أسلافهم عدة عناصر ثقافية، ومن الأهمية بمكان مراجعة تنوع التاريخ الثقافي في المنطقة قبل التركيز على حياة الأزتك. وبالعودة إلى صورة الهرم، نستطيع القول إن الأزتك الذين جاؤوا في مرحلة متأخرة إلى حوض المكسيك، عاشوا عند قمة الهرم التاريخي، وادعوا انحدارهم من حضارات عظيمة قديمة.

تشير أدلة من الآثار القديمة، إلى أن مجموعات بشرية قدمت من شمال شرق آسيا (جماعات من المغول) ووصلت إلى العالم الجديد قبل 70 ألف عام من الميلاد، وفي مرحلة متقدمة عن ذلك، أي حوالي 2000 ق.م.، وذلك عبر مضيق بيرينج الذي كان يصل سيبيريا بألاسكا. وقد كان هؤلاء الرحالة صيادين وحصادين هاجروا ببطء متجهين جنوباً وشرقاً نحو المناطق التي تعرف حالياً باسم كندا والولايات المتحدة. كما يبدو أن أولئك المهاجرين وصلوا إلى حوض المكسيك قبل 20 ألف عام من الميلاد، وقد طوروا عدة لغات مختلفة، وممارسات شعائرية وأساطير خلال هجرتهم البشرية طويلة الأمد. وقد نقل هؤلاء المهاجرون ثقافة صيد متطورة إلى الأمريكتين، اشتملت على الشامانية[1] وارتباطات شعائرية مع حيوانات وأيضاً مع أرواحهم. ومما يثير الدهشة أن أنواعاً متباينة من البشر يتكلمون أكثر من 250 لغة، هاجروا إلى أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية.

وقد واجه أولئك المهاجرون صعوبات جمّة أثناء بحثهم عن مواطن دائمة في محيطهم. فقد واجهوا تناقضات وعجائب جغرافية. فمن أعالي الجبال انتقلوا إلى قاع الوديان، ومن صحارى جافة إلى أراض خصبة، ضمن أنظمة بيئية واسعة التباين. وبعد أن عبَر هؤلاء صحارى ومضائق شمال المكسيك، وجدوا سلاسل جبلية، بعضها بركاني. ومن ثم وصلوا إلى وديان سحيقة ونجود (سهول مرتفعة) خصبة أُنشِئتْ فيها مراكز ثقافية في مراحل تاريخية مختلفة. ومن المجموعات الثقافية المهمة، الأولميك

(1) الشامانية shamnism: دين بدائي من أديان شمالي آسيا وأوروبا، يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب، هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف، وأن هذا العالم لا يستجيب إلا للشامان.

والزابوتيك والميكستيك والأوتومي والتاراسكان والهيوشول والناهنو والكونيشي والتزوتوجيل والهواستيك والتولتيك وعشرات غيرهم. وقد حدد علماء الآثار ثلاث مراحل رئيسة في التطور التاريخي لشعوب أمريكا الوسطى، وهي المرحلة التأسيسية (من 1800 ق.م. إلى 200 ب.م.)، والمرحلة الكلاسيكية (من 200 إلى 900 ب.م.)، ما بعد المرحلة الكلاسيكية (من 900 إلى 1519 ب.م.).

وقد نشأت، في كل من تلك المراحل، مستوطنات ضمت مراكز شعائرية كبرى وصغرى تكونت من أماكن عبادة مورست فيها الشعائر الدينية والأساطير، والتي تم التعبير عنها عبر بناء المعابد ونحت التماثيل، وبواسطة الرسم وأداء الطقوس. وفي المرحلة التأسيسية، أقيمت مراكز شعائرية ضخمة، وخاصة عند قبائل الأولميك على ساحل الخليج. وقد ظهر الأزتك في فترات متأخرة من مرحلة ما بعد الكلاسيكية. لكن من الضروري معرفة شيء ما عن أجدادهم.

نباتات مقدسة

مثَّلت السيطرة على الطاقة المختزنة في النباتات أهم حدث ثقافي خلاَّق قاد إلى تحولات كبرى في العالمين الاجتماعي والتخيلي. فقد كان تطور الزراعة هو التحول الأساس الذي أدى لظهور ثقافات القرى والمراكز الاحتفالية والفروق الاجتماعية. وبتنا نعلم من خلال فنون هذه الفترة وأشعارها، أن النباتات ودورة الحياة الزراعية الوفيرة، جعلت البشر يتخذون موقفاً جديداً من فكرة الخلق، أي خلق آلهتهم وخلقهم البشري. وقد تمت تلك التحولات خلال الفترة الزمنية من 6500 ق.م. إلى 2000 ق.م.، وذلك عندما تعلم الناس كيفية زرع وحصد الذرة والبقوليات والقمح والأفوكادو والفلفل الحار والطماطم والكاكاو، وجملة من المحاصيل الأخرى. وكما سنرى عندما نبحث في ديانة الأزتك، وعبادتهم لآلهة الذرة والمطر، سنجد أنهم آمنوا بأن جميع تلك المزروعات وبذورها، تكتنز قوى مقدسة أخذت تلعب أدواراً رئيسة، في الأساطير والطقوس والتقاويم والأزياء، وجميع مظاهر الحياة الأزتكية. وقد يفيدنا، في هذا السياق، الاطلاع على كيفية رعاية الفتيات للبذور أثناء مهرجان كرِّس لعبادة

آلهة الذرة: «تحمل جميع الفتيات على ظهورِهِنَّ أكوازَ ذرةٍ نمت قبل عام، ثم يذهبن سيراً على الأقدام لتقديمها إلى الآلهة شيكوميكوآتل. ثم يرجعن بالأكواز إلى بيوتهن بعد أن باركتها الآلهة، ومنها يأخذن البذور من أجل زرعها في العام المقبل. كما تقوم بحفظ أكواز الذرة في أعماق صندوق الحنطة، لأنها مباركة»(9).

الرؤوس العملاقة والسماء

ومن المعالم البارزة في ماضي الأزتك، ظهور عالم الأولميك، والذي انتشرت مراكزه الشعائرية وأخذت طابعاً مميزاً نحو عام 1800 ق.م.، ثم انهارت نحو عام 300 ق.م.. وتعني كلمة أولميك «شعب من أرض أشجار المطاط»، وقد استخدم تلك العبارة سكان أصليون عاشوا في المنطقة زمن الغزو. وليس من المعروف ماذا أطلقت الشعوب القديمة في هذه المنطقة على نفسها من أسماء أو صفات. ويثير الأولميك الدهشة والإعجاب لبراعتهم في فن العمارة والفنون الأخرى. وقد وصفت حضارة الأولميك بأنها «الثقافة الأم» لحضارات أمريكا الوسطى، وذلك لأن تماثيلهم التي تجسّد الآلهة والقوى الدينية انتشرت في منطقة جغرافية ممتدة، وطوّرت من قبل عدة شعوب لاحقة. فقد أعاد الأولميك صياغة الأرض والعناصر الطبيعية بوصفها وسائل للتواصل مع آلهتهم وأبناء شعبهم. وقد صنعوا من حجر اليشْب (الجاد) والبازلت والطين والتربة ذاتها أشكالاً كالكهوف والهضاب. وقد بنيت جبال اصطناعية في موقع لافينتا لتمثيل هرم أرضي. كما اتخذت الكهوف والمرتفعات مواقع لرسم لوحات وحَفْر نقوش تعبر عن العلاقات بين البشر والحيوان والروح. كما كان للأولميك تقاويم شعائرية ومدافن دينية، وقد زينت مراكزهم الشعائرية بخليط بديع من الأشكال الإنسانية والحيوانية، ومن ضمنها مزيج من إنسان ـ نمر، ونمر ـ طائر، وطائر ـ نمر ـ تمساح، وإنسان ـ تمساح. وتمثل تلك الأعمال الفنية إيماناً راسخاً بعالم الروح.

وقد ظهر في أثناء عمليات حفر عن الآثار في منطقة سان لورينزو ظاهرة عجيبة عند شعب الأولميك. فقد عثر في عدة مناطق من الموقع على رؤوس حجرية عملاقة حفرت عليها وجوه بشرية يغطي كل منها غطاءٌ للرأس على شكل خوذة. وقد بلغ



أحد الرؤوس الحجرية العملاقة التي نحتها نحاتون أولميك في مراكز احتفالية على شاطئ خليج المكسيك (بتصريح من سلفادور جويل ليم آرويو، والمعهد الوطني لتاريخ علم الإنسان).

ارتفاع بعض تلك الرؤوس ثلاثة أمتار ووزنه أكثر من أربعين طناً. كما نقشت فوق صخور عملاقة اقتلعت من جبال توكستلا التي تبعد أكثر من ستين كيلومتراً عن الموقع. ويُظْهِرُ نقل تلك الصخور إلى سان لورينزو فوق أراض ومياه، فضلاً عن تركيبتها الفنية المعقدة، مستوى رفيعاً من التنظيم الاجتماعي والإخلاص العميق للرموز الدينية. وربما تمثل تلك الرؤوس محاربين ميتين أو لوحات لحكام، آمن الأولميك أنهم تحولوا إلى آلهة، وأن وجودهم الهائل يحمي أبناء المجتمع من أعدائهم.

كما حدث خلال المرحلتين التأسيسية والكلاسيكية تطور آخر تمثل في الاهتمام الكبير بتعلم الفلك والعمل على فهمه. وقد ظهر ذلك بوضوح في أماكن مثل موقع زابوتيك في مونت آلبان (بالقرب من مدينة أوآكساكا المعاصرة) وموقع مايا في إيزابا (في جنوب غرب جواتيمالا). وقد ألّف أنطوني آفيني، وهو مختص بعلم الفلك القديم في جامعة كولجيت، عدة كتب قيمة حول مراقبي النجوم والسماء القدماء في المكسيك. وقد أظهرت تلك الكتب تقليداً قديماً ومعقداً من مراقبة النجوم والحسابات الفلكية والمباني الشعائرية التي وجهت نحو المسارات السماوية للشمس والمشتري ونجوم الثريا. وعلى سبيل المثال، عند موقع رائع في تيوتيهواكان وغيره في حوض المكسيك، أظهر آفيني وزملاؤه أن عدداً من المباني صممت على أساس أن تكون مقابل أحداث فلكية معينة تجري على طول خط الأفق. وربما هدف قدماء الأزتك عند تشييد تلك الأبنية، لحساب أيام السنة بدءاً من موسم الجفاف إلى الموسم الرطب. ويمثل موقع تيوتيهواكان أهمية خاصة، لأن الأزتك آمنوا بأنه في المكان عينه خلقت الشمس الخامسة أو الكون الذي عاشوا فيه. وتروي أسطورة الخلق عند الأزتك كيف برز قرص الشمس من خلال تضحيات الآلهة عند تيوتيهواكان، مما وفر للبشر عالماً مستقراً ومنظماً. كما بني الدرج الكبير لهرم الشمس في تيوتيهواكان في مقابل غرب الأفق حيث تقف مجموعة الثريا، والتي أطلق عليها الأزتك اسم تيانكويزتلي أو «موقع السوق»، أمامه مباشرة في توقيت حاسم من أيام السنة. وفي زمن الأزتك، لعبت أحداث مثل انقلاب الشمس الصيفي أو الشتائي، والاعتدال الربيعي أو الخريفي، ودورات كوكب الزهرة أدواراً مهمة في الحياة اليومية.

المايا الغامضة

في تاريخ أمريكا الوسطى الغني والمتنوع، تتنافس في المخيلة الشعبية ثقافة الأزتك مع حضارة المايا الكلاسيكية التي ازدهرت ما بين عام 200 إلى 900 ب.م. فقد حقق المايا إنجازات فعلية في حقول التقويم الرياضي الدقيق، وإنشاء المراكز الشعائرية الفائقة التزيين، وتقديس الحكام، وتطوير نظام الكتابة، والذي دلّ على أساطيرهم المعقدة ونظرتهم إلى العالم السفلي والتجدد الروحي (الانبعاث) الكوني. وقد وُصِفوا على مدار عدة أجيال بـ «المايا الغامضة»، وساد اعتقاد بأن قبائل المايا أنشأوا حضارة مسالمة، وعَشِق حكامهم وكهنتهم مراقبة النجوم، واتبعوا نمطاً في الحياة يفترض محاكاته في الوقت الحاضر. لكن، دراسات حديثة أجريت في مراكز شعائرية في تيكال وبلانيك وكوبان وكامينالجويو، أظهرت أن حضارة المايا كانت نموذجية إلى حد ما، حركتها الحروب والرغبة في جمع الثروات والنزاعات بين الأسر الحاكمة، وإخلاص النخبة للآلهة، وتقديس القرابين الدموية. ومن أكثر النقاط الغامضة والتي تمثل تحدياً للباحثين هو انهيار أجزاء واسعة من ثقافة المايا (كما في ثقافة الزابوتيك في أوآكساكا) خلال فترة وجيزة بين عام 830 إلى عام 930 ب.م.. ويبدو أن سلسلة متواصلة من الكوارث، بما فيها أعاصير وحركات تمرد، ومجاعات وحروب قد ازدادت حدّة خلال هذه الفترة، وأدت لتجميد الإنجازات العظيمة للمايا الكلاسيكية.

لكن إبّان مرحلة استقرارهم، طور المايا أشياءَ عديدة، منها تقويم الحساب الطويل العجيب. فبعد أن استوعبوا مفهوم الصفر، جمعوا عدداً من التقاويم، ومن ضمنها التزولكين (260 يوماً ويحتمل ارتباطه بفترة الحمل عند النساء) والهاب (365 يوماً وهو مرتبط بالدورة الشمسية)، والتقويم الدائري (دورة من اثنين وخمسين عاماً يأتي ضمنها تقويما التزولكين والهاب).

وأما تقويم الحساب الطويل، فهو تقويم يتألف من خطوط شبه مستقيمة مرتبطة بحروب الأجداد والسلالات الملكية والتنبوءات الطويلة الأجل. وقد وضعه المايا من أجل تنظيم وربط إيقاع القوى الطبيعية والثقافية المهمة في عالمهم.

في التقويم الطويل، تم قياس مسار الزمن منذ بداية العصر الكوني في عام 3114



إعادة بناء فني لموقع احتفالي للمايا في منطقة كوبان في هندوراس حالياً(من ألبوم عن فن العمارة عند المايا للفنانة تاتيانا بروسكورياكوف، نسخة جديدة، 1963، جامعة أوكلاهوما).

ق.م. إلى نهايته المتوقعة، حسب تنبؤاتهم، في 23 ديسمبر عام 2012. وقد عُبِّر عن كل يوم في التقويم من خلال سلسلة من خمسة أرقام تكونت من خطوط ونقاط. وقد مكّن ذلك النظام كهنة المايا من إحصاء التواريخ ضمن دوائرَ شاملة تعود لما قبل تسعة ملايين سنة ق.م.، كما ظهر في نقوش عُثِر عليها في عدة مراكز شعائرية.

تيوتيهواكان: مدينة الآلهة

عندما وصل منقبون عن الآثار في معبد الأزتك العظيم إلى داخل مبنى ملحق به، والذي أطلقوا عليه اسم «موقع الصقر المحارب»، دُهِشوا لعثورهم على مواد وقطع فنية يعود تاريخها إلى الإمبراطورية التولتكية (950 ـ 1150 ب.م)، وإلى حضارات أقدم عهداً في أمريكا الوسطى. على سبيل المثال، عثر المستكشفون على عدة أصص جميلة كان الأزتك أنفسهم قد استخرجوها من وسط دمار مدينة تيوتيهواكان «مدينة الآلهة»، والتي تدهورت خلال القرنين السابع والثامن، ويبدو أن الأزتك نظروا إلى

تيوتيهواكان بوصفها أصل الكون الذي عاشوا فيه.

تقع تيوتيهواكان، والتي تعرف حالياً باسم «الأهرامات» على بعد ستة وأربعين كيلومتراً عن مكسيكو سيتي، ويعني اسمها «مكان تعظيم شخص ما وتأليهه». وتستقطب أكبر عدد من عشاق الآثار في الأمريكتين. ويجد زوار المكان أنه لا يحوي مبانيَ أثريةً، ومن ضمنها ما سمي بـ«أهرامات الشمس والقمر وشارع الموتى» فَحَسْبُ، بل يجدون أن المدينة بأكملها صممت كي تبدو كالصورة الهائلة للكون. فقد كانت عبارة عن مبانٍ تمثل صورة لعالم صغير (لكنه عالم شامل وفقاً للمعايير البشرية) ضمن الأكوان العظيمة التي خلقتها الآلهة. وقد أقام في المدينة في أوج ازدهارها، أي في عام 450 ب.م.، قرابة مائتي ألف شخص فخروا بعاصمتهم التي سيطرت على عدد كبير من المدن والبلدات في وسط المكسيك وما حوله، ومنهم شعوب الزابوتيكس في أوآكساكا والمايا في كوبان. كما امتد نفوذ تيوتيهواكان بمرور الوقت إلى عقول الأزتك وغيرهم من القبائل خلال القرن السادس عشر. ولهذا السبب، اتجهوا نحو أطلال المدينة، وحفروا واستخرجوا قطعاً جميلة وقيمة، ثم دفنوها داخل مدافنَ مقدسة في معبدهم الأكبر والأعظم، والذي أسمَوْهُ كواتيبيك أو «جبل الأفعى».

وكانت بدايات تيوتيهواكان داخل كهف. وقد أظهرت حفريات حديثة وجود منطقة تضم بقايا نفق ومعبد تحت أكبر مبنى في الموقع، وهو هرم الشمس. وكان النفق والضريح من أقدم المراكز المقدسة لممارسة الطقوس وتقديم القرابين إلى آلهة العالم السفلي. وقد لاقت الكهوف، طوال تاريخ أمريكا الوسطى، التقدير بوصفها موطن الأجداد (تذكر أن الأزتك ادعوا أنهم جاؤوا من شيكوموزتوك «موقع الكهوف السبعة»). كما لعبت الكهوف دورَ مسالكَ توصل إلى العالم السفلي، وشكلت الطقوس التي مورست داخل الكهوف رمزاً لإيصال البشر إلى أجواء العالم السفلي. وقد زُيِّن الكهف الموجود تحت هرم الشمس وأعيد تشكيله على شكل وردة ذات أربع بتلات.

وأما القسم الباقي من المدينة، فقد صممه المعماريون والمخططون على شكل مدينة كبيرة تنقسم إلى أربعة أقسام في محاكاة لبنية الكون. وقد قسمت مئات من المباني

السكنية والدينية والتجارية عبر شبكة خطوط معقدة تمتد من شمال شارع الموتى إلى جنوبه، وعلى طول شارع تظلله النباتات يمتد من شرق المدينة إلى غربها، ويمر بوسط المدينة ويقسمها إلى أربعة أقسام كبيرة.

وتظهر الأعمال الفنية المكتشفة في المدينة أنها شهدت خلال نهضتها وازدهارها (من عام 150ق.م. إلى عام 750 ب.م.) عبادة عدد من الآلهة كرست للزراعة والحروب وألعاب الكرة، والأسر المالكة والمدافين القربانية. ومن المهم تذكر وجوب العودة إلى الآثار العمرانية والفنية لاستكمال الدراسات والأبحاث حول تيوتيهواكان. ولم يتبقَ إلا القليل من التقاليد الشفهية والمكتوبة العائدة إلى تيوتيهواكان، إلا أننا نعلم بأن سكان المدينة كانوا مقاتلين أشداء لديهم إيمان عميق بمعتقدات دينية، وتقديس لآلهة المطر والذرة والمعرفة والكائنات السماوية والحكام. ومن المؤكد أن الأزتك نظروا إلى تيوتيهواكان بوصفها منبت جذورهم، وأَنَّ شمسهم الخامسة، وهو عصر الأزتك الذي تأسست مدينة تينوشتيتلان وازدهرت فيه، قد خُلِقَ خلال نار قربانية في بداية الزمان. وتروي أسطورة عن نشأة العصر الخامس للكون «يقال إنه عندما عمَّ الظلام الكون، وغابت الشمس عن الوجود، ومعها الفجر، اجتمعت الآلهة في تيوتيهواكان وقالت: «من منا سيضطلع بمهمة الشمس ويجلب الفجر؟» (10). ومن ثم، وفي إشارة شكلت أهمية كبيرة بالنسبة للأزتك عند تفكيرهم بأسلافهم في تيوتيهواكان، ضحى الآلهة بأنفسهم وألقوا بها في النار، وخضعوا للسكين القربانية من أجل منح الحياة والطاقة للشمس. وعندما وُلِدَتْ الشمس عند الأفق الشرقي، وبعد أن تهادت في السماء لبعض الوقت قبل تقديم قرابين أخرى، سطعت في السماء، وبدأت رحلتها الطويلة عبر مسارات في السماوات العليا وفي العالم السفلي.

تولان: موطن عيدان القصب ومدينة الأفعى المكسوة بالريش

استحوذ مركز التولتيك الشعائري ومدينة تولان «موطن عيدان القصب» على مخيلة الأزتك وفنونهم. وعندما هاجر الأزتك نحو حوض المكسيك بإلهام من كبير آلهتهم، هويتزيلوبوشتلي، وجدوا ما سُمِّيَ بـ «ثقافة البحيرة»، وهو مزيج ثقافي هائل،

حيث تبادلت عدة مدن وعواصم السلع التجارية، وخاضت حروباً ومفاوضات مع بعضها بعضاً. كما واجههم عدد من الأعراق المنافسة، ومنهم الآكولهواس، الذين احتلوا المنطقة الشرقية للحوض، والتيبانيكس الذين سيطروا على المنطقة الغربية، والكولهواس الذين أقاموا في شبه جزيرة ايتزتابالابا، والإكسوشيميلكاس والشالاكس الذين سيطروا على المنطقة الجنوبية، والأوتومي الذين أقاموا في المناطق الشمالية. لكن الشعب الأقدم، والذي ادعت جميع تلك القبائل انحدارها منه، هم التولتيك الذين سكنوا في الحوض ما بين تسعة إلى أحد عشر قرناً، وكانوا فنانين وقادة سياسيين عظماء لماض مجيد، كما تقول الأسطورة (رغم عدم توافر آثار أو سجلات تاريخية تدعم هذه الفكرة). كما يعود الفضل إلى التولتيك في اكتشاف علم الفلك والتقويم، ووضع القوانين وابتداع الأعمال الفنية، ومنها الأشغال اليدوية من الريش، وغيرها من الفنون.

وفي ظل تلك الخرافات والأساطير حول تولان، عاش الملك ـ الكاهن العظيم توبيلتزين كويتزالكوتل (أميرنا الشاب، الأفعى المكسوة بريش) والذي كان نصيراً وممثلاً للإله كويتزالكوتل.

وقد حققت تولان (كانت تبعد زهاء 70 كيلومتراً شمال تينوشتيتلان) في عهد توبيلتزين استقراراً سياسياً، ووفرة زراعية واشتهرت بكونها عاشت عصراً ذهبياً (أو حسب التعبير التولتيكي، فيروزياً). وما إن تعرف الأزتك على «ثقافة البحيرة» حتى باتوا ينشدون الأناشيد التولتيكية، ويقلدون الطُّرُزَ الفنية التولتيكية، كما ادعى الأزتك أنهم من سلالة الفنانين والساسة الحكماء والعظماء الذين تواصلوا مباشرة مع الآلهة. وقد عُثِرَ في موقع الصقر المقاتل الأزتي في تينوشتيتلان على مقاعد طويلة زينت بأفاريز ملونة تعبر عن مواكبَ لمحاربين في محاكاة شديدة لنقوش عثر عليها في آثار التولتيك في تولان. وقد عُدَّت تلك الاكتشافات الأثرية من أهم ما كُشِفَ وعرف عن فنون الأزتك. وفي هذا السياق، يتأكد للباحثين أن فنون التولتيك تسللت إلى عقول ومخيلة الأزتك حتى بعد مضيّ قرون على اندثارهم.

كما يتأكد لنا ذلك الشعور القوي بالانحدار من سلالة التولتيك عند الأزتك



تماثيل ضخمة لمحاربين تولتيك تبرز من أعلى معبد تلاهويزكالبانتشويتل في تولا (بتصريح من سلفادور جويل ليم آرورو، والمعهد الوطني لتاريخ علم الإنسان).

من خلال عبارات أنشدوها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر حول ملك التولتيك «حقاً بدأت معه وانبثقت منه جميع أشكال الفنون العلوم».

لكنّ أنواع الفنون والآداب والعلوم التي تدفقت من تولان نحو المدن والحقول والجبال وغيرها من الأماكن تحت الوعاء الأخضر المائل إلى الزرقة لسماء كويتزالكوآتل، توقفت فجأة عند انهيار مملكة التولتيك في القرن الثاني عشر. فقد أطيح بالحاكم ـ الكاهن توبيلتزين كويتزالكوآتل، وسيطرت على المملكة فصائل أكثر عدوانية، وشنّ مزارعون مقاتلون قدموا من مناطق شمالية سلسلة غزوات على تولان، مما أدى لحدوث تحولات كبيرة. وهكذا انهار النظام الاجتماعي العام الذي حققه التولتيك خلال قرن ونصف القرن، وانتقل مركز السلطة والثقافة جنوباً نحو وسط حوض المكسيك. وفي ذلك الموقع، أنشأ الناجون من أبناء التولتيك والمنحدرون من سلالة الأرستوقراطية التولتيكية مراكز احتفالية جديدة، وأسسوا مدناً دولاً صغيرة متصارعة. وقد اختلط القادمون الجدد مع السكان الأصليين، فنشأت أشكال متنوعة من الشعر والفلسفة وفنون الطهو والأساطير والممارسات الدينية. وفي بداية القرن الرابع عشر،

تعززت الزعامة الثقافية والسياسية لـ «ثقافة البحيرة» على أيدي الكولهواس والتيبانك والآكولهوا والشالكان. وقد شكلت قبائل وسكان البحيرات ثقافة قتالية تنافسية نابضة بالحياة، كرست لتحقيق منفعة سياسية ووفرة زراعية لأبنائهم.

ذلك هو الوضع الذي واجهته إحدى أكثر المجموعات الزراعية حيوية وصموداً، وهم قبائل المكسيكا، التي هاجرت من الشمال نحو وسط حوض المكسيك حوالي عام 1300. فقد دامت هجرة أبناء تلك القبائل أكثر من قرن، وقد بدأوا صراعهم من أجل إيجاد مكان لهم على قمة الهرم الجغرافي الهائل تحت الوعاء الأخضر المائل إلى الزرقة.

الفصل الثاني

توازن العالم: الشجرة الكونية والنواحي الأربع

احملني إلى شجرتك الخاصة بالموتى
احملني إلى شجرتك المكرسة للماء
احملني إلى شجرتك الملتهبة
احملني إلى شجرتك المكرسة للشمس (11)

ذات فجر مبكر من أحد أيام عام 1300، صعد إكسولوتل (الكلب المقدس) وهومقاتل شيشيمكي إلى جبل يقع عند أطراف حوض المكسيك، ومارس طقسين دينيين أشارا إلى أن شعبه بدأ في تأسيس مجتمع جديد في سيماناهواك. وقف إكسولوتل عند نقطة أطل منها على جميع الوديان وأطلق أربعة سهام، كل منها نحو جهة من جهات العالم الأربع. وقد حدد مسار سقوط تلك السهام وموقعها حدود المقاطعة التي سيحتلها أتباع إكسولوتل. ومن ثم عمل مع أتباعه على جمع حشائش جافة وشكّلها على هيئة خاتم واسع. وبعد ذلك، أقيمت الصلاة وأنشدت الأناشيد وأحرق الخاتم، ونثر الرماد نحو جهات العالم الأربع. وقد فهم أن الرموز والأعمال التي نفذها الزعيم ـ المحارب هدفت إلى تأكيد وصول أتباعه إلى أرض جديدة سيطلقون عليها اسم الوطن. لقد رسم لهم، عن طريق شعائر دينية، خريطة مكان عيشهم الجديد.

يمثل هذا الحدث البسيط ظاهرياً بداية جيدة لدراسة الصورة العامة لعالم شعوب الأزتك، أو فكرتهم عن العالم، والتي أثرت على جميع معالم حياتهم. فقد مارس الأزتك حياتهم اليومية وتواصلوا مع بعضهم بعضاً تبعاً لهذه النظرة عن العالم، والتي سنعمل على توضيحها ضمن هذا الفصل. وكما سنرى، نظر الأزتك إلى عالمهم بوصفه قرصاً أفقياً هائلاً يتقاطع مع لوح عمودي هائل. كما اعتقدوا أن القرص الأفقي محاط



أحد أجداد المكسيكا، وقد يكون إكسولوتل، وهو يحمل قوساً وسهاماً (مخطوطات دييجو دوران، مكسيكو سيتي: آريندادورا انترناسيونال 1990، نسخة فاكسيملي).

بمياه البحار وهو مرفوع من جميع أطرافه كي يشكل جدراناً داعمة للسماء. وقد قسم القرص (صوِّر أحياناً على شكل مستطيل) خمسة أقسام رئيسة، وهي أربعة أقسام للعالم ومحور، أو وسط العالم. وقد صوِّرَ الوسط في أحد النصوص على شكل حجر أخضر ثمين يوحد أربع بتلات لزهرة عملاقة. وقد تكون اللوح العمودي العملاق من سلسلة من طبقات، وهي السماء والأرض والعالم السفلي، وقد ضمها معاً المحور، والذي تمثل بالمعبد الكبير في قلب العاصمة، تينوشتيتلان. كما قسمت كل من تلك الطبقات إلى مجموعة من الأزواج المتقابلة، مما عبر عن فكرة الثنائية التي تسللت إلى جميع عناصر عالم الأزتك. وإننا نلاحظ من خلال شعائر إكسولوتل كيف جمعت كل تلك الأفكار ـ الأفقية، والعمودية والنواحي الأربع والمركز والثنائية معاً. فقد مثلت

سهام إكسولوتل الجهات الأربع، وحشائش الأرض التي تحولت عن طريق النار إلى رماد نثر في أربع اتجاهات، والدخان الذي صعد إلى السماء، رموزاً دينية. كما تمت جميع تلك الشعائر على قمة جبل، وهو مكان يصل السماء بالأرض بالعالم السفلي.

في هذا الفصل سنحاول استكشاف صورة العالم عند الأزتك عبر التركيز على خمسة أسئلة رئيسة وهي:

1) كيف خُلِق العالم؟
2) كيف نظِّم العالم؟
3) من هم كبار آلهتهم، وما قواها؟
4) ماذا كان الهدف من القرابين، وما معناها؟
5) كيف كان شكل الزمن والتقويم عندهم؟

عبر الإجابة عن هذه الأسئلة، قد نتمكن مثل إكسولوتل، من فهم كيفية تنظيم كونيات الأزتك ومن ثم تقدير أهميتها في حياتهم اليومية.

كيف خُلِق العالم؟

قال كاتب أمريكي لاتيني: «لا يوجد في العالم سوى حكايتين يجدر الكتابة عنهما، وهما تدوران حول شخص يهجر وطنه، أو غريب يدخل مدينة».

وقد سرد الأزتك، كغيرهم من الشعوب، وأعادوا سرد حكاية أجدادهم، الشيشيميك، الذين تركوا وطنهم الأولي، وقطعوا رحلة طويلة عبر أراض ممتدة ولاقوا صعوبات ومآسي، ثم وصلوا، في نهاية المطاف، إلى وادٍ خصيب تمركزوا فيه وأنشأوا مجتمعاً جديداً. وسوف ندقق في تفاصيل هذه الهجرة، لكن هناك قصة أقدم تدور حول كيفية خلق العالم الذي ولدوا ورحلوا عبر أراضيه، وكيف منح نظاماً أساسياً. وتلك الحكاية جديرة بالذكر. فلنلق نظرة على تلك المغامرة الكونية.

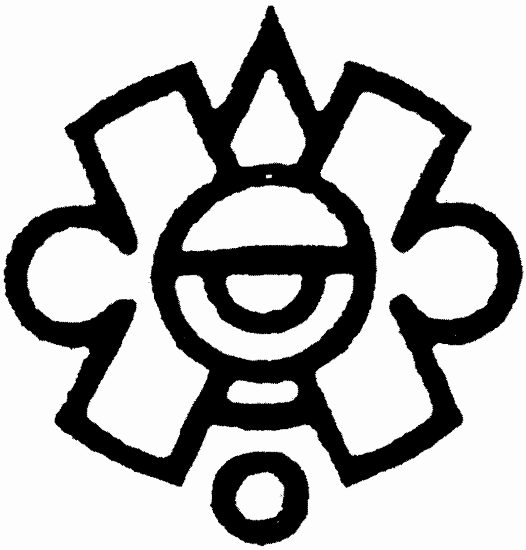
لحسن الحظ، تشير صورة لصخرة التقويم الأزتكي الشهير إلى نظرة الأزتك بشأن خلق الأكوان. ثمة في وسط الحجر نقوش ترمز لخمسة عصور أو «شموس» مرَّ بها



صورة مقرَّبة لمركز حجر التقويم الأزتكي، وهي تصور عصور الخلق الأربعة السابقة ودمارها، وهي تحيط بالصورة المركزية لتوناتيو، أي إله الشمس الذي سيطر على العصر الخامس الذي عاش فيه الأزتك (بتصريح من سلفادور جويل ليم آرورو).

العالم قبل هجرة الشيشميك الطويلة. ومن اللافت أن تلك الصورة الحجرية حول أسطورة العصور الخمسة تتطابق مع حكاية إكسولوتل القديمة، والتي ذكرناها آنفاً، وتتماثل مع تقسيمه الأرض الجديدة خمسة أقسام. ويتوافر لدينا نص كتب بلغة الناهوآتل يتحدث عن العصور الخمسة للعالم، ويبدأ النص بالقول «هذه هي الرواية الشفهية حول ما عرف عن كيفية نشأة الأرض قبل زمن طويل». وحسب اعتقاد الأزتك، بدأ العصر الأول، أو الشمس الأولى، قبل ثلاثة آلاف عام، وقد سميت باسم جاغوار4. وقد دام ذلك العصر 676 عاماً تناحرت خلاله الآلهة حول الهيمنة، ثم هبط الأسلوت (حيوان أمريكي يشبه النمر) على البشر والتهمهم خلال معركة ضارية. وقد دمرت الشمس الأولى وساد الظلام في الكون. ثم خلقت الشمس الثانية، وسميت باسم الريح 4، ودامت 364 عاماً. وقد تعاركت الآلهة مرة ثانية قبل هبوب رياح عاتية دمرت البيوت والأشجار وكل شيء، وأخذت العاصفة معها أيضاً الشمس. ثم ولدت الشمس الثالثة وسميت المطر 4، مما يعني حقاً مطراً نيرانياً. ومن جديد نشبت معارك شرسة بين الآلهة، وهلك البشر ثانية، ولكن بواسطة النار هذه المرة، والتي أمطرت لمدة يوم كامل، كما احترقت الشمس وغرق الكون في الظلام. ثم ولدت الشمس الرابعة، وقد سميت الماء 4، ودام عصرها اثنين وخمسين عاماً قبل أن تنهار السماء وتبتلع المياه كل شيء، بما في ذلك الجبال. وفي نهاية الأمر، ولدت الشمس الخامسة، أي العصر الذي وجد فيه الأزتك. وقد أطلق على ذلك العصر اسم الحركة 4، وتعني شيئين، أولهما أن الشمس ستتحرك في إطار منتظم في السماء، ومن جانب آخر يعني الاسم أن العصر سينتهي عندما تتحرك الأرض بعنف شديد. وقد خشي الأزتك من تسبب زلازل كبرى بانهيار عالمهم. ونستطيع الاطلاع على شدة التوتر الذي ألّم بالأزتك عند قراءتنا لقصة خلق عصرهم، وهي الشمس الخامسة.

تروي القصة: «ساد العالم ظلامٌ دامسٌ، وتوقفت حركة الكون عند نهاية الشمس الرابعة، واجتمعت الآلهة في مكان سمي تيوتيهواكان، مقر الآلهة، حول نار منحتهم الدفء، وتباحثوا في كيفية إعادة خلق الشمس، والعالم والحياة. وقد تم الاتفاق على أن يضحي أحد الآلهة بنفسه، وأن يرتمي في النار التي ستولد منها الشمس من جديد.



رمز أولين، ويمثل زلزال أو حركة (بتصريح من المعهد الوطني لتاريخ علم الإنسان).

وتباحثت الآلهة فيما بينها لمعرفة من سيقدم التضحية الحتمية.

ثم قالت الآلهة لتيكوكيزتيكاتل «الآن هيا يا تيكوكيزتيكاتل، ارم بنفسك في النار». ولكن عندما استعد للدخول في النار الهائلة، شعر بحرارتها الشديدة وبخوف شديد، ولم يجرؤ على رمي نفسه، بل استدار بعيداً وكرر المحاولة أربع مرات، وأخفق. وبعد تلك الإخفاقات، خاطبت الآلهة ناناهواتزين، وقالت له «هيّا حاول، يا ناناهواتزين» وما إن خاطبته الآلهة، حتى أعد نفسه وأغمض عينيه، وسار إلى الأمام، وقذف بنفسه في النار. وقد سمع صوت الشواء وفرقع جسده بشدة. ولدى رؤيته وهو يحترق في النار الملتهبة، قذف تيكوكيزتيكاتل بنفسه أيضاً في النار(12).

ثم جلست الآلهة بانتظار رؤية المكان الذي سينهض منه ناناهواتزين، والذي رمى بنفسه بداية في النار - كي يسطع كالشمس، ويبزغ الفجر. وقد جلست الآلهة لمدة طويلة تنظر في جميع الاتجاهات، وبرز فجر أحمر اللون في جميع الجهات. لكن حدث اضطراب لأن الآلهة لم تعلم من أي جهة ستشرق الشمس. «توقعت الآلهة أن تشرق الشمس من جميع الجهات، لأن النور ملأ كل مكان» لكن ذلك الاضطراب

بشأن الاتجاه الصحيح لشروق الشمس أنهاه أحد الآلهة، وهو كويتزالكوآتل (الأفعى المكسوة بريش) والذي واجه الشرق وقلدته الآلهة، بمن فيها تيزكاتليبوكا الأحمر. وأشرقت الشمس من جهة الشرق. «عندما ظهرت الشمس، بدت بلون أحمر ملتهب، ولم يستطع أي كان النظر إليها، فقد كان نورها ساطعاً ومبهراً للأبصار، وانتشرت أشعتها في جميع الجهات»(13).

لكن برزت مشكلة، لم تتحرك الشمس عبر السماء بل «ظلت تتمايل من جانب إلى آخر» وعندما واجهتها مشكلة الشروق الجزئي وأزمة ثبات الشمس في مكانها، قررت الآلهة التضحية بنفسها «فلنضحّ بأنفسنا حتى تحيا الشمس من جديد، فلنمت معاً». وهكذا قذفت بأنفسها في النار، لكن الشمس ظلت ثابتة، ولم يبدأ العصر أو الشمس التي سميت باسم الحركة 4. ولم يبق سوى إيهي كاتل، إله الرياح، والذي «بذل جهداً فائقاً أثناء هبوب رياحه حتى تحركت الشمس عبر السماء» وظهر الفجر، وخلق الكون المنتظم.

ما الذي يمكن استخلاصه من هذه القصة العجيبة؟

أولاً، لابد من الإشارة، إلى أنه، كما في العصور الأربعة الأخرى في العالم، من الصعوبة تحقيق الاستقرار والنظام في الكون. وأن ظهور الشمس المنظم لا يتحقق إلا بعد بذل جهود مضنية. ثانياً، إن هذا الصراع الطويل من أجل تنظيم العالم وتحريكه يعتمد على تضحيات، تضحيات حقيقية من قبل الآلهة، الذين ضحوا بحياتهم كي تتحرك الشمس عبر السماء. وأنها تضحيات يتخللها عنف ودماء، ومنها يأتي الخلق، وأن الشمس مولودة من العدم، ولكن ذلك كله لا يكفي. إذ يتحتم على آخر الآلهة، وهو ايهياكاتل، أن يبذل قصارى جهده من أجل استقرار العالم. وأخيراً: يمتلئ هذا الكون بالمآسي (من المهم فهم هذه الفكرة لمعرفة أهداف النشاطات التي مارسها الأزتك طوال أيامهم ولياليهم). وتنتهي أسطورة الشموس الأربعة بالقول «يواصل العجائز تأكيدهم أنه في ظل هذه الشمس ستقع زلازل وستصيبنا مجاعات، وحينئذ سينتهي عالمنا».

إن نظرة الأزتك إلى الكون تقوم على أنه عالم ديناميكي وغير ثابت وآيل للزوال في

يوم ما. وكما أنشد أحد كبار شعرائهم في مهرجانات أقيمت في العاصمة:

«ليس صحيحاً، ليس صحيحاً
أننا جئنا للإقامة هنا.
لم نأت سوى لننام، ولنحلم، فحسب».

وفي حقيقة الأمر، تلقى أجداد الشيشميك في أحلامهم أوامر بالهجرة والتنقل بحثاً عن موطن جديد.

قصة الهجرة

تظهر الصورة المرسومة على العلم الوطني للمكسيك صقراً ضخماً يصارع ويلتهم أفعى، وهو جاثم فوق شجرة صبار مزهرة نامية من صخرة. وتشير تلك الصورة إلى حكاية عظيمة حول الجذور سردت، ويعاد سردها على مسامع أطفال الأزتك وفتيتهم وراشديهم من أجل تعريفهم بقصة أجدادهم. وقد وصل إلينا أكثر من عشرين رواية حول قصة هجرة المكسيكا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وكما تركز حكاية خلق الشمس الخامسة في تيوتيهواكان على النواحي المهمة في الذاكرة الأزتية، أي مقر الآلهة، فإن قصة مغادرة الأزتك لمنازلهم في آزتلان، وهجرتهم نحو مدينتهم الجديدة تينوشتيتلان، تركز على أهمية بعض المناطق المقدسة.

وعندما أخذ الإسبان في الاستماع إلى أحاديث السكان الأصليين حول تاريخهم المقدس، سمعوا عدة روايات عن هجرة الأزتك. وتحكي هذه الرواية أن المكسيكا هجروا موطنهم الأولي في آزتلان (موقع مالك الحزين الأبيض) وشيكوموزتوك (موقع الكهوف السبعة)، وساروا في رحلة طويلة بحثاً عن موطن جديد. وقد قاد المهاجرين شامانُ/كاهنٌ رأى في المنام إله القبيلة وقد أمره بمغادرة آزتلان، والهجرة مع أتباعه، ومواصلة المسير إلى أن يروا إشارة إلهية تدلهم على موطنهم الجديد. وستكون الإشارة على هيئة صقر ضخم جاثم فوق شجرة صبار. وفي أعقاب الحلم العظيم، خاطب قائد الشيشميك أتباعه وقال لهم إنهم مطالبون بمغادرة موقع الكهوف



تمثل هذه الصورة، التي يعود تاريخها إلى القرن السادس عشر، إنشاء تينوشتيتلان، وهي شديدة الشبه بصورة تظهر حالياً فوق علم المكسيك (دييجو دوران، مخطوطة دورن. مكسيكو سيتي: آرريندادورا انترناسيونال 1990 نسخة فاكسيميلي).

السبعة، والتنقل إلى أن يصلوا إلى «شجرة صبار تنتصب فوق صخرة، وقد نمت الشجرة وأينعت، واجتذبت صقراً جميلاً بنى عشه هناك. وعندما نكتشف تلك الشجرة سيحالفنا الحظ، لأننا سنجد هناك راحتنا وهناءنا ومجدنا. كما سيُمجَّدُ في المكان اسمنا، وستغدو أمتنا، الأزتك، أمة عظيمة مجيدة. وسوف يَذيع صيت سواعدنا القوية وقلوبنا الشجاعة. وسنصبح مُلاّكَ ذهب وفضة وجواهر وأحجار كريمة، وريش فاخر، وسنحمل شارات السلطة والشرف (شارات تميز الآلهة والزعماء). كما يأمرنا إلهنا أن نسمي ذلك المكان تينوشتيتلان. وفي ذلك المكان ستُبنى مدينة «ملكة» ستحكم كل من يسكن المنطقة. وسوف نَستقبل في تلك المدينة ملوكاً ونبلاء سيقرّون بأن تينوشتيتلان هي العاصمة الكبرى (14).

نجد في هذا الخطاب بعضاً من أهم الجوانب الاجتماعية في عالم الأزتك، وهي:

(1) يحكم عالم البشر آلهة ينقلون رغباتهم عبر كهنة/شامانات.





خرج أسلاف المكسيكا من شيكوموزتوك «مكان الكهوف السبعة»(دييجو دوران، مخطوطة دوران. مكسيكو سيتي: آرريندادورا انترناسيونال 1990 نسخة فاكسيميلي).

(2) قُدِّر للأزتك أن يتركوا موطنهم الأول وأن يهاجروا بحثاً عن مدينتهم الكبرى في العالم.

(3) قدِّر للأزتك أن يصبحوا محاربين أشداء.

(4) وعدوا بالعثور على ثروات كبيرة.

وتمضي الحكاية لتخبرنا أن هويتزيلوبوشتلي كان إلهاً صارماً قاد المكسيكا في مسيرة طويلة وشاقة لعدة سنين، وعبر بهم عدة أماكن بنوا فيها معابد على شرفه. وتخبرنا الحكاية أن المكسيكا لم يكونوا سوى قبيلة من ثماني قبائل أخرى تخاطبوا بلغة الناهوآتل، وغادروا موطنهم في الشمال القاحل بحثاً عن أراض خصبة في حوض المكسيك العظيم. وفي بعض المحطات على الطريق، استقر الرحالة لعدة سنوات وخاضوا عدة مغامرات وصراعات ومعارك، واكتسبوا خبرات دينية. وفي نهاية المطاف، وجد الأزتك شجرة الصبار الموعودة وسط بحيرة تيزكوكو، ورأوا هويتزيلوبوشتلي على هيئة صقر، «بُسط جناحاه كأشِعَّةِ الشمس». وقد «تواضعوا كما تواضع إلههم، وأطرق رأسه أمامهم».

وتخبرنا بعض الروايات أن الصقر الكبير أمسك بمنقاره طائراً، في حين تخبرنا روايات أخرى أنه أمسك بأفعى. وقد عيّن المكسيكا حدود المكان، ثم احتفلوا وأخذوا قسطاً من الراحة قبل أن يشرعوا في تنفيذ أول عمل جماعي، وهو بناء معبد للإله هويتزيلوبوشتلي، والذي أصبح، كما سنرى، أعظم معبد في كامل الإمبراطورية. وتقول رواية أخرى حول وصول المهاجرين إلى منطقة البحيرة في حوض المكسيك، إن أحد الكهنة الذي رأى الصقر، غطس في البحيرة واختفى. وعندما لم يظهر إلى السطح، ظنّ رفاقه أنه غرق، وعادوا نحو معسكرهم. وفي وقت لاحق، رجع الكاهن وأخبرهم أنه هبط إلى العالم السفلي، حيث التقى بإله المطر، تالوك، وتحدث معه، فسمح الإله بأن يستقر المكسيكا في ذلك المكان المقدس. وهكذا، أصبح لديهم قوتا السماء (الصقر، هويتزيلوبوشتلي)، والأرض (إله البحيرة، تالوك) الذي سمح ببناء المركز الجديد للعالم.

كيف نُظِّمَ العالم؟

كان لعالم الأزتك، كشأن معظم عوالم شعوب أمريكا الوسطى، تقسيماً هندسياً يتألف من ثلاثة مستويات عامة، وهي العالم الفوقي، أو الفضاء السماوي، والعالم الأوسط، أو الطبقة الأرضية، والعالم السفلي وقد سميّ أحياناً باسم ميكتلان (مكان

الموتى). وفي بعض الحالات، جمعت شجرة عالمية تلك الطبقات الثلاث، حيث امتدت جذورها في العالم السفلي، وانتصب جذعها في العالم الأوسط، ووصلت أغصانها السامقة العالم السماوي. وتروي بعض الأساطير أن الأزتك آمنوا أن العالم السماوي مكّون من ثلاث عشرة طبقة (وتقول بعض المصادر تسع طبقات)، وقد سكن كل طبقة مختلف أنواع الآلهة والكائنات الخارقة للطبيعة، والتي غالباً ما صوّرت على هيئة أزواج وزوجات. وكان لكل طبقة لون وقوة واسم خاص به.

وهذه قائمة بالطبقات السماوية وآلهتها:

أومي يوكان، موقع الثنائية (المستويان 13، 12)

الملك الأحمر

الملك الأصفر

الملك الأبيض

مكان يحوي زوايا من ألواح الزجاج البركاني الأسود

السماء الخضراء المائلة إلى الزرقة

السماء السوداء

السماء حيث يحدث التدويم (دوران حول نقطة أو محور)

السماء ـ موقع الملح

سماء الشمس

سماء لإزار النجوم

سماء تلالوكان والقمر.

وقد سكن كلاً من تلك الطبقات الاثنتي عشرة آلهةٌ نافذة إلى جانب قوى ثانوية خارقة للطبيعة. وكانت الآلهة تأتي عادة على شكل أزواج، مما يعكس النموذج الرئيس في عالم الأزتك، وهو الثنائية الكونية. فقد وجدت عناصر ثنائية متناقضة في شتى المجالات، وكما أشار آلفريدو لوبيز أوستن، وهو عالم مكسيكي باهر في حقل العلوم الإنسانية: «في عالم الأزتك، نظروا إلى ثنائيات متناقضة ومنها السماء والأرض، والحرارة والبرودة، والنور والظلام، والرجل والمرأة، والقوة والضعف،

والأعلى والأسفل، والمطر والجفاف. وقد نظروا إلى جميع تلك الثنائيات على أنها متناقضة مكملة لبعضها بعضاً في آنٍ معاً، وأن عناصرها المتناقضة تقوم على علاقات متبادلة تتبادل فيها الهيمنة والنفوذ بين الحين والآخر(15).

وكما سنرى عند بحث طبيعة الجسم البشري، شكلت تلك الثنائية المفتاح الرئيس لتكون أفكار الأزتك حول المرض والعلاج والشفاء.

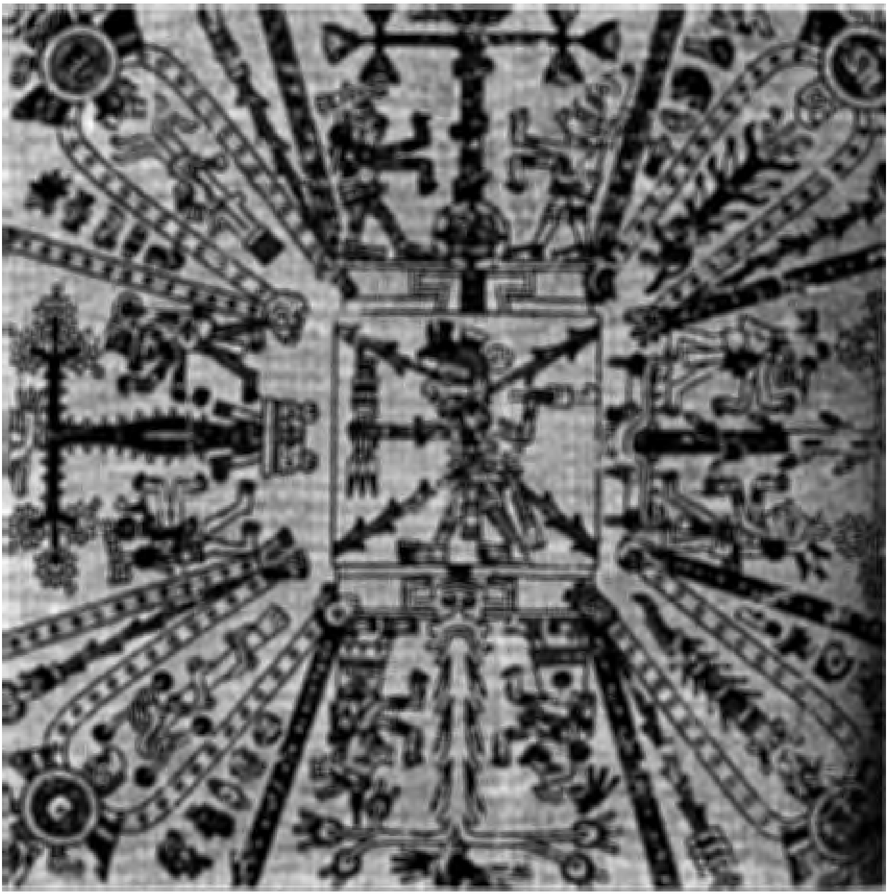
ومن أسفل هذا العمود السماوي المكوَّنِ من آلهة وقوى وألوان وثنائيات طافت الأرض ذات النواحي الأربع فوق مياه مقدسة. كما وجد أسفل الأرض تسعة مستويات من العالم السفلي:

مكان عبور المياه.

- مكان وجود الهضاب.
- الجبل المكون من زجاج بركاني أسود.
- موقع الرياح البركانية.
- موقع رفع الرايات.
- موقع إصابة أشخاص بسهام.
- موقع التهام قلوب البشر.
- موقع الموتى.
- موقع لا يجد الدخان فيه منفذاً.

وقد عُدَّتْ تلك الطبقات التسع محطات على طريق أرواح الموتى أثناء مرورهم ببطء نحو الدرجة السفلى. وكما حال عالم السماء، سكنت الطبقات السفلية آلهة وقوى ثانوية خارقة للطبيعة، قادرة على الصعود إلى الطبقة الأرضية والتأثير في الحياة اليومية.

وتشير بعض الروايات حول هذا العالم إلى وجود أربع أشجار أخرى، وهي أشجار سّيْبة (شجرة أمريكية استوائية ضخمة) هائلة أسندت السماء ودعمتها عند أركان العالم الأربعة. كما شكلت تلك الأشجار الأربع نقاط دخول رئيسة للآلهة وأتباعهم من العالمين العلوي والسفلي إلى سطح الأرض وإلى عالم البشر. وقد تشعبت تلك



تجمع هذه الصورة المأخوذة من مخطوطة فيجيرفاري ـ ماير بين تقويم تبنوي وخريطة للأكوان (بتصريح من آكديميشي دراك ـ وفيرلاجسانستالت، جرازا، النمسا، 1971، نسخة فاكسيميلي).

القوى على طول خطوط من التواصل بين النواحي الأربع والقسم الأوسط، حيث حوَّل الإله القديم، إله النار، جميع الأشياء والكائنات. وفي صورة للكون ظهرت في مخطوطة رسمها سكان أصليون قبل وصول الأوروبيين، ينقسم الكون إلى خمسة أجزاء رئيسة إلى جانب أربعة أقسام شبه فرعية، يمثّل كل منها أحد أقسام العالم الأربعة، وقد نظِّمت حول مربع أوسط. وفي ذلك المربع المركزي يظهر رسم لمقاتل مسلح، في حين تفيض جداول من الدماء نحو جهات الكون الأربع.

كما يبدو في الصورة بروز شجرة يانعة مزهرة من كل ناحية من النواحي الأربع،

ولكل منها رمز مختلف. ويعلو كل شجرة طائر مختلف جاثم لكنه يقظ. وقد أعيد إنتاج هذا المزيج من الرموز، أي جمع الشجرة مع الطائر اليقظ، في لوحة تصور إنشاء مدينة الأزتك، حيث يجثم الصقر الهائل أعلى شجرة صبار مزهرة نامية من صخرة وسط المياه.

وعلى كل جانب من تلك الأشجار السماوية يقف إلهان، كل منهما يواجه الآخر في أشكال مختلفة من الوضعيات الشعائرية. ويعكس هذا النموذج فكرة الأزتك حول الثنائية، والتي ذكرت آنفاً، وقد تكررت في جميع النواحي الأربع للكون. وبالإضافة إلى الشجرة السماوية، يوجد لكل من النواحي الأربع إلهان يقومان على توفير الرفاهية والاستقرار لناحيتهما.

وبالإضافة إلى الأشجار العظيمة، والتي عدّت قنوات لمرور الطاقة المقدسة، انبعثت القوى المقدسة من الأشجار في كل دقيقة من اليوم، وانتشرت عبر السهول. كما عدت الينابيع والغابات والكهوف بمثابة ثغرات نفذت منها القوى الخارقة للطبيعة وابتعدت عن عالم البشر الاجتماعي. كما اعتبرت النار ونور الشمس والأحجار والحيوانات بمثابة فتحات تدخل منها الآلهة إلى العالم. وقد أشير إلى تلك الفتحات، أحياناً، باسم مالينالي، أو زوجين من أربطة مضفورة دائمة الحركة مما ساعد قوى العالم السفلي على النهوض نحو السطح، كما ساعدت قوى السماء على الهبوط نحو الأرض.

الآلهة الكبرى وقواها

رأينا في قصة الخلق عند الأزتك، وفي قصص الهجرة أن الآلهة لعبت دوراً رئيساً في إتمام تلك المهام. لكن من هي تلك الآلهة، وما هي القوى التي امتلكتها في نظر شعوب أمريكا الوسطى؟ كما لا بدّ لنا أن نسأل، هل آمن أولئك السكان بإله واحد أم بعدة آلهة؟ تشكل هذه النقطة أهمية نظراً لأننا نعلم بأن أحد أسباب الصراعات الكبرى التي وقعت بين الشعوب الأوروبية وسكان أمريكا الأصليين، كانت بسبب معتقداتهم المختلفة وممارساتهم تجاه الآلهة.

فقد كان لدى الأزتك ما يمكن تسميته بالبانثيون، أي عالم مكرس لجميع الآلهة. وكان عندهم إله خالق أعظم، واسمه أومي تيوتل أو «واهب الحياة» وكان إلهاً مزدوجاً من الزوجين أومي تيكوتل وأومي سيهوآتل، كما كان ذلك الإله سماوي وخنثوي (يجمع بين الذكر والأنثى) وكان هو الخالق الأولي للكون. ويشبه هذا الإله إله بعض المعتقدات الغربية في كونه كلي القدرة والوجود والعلْم بكل شيء. وكان الجانب الذكوري موجوداً، على وجه الخصوص، في النار، والشمس وفي جميع آلهة الذُّرَة الذين أمَّنوا نمو الذرة. وقد وُجِدَ الجانب الأنثوي لهذا الإله في المزروعات والمياه، وفي الأرض، وأمَّن التكاثر عند جميع الكائنات، وتعبر أنشودة عن الوجود الكلي وقوى هذا الإله الثنائي على النحو التالي:

إنه إله الثنائية وإلهتها
إنه إله وجودنا وإلهتها
إنه أب وأم جميع الآلهة، الإله القديم
وهو، في الوقت نفسه، إله النار والمقيم في وسط النار
إنه مرآة النهار والليل
إنه النجم الذي ينير كل شيء، وهو سيدة الجانب المشع من النجوم
إنه أبونا وأمنا
وقبل كل شيء، إنه أومي تيوتل المقيم في موقع الثنائية، أومي يوكان(16)

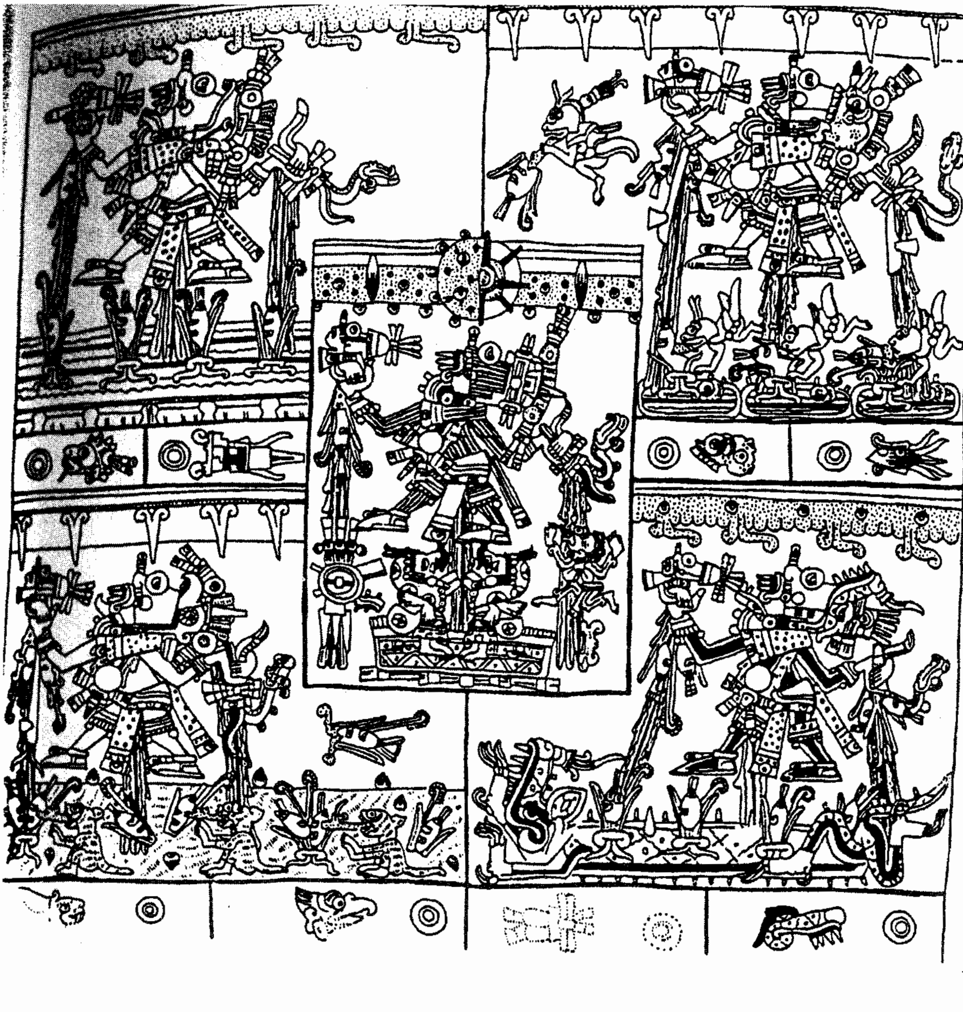
وقبل أن ندخل إلى أعماق البانثيون، لا بدّ من إدراك حقيقة وجود عشرات من الآلهة التي ارتبطت بجميع جوانب الوجود عند الأزتك. ويعود سبب ذلك إلى أن الحياة في مجملها عدّت أمراً مقدساً، ومشبعة بقدرة الكائنات المقدسة. وقد كانت تلك الآلهة ممثلة للقوى المقدسة التي تخللت العالم. وقد أشير إلى تلك القوى العديدة بكلمة «تيوتل» في لغة ناهوآتل، والتي ترجمها الإسبان إلى «إله» أو «قديس» أو «شيطان». لكن، في معتقدات الأزتك، شكل تيوتل رمزاً لقوى مقدسة ظهرت بجلاء في أشكال طبيعية (مثل شجرة أو جبل أو عاصفة)، ولدى شخصيات رفيعة

المقام (كملك أو جد أو مقاتل). كما ظهرت تلك القوى في أماكن غامضة ومجهولة (كالكهوف والدوامات أو العواصف). وأن ما ترجمه الإسبان في لفظ «إله» كان يعني عند الأزتك طيفاً أوسع لمجموعة من القوى مقدسة حرّكت العالم.

ولحسن الحظ، تمثلت تلك الآلهة في حكايات ورسوم وتماثيل ومجسمات. وحتى عندما اتخذت الآلهة شكل حيوان، كما في حالة إكسولوتل، الكلب المقدس، أو على هيئة شيء شعائري، كما في حالة إيزتلي، إلهة السكين، التي كان لها غالباً سمات بشرية كأذرع وسيقان وجذع ووجه. كما أقام عدد من تلك الآلهة في الطبقات المختلفة من عالم السماء المكوّن من ثلاث عشرة طبقة، أو في العالم السفلي ذي الطبقات التسع. وهل تذكرون ما قلناه حول الكون المكوّن من أربعة أقسام؟ فقد نظم البانثيون على النسق ذاته. فقد وجد، في عدة حالات، مجموعات رباعية أو خماسية من الآلهة. وعلى سبيل المثال، نقرأ في أحد الكتب القصصية الباقية، وهي مخطوطات بورجيا، أن تلالوك (إله المطر) يقيم في المنطقة الوسطى من السماء، في حين يقيم أربعة تلالوك آخرون في الأركان الأربعة للسماء، وكل منهم يرسل نوعاً مختلفاً من الأمطار.

ومن أجل فهم كيفية عمل تلك الآلهة، خاصة إله الخلق، فلنعد إلى قصة هجرة كويتزالكوآتل المتنقل عبر مختلف المناطق المقدسة في الكون من أجل إعادة خلق الحياة البشرية. تظهر هذه القصة دور القوى الرئيسة عند آلهة الأزتك، وهي قوى خلق أو تدمير الحياة.

تروي الحكاية أنه عند نهاية الشمس الرابعة، وعندما انعدم الوجود البشري، وقد بدأت عملية إعادة خلق العالم، غطس الإله كويتزالكوآتل في العالم السفلي بحثاً عن عظام الأجداد. وقد سافر عبر طبقات العالم السفلي الثمان، إلى أن وصل إلى الطبقة التاسعة ـ ميكتلان، حيث صرح «إن الآلهة قلقة ومتشوقة لأن يسكن شخص ما على سطح الأرض». وقد قاومه ميكتلانتيكوتل وميكتيكاسيهوآتل، إله وإلهة منطقة الموتى. وقال لهم كويتزالكوآتل «أتيت بحثاً عن عظام ثمينة في حوزتكما». وقد أخضعاه لعدة اختبارات. في البداية، قال له الإله ميكتلان «حسناً، ردّد صدى بوقي، وسر حول عالمي الدائري أربع مرات». لكن البوق خلا من أية ثقوب، فاستدعى



خمسة تلالوك يرسلون المطر (مخطوط ة بورجيا، بإذن من سيجلو فينتيونو إديتوريس، المكسيك).

كويتزالكوآتل الديدان ففتحت ثقوباً. ثم طار سرب من النحل داخل البوق فتردد صداه. وعندها أخبره ميكتلانتيكوتل أن بوسعه حمل عظام أجداده، لكنه أمر مساعديه بعدم السماح لكويتزالكوآتل أن يخرج بها. وقد بحث كويتزالكوآتل عن العظام وعثر عليها، ثم جمعها في كيسه وانسلّ خارج طبقة ميكتلان. وبينما كان يسير على طول خط مستقيم، برز أمامه فجأة سرب من طائر السّماني فذُهِلَ وسقط في حفرة، وتناثرت العظام التي انقسمت قطعاً صغيرة أخذت طيور السّماني في

قضمها. وبسبب هذه الحادثة، خلق البشر الجدد في أشكال وأحجام مختلفة. ورغم مقتل كويتزالكوآتل عند سقوطه، امتلك القوة الكافية لإعادة إحياء نفسه. وقد نجح في الهرب حاملاً العظام، ووصل إلى إحدى جنات الأزتك، وهي تاموآنشان، حيث سلم العظام إلى سيهواكوآتل «المرأة الأفعى»، والتي طحنتها وصنعت منها عجينة ووضعتها داخل جرتها المقدسة. ثم صبت الدماء فوق العجينة، وأعيد خلق الحياة البشرية. «ولد الناس واستحقوا الحياة عبر التكفير عن خطاياهم»(17).

في القصة السابقة، قرأنا عن القوى الخارق لتلك الآلهة. أولاً، إنها قادرة على عبور مختلف مناطق العالم والإقامة فيها، فقد بدأ كويتزالكوآتل رحلته من مستوى الأرض وهبط نحو العالم السفلي، ثم صعد إلى العالم السماوي. ثانياً، بوصفه رسولاً لإعادة الخلق، كان لابدّ لكويتزالكوآتل من أن يخضع لتجربة في العالم السفلي. وإننا نعلم من خلال دراسة علم الكونيات عند قبائل المايا، أن العالم السفلي، اكسيبالبا، مملوء بسلسلة من «البيوت»، بحيث يخضع المسافر لتجارب سحرية يمكن أن تجمدهم أو تحرقهم أو تقطع أوصالهم. ثالثاً: تأتي الآلهة على شكل أزواج. وهناك مجموعة من أزواج الآلهة في العالم السفلي، كما يوجد زوج من آلهة الخلق في جنة تاموآنشان الذي يفترض به أن يكون متعاوناً من أجل إعادة إطلاق الحياة البشرية. كما أننا نتعرف إلى ثلاثة عناصر رئيسة في البانثيون، وهي آلهة الخلق، وآلهة الخصب والآلهة التي تضحي بأنفسها.

سنحاول دراسة العناصر الثلاثة واستعراض بعض صفات كل إله كان له دور في الحياة اليومية للأزتك.

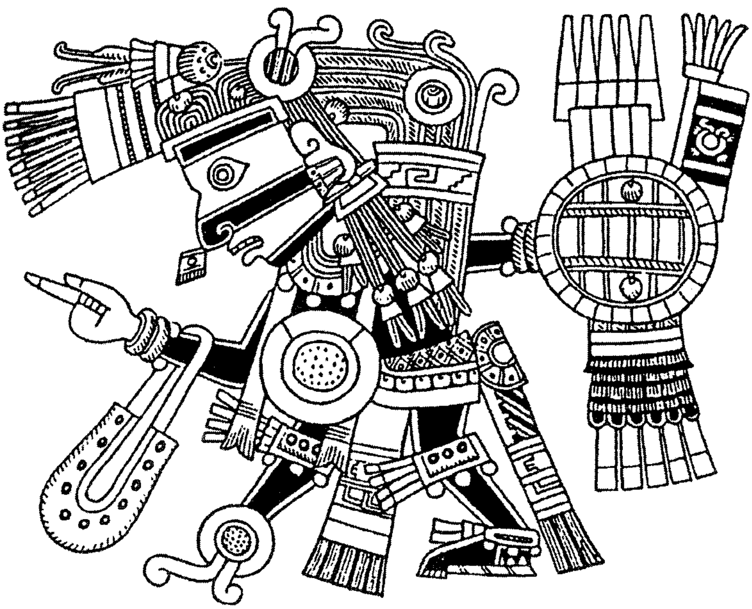
آلهة الخلق

إلى جانب أومي تيوتل، إله الثنائية، والذي كان هو الخالق الأعظم، وجدت سلسلة من آلهة الخلق التي عملت على تنظيم الكون. وقد حظيت جميع الآلهة بتقديس الناس، بدءاً من الحاكم إلى الشخص العادي. وقد حظيت آلهة الخلق الأربعة الكبار، وهي كويتزالكوتل وتيزكاتليبوكا واكسيوتيكوتلي وتلالوك بتمثيل واسع، فنقشت

صورهم على الأخشاب والأحجار، أو رسمت على الجداريات وفي المخطوطات. وقد تنافست تلك الآلهة على النفوذ والسيطرة على العالم خلال عهود الشموس الأربعة التي سبقت عصر الشمس الخامسة. وتتوافر صور عديدة لأولئك الآلهة، فضلاً عن الأساطير التي تتحدث عن قواهم ومغامراتهم ونفوذهم.

وقد كان تيزكاتليبوكا، إله المرآة الدخانية، أقوى آلهة الخلق. وقد ازدانت وتماثيله بالريش والمرايا. وقد كان، على المستوى الاجتماعي المحلي، هو الساحر الأعظم، والذي كشف دخان مرآته المصنوعة من الزجاج البركاني عن قوى الظلام والليل والنمور والسحر. كما امتاز ذلك الإله بالحيوية والنشاط، والاستبداد والترهيب. وسوف نورد هنا أسماء بديلة لهذا الإله. فقد أطلق عليه أيضاً اسم يوواللي ايهيكاتل «رياح الليل» أو الريح الخفية. كما حمل هذا الإله اسم ميوكوياتزين «الإله النزوي» ومونينيكوي «الطاغية» وياأوتل «العدو» ونيكوك ياأوتل «عدو الجانبين». وبكلمات أخرى، كان مخيفاً. وفي الواقع، كان قادراً على الوجود في كل مكان. ومن الكلمات التي تقال عند الصلاة إلى الإله تيزكاتليبوكا «يا سيدي، يا مولانا، أيها الليل، أيتها الرياح، إنك ترى وتعلم ما في داخل الأشجار وضمن الصخور. وأنت تدري ما يعتمل في أعماق صدورنا وتسمع أصواتنا الضمنية، وما نقوله وما نفكر أو نشعر به. ويبدو كأن الدخان أو الضباب يتلاشى أمامك» (18).

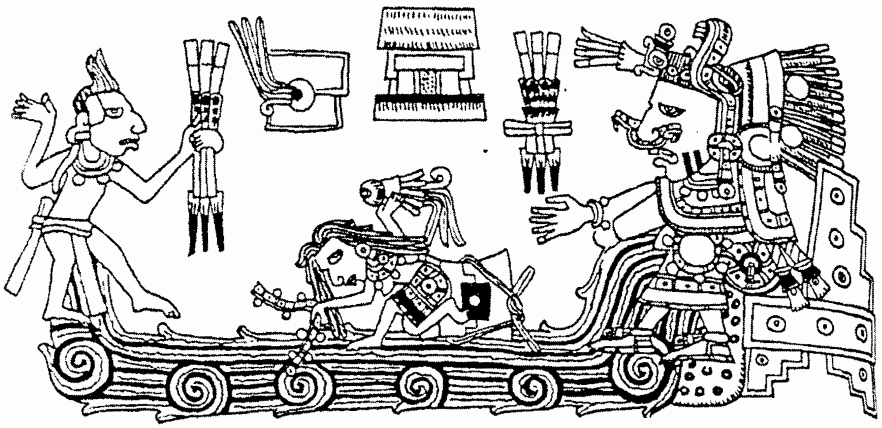
وهناك قوة خالقة أخرى تتمثل في الإله إكسويتيكوتلي، إله النار القديمة الذي طاول نفوذه جميع فئات المجتمع والأكوان. وقد لقّب إكسويتيكوتلي باسم «نار الوجود»، والتي ظلت مشتعلة في بعض المعابد طوال الوقت. كما مثل النار في كل بيت، فهو يمنح الدفء والنور والطاقة لإعداد الطعام. وقد كان للإله إكسويتيكوتلي وجود في عدة احتفالات نارية جديدة، مثل تدشين المعابد والملاعب والقصور. كما كان لحضوره أهمية خاصة، وذلك أثناء احتفال «النار الجديدة» الذي أقامه الأزتك في كل اثنين وخمسين عاماً، عند ختام دورة التقويم الأزتي. وعندما ندرس الهدف من تقديم القرابين البشرية ومعناها العام، سنرى مدى شهرة هذا الإله ونفوذه الكبير.



تيزاتليبوكا «المرآة الدخانية» (مخطوطة بورجيا، من كتاب واروبك بري «الحياة اليومية عند الأزتك القدماء»، لندن: بي.تي. باتسفورد، 1968. بتصريح من بي.تي. باستفورد).

آلهة الخصب

دارت الحياة اليومية عند الأزتك، بدرجة كبيرة، حول الزراعة وقوى الخصب والنماء، وتجدد المحاصيل الزراعية. وقد اعتمدت كل أسرة على أشكال متنوعة من الزراعة المركزة التي تطلبت تطبيق جداول عمل منظمة للزراعة والرعاية والحصاد. ولذا وجد آلهة الزراعة حولهم، وكانوا جزءاً من وجودهم اليومي. وقد مارس الأزتك طقوساً خاصة بإحراق الحقول، وإعداد الأرض للبذار والزراعة، وعند مراقبة مراحل النمو الزراعي، وكذلك عند قطف أكواز الذرة وتخزين الأغذية، ومن ثم تناولها. وكحال الأطفال الصغار، احتاجت الحقول إلى اهتمام دائم ورعاية وتغذية. وفي حين حظيت عدة آلهة إناث بالعبادة والعمل على رعاية المزروعات، كان أقدم الآلهة وأقدسها هو تلالوك، إله المطر الذي أقام في أعالي الجبال، إذ ظن الأزتك أن الغيوم تخرج من كهوف لتخصيب الأرض بواسطة الأمطار. وقد عُبد جبل بعينه، وهو جبل تلالوك، بوصفه المصدر الرئيس للمياه والإنبات. وكما يتوقع القارئ، رافق تلالوك



شالشويتليكو، آلهة المياة الجارية (مخطوطات بوربونيكوس، بتصريح من سيجلو فينتيونو، المكسيك).

آلهة أنثى، عرفت أحياناً باسم شالشويتليكو، وهي آلهة البحيرة والمياه الجارية. وقد صُوّرت في عدة أشكال، ومن ضمنها تماثيل من أحجار خضراء ثمينة.

ومن أعجب سمات تلالوك جنته، تلالوكان، والتي عدّت أحد الأماكن المفضلة للحياة الآخرة، وهي نوع من الجنة الأرضية.

وعند حديثهم مع الأب بيرناردينو دي ساهاجون حول عالمهم، قال الأزتك في وصف تلالوكان: «تتوافر هناك رفاهية العيش والثروة، وتنعدم الآلام والمعاناة. ولا تنعدم هناك الذرة ولا الدقيق، ولا الطماطم أو البقوليات. وفضلاً عن ذلك، يقيم تلالوك هناك، وهو يشبه الكهنة الذين يوفرون النار لنا»(19).

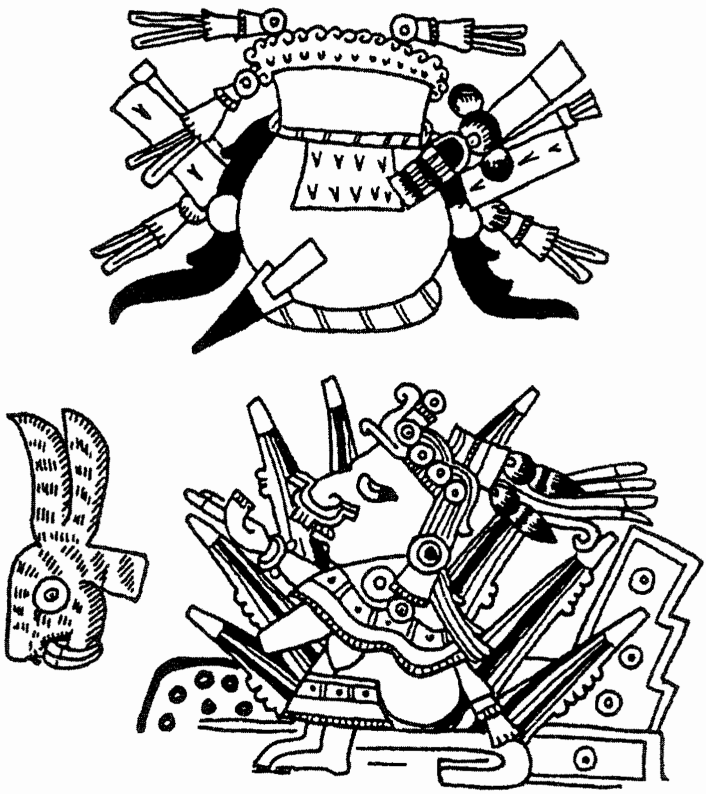
وقد دُهِشَ الأزتك من ظاهرة البرق والرعد، وآمنوا أن الغرقى يجدون مكاناً لهم في تلالوكان. فقد اعتقدوا أن الموت بتلك الطريقة يعني أن تلالوك قد اختار أولئك الأشخاص مكافأة لهم، أو كوسيلة لاستعراض قوته. والأهم من كل ذلك، ساد عندهم اعتقاد بأن تلالوكان عبارة عن مخزن هائل للمياه وطاقة الخصب والنماء، وقد وهب تلالوك وأخذ قوى الحياة الجديدة الثمينة.

كما وُجِدَت مجموعة من أمهات الآلهة، وظن الأزتك أن بعض تلك الآلهة تشبه الأمهات على وجه الأرض، والتي تمثلت في قوى الوفرة في التربة والنساء والخصوبة.

وكانت تلك هي آلهة الأرض والمياه والقمر والجنس ومولد الحياة والإخصاب والمرض وعلاج أمراض البرد. وقد تركزت الفكرة الرئيسة في نموذج الأم القادرة على توفير الراحة أو الأذى، والحب أو الخوف، والحياة أو الموت. وكان من أهم أمهات الآلهة تونانتزين «أمنا الموّقرة» التي لاقت التبجيل والتوقير الواسع في زمن الأزتك. وعند قدوم الإسبان، ظهرت عذراء جوادالوبي على الهضبة نفسها التي كرست لعبادة تونانتزين. ولكن ربما كانت الآلهة كوآتيلكو من أقوى أمهات الآلهة الأرضية «سيدة تنورة الأفعى» والتي سيرد وصف لتمثالها العجيب في الفصل السادس. ومن أسماء الآلهة الأرضية، التي مثلت القوى المتصارعة الواهبة للحياة، إكسوشيكوتيزال، أو «الريشة الوردية الثمينة»، وقد كانت هي آلهة الحب والرومانسية والرغبة الجنسية، وقد ارتبطت بالأزهار والمآدب والبهجة. كما وجدت تلازوليتوتل، آلهة الفحش والخطيئة الجنسية، وآلهة ماياهويل، «طوق من الأسلحة»، وهي آلهة الشراب. وعند تتبع نمط الثنائية التي ذكرت آنفاً، يمكن لتلك الآلهة أن تظهر أيضاً في أشكال ذكورية.

الجسم البشري كنظام كوني متكامل

قبل دراسة الآلهة القربانية، قد تفيدنا دراسة النمط السائد للجانب المقدس في عالم الأزتك، ألا وهو الجسم البشري. فقد ساد اعتقاد بأن الجسم البشري مستقطب فعّال لقوى كونية، وهو مركز للعالم متحرك ونابض بالحياة. وكما نجد في صورة للكون مأخوذة من مخطوطات فيجيرفاري ـ ماير، يقف جسد إيكسيتيكوتل «إله النار» في قلب الكون. ويجري من جسده أربعة جداول من الدماء، وتتجه نحو أقسام الكون الأربعة، مانحة إياهم الطاقة والحياة. وقد ورد في نظرة الأزتك للأكوان أن الجسم البشري مستقبل للقوى المقدسة التي دخلت واستقرت داخل عدة أجزاء من الجسم مانحة إياه قوة مقدسة. ويمكن التعبير عن هذه الحالة بطريقة أخرى. فقد ساد بين أوساط الأزتك اعتقاد بأن الجسم البشري يحوي ثلاثة أرواح، أو ثلاث كينونات مفعمة بالحياة، قابلة لأن تقوى أو تضعف خلال حياة صاحبها. وقد حملت تلك الأرواح أسماء هي تونالي، وتي يوليا، وإيهي يوتل.



ماياوأوتل، آلهة الأغاف وشراب البلكة الشعائري (مخطوطة بورجيا، بتصريح من سيجلو فينتيونو إيديتوريس، المكسيك).

وقد جمعت وغذّيت التوناللي (من تونا «يشع» أو «يمنح الدفء بواسطة الشمس») داخل الجمجمة البشرية. ويرجع مصدر توناللي الأصلي لأوميتويل، وهو إله الثنائية الأعظم، والذي أقام في أعلى الطبقة السماوية الثالث عشرة. لكن توناللي المقدس وصل إلى البشر عبر جهود كائنات سماوية عاشت في مستويات سماوية أخرى. وقد ساد اعتقاد بأنه لحظة حدوث الحمل في الجسم البشري، يقتحم أوميتويل إحدى الطبقات السماوية ويرسل طاقة مفعمة بالحياة في رحم الأنثى. وقد تركزت تلك الطاقة في رأس الجنين مما نتج عنه تكوين مزاج الشخص ومصيره. وبعد ولادته وهو يحمل ذلك القدر الأولي من توناللي، كان الأزتك يضعون المولود بالقرب من نار

موقدة، ثم يعرّضونه، في نهاية الأمر، إلى الشمس من أجل زيادة حجم التونالّلي في جسمه أو جسمها. ورغم الاعتقاد بأن الشمس هي أقوى مصدر مرئي للتونالّلي، كان بمقدور الناس اكتساب التونالّلي من خلال أفراد أسرتهم أو من أشخاص يتواصلون معهم بشكل ودي وثيق.

ولكلمة تونالّلي سلسلة غنية من المعاني. إنها تشير إلى القوة والدفء وحرارة الشمس وفصل الصيف وإلى الروح. وقد تسربت تونالّلي إلى الحيوانات وإلى الآلهة والنباتات والبشر، وإلى عناصر استخدمت عند إقامة الشعائر والطقوس. وكان الشعر الذي يغطي الرأس، وخاصة الجهة الأمامية منه، مستقبِلاً رئيساً للتونالّلي. كما منع الشعر تونالّلي من مغادرة الجسد، ولذا عُدَّ بمثابة غنيمة قيِّمة إبَّان الحروب. ولأن الأزتك اعتقدوا أن الثبات والبسالة يوجدان داخل شعر الإنسان، فإن عدداً من المشاهد المصورة تظهر محاربين أزتك وهم ممسكون بشعر الأعداء. وقد احتفظ المحاربون بشعر اقتلعوه من رؤوس خصومهم أثناء المعارك من أجل زيادة التونالّلي عندهم. وقد مثَّل رأس مقطوع لأحد الأعداء غنيمة كبرى في المدينة التي اكتسبت مزيداً من التونالّلي عند إقامة الاحتفالات.

وأما التي يوليا، والتي سكنت القلب البشري، فقد كانت مصدراً لقوى مقدسة أخرى تحيي وتنعش الجسد البشري. وقد ساد اعتقاد بأن التي يوليا «نار مقدسة»، وقد أحيت الجسم البشري وشكلت العواطف البشرية وأنماط التفكير، والقوة العاقلة في حياة البشر. وقد احتوى كل قلب بشري على تلك النار المقدسة، لكن قدراً أكبر خارقاً من تلك النار سكن قلوب الكهنة والفنانين والرجال والنساء الذين مثلوا الآلهة في المهرجانات والاحتفالات. وقد عدّ كل من تلك الأنماط البشرية بمثابة قناة حية للتي يوليا في العالم الاجتماعي، وكهدية للمجتمع مفعمة بالطاقة. وعندما برع أحدهم وقدّم شيئاً استثنائياً في حقل الفنون أو الحكم أو القتال، وغيرها من الأنشطة الاجتماعية، فقد ارتفعت التي يوليا عنده.

وعند وفاة شخص ما، كانت التي يوليا عنده أو عندها، تنتقل إلى عالم الموتى السماوي، والذي عرف باسم «سماء الشمس»، حيث تحولت إلى طيور. وقد شكل

ذلك النمط من التحول الروحي نقطة رئيسةً في الفكر الأزتي، لأن اقتلاع قلوب الأعداء (بعد أن تحولوا إلى آلهة) قد أثمر عن تدفق مخزون هائل من الطاقة المقدسة نحو إله الشمس. وقد ورد في أحد النصوص: «قال القدماء إنهم عندما ماتوا، لم يفنوا، بل أَخَذوا في العيش من جديد وكأنهم استيقظوا من حلم وقد تحولوا إلى أرواح أو آلهة. وقد قالوا لهم «أيها الإله، أيتها الإلهة استيقظا، فقد أوشك الفجر على البزوغ، وأخذت الطيور الصفراء والأرجوانية تغرد وتشدو، وشرعت الفراشات المتعددة الألوان في الطيران» (20).

وقد سكنت تي يوليا في الجبال والبحيرات، وفي المدن والمعابد والنباتات والأشياء القوية. كما وجدت تي يوليا أو «القلب» في جميع السهول الكبرى مثل بحيرات المكسيك وجباله. وقد امتلكت كل مجموعة بشرية آلتيبي يوللوتل، أو قلب المدينة، وهي قوة مقدسة حية مُثّلت، في بعض الأوقات، في تماثيل أو صور مزخرفة. وقد اكتُشِف، خلال الحفريات الأخيرة في معبد الأزتك العظيم، عددٌ من التماثيل تمثل تي أوليا أو قلب الهرم المقدس. وكان ثالث الأرواح البشرية أو الكينونة المنعشة هي ايهي يوتل، والتي سكنت الكبد. وقد اعتقد الأزتك أن إيهي يوتل عبارة عن غاز مضيء قادر على اجتذاب الرقى وإطلاقها نحو كائنات بشرية أخرى. وكان من الممكن الاستفادة من تلك الطاقة في استقطاب الإعجاب، وشفاء شخص آخر، أو في استخدامها لإنزال الضرر بالبشر أو نباتات وحيوانات وأشياء أخرى. وقد خرجت طاقة إيهي أوتل عبر نفَس الإنسان، أو من خلال نسمة أحدثتها حركة يد بشرية.

كما منحت تلك الأرواح الثلاثة الجسم البشري قيمة هائلة وقابلية السقوط في أيدي الأعداء، والقوة، وأظهرت أن الكائنات البشرية تمثل صوراً صغيرة من الأكوان، فضلاً عن تشبعها بقوة مقدسة.

القرابين الإلهية وصورة العالم

كان من أكثر جوانب حياة الأزتك إثارة للعجب والدهشة، تقديمهم القرابين البشرية والحيوانية والنباتية وأشياء متنوعة أخرى، سيتم بحثها في فصل لاحق. وكما

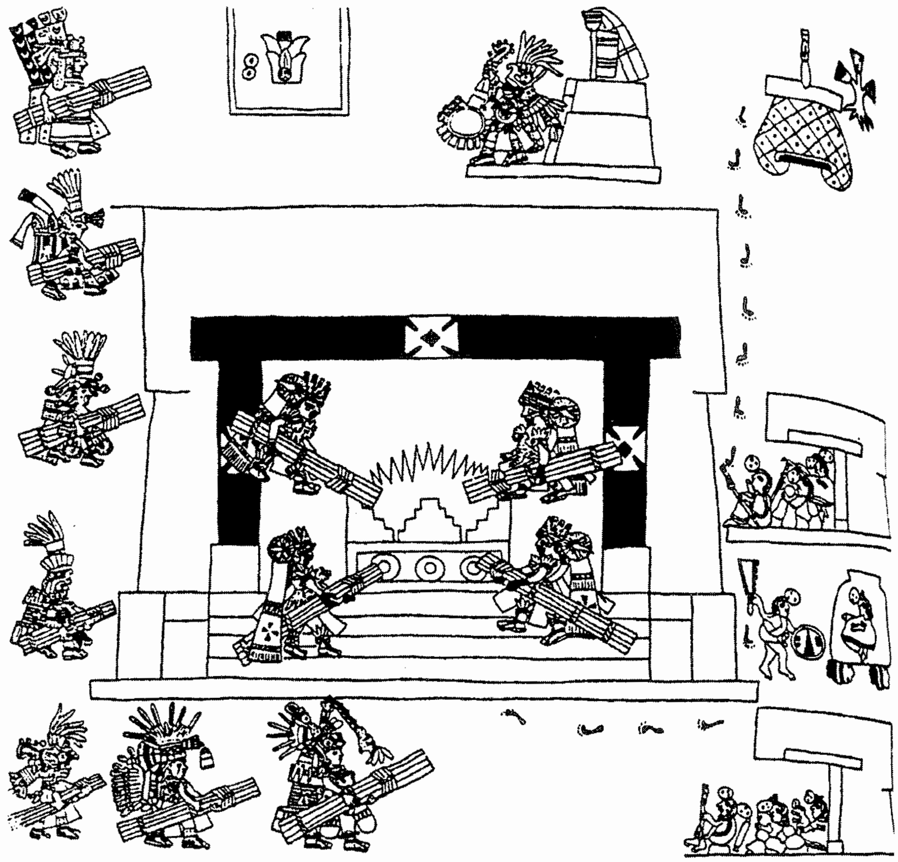
هي الحال في جميع مناحي الحياة، وجدت القوى المقدسة، وارتبط عدد من الآلهة باحتفالات تقديم القرابين. وفي حقيقة الأمر، بدا أن جميع الآلهة كانوا جزءاً من طقوس القرابين. وكان من بين الوسائل التي اتخذتها الآلهة كي تصبح جزءاً أساساً من القربان، العمل على لعب دور الوسيط لممثل الاله، أي تيوتل إيكسيبتلا. وكان من المحتمل أن يكون ممثل الإله أو «صورة الإله» على هيئة حيوان أو نبات أو شيء ما، أو كائن بشري. وقد تحول الإنسان (حسب معتقدات الأزتك) عن طريق السحر والشعائر المعقدة إلى صورة حية عن الإله. ثم قدمت تيوتل إيكسيبتلا، أو صورة الإله، كقربان، ما أدى لإعادة مولد الإله ككائن قوي جديد. وتشرح مواسم الاحتفال المعروفة باسم تكسوكاتل تلك الفكرة. وقد اشتملت تلك المراسم الاحتفالية على تحويل محارب ذي صفات مثالية إلى الإله تيزكاتليبوكا. وقد اختير المحارب بعناية شديدة، وأُلبس أزهى الثياب، ودُرّب ثم عُبِد ثم قُدّم قرباناً في احتفال عام. وقد تطلب الأمر أن يمتاز المحارب المختار بصورة جسدية كاملة، لأنه كان سيُعبد كإله، وقد درّب على عزف القيثارة، ودرس فن الخطابة والبلاغة، وطُلب منه التجول حول المدينة. وبعد عام من الاحتفال قدم له أربع نسوة إكسيبتلا لمرافقته. ومن ثم قُدّم قرباناً وقُطع رأسه. وعُرض رأسه في موقع السوق الرئيس، وأعيد إحياء تيزكاتليبوكا.

إن طقوس تقديم هذا القربان لا تثير الدهشة إن تذكرنا الدراسة السابقة للأساطير التي رافقت خلق الشمس الخامسة، عندما ضحت الآلهة بأنفسها وارتمت وسط النيران في تيوتيهواكان من أجل عودة الشمس. وأما الشمس، توناتيو (التي تبدو صورتها وسط صخرة التقويم الأزتي)، فقد اعتمدت على تغذية دائمة من قلوب بشرية. ويظهر لسان الشمس في هيئة سكين قربانية ممتداً كأنه ظمآن.

ومن أجل أخذ فكرة عامة حول انعكاس وتأثير القربان على عالم الأزتك، قد نستفيدُ من التركيز على قربان بعينه. إذ في كل اثنين وخمسين عاماً أقيم احتفال «النار الجديدة» من أجل إعادة خلق العالم الذي عاش فيه الأزتك. وقد يساعدنا التأمل في طبيعة هذا الاحتفال على فهم العلاقة الغريبة بين الخلق والتضحية. كما نلاحظ في هذا الطقس كيف امتزج التقويم الأزتكي مع عدد من المواقع المقدسة.

في صباح احتفال «النار الجديدة» يخرج عدد من كهنة النار في موكب مع مقاتل أسير، ويبدون في شكل مُنَظَّم، وقد ارتدَّوْا زي الآلهة. ثم يخرجون جميعاً من حدود المدينة الكبرى باتجاه معبد مقدس بُني فوق هضبة النجمة. وفي الأسابيع السابقة لليلة الفاصلة التي يقام فيها الاحتفال، يعمل جميع السكان في عالم الأزتك على إطفاء نيرانهم ورمي تماثيل الآلهة في الماء، وتنظيف بيوتهم وشرفاتهم وطرقهم. وتضع الحوامل أقنعة من أوراق الصبار الأمريكي، ويتم إبعاد الأطفال تجنباً لتحولهم عن طريق السحر إلى فئران. كما يتم سجن بعض النسوة داخل مخازن للقمح خشية تحولهن إلى وحوش تلتهم الرجال. وفي تلك الليلة التي يأتي ترتيبها في التقويم الدائري عند الليلة 18،980، يقوم كهنة النار بإعادة خلق كامل الأكوان من خلال التضحية بقلب محارب أسير اختاره الملك. وقد نُقِلَ إلينا، أنه عند إقامة الاحتفال في منتصف الليل فوق هضبة النجمة، يصعد السكان إلى أسطح منازلهم. وعند تلك اللحظة، يمدُّ السكان رقابهم ويركزون انتباههم على الهضبة، ويستولي عليهم خوف شديد من استحالة إعادة خلق الشمس مما سينجم عنه تدمير العالم إلى الأبد.

ومع مواصلة الاحتفال، يركز كهنة النار أبصارهم على حركات مجموعة من النجوم عرفت عندهم باسم تيانكويزتل، وتعرف حالياً باسم مجموعة الثريا. وإذ تقترب مجموعة النجوم تلك من دائرة خط الزوال، مما يدل على أن الحركة في السماء لم تتوقف، تُشعل نار صغيرة على صدر المحارب الممدد على التراب. ورد في نص قديم: «عندما تخمد نار صغيرة يسارع الكاهن لشق صدر المحارب بواسطة سكين حادة، ويستخرج القلب ويرمي به نحو النار. ومن داخل الصدر المفتوح تشتعل نار جديدة ويراها جميع الناس». وللمشاركة في القربان، يحدث المتجمهرون جروحاً في آذانهم، وفي آذان الرضع في مهادهم، وينثرون الدماء التي غطت أصابعهم باتجاه النار المضطرمة فوق الجبل. ومن ثم تحمل النار الجديدة من الجبل نحو الهرم «معبد هويتزيلوبوشتلي» في وسط مدينة تينوشتيتلان، وتوضع داخل وعاء النار الخاص بتمثال الإله. ثم يحمل الرسل والعداؤون وكهنة النار، الذين جاؤوا من جميع أرجاء المنطقة، النار ويعودون بها نحو المدن، حيث يسارع الناس بعد إصابة أجزاء من أجسادهم بقروح وبثور



شعيرة النار الجديدة (مخطوطة بوبربونيكوس، بتصريح من سيجلو فينتيونو ايديتوريس، المكسيك).

جرّاء ملامسة النار، بوضعها داخل بيوتهم «وتهدأ قلوبهم».

تعطي هذه الطقوس الدراماتيكية مثالاً واضحاً عما تعنيه كلمة «صورة العالم» عند الأزتك. إذ تبدو صورة العالم في هذا الاحتفال القرباني من خلال متابعة عامة الناس لموكب التيتيو إكسيبتلا في المدينة، وللظلام الذي ساد المكان قبل إشعال النار الجديدة، ومن ثم مراقبة حركة النجوم. لكن العالم يتجدد أيضاً، وذلك هو الجانب الأهم في النظرة إلى العالم، أي أنه في حاجة ماسة للتجدد الدائم.

كما أن ذلك الاحتفال الذي يسمى أيضاً، «توكسيومولبيليا» أو «ربط السنين» يقدم صورة عن التزام الأزتك بالعمل على إعادة إحياء الأكوان التي تربط بين الفلك

والتقاويم وتربية الأطفال والتضحيات التلقائية والحروب والتضحية البشرية. كما يربط الاحتفال العاصمة بجبل مقدس، وكل من هذين الموقعين المقدسين، بمدن وبيوت سكان كامل أرجاء الإمبراطورية.

ومن المهم الإشارة إلى حجم المشاركة الشعبية العامة في إقامة هذا المهرجان. وعند افتتاح الاحتفالات في النهار، تسير مجموعة كبيرة من الكهنة وأشخاص يرتدون زي الآلهة عبر طرق عامة، ويخرجون من المدينة متجهين نحو مناطق ريفية. ويشاهد آلاف الناس ذلك الموكب المقدس. وبعد أن يقطع الكهنة وممثلو الآلهة مسافة عشرين كيلومتراً ويصعدون الهضبة الشعائرية، يشهد الناس موكباً آخر، وهو موكب سماوي يتمثل في اقتراب مجموعة الثريا من دائرة خط الزوال في السماء، من ثمّ يتم إطفاء جميع النيران ويغرق كل شيء في بحر من الظلام. وبعد تقديم القربان الرهيب، تضرم النار الجديدة وسط ابتهاج ونزيف عام. وهكذا يعاني الجميع بعض الآلام في سبيل إتمام عملية التجديد. وربما يفيدنا في فهم أثر وأهمية هذه الطقوس على السكان عندما نتخيل وقوف آلاف البشر حول ضفاف البحيرة، وهم يشهدون وسط ظلام دامس يغطي المكان ناراً هائلة تزأر فوق هضبة النجم، ومن ثم تنحدر فوق الجبال عبر البحيرة وإلى داخل المدينة. ومن ثم تنير النار التي تضطرم فوق الهضبة محيط المعبد. وفي حركة بطيئة مشابهة للألعاب النارية المعاصرة، تنتشر النار في جميع الجهات من خلال نقلها إلى البلدات والمدن، حيث تنير المعابد والقصور وبيوت جميع السكان. وبهذا الشكل يتجدد العالم عبر احتفال قرباني. وهذا هو هدف الأزتك من تقديم القرابين، أي تجديد الحياة بأكملها.

شكل الزمن وإيقاعه عند الأزتك

يتساءل البعض عن نظرة الأزتك للزمن على المستويات الكونية واليومية. وقد رأينا كيف مرَّ الكون بأربعة عصور كبرى، انتهى كل منها بجائحة كبرى أو زلزال مدمر، لكنه أفسح المجال، أيضاً، لولادة كون جديد. كما شهدنا كيف حرص الأزتك على وسم ذكرياتهم المهمة بتواريخ خاصة على شكل علامات يومية. ومن الأهمية بمكان

معرفة كيف غيَّرت وحامت ومرت عبر مسار الزمن تلك الفضاءات المتعددة، وهي: النواحي الأربع، ومركز العالم، والثنائيات والسماوات المؤلفة من ثلاث عشرة طبقة، والعالم السفلي المكون من تسع طبقات.

ويمكن فهم ديناميكية الكون عند الأزتك من خلال ثلاثة أنواع من الزمن، وهي زمن الآلهة الغامض، وزمن الآلهة الفعال، وزمن البشر. إنها ثلاثة أزمان تتحرك معاً. سنبحث في هذه الأنواع الزمنية الثلاث، ومن ثم سنتعرف إلى التقويم السنوي واليومي والذي أثر على مختلف جوانب الحياة عند الأزتك.

قبل أن يوجد زمن البشر، أو زمن أساطير الخلق التي قرأناها آنفاً، كان هناك زمن مبهم وغير معروف عاش فيه إله الثنائية بهدوء في أعلى الطبقات السماوية. وبما أن القوى العظمى عاشت في هدوء وسكينة، فإنها قدمت الطاقة والبنية الرئيسة للكون. وما زال الزمن الأول للآلهة، عندما ظهر النظام للمرة الأولى من بطن الفوضى والاضطراب، قائماً في المحيط السماوي. وينعكس هذا الوجود في ظل أومي أوكان، وهي السماء المزدوجة، حيث ساد التوازن والسكون.

وقد اخترق تلك المرحلة الزمنية الهادئة زمن ثانٍ. إنه الزمن الذي نشطت فيه الآلهة ونفذت جميع أشكال الأحداث، بما فيها عمليات الخلق والاختطاف والثورات والحروب والوَفَيات والألعاب، وأيضاً تقديم القرابين وقطع أطراف ورؤوس آلهة آخرين، من أجل تهيئة المكان لحياة بشرية أخرى. وقد رأينا مثالاً حياً عن هذه الفكرة في خلق شمس تيوتيهواكان الخامسة. كما مهدت تلك الأعمال الخلاقة/المدمرة الطريق أمام نوع ثالث من الزمن، وهو زمن البشر، والذي جرى وتطور في وسط الكون، سطح الأرض ـ والسماوات الأربع الأدنى. وقد وجد التقويم خلال الزمن الكوني الثاني، عندما عملت القوى الخارقة على جميع مستويات الكون، وبرزت آلهة كي تحكم وتتفاعل مع زمن الكائنات البشرية. ونحن نعلم بأن التقويم وضع خلال المرحلة الثانية، لأن أساطير الخلق غالباً ما تخبرنا عن تواريخ محددة للخلق. كما خلق البشر وغيرهم من الكائنات المهمة في المرحلة الثالثة، وإن لجميع تلك الكائنات أسماء مقدسة وسحرية تتعلق بزمن ولادتهم.

ومما يثير العجب، ويجعل القصة أكثر تعقيداً هو أنه لا زمن الآلهة الغامضة ولا زمن الأعمال الأسطورية قد توقف بعد ولادة زمن الكائنات البشرية. وفي الواقع، خلقت كائنات خارقة للطبيعة وأصبحت مرتبطة بشكل وثيق بالحياة اليومية للبشر على الأرض. كما واصلت قوى من زمن الأحداث الغامضة في السيطرة على زمن الحياة البشرية على الأرض عبر دوائر الطبيعة ودورة التقويم. وبوسعنا التفكير في هذه الأزمنة الثلاثة بتشبيهها بعجلة داخل عجلة أكبر داخل عجلة أكثر اتساعاً، رغم أن تلك العجلات لا تدور دوماً في الاتجاه نفسه، ولا في الوقت ذاته. لكن كل ساعة في الزمن الأرضي مترابطة مع قوى محددة من زمن الآلهة وزمن الأسطورة. ومن هذا المنطلق، تزامن كل يوم بشري مع لحظة خاصة في الزمن الأسطوري، واتسم بسمات عالم الآلهة. وقد شبهت كل لحظة في زمن البشر بنوع من الطرق المتقاطعة، حيث اجتمعت مجموعة من القوى المقدسة لتوصيف نوع اليوم الذي عاشه الناس.

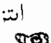
وقد كان للأزتك تقويم مقدس، يتألف من 260 يوماً. وأطلق عليه اسم تونالبواللي، أو «إحصاء الأيام». إذ تأتي عشرون إشارة متتالية بدءاً من إشارة التمساح وصولاً إلى الزهرة، وتتكرر الإشارات بعد اليوم العشرين. وتتفاعل تلك الإشاراتُ العشرون مع الأعداد من 1 إلى 13، وهي أيضاً تتكرر في التقويم. وهذا يعني أن الإشارات العشرين والأرقام الثلاثة عشر تتقدم جنباً إلى جنب مما ينتج عنه دورة من 260 يوماً قبل أن تبدأ من جديد. ومن أجل أخذ فكرة عن التقاء قوتين عند مفارق طرق، لاحظ كيف تتوزع تلك الإشاراتُ العشرون بين جهات الكون الأربع.

شرق	شمال	غرب	جنوب
سيباكتلي (تمساح)	أوسي لوتل (نمر أمريكي)	مازاتل (غزال)	إكسوشيتل (زهرة)
آكاتل (عيدان قصب)	ميكويزتلي (موت)	كوياويتل (مطر)	ماليناِلي (حشائش)
كوآتل (أفعى)	تيكباتل (سكين صوان)	أوزوماتلي (قرد)	كويتزبالين (سحلية)
أوللين (حركة)	ايتزكوينتلي (كلب)	كاللي (بيت)	كوزكاكواوتلي(نسر)
آتل (ماء)	إيهي كاتل (رياح)	كواأوتلي (صقر)	توشتلي (أرنب)

وقد أثر كل من الاتجاهات الأربعة بألوانه وشجرته المقدسة وطائره المقدس على كل يوم في حياة الإنسان. وقد دلّ هذا أيضاً على أن الأزتك كانوا مجبرين على تعلم الحساب.

وإلى جانب دورة مؤلفة من 260 يوماً، وجدت دورة من 365 يوماً، أو التقويم الشمسي، واسمه إكسيوبواللي. وقد قسم ذلك التقويم الشمسي إلى ثمانية عشر قسماً أو «أشهر» ضم كل منها عشرون يوماً، مع خمسة أيام سيئة الطالع أو «فارغة» سميت باسم نيمونتيمي، وحددت بعد انقضاء الأشهر الثمانية عشر في نهاية العام. وكان لكل شهر احتفال كبير خاص به. لكن اللافت للانتباه أن تونالبوآللي، وهي السنة المؤلفة من 260 يوماً، والإكسيوبواللي، وهي السنة المؤلفة من 365 يوماً قد اعتُمِدا بالتزامن معاً، واستخدم في الإشارة إلى أيام التقويمين الإشاراتِ نفسها والنِّظامِ الحسابي نفسه. وقد أثمر التفاعل بين التقويمين عن دورة كبيرة مؤلفة من اثنتين وخمسين سنة شمسية. وكما وجدنا عند الاطلاع على شعيرة «النار الجديدة»، شكلت بداية ونهاية هذه الدورة لحظات حاسمة في التجديد الكوني في عالم الأزتك.

معاملات رقمية

إشارات الأيام لغة ناهوآتل لغة عربية	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13
 سيباكتلي تمساح	1	41	81	121	161	201	241	21	61	101	141	181	221
 ابهي كاتل رياح	222	2	42	82	122	162	202	242	22	62	102	142	182
 كاللي بيت	183	223	3	43	83	123	163	203	243	23	63	103	143
 كويتزبالين سحلية	144	184	224	4	44	84	124	164	204	244	24	64	104
 كوتل أفعى	105	145	185	225	5	45	85	125	165	205	245	25	65
 يكويزتلي موت	66	106	146	186	226	6	46	86	126	166	206	246	26
 مازاتل غزال	27	67	107	147	187	227	7	47	87	127	167	207	247
 توشتلي أرنب	248	28	68	108	148	188	228	8	48	88	128	168	208
 آتل ماء	209	249	29	69	109	149	189	229	9	49	89	129	169
 اتز وكوينتلي كلب	170	210	250	30	70	110	150	190	230	10	50	90	130
 اوزوماتلي قرد	131	171	211	251	31	71	111	151	191	231	11	51	91
 مالينالي حشائش	92	132	172	211	252	32	72	112	152	192	232	12	52

آكالتل عيدان قصب	53	93	133	173	213	253	33	73	113	153	193	233	13
اوسيلوتل نمر أمريكي	14	54	94	134	174	214	254	34	74	114	154	194	243
كوأوتلي صقر	235	15	55	95	135	175	215	255	35	75	115	155	195
كوزكاكواوتلي نسر	196	236	16	56	96	136	176	216	256	36	76	116	156
اوللين حركة	157	197	237	17	57	97	137	177	217	257	37	77	117
تيكباتل سكين صوان	118	158	198	238	18	58	98	138	178	218	258	38	78
كوياويتل مطر	79	119	159	199	239	19	59	99	139	179	219	259	39
اكسوشيتل زهرة	40	80	120	160	200	240	20	60	100	140	180	220	260

استندت جميع الفروقات المحلية في التقويم الذي كان مستخدماً في أمريكا الوسطى عند وصول الإسبان إلى دورة سنوية شعائرية تتألف من 260 يوماً، وقد أشير إليها بلغة ناهوآتل باسم تونالبواللي، وقد قسمت تونالبواللي إلى فترات من عشرين وثلاثة عشر يوماً أطلق عليها الكهنة الإسبان اسم تريسيناس. وقد حمل كل يوم من الأيام الـ 260 اسماً فريداً عن طريق الجمع بين إحدى الإشارات العشرين المحتملة مع إشارة محتملة من الأرقام الثلاثة عشر، أو ما يسمى في علم الرياضيات المُعامِل. وقد بدأ التقويم الشعائري باليوم رقم 1 واسمه «تمساح»، وانتهى باليوم 13 واسمه «زهرة». وتتابع مرور الأيام بدءاً من 1 تمساح، 2 رياح، 3 بيت، 4 سحلية، 5 أفعى، 6 موت، 7 غزال، 8 أرنب، 9 ماء، 10 كلب، 11 قرد، 12 حشائش، 13 عيدان قصب. وعند الوصول إلى المعامل 13، اكتملت أول تريسينا، وبدأت تريسينا ثانية مستخدمة المعامل رقم 1 مع إشارة اليوم الثاني وهي نمر. وهكذا، يتواصل حساب الأيام من 1

نمر، 2 صقر، 3 نسر، 4 حركة، 5 سكين صوان، 6 مطر، 7 وردة، وعند الوصول إلى إشارة اليوم العشرين (وردة)، يبدأ الحساب من جديد من الإشارة الأولى، تمساح. وهكذا يتواصل حساب الأيام مع 8 تمساح، 9 رياح، 10 بيت، 11 سحلية، 12 أفعى، 13 موت، 1 غزال، 2 أرنب، 3 ماء، وهكذا إلى أن تنفذ جميع المجموعات المؤلفة عند اليوم وردة 13.

وقد حُدِّدَ التقويم ونُظِمَ مسار التأثيرات الطبيعية والخارقة للطبيعة على الحياة البشرية. لكن المجموعات المؤلفة من أرقام وإشارات في التقويم الأزتكي، كانت أكثر من مجرد مجموعات فنية. فقد ارتبطت بالمصير ـ مصير البشر والحياة عامة، كما استخدمت تلك المجموعات من أجل تسمية الأفراد. على سبيل المثال، سارع الأهل فور ولادة طفل لهم لدعوة «قارئ حساب الأيام» إلى بيتهم، ويطلعونه على التوقيت الدقيق لولادة الطفل. وكان كهنة التقويم يفتحون أحد كتبهم المقدسة، ويدرسون الرسوم المرافقة لإشارات وأرقام اليوم الذي ولد فيه الطفل. وبعد إجراء دراسة دقيقة، يتعرف الكاهن على الإشارة الخاصة بمولد الطفل، كما يتعرف إلى الإشارات الأخرى المرتبطة بالإشارة الرئيسة. وبما أنه لكل إشارة يومية عدد من القوى والصفات، كانت الأسرة والكاهن يبحثون عن المجموعات الأكثر إيجابية. وقد عدت الأعداد من 3 إلى 7 ومن 10 إلى 13، أعداداً حسنة الطالع، في حين جلبت الأعداد 6، 8 و9 سوء الطالع. وكان من شأن قراءة دقيقة أن تؤدي لتفسير إيجابي من أجل تسمية المولود، وحتى لو كان العدد الأساسي سلبياً. على سبيل المثال، لو ولد الطفل فيما اعتبر إشارة يوم سلبية، فإن مجموعة أخرى من الإشارات المترابطة معاً كفيلة بأن تجلب تأثيرات إيجابية في حياته. وإن كان تاريخ ميلاد الطفل كئيباً على وجه التحديد، فإن قارئ حساب الأيام ينصح الأبوين بالانتظار إلى يوم آخر حسن الإشارة والرقم، وحينئذ يسمى الطفل باسم ذلك اليوم.

وكانت حياة الإنسان تتأثر إلى الأبد بقوة اسمه في التقويم. ومن أشهر الشخصيات الأزتكية نيزاهوال كويوتل، حاكم تيزكوكو، وكان اسمه في التقويم 1 غزال، وهو يوم شملت صفاته النبل والشهرة والانتصار في الحروب. وفي حقيقة الأمر، كان نيزاهوال

كويوتل أحد أعظم الشعراء والمقاتلين في التاريخ الأزتي رغم مواجهته عدة عقبات. ويجلب اليوم 4 كلب، الرفاهية لصاحبه، خاصة إن قام بتربية كلاب. وقد اعتقد الأزتك أن أشخاصاً مثل ذلك الشخص سيكونون أصحاء ويتناسلون ويعيشون حياة مديدة. وقيل قديماً «وكيف لا يتحقق ذلك؟ فإن الكلاب تشاركه إشارة يومه». ومن الإشارات المكروهة إشارة 2 أرنب، وهو اليوم المخصص لآلهة البلْكة (شراب مُسْكر يصنع في المكسيك من عصير الصبار الأمريكي) وكان ذلك يعني أن الطفل قابلٌ لأن يصبح سكيراً. وكان التجار يخرجون في رحلات تجارية ويعودون إلى مدينتهم في أيام محددة. كما حرص الأزتك على الامتناع عن القتال إلا في الأيام ذات الإشارات القوية الإيجابية. وقد نظمت جميع الأحداث وفقاً لهذا النظام. وتلخص الباحثة الأزتكية إليزابيث بون التأثيرات التقويمية على النحو التالي:

حتى لو ولد الإنسان في إشارة يومية ميمونة، لابدّ له من أن يواجه الكوارث والمآسي إن نسي الاهتمام بإشارات الأيام. فقد حملت الأيام معاني خاصة بكل نشاط، وكان من الضروري، في عالم الأزتك، أن تنفذ الأعمال في الوقت المناسب. كما أدرك التجار وجوب استهلال رحلاتهم في بضعة أيام محمودة وهي 1 تمساح، 1 قرد، 7 أفعى. وكان أفضل إشارات الأيام هي 1 أفعى، وهو يوم أطلق عليه اسم «الطريق القويم». وعند اقترابهم من وطنهم، كانوا يتلكؤون على الطريق بانتظار حلول إشارة يوم سعيد كي يدخلوا بيوتهم. وقد دهش الأب دوران عندما وجد أن الأزتك يتتبعون إشارات الأيام قبل الحصاد عوضاً عن إشارة الحقول. وقد تذكر كيف امتنع الناس عن حصاد محصول الذرة، وحتى لو تعرضت للتعفن، ما لم يحل اليوم الميمون. قال الأب دوران: «كانوا يقطفون المحاصيل في وقت مبكر، وعلى مهل. لكن، ما إن يجد الساحر العجوز في كتابه أو قاموسه أن اليوم المنحوس قد اقترب، حتى ينشطوا للعمل بسرعة كبيرة». ويبدو من المؤكد أن الأب دوران لم يدرك أن التوقيت عند الأزتك (أي تنفيذ الأعمال تبعاً لتنبؤات الكهنة) كان أمراً أساساً للمحافظة على توازن العالم(21).

وقد كان ذلك البحث عن عالم متوازن الذي أمل المحارب القائد القديم إكسولوتل أن يتوصل إليه في ذلك الصباح البعيد، هو تماماً ما دعاه للصعود إلى قمة الجبل المطل

على بحيرات المكسيك، ولجمع الحشائش على شكل خاتم، ومن ثم رمي سهامه الأربعة نحو جهات الكون الأربع. كما لعبت تلك الرموز والطقوس البسيطة والمعقدة في آن معاً، دوراً في إرساء النظام والتوازن والقوة في عالم الأزتك. وقد آن الأوان الآن لأن ندخل إلى مركز العالم، وهي مدينة تينوشتيتلان العظيمة، والتي تنتظرنا، وهي تومض عند ضفاف البحيرة، كماسة خماسية الأبعاد في وسط الحوض.

الفصل الثالث

جبال غنية بالينابيع
تينوشتيتلان ومجتمعات الأزتك

من أجمل ما كتب في وصف مدينة الأزتك جاء من شاهد عيان، وهو بيرنال دياز ديل كاستيلو، وكان رقيباً ضمن القوات الإسبانية التي غزت العاصمة واحتلتها. ففي أعقاب رحلة عسيرة وطويلة قطعوها في الأراضي الداخلية بعد وصولهم إلى الشاطئ الشرقي، والتي خاضوا فيها معارك شرسة مع مجموعات معادية، عبر الإسبان ممرات جبلية، وهبطوا نحو الوعاء الأخضر المائل إلى الزرقة لحوض المكسيك. ووسط صخب السكان الذين دهشوا عند وصول أولئك الغرباء، تقدم الإسبان نحو العاصمة تيونشتيتلان.

وقد وصف ديل كاستيلو تيونشتيتلان ومحيطها الجغرافي في نص جميل جاء في بعض فقراته:

وصلنا في الصباح عبر طريق مرتفع (بني الطريق من قاع البحيرة الضحلة) وواصلنا تقدمنا نحو إيزتابالابا. وقد أصابتنا دهشة بالغة عندما رأينا عدداً كبيراً من المدن والقرى المبنية وسط البحيرات، ومدناً أخرى أنشئت فوق أراضٍ جافة. كما أدهشنا ذلك الطريق المستقيم والمرتفع المتجه نحو مكسيكو، وقلنا إنَّ ما رأيناه يذكرنا بأعاجيب وردت في أسطورة الآماديس (رواية شعبية رومانسية ذات علاقة بالفروسية راجت في حينه). كما رأينا أبراجاً هائلة وأهرامات ترتفع من وسط الماء. وكم كانت القصور التي أقمنا فيها واسعة وفارهة، وقد بنيت من أحجار طبعت بنقوش جميلة، كما ازدانت جدرانها بأخشاب السدر وأنواع أخرى من الأخشاب ذات الرائحة العطرة. وامتازت غرف تلك القصور وقاعاتها بالسعة والرحابة والجمال، كما غطيت نوافذها بأقمشة قطنية ناعمة الملمس»(22).

ومن الأسباب التي دعت الإسبان للظن بأنهم يحلمون، هو مظاهر الطبيعة الغنّاء

التي رأوها في كل مكان من حولهم:

«ذهبنا إلى البساتين والحدائق، وتمتعنا بالسير عبر ممراتها. ولم أملّ من النظر إلى الأشجار المتنوعة وتنشق شذى كلٍّ منها، وقد امتلأت الأركان والطرق الضيقة بالأزهار والورد وأشجار الفاكهة، وتخللتها بحيرة ذات مياه رَقْراقةٍ عذبة. كما لفت نظري شيء آخر، وهو قوارب الكنّو (زورق طويل خفيف) التي استطاعت اجتياز الحديقة عبر ممر مائي شُقَّ ليصل البحيرة بتلك المنطقة الغَنَّاء، وحيث إنه ما كان سكان المنطقة بحاجة للانتقال من مكان إلى آخر سيراً على الأقدام. كما زُيّنت أركان الحديقة والبساتين بأحجار عَلَتْها تماثيل منقوشة، مما أثار مخيلتنا ودعانا إلى تأمل تلك الفنون الجميلة. أقول مرة ثانية، إني وقفت وأطلت النظر حولي، وظننت أنه لا يوجد لها مثيلٌ في الأرض، حيث لم نكن في ذلك الوقت، قد عرفنا أراضي البيرو، ولم تكن لدينا أي فكرة عن ذلك البلد»(23).

كما أدت سعة المدينة، ومبانيها الأثرية الضخمة لدفع الإسبان للاعتقاد بأنهم يحلمون. فقد وجدوا المباني العملاقة والثروات الوفيرة، وأعداداً كبيرة من السكان. وقد جاءت جماهير حاشدة لرؤيتهم، وملؤوا البحيرة والمعابد والأسواق. فقد بلغ تعداد سكان تينوشتيتلان، في ذلك الوقت، قرابة 200 ألف نسمة. وقد عدّت لذلك، أكبر مدن العالم، خاصة أن مدينة أشبيلية، وهي أكبر مدينة عرفها الغزاة، لم يزد عدد سكانها على 60 ألف نسمة. وبلغ عدد سكان لندن 50 ألف نسمة. في حين سكن أكبر المدن في الشرق، وهما باريس وإسطنبول، زهاء 300 ألف نسمة. وعندما علم الإسبان مكونات الوجبات اليومية للملك ميتكوزوما، وجدوا أن أكثر من ثلاثين صنفاً من الطعام تقدم في كل وجبة يعدها طباخو القصر له ولأفراد حاشيته. كما أخذ الإسبان فكرة عامة عن مدينة الأزتك الكبرى، عندما سار كورتيز وقادة جيشه وسط حراسة مشدَّدةٍ في وسط المدينة، ثم صعدوا نحو أعلى أهراماتها، وفي ذلك المكان رأى الإسبان تماثيل الآلهة وأحجار القرابين وغيرها من التماثيل:

«ثم أخذ ميتكوزوما كورتيز من يده، وطلب منه النظر نحو مدينته الكبيرة وإلى غيرها من المدن البارزة وسط البحيرات، وإلى مدن أخرى انتشرت فوق السهول



مخيلة فنان أعادت بناء الجزيرة، أو المستوطنة التي ضمت تينوشتيتلان وتلاتيلولكو(من المتحف الوطني للعلوم الإنسانية، مكسيكو سيتي. بتصريح من سلفادور جيل ليم آررويو، المعهد الوطني لتاريخ علم الإنسان).

المحيطة بالبحيرة. ثم استدرنا كي نرى السوق الكبيرة والجماهير التي احتشدت هناك وانشغلت في البيع والشراء. وقد ترددت أصداء أصواتهم وهمساتهم وكلماتهم من على بعد يزيد على ثلاثة أميال. وقال بعض الجنود الذين رافقونا، وكانوا على معرفة بمدن أخرى في العالم، ومنها إسطنبول وروما، بأنهم لم يرَوْا قَطُّ سوقاً كبيرةً ومنظمة كتلك التي رأوها أمام أعينهم» (24).

كما رأى الإسبان الطرق العظيمة المرتفعة، التي تقود نحو الجزيرة، والجسور التي أنشئت على طول تلك الطرق، وعشرات قوارب الكنو التي حملت المؤن والسلع والبضائع نحو المدينة. وقد رأى الإسبان أيضاً أهرامات و«معابد» في تلك المدن، وقد بدت كأبراج وقلاع بيضاء لامعة مما أثار إعجابهم ودهشتهم. وقد غطت جميع المنازل أسطح مستوية، كما بنيت في محاذاة الطرق المرتفعة أبراج ومعابد صغيرة بدت كقلاع حصينة».

نلمح من خلال هذا الوصف بعضاً من أهم المباني والمراكز الاحتفالية عند الأزتك. كما سيوضح لنا هذا الفصل كيف نجح الأزتك في التكيف وفقاً للزمان والمكان. وسنرى أنه كما للكون سمات هندسية، أي مركز وحركة تجدد ودوران، كذلك قامت المدينة، التي وقفت شامخة وسط بحيرة تيزكوكو، على نظام هندسي مماثل. وسنركز العمل في هذا الفصل على مبدأ محاكاة النموذج الأصلي. ذلك الفكرة القائمة على محاكاة المجتمع البشري لأساليب الآلهة هي نقطة غاية في الأهمية لدراسة أي ثقافة ودين، لكنها تشكل أهمية خاصة لفهم أكوان الأزتك ومدينتهم. إن النموذج الأصلي هو نمط يحتذى به من خلال فكرة وصورة أو حدث يعود أصله، وفق اعتقاد الأزتك، إلى زمن الأساطير والأجداد والأبطال(25).

إن القدماء، سواءً كانوا آلهة، أم كائنات خارقة للطبيعة، أم أجداداً، هم الذين اكتشفوا وابتكروا النماذج التي تعبر عن حقائق الكون الأساسية وقيمه وأحداثه، والتي ظهرت بداية في زمن الأسطورة. إن تلك الحقائق والقيم والأنشطة تشكل نماذج أصلية، أو أنماطاً يقتدى بها. وتكمن مهمة البشر في اكتشاف النماذج الأصيلة ومحاكاتها وتكرارها وتمجيدها وإحيائها كوسيلة لضمان العيش الكريم والرفاهية

لمجتمعهم. وقد حفِل عالم الأزتك بنماذج أصيلة، حرصوا على محاكاتها من خلال طقوسهم وجسدوها في مبانيهم. وفيما يلي، سنرى كيف حاكى الأزتك نماذجهم الأصيلة عبر بناء مدينتهم كنموذج عن الكون. سنأخذ جولة قصيرة عبر المدينة بدءاً من الحدائق العائمة عند أطراف الجزيرة الكبيرة. ثم سننتقل عبر المناطق المجاورة للحدائق إلى الأسواق والقصور والمعابد، وفيما بعد، سنركز على معبد الأزتك الكبير الموجود في قلب المدينة الاحتفالي. وإن من شأن ذلك أن يمنحنا فرصة لفهم كيف كوَّن الأزتك نظرتهم إلى العالم، وأعطوها شكلاً مادياً عبر بناء وتكرار بناء العالمين المادي والاجتماعي لمدينتهم، خاصة المركز الاحتفالي الكبير، الذي أصبح مسرحاً للتعبير عن أفكارهم وسياساتهم الكبرى.

حدائق عائمة فوق سبخات

من أهم الإنجازات الزراعية في تاريخ العالم الجديد، هو نظام شينامبا. ويقوم هذا النظام على إنشاء حدائق ممتدة مستطيلة الشكل من الأراضي المستصلحة داخل بحيرات حوض المكسيك أو متصلة بها. وقد امتلك المهاجرون إلى وسط المكسيك في وسط القرن الثالث عشر خبرات زراعية واسعة، كما تعلموا أن نجاح نظام شينامبا يعتمد إلى حد ما، على التربة الخصبة في قاع البحيرات وما حولها. وخلال السنوات الأولى لاستقرارهم حول بحيرة تيزكوكو، طوَّر الأزتك خبراتهم الزراعية والعسكرية، في إطار سعيهم لتقوية روابطهم بالمدن الكبرى. لكن، في نهاية الأمر، طُرِدوا خارج السهول على يد أقوى القبائل، وأُجْبِروا على العيش على سطح المستنقعات. ونتيجة لذلك، اضْطُرُّوا لإنشاء حقول شينامبا، مما يعني تكديس صفوف عمودية من الوحل والنباتات بين بوابات ضخمة. ومن ثُمَّ شَقُّوا قنوات بين تلك الحدائق المرتفعة، وزرعوا أشجار صفصافٍ على أطراف تلك الحقول، بحيث لعبت جذور أشجارها القوية دور جدران قوية دعمت الحدائق الأرضية. كما عمد الأزتك لرفع الوحل من قاع القنوات وإضافته إلى تربة الحدائق بهدف تخصيبها بالمواد الغذائية. ونتيجة لتلك الجهود الزراعية المتطورة، أصبح كل شينامبا عبارة عن شريط رفيع مستطيل الشكل

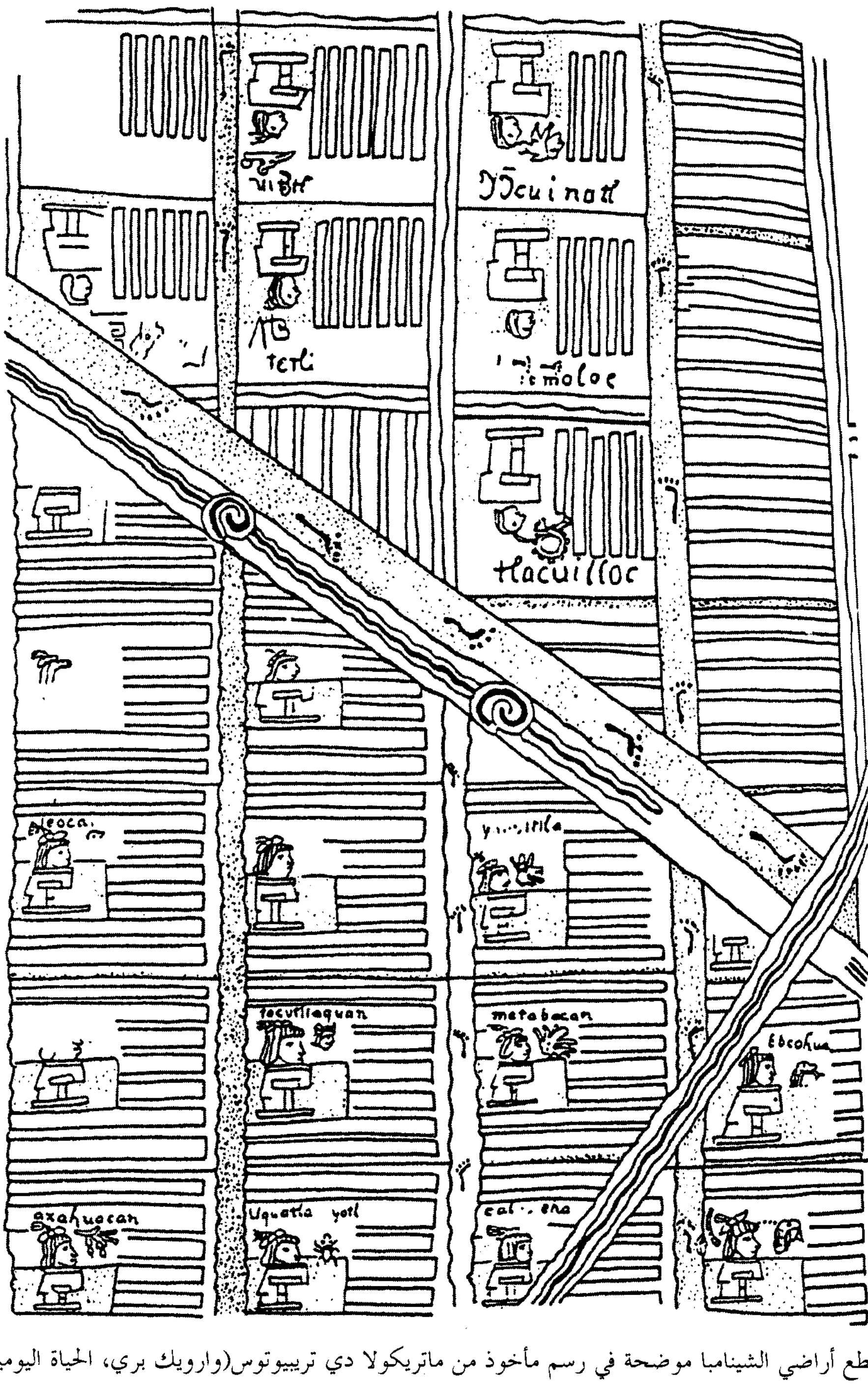
من التربة المزروعة، ويبلغ عرضه ما بين 3 إلى 8 أمتار، وطوله ما بين 15 إلى 90 متراً. كما أقامت عائلات المزارعين فوق منصات ترابية في بيوت صنعت من أعواد الخيزران والخشب وعيدان القصب. وتُظْهر نشرة ماتريكولا دي تريبيوتوس عدة ممرات مائية تفصل بين حدائق الشينامبا، وتوجد لوحات تحمل كل منها رقم واسم صاحب المنزل، والذي يظهر اسمه بأحرف هيروغليفية مع حاشية باللغة الإسبانية.

وفي نهاية الأمر، احتاج ذلك النظام الزراعي لبيروقراطية معقدة من أجل إدارة عمليات الري والزراعة وحصاد الذرة والقمح والبقول. وقد أنتجت تلك الحدائق كميات وفيرة من الأغذية والأزهار مما ساهم في نهضة المدينة وزيادة ثرواتها.

ويصف أحد الباحثين ذلك التطور الزراعي بقوله:

«أمضت جميع المزروعات، باستثناء الذرة، أسابيع النمو الأولى في أحواض خاصة، حيث لقيت رعاية مكثفة. وفي بادئ الأمر كانوا يضعون طبقة من الوحل فوق قسم من الشينامبا، ويتركونها حتى تجف وتصبح قاسية وقابلة للتقسيم إلى كتل مستطيلة الشكل. ثم يقوم البستاني بإحداث ثقب في كل كتلة، ويسقط البذار ويغطيه بالسماد. وأدى غياب قطعان الماشية في العالم الجديد لعدم توافر السماد على الدوام، وعوضاً عنه استخدم الأزتك فضلات بشرية جمعت من مراحيض المدينة من أجل بيعها إلى المزارعين. وقد رويت الشجيرات الصغيرة في الطقس الجاف، وتلقت حماية من العواصف المفاجئة. وعندما يحين الوقت المناسب، كان المزارعون ينقلون النباتات إلى الأحواض الرئيسة، ويغطونها بنباتات قطعت من المستنقعات(26).

وقد كان هذا النظام الزراعي منتجاً لدرجة أن أسطح ثلاث بحيرات (شالكو وإيكسوشيميلكو وتيزكوكو) تحولت من بحيرات مفتوحة إلى شبكات من الشينامبا والقنوات. كما أدى انتشار تلك الشبكات لتسهيل تحميل المحاصيل من الشينامبا إلى قوارب الكنو ومن ثم نقلها مباشرة إلى الأسواق المطلة على البحيرة وإلى أسواق



قطع أراضي الشينامبا موضحة في رسم مأخوذ من ماتريكولا دي تريبيوتوس(واروِيك بري، الحياة اليومية للأزتك القدماء. لندن: بي.تي. باتسفورد، 1968. بتصريح من بي.تي. باتسفورد).

تينوشتيتلان وتلاتيلولكو.

ولم تكن أراضي الشينامبا ملكاً لمزارع بعينه أو لأسرته، بل ملكاً للكالبوللي، أو القبيلة. فقد استطاع المزارع وأسرته الذين عملوا في زراعة الشينامبا توسيع مساحة أرضهم، إن ارتفع عدد أفراد الأسرة وامتلكت القبيلة أرضاً فارغة. كما نجم عن إخفاق مزارع في العناية بمزروعات في أرض تابعة له لأن يتلقى، بعد عامين، تحذيراً يقضي بفقدانه الأرض، إن استمر إهماله لعام آخر(27).

كما دفع أولئك المزارعون ضرائب في صورة أغذية وأزهار وأقمشة نسجتها نساء. وقد وظفت الضرائب لدعم المدارس الملحقة بالمعابد والحكام والوزراء والعسكريين والنبلاء خاصة. وعندما جاء الإسبان أطلقوا على الشينامبا اسم «الحدائق العائمة»، وهو اسم ما زال مستعملاً حتى يومنا هذا. ويستطيع زوار مكسيكو سيتي مشاهدة بقايا شينامبا مثيرة للإعجاب من خلال ركوب قوارب صغيرة تنقلهم من مكان لآخر في مقاطعة اكسوشيميلكو الجنوبية.

وتمثل مجموعة من الروابي الترابية المحاطة بالماء أحد أبرز النماذج الرمزية لمجتمع الأزتك. إنها تعكس الفكرة التي وردت في الفصل الأول، أي صورة سيماناهواك أو «أرض محاطة بماء»، والتي عبرت عن نظرة الأزتك العامة لعالمهم. فقد عُدَّت أية قطعة من الأرض، خاصة قطعة مرتفعة، «آلتيبيتل» أو جبل مائي. لكن آلتيبيتل كلمة عامة أطلقت على «مجموعة من الناس استولوا على قطعة أرض، أو على مجتمع أو مدينة»، ضمن إطار العالم الناطق بلغة الناهوآتل(28). وقد دلّ ذلك على حاجة بشرية واجتماعية لتنظيم الحياة حول مظهرين للطبيعة، وهما قطعة أرض صلبة، وماء مانح للحياة، إلى جانب تضامن بشري وموارد زراعية. فقد أطلق على هرم كبير ينفجر منه نبع، أو يجاوره مورد مائي آلتيبيتل، كما ينطبق الاسم على جماعة مؤلفة من أسر كبيرة وعمال. وقد نظمت مختلف أنواع آلتيبيتل على شكل وحدات أكبر عدداً سميت تلاتوكايوتل، أي مدن صغيرة محلية سعت على الدوام لإقامة تحالفات وعلاقات تجارية، أو لمحاربة بعضها بعضاً. كما عمل كل تلاتوكايوتل على تنظيم البرامج الزراعية والوظيفية ومنتجات الآلتيبيتل التابع لها، كما نظم العمل في الشينامبا. وكما

سنرى لاحقاً في هذا الفصل، أدى التنافس الكبير بين مختلف دويلات المدن لنشوب حروب دامية وفرت ثروات هائلة للمنتصرين. لكن المنتصرين والمهزومين على حد سواء، اعتمدوا في عيشهم على الحدائق العائمة فوق المستنقعات ونظام آلتيبيتل.

السوق الإمبراطورية

أحاطت الشينامبا بمعظم أراضي المدينة، وكثر عددها على ضفاف بعض البحيرات. وقد شحنت حصة كبيرة من المزروعات النامية هناك إلى أسواق كبرى. وقد وجدت الأسواق، واسمها تيانكويزتلي، داخل كل جزيرة مجاورة، وفي كل بلدة وقرية في الريف المكسيكي. وقد أقامت القرى أسواقاً بفاصل خمسة أيام بين السوق والآخر. وكان السكان يسيرون لمسافة تزيد على عشرين كيلومتراً جيئة وذهاباً من أجل ملاقاة الأصدقاء والأقارب، وعقد الصفقات وتبادل المعلومات والسلع. وكما أشار أحد الباحثين «اشتهرت بعض المدن بسلع مميزة، على سبيل المثال، اشتهرت أكولمان بالكلاب الصالحة للأكل، وعرفت آزكاتبوتزالكو بعبيدها وطيورها. كما اشتهرت مدينة شولولا بصناعات من الريش، و تيزكوكو بأنسجتها ويقطينها»(29).

وقد انقسمت العاصمة (وهي جزيرة) إلى خمسة أقسام كبرى، وهي أربعة أركان كبيرة تحيط بالقسم الخامس المركزي ـ المنطقة الاحتفالية الكبرى. وكان لكل قسم أسواقه المحلية، ولكن أكبر سوق في المدينة أنشئ في القسم الشمالي الغربي للعاصمة في موقع تلاتيلولكو. وقد ذكر كل من بيرنال دياز ديل كاستيلو وهيرنان كورتيز في مذكراتهما، حجم تلك السوق والنشاط الكبير الذي تشهده. كتب الأخير:

> « يبلغ حجم هذه السوق ضعف مثيلتها في سالامانكا. وتحيط بها قناطر ويقصدها أكثر من ستين ألف شخص، من أجل شراء وبيع مختلف أنواع السلع والمأكولات وأدوات الزينة من ذهب وفضة. كما بيعت في تلك السوق منتجات محلية صنعت من نحاس وصفيح ورصاص وأحجار، وقواقع وعظام وريش، وأحجار جيرية ومواد بناء وأخشاب من مختلف الأنواع. وقد خصص قسم من السوق

لبيع الطرائد ولحومها وطيور من جميع الأنواع التي عاشت في تلك المنطقة مثل البط البري وطيور السمّاني. كما باعوا أرانب برية وأليفة، وغزلاناً وكلاباً مخصية ربيت كي تصبح صالحة للأكل»(30).

وقد كان بالإمكان العثور على كل ما أنتج أو صنع في الإمبراطورية داخل السوق الذي خضع لسيطرة الطبقة الحاكمة. وفد أجبر الباعة على دفع أتاوات لمدير السوق، في حين راقب المشرفون المكان، وتفحصوا نوعية السلع، وتابعوا سلوك التجار والزبائن. وقد نجم عن عمليات التبادل المعقدة، التي تمت داخل السوق، نزاعات وجدال وقرارات عادلة ومكافآت. ومن أجل تنظيم العمل في السوق، أنشأ الأزتك محكمة في تلاتيلولكو «حيث جلس عشرة أو عشرون قاضياً، وقد أشرف هؤلاء القضاة على كل ما يجري في الأسواق، وحاكموا المخالفين لقوانين السوق. كما وجد داخل السوق أشخاص كلفوا بالسير بين الناس لمعرفة ما يشترون والأوزان وأدوات القياس التي يستخدمونها». وبالإضافة إلى كل تلك النشاطات، لعبت السوق دوراً في الترويج لمهن أخرى. فقد استأجر الناس من السوق منشدين ونقاشين ونجارين وحمّالين ومومسات.

وقد تمت العمليات التجارية عن طريق المقايضة، لكن بعض السلع بيع بقيمة متفق عليها، واستخدم كالعملة في الوقت الحاضر. وعند شراء أشياء ثمينة استخدمت وحدات مقايضة قيّمة مثل العباءات والمواقد والفؤوس النحاسية، أو أعمدة مجوفة مملوءة برقائق ذهبية. وقد شكلت حبوب الكاكاو عملة يومية صغيرة، ولذا عمد بعض الفاسدين لتزييفها عن طريق تقليدها بواسطة الشمع أو عجينة من نبات القطيفة. وليس من السهل تقدير أسعار تلك المنتجات. وفي هذا السياق، يقول ساهاجون إن عباءة من نوعية جيدة قدرت بـ100 حبة كاكاو. وبعد مرور 33 عاماً على الغزو، قدّر سعر العباءة نفسها ما بين 300 إلى 400 حبة(31).

القصور والمنازل

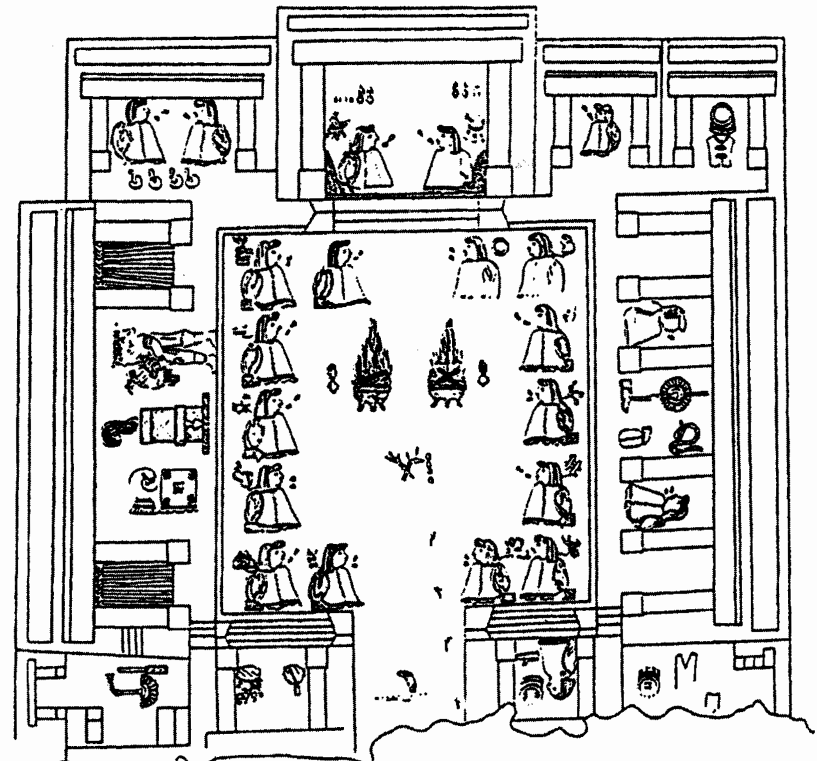
من الرموز اللافتة والظاهرة على خرائط الأزتك، آثار أقدام صغيرة تدل على أنماط



موتيكوزوما يتابع حركة السوق في تلاتيلولكو في هذه اللوحة الجدارية للفنان المكسيكي دييجو ريفيرا، وهي معروضة داخل القصر الوطني في مكسيكو سيتي (بإذن من سكوت سيشينز).

حركة المشاة في المجتمع. وكان بمقدور الأزتكي الماشي أو الراكب لقارب كنو أن يشاهد عبر المدينة مختلف أنواع المباني، بدءاً من قصور النبلاء الفارهة الواسعة والمؤلفة من عدة غرف، وصولاً إلى بيوت العامة الشديدة البساطة والمؤلفة من غرفة أو غرفتين. وقد أقام النبلاء بجوار الأسواق والمركز الشعائري الكبير في بيوت بنيت فوق منصات واسعة بلغ ارتفاعها ما بين 10 إلى 40 قدماً (القدم: 30 سم). وقد بنيت جدران تلك المنازل من اللّبِن أو الأحجار، وغطيت بالجص مما جعلها تتلامع بمختلف درجات الألوان. وقد امتلك النبلاء ذوو الامتيازات الخاصة بيوتاً من طابقين، ما منحهم مساحة معيشية أوسع ومكانة اجتماعية رفيعة. كما بنيت منازل أو قصور النبلاء على أساس حماية خصوصية الأسر المقيمة هناك. وقد فتحت جميع الغرف على القاعات الداخلية الرئيسة، لكن لم تفتح أي غرفة على الشارع. وقد التقى الراهب الفرانسيسكاني بيرناردو دي ساهاجون بعجائز من الأزتك، بعد عقود على الغزو، واستفسر منهم عن الحياة اليومية في المدينة. وقد علم ساهاجون أن تلك القصور أحيطت غالباً بحديقة مسوّرة، وأنها ضمت غرف معيشة مستقلة لكل من الرجال والنساء وحجرة انتظار، وغرفة طعام ومطبخ، وعدة أقسام، وغرف اجتماعات(32).

كما غطيت الردهات بستائر ملونة وحصير من عيدان القصب أو من أقمشة مزينة بأجراس. وقد علمنا من خلال روايات إسبانية، أن بعض تلك القصور كان شديد الاتساع. وعند وصولهم إلى العاصمة، أقام كامل أفراد الجيش الإسباني، وقد بلغ عديد قواته قرابة أربعمائة مقاتل، داخل قصر الحاكم آكساياكاتل وحوله. كما تتوافر لدينا لوحتان لقصور ملكية تقدمان لنا فكرة عامة عن كيفية تنظيم وتوزيع المكان، تمثل إحدى اللوحتين قصر نيزاهوالكويوتل، حاكم تيزكوكو، الذي جمع أموال الجزية من قرابة أربعين قرية، كما أشرف على النشاطات والأعمال داخل أكثر من ثلاثمائة غرفة. ورغم عدم توضيح اللوحة لوجود طابق أو طابقين للقصر، فإن الملك وابنه نيزاهوالبيلي (مراقب النجوم الذي ذكر في بداية الفصل الأول) جلسا داخل غرفة العرش في أعلى اللوحة، وقد جلس في القاعة الكبرى الرئيسة زعماء وملاك أراضٍ قَدِموا من مدن حليفة، وكانوا يدفعون الجزية (ضرائب) إلى تيزكوكو. وقد شملت



رسم لقصر نيزاهواكويوتل في تيزكوكو. نيزاهواكويوتل يتحدث إلى ابنه داخل غرفة العرش (وسط أعلى الصورة) فيما يجتمع حكام مقاطعات تابعة في فناء القصر(وسط الصورة). وتضم غرف أخرى عتاداً حربياً (أعلى يمين الصورة) وغرفة القضاة (أعلى يسار الصورة)، وغرفة لتحزين الأتاوات (يمين الصورة) وقاعة واسعة لتقديم العروض الموسيقية والراقصة (يسار الصورة) (لاحظ الطبل الذي تعلوه حلية على شكل عمود) (مابا كويناتزين، من كتاب واورويك بري «الحياة اليومية للأزتك القدماء». لندن: بي.تي. باتسفورد، 1968. بتصريح من بي.تي. باتسفورد).

غرفٌ أخرى محيطة بالفناء، أو ملحقة بغرفة العرش، غرفة المقاتلين وغرفة القضاة ومخازن ومعبد لإقامة الاحتفالات الدينية. وتقود بصمات أقدام باتجاه نارين مشتعلتين في الشرفة الرئيسة. كما سجل زائر أوروبي قام بزيارة إلى القصر في القرن السادس عشر: «سرت في أرجاء القصر إلى أن أصابني التعب، ولم أر كامل القصر. وقد جرت العادة داخل منازل النبلاء وكبار الشخصيات، أن تبنى قاعات واسعة عند مداخل البيوت، وغرف جلوس فسيحة حول شرفة كبيرة. وقد اتسعت مساحة إحدى تلك

الغرف لدرجة أنها ضمت ثلاثة آلاف شخص دفعة واحدة»(33).

وقد توافرت لدى نبلاء الأزتك، كَسِواهم من النبلاء في كل مكان، الأدوات اللازمة لبناء مساكن واسعة ومريحة. وقد ضمت منازلهم حدائق وبرك سباحة وتماثيل، كما ألحقت حديقتا حيوان بقصور الملوك في تينوشتيتلان و تيزكوكو. وقد كتب بيرنال دياز ديل كاستيلو عن قفص كبير لحفظ الطيور وجد داخل قصر موتيكوزوما:

«أجبرت نفسي على التوقف عن إحصاء تلك الأنواع من الطيور، لأن القفص الكبير ضمّ كل الأنواع بدءاً من الصقر الملكي إلى جانب صقور أصغر، وطيور أخرى من أحجام كبيرة، وصولاً إلى طيور صغيرة يغطيها ريش ذو ألوان بديعة. كما وجد داخل القفص طيور استخدموا ريشها الأخضر في صنع منتجات من الريش. كما عاشت داخل القفص طيور يتألف ريشها من خمسة ألوان، وهي الأخضر والأحمر والأبيض والأصفر والأزرق. وقد وجد داخل القفص الببغاوات، كما عمد الأزتك لجمع ريش تلك الطيور عندما يحين الوقت المناسب للاستفادة منه وفي ذلك البيت الذي وصفته لكم، وجد حوض هائل من ماء عذب حوى طيوراً مائيةً ذات أرجل طويلة، وقد تلونت أجسادها وأجنحتها وذيولها بلون أحمر قان»(34).

وكما نرى، كان بوسع المتجول عبر أرجاء المدينة المرور عبر الحدائق العائمة (الشينامبا)، وزيارة الأسواق الكبيرة والاطلاع على منازل النبلاء وقصور الحكام. وبكلمات أخرى، نستطيع القول إن كل الطرق قادت نحو مدينة تينوشتيتلان، حيث توافد التجار والزعماء المتحالفون وكذلك المحاربون الخصوم، والفنانون والشعراء على المدينة/الجزيرة.

المعابد

كان من أهم المباني التي أقيمت فيها الشعائر والطقوس الدينية المعابد المركزية

والمحلية، والتي أشرف على إدارتها مجموعة من الكهنة. ويعد معبد كوآكالكو من المراكز الدينية الرئيسة، وقد بناه الحاكم موتيكوزوما كسكن لآلهة القبائل والجماعات الحليفة. وبهذه الطريقة، نستطيع القول إنه حتى الآلهة زارت عاصمة الأزتك وكان لها بيت هناك. لكن أهم معبد بناه الأزتك في كامل الإمبراطورية هو المركز الشعائري هائل الحجم والمساحة في قلب العاصمة. فقد بلغ طول كل جانب من جوانبه الأربعة 440 متراً، وقد ضم ثمانين مبنى، من بينها معابد ومدارس وحمامات، وأقسام خاصة لسكن الكهنة، وغيرها من الأبنية. وقد وصف هيرمان كورتيز ذلك المعبد كما يلي:

«من بين تلك المعابد، كان هناك معبد أُحيط بجدار شديد الارتفاع. وقد اتسع محيطه لدرجة أنه كان بالإمكان بناء بيوت تكفي لإيواء خمسمائة شخص. ومن وراء ذلك الجدار العالي شيّدت مبانٍ ذاتُ غرف واسعة وردهات فسيحة حيث أقام الكهنة. وقد ضمّ المعبد أكثر من أربعين برجاً، وكان برج أكبر معبد أعلى ارتفاعاً من برج كاتدرائية أشبيلية، وتمتاز تلك الأبراج بروعة بنائها وجمال نقوشها الخشبية، كما امتازت جميع أماكن العبادة بجمال حجارتها التي ازدانت بنقوش بديعة ورسوم لوحوش وغيرها من الكائنات»(35).

وتظهر خريطة للمدينة أهمية هذا الموقع المقدس ومكانته. وقد رسم تلك الخريطة رسّام خرائط تابع لكورتيز، وهي تصوّر أقسام المدينة الأربعة والمركز الاحتفالي الضخم في منتصف الصورة. ومن ضمن الأبنية تلالوكان، وهو معبد للصوم بني على شرف إله المطر، ومعبد سينتي أوتل البيضاء، وهي آلهة الذرة التي كان على شرفها تُقدّم قرابين من أشخاص مصابين ببثور جلدية. كما وجد معبد هويتزتيبي والكو والذي كان الكهنة يرمون فيه الأشواك التي استخدموها عند تقديم القرابين الذاتية. ومن المعابد المهمة معبد تزومبانتلي أو «حامل الجماجم»، حيث علّقت الرؤوس المقطوعة بعد تقديم القرابين. وهناك معبد آتيمبان، حيث جمع الأطفال ضحايا القرابين تحت اسم «شرائط ورقية بشرية» قبل أن يلاقوا حتفهم. كما وجد داخل المركز الاحتفالي

الكبير حجر تيمالاكاتل، وهو حجر دائري كان الأزتك يوثقون الضحية إليه قبل أن يهاجمه مجموعة من المحاربين الأزتك وأن ينتزعوا قلبه. كما وجد تلاماتزينكو كالميكاك، وهو معبد دراسي حيث عاش كاهن النار ووزع البخور ودرَّس تلامذته من الفتية الأذكياء. وقد حظيت جميع تلك المباني بأهمية كبرى، لكن مكانة المعبد الكبير فاقتهم مجتمعين.

أساس السماء: المعبد الكبير

اعتاد شعراء الأزتك على نظم قصائد المدائح بعاصمتهم. وقد جاء في كلمات إحدى الأناشيد:

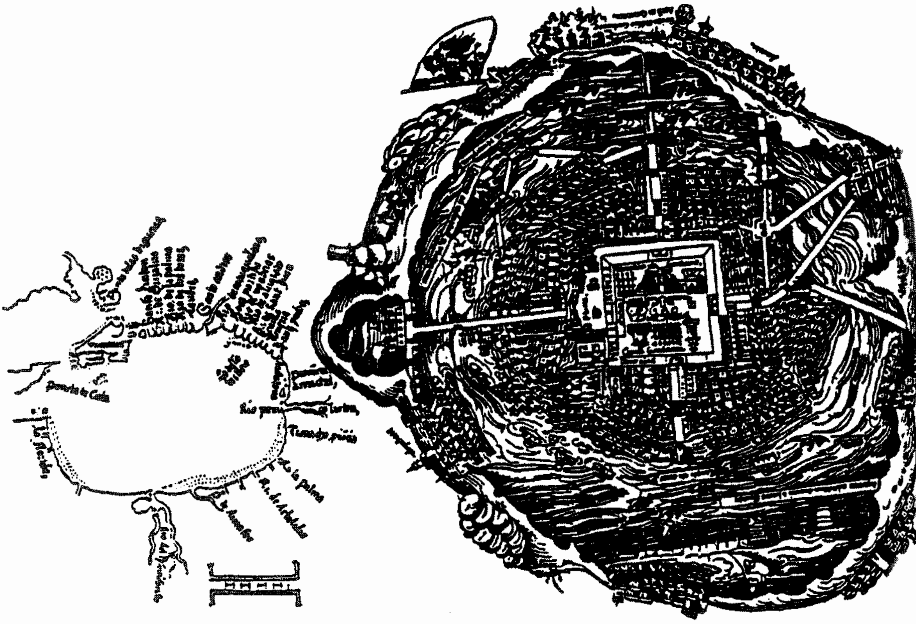
تفخر تينوشتيتلان، عاصمة المكسيك بنفسها
وفي هذا المكان، لا يخشى أحد الموت في الحروب
إنها تمثل مجدنا
إننا نأتمر بأوامرك
أيها الواهب للحياة
أيها الأمراء، لا تنسوا هذه الحقيقة
فمن يستطيع غزو تينوشتيتلان؟
وهل بوسع أحد زعزعة أساس الجنة؟(36).

فقد مجدت المدينة باعتبارها مكاناً غير مرئي، وهو أساس لبناء عمودي من الكون، وقد ورد وصفه في الفصل السابق. ويمثل هذا الوصف فكرة النموذج الأصلي والمحاكاة، والتي ورد ذكرها آنفاً. فقد بنيت المدينة باعتبار أنها نسخة أو صورة من الكون، والتي أمر ببنائها واهب الحياة، كما أنها تقع في مكان يُعدّ أساساً للسماء، ومرساة تدعم الكونيات من أعلاها. وقد ظهر تنظيم المدينة في صورة مأخوذة من مخطوطات ميندوزا. وتظهر الصورة المدينة عند تأسيسها، وقد أحاط بالمدينة الجزيرة سلسلةٌ مؤلفة من واحد وخمسين صندوقاً أزرق يحوي كل منها إشارة لسنة معينة. وقد تألف ذلك التقويم من أربع إشارات سنوية، وهي بيت، أرنب، عيدان قصب

وسكين صوان، وثلاثة عشر رقماً مصورة كنقاط. وقد نجم عن هذه المجموعات المؤلفة تقويم من اثنتين وخمسين سنة، وجاءت الأرقام من خلال إشارات الأيام الأربعة، أو من خلال تفاعل إشارات سنوية مع الأرقام الثلاثة عشر. وقد رسم ضمن ذلك الفراغ نوعان من الأعمال، وهما أساس المدينة وغزوات الأزتك القديمة. كما قسمت المدينة إلى أربعة أقسام رئيسة، وقد شقت قنوات لتصل إلى المنطقة المركزية حيث حطّ الإله، هويتزيلبوشتلي فوق شجرة صبار مزهرة نامية من صخرة كبيرة. وقد وجد تحت الصخرة ترس غُطِّي بريش سبعة صقور، ومتصل بستة سهام. ولابدّ لنا من أن نتذكر تأكيد الأزتك مراراً وتكراراً أن الكون يتكون من أربعة أقسام موزعة بانتظام حول مركز. وذلك هو النموذج الأصلي. وتظهر الصورة أن تصميم المدينة كان محاكاة لذلك النموذج. وقد بني أول معبد لإلههم هويتزيلبوشتلي (الطائر الطنّان الجنوبي) أو «الطائر الطنّان عند الجهة اليسرى» في موقع الصخرة التي جثم عندها الصقر فوق شجرة صبار. وقد اتخذ من ذلك الموقع، مركزاً، محوراً، أو مكاناً يعتمد عليه. وفي نهاية الأمر، تحول البناء إلى أعظم معبد في الإمبراطورية، وهو بناء أطلق عليه الأزتك اسم كوآتيبيك أو «جبل الأفعى». وعندما وصلت قبائل المكسيكا في نهاية هجرتهم الطويلة، ظهر لهم هويتزيلبوشتلي ثانية، وأمرهم ببناء مدينتهم «والتي ستصبح ملكة تحكم جميع المدن الأخرى. وسوف نستقبل هناك الملوك والنبلاء الذين سيعترفون بتينوشتيتلان عاصمة لهم»(37).

وفي حقيقة الأمر، أصبحت المدينة عاصمة كبرى، كما ورد في رسالة بعث بها هيرنان كورتيز إلى الإمبراطور تشارلز الخامس «بنيت مدينة تيميكستيتان (تينوشتيتلان) العظيمة على ضفاف بحيرة مالحة. ومهما يكن الطريق الذي تسلكه للوصول إليها، فإنها لا تبتعد عن البر الرئيس أكثر من فرسخين (الفرسخ: قياس للطول يتراوح بين 2,4 إلى 4,6 من الميل). كما تقود أربعة طرق اصطناعية نحو المدينة، ويصل عرض كل طريق عدة أمتار. وتوازي مساحة المدينة الكبيرة مساحة أشبيلية أو قرطبة»(38).

وتبعاً لما ورد في أساطير الأزتك، أمر الإله هويتزيلبوشتلي أتباعه بتقسيم المدينة إلى أربعة أقسام رئيسة، فضلاً عن بناء معبد مركزي على شرفه.



خريطة منقوشة لمدينة تينوشتيلان، مزخرفة بعدة مصطلحات أوروبية مصورة. والخريطة مأخوذة من أول نسخة صدرت لرسائل كورتيز «براكلارا فيرديناندي كورتيسي دي نوفا ماريس اوسيانو نارراتيو» (بورمبيرج، 1524).

ويظهر في الصورة المأخوذة من مخطوطات ميندوزا، عشرة رجال منتشرين في أقسام المدينة الجديدة الأربعة، وكل منهم يحمل على رأسه لوحة نقش عليها اسمه بأحرفٍ نافرة. وقد ثُبِّتت تلك اللوحة بواسطة خيط، إلى رأس صاحبها. وقد وقف رئيس المجموعة إلى يسار شجرة الصبار العملاقة، وقد تميز ذلك الرجل بتسريحة شعر متقنة. كما دلت اللوحة الظاهرة أمام فمه أنه زعيم الرجال والناطق باسمهم. كما دلّت السجادة التى جلس فوقها على مكانته وسلطته السياسية النافذة. وقد رسم في اللوحة مبنيان رئيسان وهما: مبنى «حامل الجماجم» والذي علقت فيه رؤوس



إنشاء مدينة تينوشتيتلان. تظهر الصناديق المحيطة بالصورة أسماء إشارات السنوات، بداية من الزاوية العلوية اليسرى بإشارة 2 حصان، ونزولا حسب حركة عقارب الساعة إلى أن نصل إلى إشارة 13عيدان قصب في أعلى وسط الصورة (مخطوطة ميندوزا، بتصريح من مكتبة بودليان، أكسفورد، إنجلترا).

مقطوعة لمقاتلين أعداء، وبيت صغير ظهر أعلى رسم الصقر، وقد مثل أول معبد بني على شرف هويتزيلبوشتلي أو «بيت الرجال»، حيث جرت النقاشات واتخذت القرارات. وقد انتشرت أنواع مختلفة من المزروعات حول النواحي الأربع.

كما ظهر في أسفل الصورة الرئيسة مشهدان يمثلان معارك وغزوات. وقد مثلت المباني الظاهرة معابد مائلة ومحترقة ولكل منها إشارة أو صورة خاصة بها. ويحمل إشارة المكان إلى يسار الصورة اسم كولهواكان (الهضبة المائلة)، بينما تحمل الإشارة إلى يمين الصورة اسم تينايوكا (هضبة السور الواقي). وقد مثلت تلك المعابد المائلة والمحترقة غزوات. وقد غزا الأزتك قبيلتين قديمتين. ومن المهم الإشارة إلى أن المعابد المائلة والمحترقة لا ترمز للقضاء على ديانة أو مجموعة من الكهنة فحسب، بل لهزيمة قبيلة بأسرها. كما ظهر في الصورة محاربان عملاقان من الأزتك وهما يُخضِعان محاربين من المدينتين المهزومتين عبر وضع تروسهم فوق رؤوسهم. ومن اللافت للانتباه أن التروس وضعت على رؤوس المقاتلين عند المنطقة التي تقبع فيها التوناللي، أو الروح. وتكمن الفكرة هنا في السيطرة على روح أو قوة أو جوهر المقاتل، فضلاً عن إحراق وتدمير روح المدينة أو جوهرها، والمتمثل في معبدها.

مولد الإله المحارب

تفيد العودة لدراسة معبد هويتزيلبوشتلي في فهم فكرة تقوم على تكرار النموذج الأصلي. فقد تطور ونما المعبد الأولي المتواضع حتى تحول إلى قاعدة هرمية هائلة يعلوها معبدان كبيران. ويعود أصل هذا المعبد إلى أسطورة مؤثرة تظهر كيفية تحول حادثة نموذجية وقعت بين الآلهة إلى نموذج لمحاكاة شعائرية بين البشر.

وقال الأزتك إنه عند موقع مقدس اسمه كوآتيبيك (هضبة الأفعى) كانت أم الآلهة، وهي كوآتيلكو (سيدة تنورة الأفعى) تكنس المعبد. وقد سقطت كرة من الريش الناعم وحطّت على الأرض. وقد التقطتها كوآتيلكو ووضعتها في قميصها. وبعد أن انتهت من تنظيفها الشعائري للمعبد، بحثت عن كرة الريش لكنها اكتشفت أنها اختفت. وسرعان ما أدركت أن الريش سحرها وجعلها حاملاً. وسرت أنباء بأنها حملت في

المعبد، وغضب الناس.

وبوصفها أم الآلهة، كان لها من قبل عدد من الأبناء. وفي الواقع، تخبرنا الأسطورة أنها أنجبت أربعمائة ولد، وهو عدد بدا عصياً على العدّ. وكان من أحد أبنائها المقاتلة الأنثى كويول إكسوجوي (سيدة الأجراس) والتي جمعت بقية إخوتها ضمن فريق عسكري شرس. وقد قرر أولئك الإخوة والأخوات الذين عرفوا باسم سينتزون هويتزناهوا (أربعمائة جنوبيون) شنّ الحرب والتقدم نحو المعبد وقتل أم الآلهة. وتروي الأسطورة «ملأ قلوبَهم غضبٌ وحزن شديدان، وشعروا كأن قلوبهم اقتلعت من صدورهم. وقد استدعتهم كويول إكسوجوني وأشعلت نار غضبهم كي يقتلوا أمها». ويشمل وصف استعداداتهم والمسيرة الطويلة نحو المعبد مقطعاً يروي ويصف كيف تسلل ليلاً أحد أبناء كوآتيلكو، وهو الإله كواويتليكاك، خارج معسكر المقاتلين، وصعد الجبل كي يحذر أمه. وعندما أخبرها أن الهجوم قادم، أصابها ذعر شديد، لكن صوتاً من داخل رحمها قال للرسول «انتبه، وكن حذراً، يا أخي، فأنا أعلم ما يجب عليّ فعله».

وسار المقاتلون لمدة أيام نحو الجبل، ثم شنوا هجومهم. «كانوا أقوياء، شديدي البأس، ومزودين بأفضل العتاد. وقد وزعوا فيما بينهم أزياءهم الورقية والقرّاص (نبات ذو وبر شائك) والشارات والشرائط الورقية الملونة. كما ربطوا أجراساً صغيرة حول كواحل أقدامهم. وقد سميت تلك الأجراس باسم أويوهوالي. وقد أحاطت بسهامهم نتوءات شائكة».

ومن شدة غضبها، قادت سيدة الأجراس، كويول إكسوكوي صعوداً نحو الجبل، وكانت على وشك الإجهاز على كوآتيلكو عندما ولدت مقاتلاً شاباً وهو هويتزيل اوبوشتلي، إله الحرب والذي تسلح بأفعى من النار، واستدار بسرعة كي يواجه كويول إكسوكوي. وسرعان ما قطع هويتزيل أوبوشتلي رأسها، وقطّع أطرافها ورمى بها من أعلى الجبل. ثم وجّه غضبه المقدس نحو الثلاثمائة والتسعة والتسعين إلهاً «لحق بهم أثناء عدوهم حول الجبل. وعندما نفدت ذخيرتهم هزمهم وأذلهم ودمرهم وسحقهم». وعندما أخذ في تمزيق شارات المهزومين في المعركة وشعاراتهم، احتفظ

لنفسه ببعض منها ووضعها فوق ثيابه.

وتختتم الأسطورة بالادعاء أَنَّ «الأزتك مجّدوا هويتزيل أوبوشتلي، وقدموا له القرابين، وبدأت عبادته من الجبل نفسه، من كوآتيبيك، جبل الأفعى». وقد عدّت تلك الحرب نموذجاً، أو نوعاً من برنامج عمل حول كيفية تعامل مقاتلي الأزتك وكهنتهم مع الأعداء الذين جاؤوا لقتالهم في تينوشتيتلان.

وفي الواقع، وكما سنرى لاحقاً، كان المعبد الكبير نسخة مطابقة من تلك الدراما المقدسة.

تُرى ما الذي تقدّمه إياه هذه الأسطورة عن نظرة الأزتك إلى المكان والمعبد والحروب والمصير؟ فمن جانب أوّل، تدور الحكاية حول الحدث اليومي لشروق الشمس كما فهمه الأزتك. فإن هضبة الأفعى تمثل أرض الأزتك. وإن كتلة الأرض هي المرأة الأفعى (كوآتيلكو) والتي تمنح القوة في كل يوم إلى الشمس (هويتزيلوبوشتلي) عبر شنّ حرب ضد القمر (أخته كويول إكسوكوي) والنجوم (إخوانه الأربعمائة، السينتزون هويتزناهوا)، وفي يوم تحقق الشمس انتصاراً. وبهذه الطريقة تعطينا الأسطورة نمطاً نموذجياً في الطبيعة. يعد شروق الشمس غزواً عسكرياً للنجوم الوثيقة الصلة بها. كما يحتمل أن تكون هذه الحكاية سرداً لحرب فعلية جرت بين فريقين خلال السنوات الأولى لثقافة الأزتك. وإن صحّ هذا الافتراض، فإن الأسطورة تخبرنا عن نموذج تاريخي، وهو أن أسلاف الأزتك هزموا أعداءهم بشراسة، وقدموا أجسادهم قرابين عند مركز العالم. وبصرف النظر عن تلك الحكاية، قرر الأزتك إقامة احتفالاتهم عند أقدس معابدهم، وهو تيمبلو مايور. فقد كان مكاناً نموذجياً لإقامة المهرجانات والشعائر والطقوس.

وقد أطلق الأزتك على المعبد اسم كوآتيبيك أو «جبل الأفعى». وقد ضمّ، كما أشرنا سابقاً، قاعدة هرمية كبيرة تتصل بسلّمين يقودان إلى معبد هويتزيلوبوشتلي من جانب، وإلى معبد تلالوك إله المطر من الجانب الآخر. وقد وجدت تماثيل لرؤوس أفاعٍ عند بداية السلم وهي متصلة بالدرابزين، لإعطاء الانطباع بأن أجساد الأفاعي ممتدة نحو أعلى السلمين. وعند أعلى سلم الدرج الجنوبي انتصب معبد هويتزيلوبوشتلي،





أسطورة كوآتيبيك ممثلة في هاتين اللوحتين من القرن السادس عشر. وتبدو في الجهة اليسرى كوآتليكو وهي تلد هويتزيلوبوشتلي، والذي يبرز كرجل مكتمل النمو ومستعد للقتال. ومن الجهة اليمنى، يقطع هويتزيلوبوشتلي أوصال أخته كويول إكسوكوي، ويهاجم بقية إخوته عند جبل الأفعى (مخطوطة فلورنتاين، من رسم فرانسيسكو باسو يو ترونكوسو، بتصريح من جامعة أوتاوا ومعهد الأبحاث الأمريكي).

والذي ملأت جدرانه الداخلية لوحات جدران ونقوش نافرة. كما ضمّ الضريح تماثيل للآلهة، ويقبع عند بداية الدرج المؤدي إلى معبد إله الحرب حجر دائري ضخم، يبلغ طول قطره قرابة الثلاثةِ أمتار، وقد نقش عليه رسم لوجه كويول إكسوكوي مقطعة الأوصال. وهذا بدوره يعني أن هذا الجزء من المعبد كان نسخة مطابقة للأسطورة، أو ما يسمى «تجسيد الفكرة». ويجلس هويتزيلوبوشتلي، الشمس، مزهوّاً في أعلى الجبل (والسماء)، في حين تقبع أخته مقطعة الأطراف، والمهزومة عند أسفل الدرج. وهذا هو مثال لتكرار النموذج الأصلي، أي تقليد الدراما المقدسة من خلال بناء المعبد. وقد قتل عدد كبير من المحاربين الأعداء عند هذا المعبد، ودُحرجت أجسادهم على طول السلالم إمعاناً في إذلالهم، حتى بعد موتهم، كما ورد في الأسطورة حول مقتل كويول اكسوكوي.

التيمبلومايور كوعاء للإمبراطورية

شكل التيمبلومايور أحد الأهداف الرئيسة للجنود ورجال الدين الإسبان. فقد أدركوا أن الحكام الأزتك وآلهتهم قدّروا المكان ووضعوه في مرتبة أعلى من سواه، وأنه من أجل غزو المدينة وسكانها، كان عليهم تدمير المعبد. وتتوافر لدينا عدة روايات عن شهود عيان حول معارك دارت فوق سلالم المعبد العظيم وعند قمته، والذي دافع عنه المقاتلون والكهنة الأزتك بأرواحهم. وعندما نجح الإسبان في السيطرة على المعبد، أنزلوا تمثال هويتزيلوبوشتلي الحجري الضخم عبر السلالم ودفنوه في مكان ما في حوض المكسيك. ومن ثم استخدموا نيران المدافع والعمال الهنود في تدمير أربعة أخماس الهرم. من ثمّ ملئت المنطقة المدمرة بتراب المعبد العظيم وركامه، والذي استخدم لاحقاً في تشييد أبنية إسبانية. وفي حقيقة الأمر، استخدم جزء من ركام المعبد في بناء أساسات الكاتدرائية الإسبانية المجاورة.

وقد أهملت أو نسيت، على مدار قرون طويلة، معظم الممارسات الدينية والتماثيل المقدسة في المعبد الكبير. لكن اكتشافاً دراماتيكياً أنهى كل ذلك. تمّ ذلك الاكتشاف في عام 1978 عندما عثر عمال على حجر دائري ضخم تعلوه نقوش غريبة. وعندما حضر خبراء الآثار وتفحصوا الحجر، أدركوا أنه تمثال كويول إكسوكوي. وكان التمثال في حالته الأصلية، وهو يصوّر جسدها مقطع الأوصال وملابسها المقدسة ودمها الثمين وغطاء رأسها الرائع. وقد كان الاكتشاف بمثابة لحظة مدهشة في علم الآثار الأمريكية، لأن الأناشيد المقدسة حول المعركة بين هوينزيلوبوشتلي وكويول إكسوكوي عرفت منذ منتصف القرن السادس عشر، عندما نقلت لرجال الدين أنباء عن الصلوات المقدسة للأزتك الناجين من آثار الغزو. وهكذا، تمّ الكشف عن التمثال الأصلي للآلهة القربانية. كما عثر خبراء الآثار تحت التمثال على أشياء أخرى ذات قيمة أثرية كبيرة. إذ بعد مواصلة الحفر حتى قاع البحيرة، عُثر على صناديق مملوءة بأشياء مقدسة، ومنها أقنعة للآلهة وقرابين بشرية، وأحجار خضراء كريمة، وتماثيل لحيوانات وأصص وأوعية معدنية. وقد أمر رئيس المكسيك، والذي كان مكتبه مجاوراً لموقع الاكتشافات، باستكمال الحفريات إلى أن تم الكشف عن المعبد الكبير ذاته.

وعلى الفور، تمّ، تحت قيادة ادواردو ماتوس موكتيزوما، كبير علماء الآثار المكسيكيين، وضع خطة تفصيلية لاكتشاف الموقع وترميمه والكتابة عنه. وطوال السنوات الخمس عشرة اللاحقة، تابع مواطنو المكسيك، وعلماء آثار جاؤوا من كل مكان في العالم، بدهشة بالغة إعادة بناء سبعة مبانٍ، وتعديل خمسة أخرى اكتُشفت في موقع المعبد الكبير. فقد أعاد الأزتك بناء معبدهم على شكل سلسلة من الصناديق المركبة، كل منها فوق الآخر. وقد دهش علماء الآثار عندما اكتشفوا، شهراً بعد شهر، أكثر من 135 صندوقاً مدفوناً ضَمَّتْ أكثر من ثمانية آلاف قطعة أثرية رُمّمت وعُرضت، في نهاية الأمر، في متحف المعبد الكبير الملاصق للموقع. كما أقيمت سلسلة من العروض لتلك القطع في متاحف عدة حول العالم، منها عروض في روما وباريس ونيويورك، ودينفر وسان فرانسيسكو، وتيجوانا. وقد حمل عرض أقيم في متحف دينفر للتاريخ الطبيعي عنوان «أزتك: عالم موكتيزوما». وقد زار المعرض أكثر من 800,000 زائر. ويعود الفضل لنجاح ذلك العرض لحسن تنظيمه. وكما سيرد، ضمن هذا الفصل، أخِذَ الزائر إلى المعرض في رحلة عبر مدينة تينوشتيتلان، بدءاً بإطلالة على المدينة العظيمة من أعلى الجبل حيث أطلق إكسولوتل سهامه، وصولاً من خلال الشينامبا إلى السوق ومروراً بقصر الحاكم، ومن ثم الوصول إلى المعبد الكبير، فضلاً عن رؤية الكنوز التي وجدت تحت أدواره العديدة.

المركز والمحيط

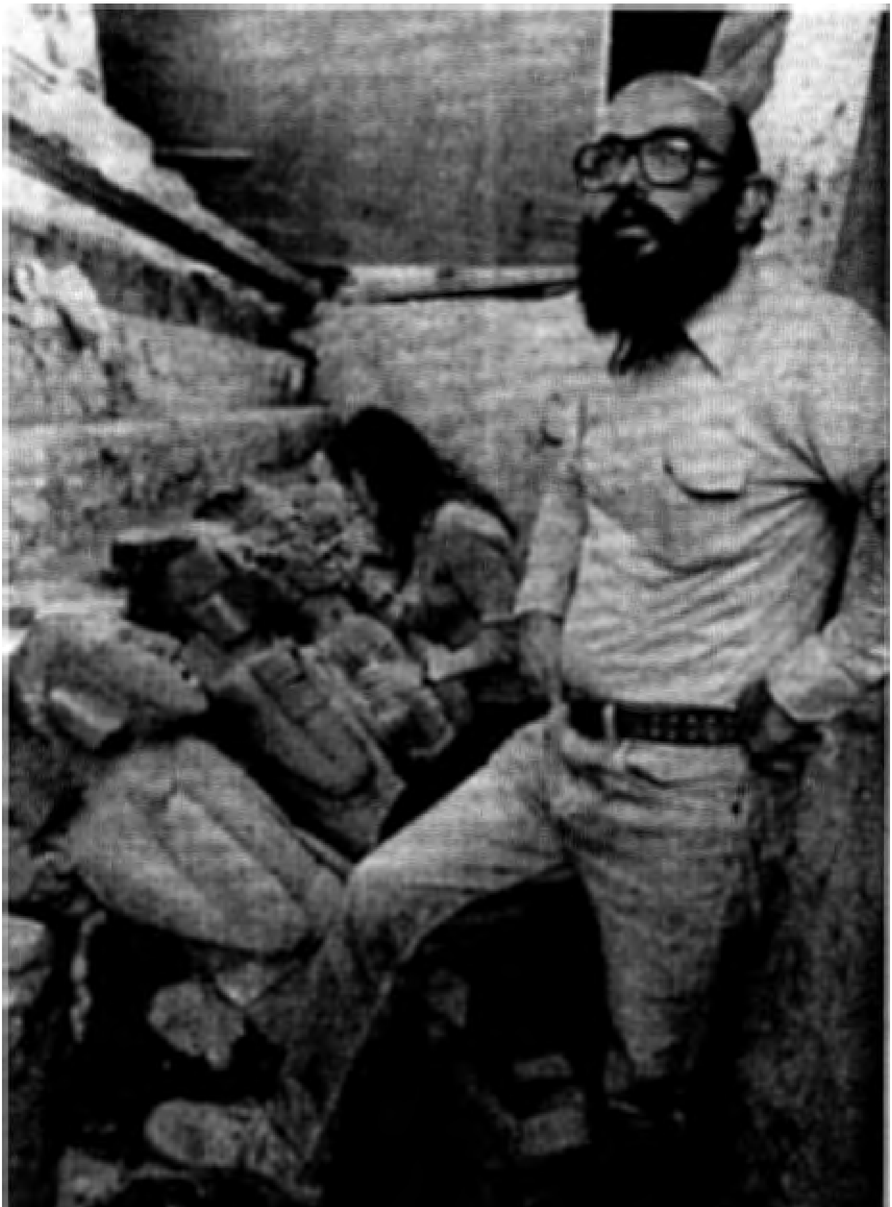
كان من أكثر سمات الكشف عن المعبد الكبير حيوية وإثارة، اكتشاف الهبات المدفونة في الطوابق الأرضية وتحت السلالم والأضرحة. وقد دلت تلك الصدقات والهبات على أن المدينة ومعبدها المركزي، اعتبرا، إلى حد كبير، مركز العالم الاجتماعي والرمزي. فقد أجبر كل آلتيبتل وتلاتوكايوتل في ظل الهيمنة الأزتكية، على دفع الأتاوات. وقد كانت تلك الأتاوات شكلاً من الضرائب تقدم في صورة أغذية وملابس ومجوهرات وعباءات، وأزياء محاربين وأقنعة وحيوانات. وقد دفعت تلك الأتاوات إلى العاصمة. وفي الواقع، دفعت بعض الأشياء الثمينة إلى الآلهة التي أقامت



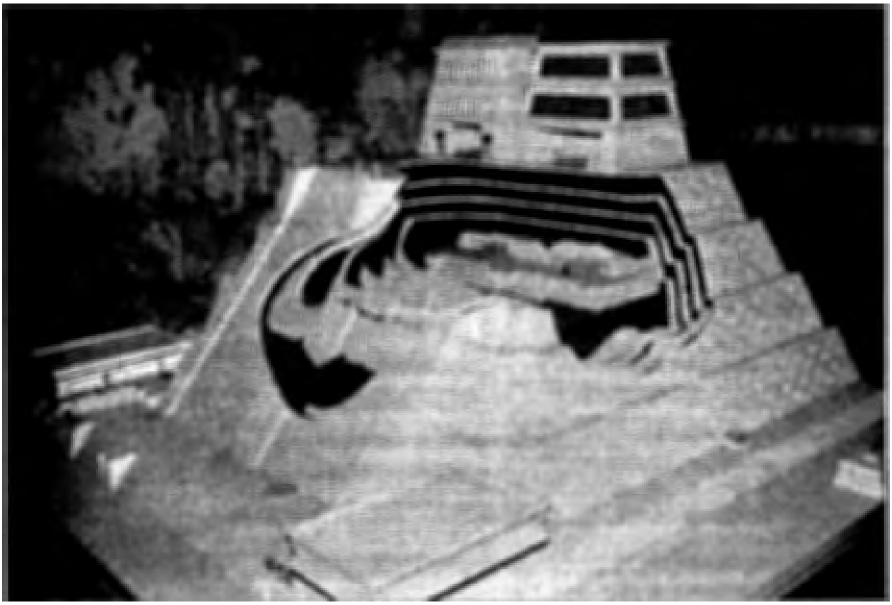
حجر كويول إكسوكوي (بتصريح من سلفادور جويل ليم آررورو، المعهد الوطني لتاريخ علم الإنسان).

في كوآتيبيك، أي المعبد الكبير. وقد عُثر على أكثر من 135 هبة في نقاط استراتيجية حول أساس المعبد، وعند كل مرحلة من بنائه.

وعندما بدأ علماء الآثار في تفحص تلك الصناديق المملوءة بالهبات والصدقات، دهشوا من طريقة تنظيم الأزتك لتلك الصناديق ومحتوياتها وترتيبهم لها. وقد أظهرت طريقة الاستفادة من الفراغ الداخلي أن الأزتك استخدموا لغة رمزية لترتيب تلك الهبات. أولاً، بدا واضحاً أن الهبات كانت هدايا فعلية قدمت إلى الآلهة، خاصة الآلهة المقدسة، هوينزيلوبوشتلي وتلالوك، المقيمة داخل المعبد. وقد تكونت تلك الهبات من أقنعة حجرية وتماثيل لعدة آلهة، وسكاكين قربانية حادة صنعت من



عالم الآثار المكسيكي إدواردو ماتوس موكتيزوما أدار المشروع الضخم لاستكشاف المعبد الكبير (بتصريح من المعهد الوطني لتاريخ علم الإنسان).



نموذج يصور المراحلة المتتالية لإعادة بناء المعبد الكبير (بتصريح من لورنس جي. ديسموند).

السَّبْج (زجاج بركاني أسود عادة) وبيوت وقوارب كنو شديدة الصغر، وأوعية كبيرة لإحراق البخور، وأدوات وآلات موسيقية ومسالك للأذن ودروع، وقرابين بشرية وحيوانية وعقود من أحجار كريمة خضراء وأشياء أخرى. ثانياً: كان لافتاً أن 80٪ من تلك الهدايا جلبت من مناطق خارجية تقع عند أطراف إمبراطورية الأزتك. وقد جاءت معظم تلك القطع الأثرية من منطقة ساحل الخليج وأجزاء من مقاطعات حالية، وهي أوآكساكا وبويبلا وجيريرو. وعلى سبيل المثال، عثر على عدد كبير من تماثيل لحيوانات (أكثر من مائتي نوع من أحد عشر مجموعة حيوانية) ومنها الكوجر والكلاب والتماسيح، والطيور والأسماك وأنواع مختلفة من القواقع. ثالثاً: وهو أهم نقطة، بدا أن صورة الكون بمستوياته الثلاثة كثيراً ما تمت محاكاتها ضمن التمثال ذاته، حيث دعمت رمال جلبت من قاع المحيط (العالم السفلي) تماثيل لبشر وحيوانات (عالم البشر) والتي دعمت بدورها رموزاً تمثل السماء والكائنات السماوية (العالم العلوي). رابعاً، من المهم الإشارة إلى أن تلك الصدقات لم تمثل المجتمعات المحيطة بمركزهم، بل إن الأزتك احترموا وقدروا الماضي المجيد، أي حضارتي التولتيك وتيوتيهواكان. فقد



هبات متنوعة استُخرجت من تحت المعبد الكبير، وشملت مواد من الفحم والمحار وأوعية من الخزف وتماثيل حجرية (بتصريح من المعهد الوطني لتاريخ علم الإنسان).

عثر داخل عدد من الصناديق على تماثيل وأشياء جلبها الأزتك أنفسهم من آثار وجدت في مراكز احتفالية قديمة في مدينة الآلهة وتولا.

المعبدان التوأمان

أشرنا إلى شهرة إله الحرب، هويتزيلوبوشتلي، ودوره النموذجي في بناء المعبد الكبير. لكن، وجد أيضاً معبد للإله تلالوك، وهو إله المطر المسؤول عن الرفاهية الزراعية ورغد عيش السكان. وقد كان تلالوك من أعظم آلهة الخلق، وهو ابن أصلي للإله المزدوج، واهب الحياة. كما كان تلالوك إلهاً قديماً في أمريكا الوسطى، وقد عبد قبل زمن طويل من ظهور الأزتك. ومن أجل إنشاء معبد مقدس لا يمثل تفاصيل هجرتهم وترحالهم (هويتزيلوبوشتلي) وحسب، احتاج الأزتك إلى معبد مخصص لإله الجميع، الآلتيبتل، إله التربة والسهول، والذي مثل الأرض وبنيتها الأولية. ومن



صورة للإله تلالوك مرسومة على سطح وعاء جميل من الخزف عثر عليه عند موقع المعبد الكبير (بتصريح من سلفادور جويل ليم آرّرويو، المعهد الوطني لتاريخ علم الإنسان).

أهم معالم الحفريات عند موقع المعبد الكبير، وجود عشرات التماثيل للإله تلالوك، والتي توزعت بين الهبات المدفونة تحت الموقع، وذلك من دون وجود تمثال واحد للإله هويتزيلوبوشتلي. كما عُثر على أصص وأوعية وتماثيل للإله تلالوك، وهي قطع أثرية تظهر سمة وقوة الإله، مما يشير إلى حضور صورة تلالوك في كل مكان أمام من صنعوا التماثيل والهبات.

كما يشير اكتشاف معبدين توأمين إلى سمة أخرى مهمة تدل على علاقة المعبد الكبير بالإله تلالوك. فإن وجود معبدين فوق قاعدة الهرم يشير إلى سمة مهمة، إن لم تكن فريدة، عند الأزتك. إذ كما تروي لنا الأسطورة بأن هويتزيلبوشتلي في المعبد الكبير كان نسخة مطابقة من الجبل الأسطوري (كوآتيبك)، فقد تمت محاكاة أسطورة تلالوك، وهو جبل تلالوكان الأسطوري، أي الجنة التي أقامت فيها آلهة المطر. كما تروي الأسطورة أن آلهة المطر عاشت في مكان دائم الخضرة والخصوبة، وأرسلت الأمطار الواهبة للحياة والفيضانات القاتلة. وبهذه الصورة، كان المعبد الكبير محاكاة لنموذجين أصيلين، أي جبلين أسطوريين، وهما كوآتيبك وتلالوكان.

المعبد العظيم كجبل من الدماء

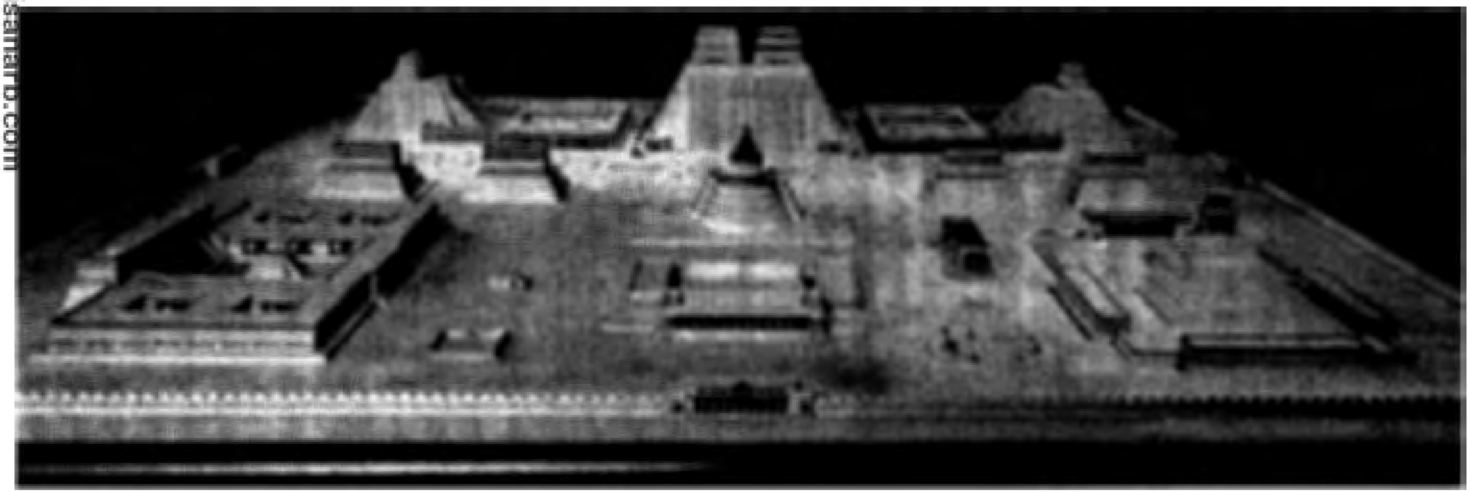
يبدو مفهوماً أن يحظى مكان يمثل نموذجاً أصيلاً، مثل تيمبلومايور، بأهمية كبيرة ليس عند بداية حياة الجماعة وحسب، ولكن عند نهايتها. وهذا ما كان في أسطورة الجبلين كوآتيبك وتلالوكان. وتكشف روايتان كيف ارتبط مصير ودمار مدينة الأزتك بمصير المعبد الكبير ودماره. تقول الرواية الأولى إن سلسلة نذر شؤم وقعت في حوض المكسيك قبل عشر سنوات من تدمير المعبد الكبير، معلنة أن مستقبلاً مظلماً ينتظرهم. وكما ورد في روايات نقلها مخبرون إلى بيرناردينو دي ساهاجون (ذكرت في الفصل الأول)، ظهرت في السماء والبحيرة وعلى سطح الأرض مجموعة من الإشارات استدّل منها السكان على أن مدينتهم ـ عالمهم أوشك على نهايته. ومن أبرز نذر الشؤم حدوث شق في السماء أرسل ناراً إلى المدينة. وبرز نذير آخر على هيئة مذنب طار فوق البحيرة في اتجاه معاكس لاتجاه الشمس. ومن ثمّ نشبت نار، لم يعرف

مصدرها، في معبد هويتزيلوبوشتلي وقضت عليه، مما أثار حفيظة الكهنة والحكام وخوفهم. وقد خشي هؤلاء من اقتراب موعد نهاية عالمهم؛ لأنه، كما أشرنا سابقاً في هذا الفصل، كان احتراق المعبد يعني انهيار مجتمعهم. لكن، بعد مرور بضع سنوات، ومواصلة الحياة سيرها كالمعتاد، أغفل ذكر ذلك النذير.

لكن، من أهم الأمثلة حول كيفية استخدام الأزتك لهذا المعبد كمحاكاة للنموذج الأصلي لأسطورة هويتزيلوبوشتلي، وردت في رواية بيرنال دياز ديل كاستيلو، والتي استهل بها الفصل الحالي. فقد حاصر الإسبان المدينة خلال المعركة العسكرية للسيطرة على العاصمة. وقد تضوّر الأزتك من الجوع نتيجة الحصار، وأخذوا، في خطوة يائسة، بتقديم محاربين إسبان قرابين إلى هويتزيل بوشتلي في المعبد الواقع في قلب المدينة. وقد شهد دياز ديل كاستيلو تقديم تلك الأضاحي، ووصفها في تقرير (ستتم دراسته بالتفصيل في الفصل السابع المخصص للقرابين البشرية). رأى كاستيلو الجنود الإسبان وهم يُجَرّون إلى أعلى درجات المعبد الكبير نحو معبد هويتزيلوبوشتلي. وحال وصولهم إلى قمة المعبد، كانوا يُجردون من ملابسهم، ويُلبسون زيّ الأزتك تيتوى إكسيبيتلا (صور الآلهة) ويُقدمون كقرابين.

كتب كاستيلو: «وقد سارعوا وهم ممسكون بنوع من السكاكين، لشقّ صدورهم واستخراج قلوبهم النابضة بالحياة ورميها إلى آلهتهم. ومن ثمّ ركلت أجساد الجنود الإسبان نحو أسفل الدرج. وفي انتظار تلك الأجساد، وقف جزارون هنود وقطعوا الأطراف والأقدام، وسلخوا جلد الوجوه، وأعدوها فيما بعد كقفازات جلدية مع الاحتفاظ بلحاها»(39).

وسوف نذكر في فصل لاحق، بعض ملامح ذلك الطقس المرعب، كأكل لحوم البشر وسلخ جلودهم. لكن عند الأخذ بعين الاعتبار ما عرفناه عن النماذج الأولية والمحاكاة، والمعبد الكبير، وكوآتيبيك، لابدّ من أن تتضح حقيقة أن الأزتك كانوا مؤهلين لتلك الممارسات. وكما جرى في أسطورة مولد هويتزيلوبوشتلي فوق جبل الأفعى، عندما جاء الأعداء لمهاجمة المعبد وآلهته وُضع الإسبان في مصاف السينتزون هويت زناو، وهي قوى الظلام التي غزت المدينة المقدسة ومحيطها بغية تدمير عالم



نموذج يحاكي إعادة بناء المعبد العظيم والمركز الاحتفالي في تينوشتيتلان (بتصريح من سلفادور جويل ليم آررويو، المعهد الوطني لتاريخ علم الإنسان).

الأزتك. وكما ظهر هويتزيلوبوشتلي، بالضبط، وهاجم وقدم الأعداء قرابين، وقطع أطرافهم ورمى بهم على درجات المعبد في إطار غزو الشمس، قُدّم الإسبان قرابين عند قمة الهرم، وقطعت أوصالهم ورمي بهم على مدرجات المعبد، فلاقوا مصير كويول إكسوكوي التي تجرأت وتمردت وحاولت تدمير المعبد والقضاء على المدينة وسكانها. وهكذا أصبح آلتيبتل، جبل الماء، جبلاً لغزو شمسي وقرابين دموية.

الفصل الرابع

التعليم ودورة حياة الأزتك: من الولادة وحتى الموت وما بعده

نيجوا أوتلاميلاأوآ، تيكوكوتلاميلاأوآ ومعناها: أنا شجرة غير مثمرة، وأنت شجرة مثمرة. وتقال هذه العبارة عندما أدرس شيئاً ما لكني أعجز عن تعلمه. إنها حالة شبيهة بشجرة فاكهة لا تطرح ثماراً(40).

منذ لحظة الولادة، حرص آباء الأزتك وأمهاتهم، على تجنيب أبنائهم من أن يكونوا «أشجاراً غير مثمرة»، وأن يكونوا، عوضاً عن ذلك، مواطنين منتجين. وقد آمنوا بأن الرضع معرضون لمخاطر كبيرة، وأنهم عرضة للهجوم من جهات طبيعية أو خارقة للطبيعة. وفي الواقع، عُدّ صغار الأطفال، ممن لم يأكلوا بعد الذرة، كائنات نقية قادرة على التواصل مع الآلهة بطرق مباشرة. وما إن يبدأ الأطفال بأكل الذرة، مما يعني أنهم بدأوا في استهلاك فاكهة الأرض ومزروعات نمت بفضل جهود إنسانية، (كذلك اختزان قوى الموت لأن شيئاً ما قُتل من أجل تغذيتهم)، حتى يصبح التعليم مفتاح اكتساب القوة والمعرفة كي يصبحوا، في يوم ما، جزءاً من النسيج الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع. وهكذا تلقى أطفال الأزتك نوعي التعليم العام والخاص، من الأبوين والكهنة والمعلمين، ومن أفراد آخرين في المجتمع من خلال عدة وسائل وهيئات تعليمية.

وقد اعتاد الأزتك على وضع خطة مبكرة لتعليم أبنائهم، وكانت تبدأ، في الواقع، بعد عشرين يوماً من الولادة. وفي ذلك الوقت، كان الأبوان يختاران نوع التعليم الذي يريدان لطفلهما اكتسابه، ومن ثمّ يأخذانه إلى المعبد، أو المدرسة المناسبة. وكان أبوا الطفل المقبل على دارسة الكهانة، يحملان الهدايا من عباءات ومآزر وأغذية إلى الكهنة في الكالميكاك، حيث يُقدّم الطفل. ثم تُتلى الصلاة التالية:

سيدنا، سيد القريب والحميم، إن هذا الطفل ملكٌ لك، إنه ابنك

المجيد، إننا نضعه تحت إمرتك، وفي ظلّ حمايتك إلى جانب أطفال مجيدين آخرين، لأنك ستعلمهم وتثقفهم، وتعدّهم كي يصبحوا صقوراً ونموراً في خدمة أمنا وأبينا، تلاتي كوتلي وتوناتي. إننا نكرّسه الآن لخدمة يوواللي وإيهي كاتل وتلاكاتل وتيلبوشتلي ويأوتزين وتيتلاكاوان وتيزكاتليبوكا(41).

وكان الأزتك يصدقون على الاتفاق الذي تم بين الأسرة والآلهة والمعبد بواسطة نقوش تُطبع على أجساد الصغار. وقد عدّت تلك العلامات الجسدية بمثابة إشارات مرئية للتحول الروحي. وكانت الشفة السفلى للصغار تُشق وتزرع داخلها جوهرة. كما تعرضت الفتيات الصغيرات عند إلحاقهن بالمدارس الدينية، لجروح صغيرة في مناطق الصدر والوركين. وكانت تلك الثقوب أو الشقوق الصغيرة تُعدّ رمزاً لاستهلال عملية تعليمية تدوم مدى العمر ويكسبن منها عيشهن.

وهكذا أعادت تلك الصلاة تثبيت كل ما عرف أولياء الأمور الأزتيون، وما تطلّب من الأطفال تعلّمه، وهو أن آباءهم وأمهاتهم الحقيقيين هم الآلهة، وأن الأفراد العاديين مطالبون بالتواصل مع الآلهة والجماعة في المجتمع، وأن التعليم هو مفتاح التحول من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد ومسؤولياتها، كي يصبحوا «أشجاراً مثمرة».

كما ورد في نص آخر حول المدارس بأنه: «يتم داخل الكاليميكال إصلاح الناس وتعليمهم. وهو مكان لحياة عفيفة مجيدة، وهو مكان للمعرفة والحكمة والصلاح، ومكان للقيم، كما أنه يخلو من الأوساخ والغبار»(42).

وفي إطار أكثر الاستراتيجيات ضماناً لأن يصبح الطفل «شجرة مثمرة»، خضع الطفل لمختلف أنواع التعليم الديني ودورات دورية حول طقوس دورة الحياة عند الأزتك. وقد أدت تلك الطقوس لضمان نمو سليم ومنضبط، وبلوغ الأطفال الأزتك سن الرشد والحكمة، كما ضمنت أن تترافق التحولات الجسدية مع تحولات روحية طوال حياتهم.

وقد كانت طقوس الانتقال من مرحلة إلى أخرى ضرورية لتماسك الحياة في أي مجتمع، وهي الفكرة الرئيسة في هذا الفصل حول التعليم ودورة الحياة عند الأزتك.

وتكمن الاستفادة من طقوس الانتقال من مرحلة إلى أخرى في فهم ما يمكن للطقوس أن تقدمه. في المقام الأول، تنظم تلك الطقوس التحولات البيولوجية لدورة الحياة من خلال أحداث اجتماعية محددة، مفيدة وقيّمة. إنها تعطي التحولات الحيوية في الجسم البشري قيمتها وهدفها. وفي المقام الثاني، تضع تلك الطقوس التحولات الجسدية ضمن إطار القوى الكونية وتواصل البشر المباشر مع الآلهة والأرواح. ومن جانب آخر، تنقل الطقوس خبرات الكبار ومعارفهم التقليدية إلى الناشئة المنضوين تحت رعايتهم. وإن كل كائن بشري يمر عبر سلسلة من التحولات البيولوجية والثقافية. ففي البداية يتم الحمل بالبشر ثم يولدون، ويُمنحون أسماء ويُدرّسون كيفية تناول الطعام والتحدث، وممارسة الألعاب والتحول إلى كائنات جنسية. وفيما بعد يتزوجون وينجبون ويربون أطفالاً، ويشاركون في القتال ويتقدم بهم العمر إلى أن ينتهي أجلهم. إن الحياة سلسلة من التحولات، ومن الضروري لكل مجتمع أن ينظم تلك التحولات من خلال أداء الطقوس وشعائر التحول من مرحلة إلى أخرى. وفيما يلي سنبحث في سلسلة من التحولات البيولوجية والاجتماعية، ومنها الولادة والطفولة والعمل، والالتحاق بالمدارس والزواج وتربية الأبناء، والموت والحياة الآخرة.

الولادة

يصف مشهد مأخوذ من مخطوطات ميندوزا كيف يُعامل الطفل ويُسمى عقب الولادة، فتجلس الأم الحديثة الولادة إلى جانب مهد طفلها الذي تعلوه أربع وردات رمزية. وبعد أربعة أيام على الولادة، تحمل القابلة، والتي لعبت دوراً كبيراً في ثقافة الأزتك، الطفل العاري وتخرجه إلى فناء المنزل حيث تُقام له حفلة تنظيف شعائرية. وتكون القابلة قد جهزت حصيراً من عيدان القصب مع وعاء صغير من الخزف مملوء بالماء، وتقوم بتغسيل الوليد. وكانت القابلة تنفث فوق الوعاء وتضع قليلاً من مياهه في فم الوليد، وتغطي رأسه وصدره بالماء.

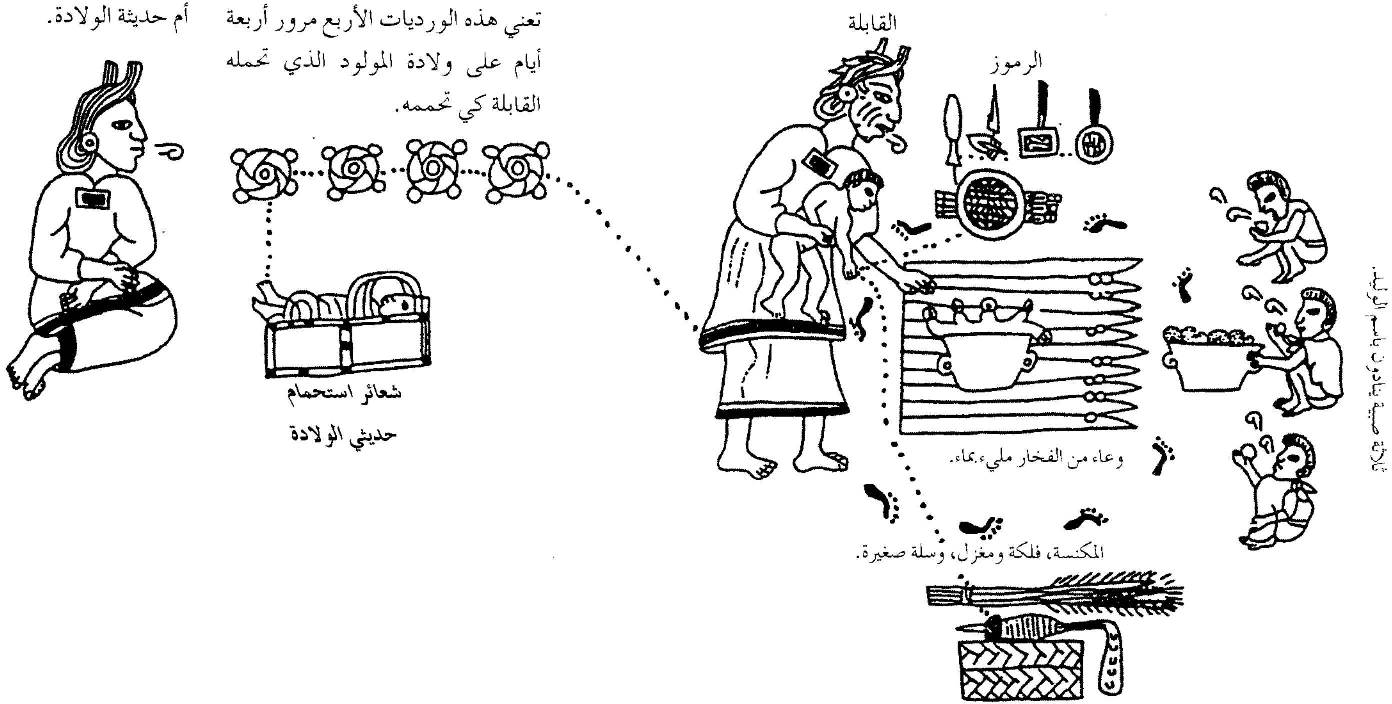
ثم تقول: «ابني الأصغر، ابني المفضل، ادخل، إنزل إلى الماء الأزرق، الماء الأصفر، اقترب من أمك شالشويتيلكو، شالشويتلاتوناك. نأمل أن تستقبلك وأن تنظف قلبك

وتطهره وتجعله صالحاً. ونأمل أن تجعل سلوكك صالحاً نافعاً».

كما يشهد طقس الاستحمام نوعين من الرموز، أعلى وعاء الماء وأدناه. فالرموز الموجودة تحت حوض الاستحمام هي رموز أنثوية، وهي تتكون من فلْكة مغزل، ومغزل وسلة ومكنسة ترمز إلى دور الفتاة المستقبلي مدبرة وراعية للبيت. سوف تتعلم فن النسيج، والذي شكل جزءاً أساساً في حياة الأزتك. كما ارتبط فعل الكنْس، بتطهير البيت وتعزيز الحالة الصحية، وهما نشاطان ارتبطا بالنساء. وقد امتازت بيوت الأزتك بشدة النظافة، وكذلك معابدهم التي شهدت عمليات كنْسٍ شعائري في خدمة الآلهة. كما عدَّ المغزل رمزاً للخصوبة ومرتبطاً بقدرة الإناث على الحمل. وعلى سبيل المثال، شَكّلَ مغزلان معلقان بعصابات للرأس قطنية جزءاً من غطاء رأس آلهة الخصوبة. ويقول لغز أزتي: «ما هو الشيء الذي يصبح حاملاً في يوم واحد فقط؟ إنه المغزل».

وأما الرموز الموجودة أعلى مشهد الاستحمام، فهي رموز ذكرية استخدمها والد الطفل، ويمكن أن تكون درعاً وسهاماً إن كان الأب مقاتلاً، أو خشباً ومعادن أو ريشاً إن كان الأب نقّاشَ أخشاب، أو عاملاً في صهر المعادن أو في صنع سلع من الريش. كما وضع رمز لرسام كتب فوق رؤوس صبية إن كان آباؤهم نسّاخين أو كتبة. كما اعْتُبِر وجود ترس صغير مع أربعة سهام فوق وعاء الماء، واسمه ميتل شيماللي (ترس وسهام) رمزاً، عند الأزتك، لكلمة «حرب» وكل سهم يمثل إحدى جهات الكون الأربع.

وعند أخذ الأزتك مواليدهم لتحميمهم للمرة الأولى، كانوا يضعون الرموز المناسبة في أيديهم. وإن كان المولود ذكراً يضعون ترساً في يده اليسرى، وسهماً في يده اليمنى. وبعد غسل المولود، تطلب القابلة من الصبية الثلاثة الذين ساعدوها في تغسيله، بالمناداة باسمه الجديد. ثم يحملون الحبل السري والرموز التي رافقت الوليد في أثناء تحميمه ويتم دفنها معاً. وبالنسبة للمواليد الذكور، كان الأزتك يحملون الحبل السري والترس الصغير والسهام إلى ساحة معركة ثم يدفنونها هناك. وبالنسبة للبنات، كان الحبل السري والرمز الأنثوي يدفنان في حفرة داخل المنزل تحت الميتاني،



(مخطوطة ميندوزا، بتصريح من فرانسيس إف. بيردان وباتريسيا ريف آنوالت).

أو رحى لطحن الذرة.

ويبدو ضمن هذا المشهد أربع سمات مهمة. أولاً، عدَّت الولادة حدثاً مهماً، وكان للأطفال قيمة كبيرة في المجتمع الأزتكي. وقد أكدّ كاهن إسباني عاش بين الأزتك لعدة سنوات، أنه لم يعرف قطّ مجتمعاً آخر يقدّر أبناءه بذلك الشكل الكبير. فقد خاطبت القابلة المولود بعبارات رائعة مثل «عقدي الثمين، ريشتي الثمينة وحجري الأخضر الغالي، وأساوري النفيسة وفيروزتي الثمينة. لقد خلقت في موقع الثنائية، في مكان يعلو تسع سماوات».

ثانياً، نظر الأزتك إلى الولادة بوصفها حدثاً مهماً ونقطة انطلاق لحياة مفعمة بالتحولات. فالوليد الصغير يحمل إلى الفناء الخارجي وينظف ويُعرّف إلى الآلهة ويُمنح اسماً. ثم تقام صلاة إلى شالشيوتيلكو، آلهة المياه الثمينة والخصوبة والحياة. وفي ذلك الوقت، يعلن عن جنس المولود من خلال الرموز التي استخدمت، والتي تدل على الدور الذي سيلعبه عندما يصبح راشداً. وأما الحبل السري، وهو الذي ربط الأم بجنينها، فقد اعتاد الأزتك على دفنه في مكان سيشهد معظم الأحداث المهمة في حياته أو حياتها. كما أن القرار المهم بشأن نوعية التعليم الذي سيناله المولود فيما بعد، يتم اتخاذه بعد ستة عشر يوماً من إقامة طقس الاستحمام وإطلاق اسم المولود.

ثالثاً، لعبت القابلة دوراً رئيساً في عملية الولادة، وهي مرحلة انتقال مهمة. فقد كانت هي، وليست الأم، من تحمم المولود وتعلن اسمه، وتخاطبه وتمنحه معلومات حول الآلهة والعالم وما ينتظره في المستقبل. وهذا بدوره يشير إلى وجود وحدة أسرية كبيرة يتولى فيها عدد من الكبار مسؤولية رعاية الصغير.

رابعاً، هناك تركيز واضح على توزيع المهام بين الجنسين منذ أول احتفال في حياة الإنسان. ففي ذلك الوقت يعلن عن جنس المولود سواء أكان ذكراً أم أنثى، ويعطى الرموز الاجتماعية المناسبة، والتي أكدت توزيع المهام بين الجنسين. على سبيل المثال، إن كان المولود ذكراً، تقوم القابلة بتسليم حبله السري إلى محاربين متميزين «الحكماء في الحروب» كي يدفنوه في سهول شهدت معارك حربية. وإن كان المولود أنثى، يدفن الحبل السري داخل بيت الأسرة إلى جانب الموقد، وبهذا ترمز القابلة إلى أن المولودة/

المرأة لاحقاً، لن تغادر بيتها، وأن مهامها تقوم على إدارة الحياة الأسرية، والعيش إلى جانب الموقد والرحى(43).

ومن جديد تبدأ الصلوات والأناشيد بمناسبة قدوم المولود.

«إن كانت أنثى تقال عبارات خاصة بمستقبلها ومهامها الأنثوية،.... وإن كان ذكراً توجه له تعليمات وإرشادات مختلفة».

سنبحث ضمن هذا الفصل في تلك السمات الأربع مع التركيز على مهام القابلة والصلوات طوال مرحلة الحمل والولادة.

القابلة

من أجل فهم حجم أهمية الولادة في مجتمع الأزتك، لا بدّ من الاطلاع على الاستعدادات التي كانت تتخذها أسرتا الزوجين خلال الأشهر الأخيرة من الحمل. فقد اعتاد الأزتك على إقامة مأدبة صغيرة خلال الشهر السابع أو الثامن للحمل، وكان يتم البحث عن قابلة قديرة للمساعدة في إتمام عملية الولادة. وقد تضمنت تلك الاستعدادات تبادل الخطب البليغة بين جديّ وجدتيّ المولود القادم، وتوجيه النصح إلى القابلة كي تتولى مسؤولياتها بجدية. ولتدرك كمّ الحب والعاطفة والاهتمام الذي سيولونه للمولود الجديد. وكانت القابلة ترد عليهم: «من غير شك، أقدر عاطفتكم وروحكم وكلماتكم وبكاءكم، وحنانكم البادي في بكائكم. إنكم تشعرون بحب وعاطفة وأنتم تعانون من أجل هناءة وسلامة عقدكم الثمين وريشتكم الغالية، والمرأة الصغيرة التي قد تكون طفلكم الثاني أو أكبر أطفالكم أو أصغرهم»(44).

لاحظوا من جديد استخدام العبارات العاطفية في وصف الأطفال.

وعند اقتراب موعد الولادة كانت الأسرة تجتمع من جديد حول مأدبة، ويطلب من القابلة أن تعدّ الإكسوشيكالي (بيت الورد) أو حمام بخار، وأن تكون ماهرة في مساعدة المرأة الشابة على الاستعداد للولادة. وكانت القابلة ترد بخطبة بليغة تؤكد من خلالها للأسرة مهارتها وخبرتها وفهمها للأهمية الدينية للحدث.

وعند ولادة الطفل أو «وصوله إلى الأرض»، تطلق القابلة صيحات حربية مما

يعني أن الأم خاضت معركة ناجحة كمحارب شجاع. وبهذه الطريقة، تُشبّه عملية الولادة بمقاتل أسر في المعركة أسيراً على هيئة مولود. وإن كان الوليد ذكراً، خاطبته: «ولدي الحبيب، شابي الحبيب»، وإن كانت أنثى تهمس بصوت أشبه بهديل الحمام: «فتاتي الحبيبة، يا صغيرتي أيتها المرأة النبيلة، لقد عانيت وتعبت. لقد أرسلك إلينا والدك المحبوب السيد، إله الأقربين، خالق الرجال وصانع الفتيان». ومن جديد تذكر الآلهة، وعلى وجه الخصوص الإله الذي يعدّ مصدر حياة الطفل.

فقد أرسلت الآلهة الأطفال إلى الأرض من أجل حياة مملوءة بالكفاح والبؤس والمسرّات. وكانت القابلة الأزتية حريصة على ذكر نوعية الحياة، وقد مزجت تشجيعها بمحاذير وإنذارات: «من دون شك، ستعاني أيها الصغير، وستواجه صعاباً ومشقات، لأن الإله أمر، بلا ريب، بأن تواجه في الحياة الألم والمعاناة والبؤس، وأنك ستبذل جهداً ومشقة لكسب عيشك». ولكن حياة النضال قابلها من الجهة الأخرى طعام لذيذ وحب جنسي وملابس رائعة: «سيتوافر الطعام والشراب والملبس الحسن»(45).

ولا مبالغة في وصف التفاصيل الدقيقة لتلك الشعائر التي أقيمت في الأيام الأولى لحياة الطفل الأزتكي. ويمكن القول إن العناصر الرئيسة في عالم الأزتك، وهي الأسرة والآلهة والماضي والحاضر والمستقبل، ترتبط معاً في تلك اللحظات الحاسمة للولادة ودخول عالم جديد. على سبيل المثال، وعقب ولادة الطفل مباشرة، كانت الأسرة تستدعي رجلاً حكيماً أو عرافاً لكي يختار «الإشارات» التي ولد الطفل في ظلها. وكان الرجل الحكيم/العراف يستفسر من الأسرة عن الوقت المحدد الذي تمت فيه الولادة، خاصة إن تمت عند منتصف الليل، لأن ذلك الوقت يحدد إشارة أيّ يوم كانت نشطة لحظة الولادة. وكان العرافون يرجعون إلى مخطوطات مصورة من أجل دراسة العلاقة بين زمن الولادة (فجر، ظهر، غسق، ليل أو منتصف ليل) والقوى المقدسة التي حامت يومياً عبر فضاء الحياة البشرية. وقد يعلن العرّاف أن «إشارة اليوم الذي ولد فيه الطفل ميمونة، وتؤكد أنه سيحكم وسيكون سيداً ثرياً، وسيكون شجاعاً وصقراً محارباً ونمراً مقاتلاً»(46).

وإن ولد الطفل في يوم مشؤوم، تأتي النتيجة سيئة ومخيفة، ويقول العراف:

«احذروا مما سيصيبه، ستملأ الذنوب صحراءه، وسيصبح لصاً. وستحيط به المآسي والأحزان. ومهما ناضل في هذه الحياة فلن يحقق شيئاً». لكن العرّاف يقدم عادة نصائح إلى الأسرة كي تقلل من التوقعات السيئة، كأن يتم تنظيفه وتحميمه في يوم إيجابي، وحتى لو تطلب الأمر انتظار أكثر من أربعة أيام، وهي مدة معتادة تقوم بعدها القابلة بإقامة شعائر حمام الوليد. وهذا ما كان يتم غالباً من أجل تحقيق توازن إيجابي مع الإشارات السلبية ليوم الولادة. وكان الأزتك يدفعون للعرّاف أجراً مجزياً، ويقدمون له الديوك الرومية بالإضافة إلى كميات وفيرة من الأغذية والمشروبات. كما يشير وصف ممتع لطقس استحمام الوليدات كيف لعبت الطقوس الدينية دوراً كبيراً لتحقيق رفاهية الحياة البشرية ورغدها. فقد دأب العرافون على اختيار يوم إيجابي، وكان الأهل يجهزون تنورة صغيرة، بالإضافة إلى «عدة» مؤلفة من سلة حمراء صغيرة وفلكة مغزل ولوح خشبي. وكانت القابلة تحمم الطفلة وترفعها عالياً نحو جميع جهات الكون الأربع. من ثم ترفعها ثانية وتقدمها إلى الآلهة التي سكنت في العوالم السماوية، كما توضع في فم الصغيرة قطرات من الماء. وفي كل مرة يلامس فيها الماءُ رأسَ الصغيرة، أو صدرها أو يديها وحتى عند وضعها في المهد، كانت تُقْرأ صلاة قصيرة يقال فيها: «هنا يكمن هدوء شالشويتليكو اليقظ دوماً وأبداً وحنانه، ندعو أن تذهب معك وأن تضمك وتحتضنك وتحيطك بذراعيها، وأن تبقى دوماً حاضرة متنبهة على سطح الأرض». ومن هنا، لا شكّ في أن أولئك الأطفال كبروا وترعرعوا في ظل الآلهة.

ولا شك في أن أولئك الصغار احتاجوا إلى مساعدة بشرية وقوى مقدسة طوال أيامهم وسنينهم اللاحقة. وكانت تلك المساعدة ترد من قبل الأبوين والمعلمين والكهنة الذين يقدّمون مختلف أشكال التعليم.

الطفولة والتأديب

قدّر الأزتك الحب والتأديب. فمن جهة، شجع الأهل أطفالهم على التعبير عن مشاعرهم ومواقفهم بصراحة. ومن جهة أخرى، خضعوا المراقبة دائمة وتلقوا تعليمات

وإرشادات تربوية. وعند بلوغ الطفل الثالثة، كان الأب يبدأ في تعليم ابنه، والأم في تدريب ابنتها، حول كيفية المشاركة، كفرد فعال، في شؤون الأسرة والمنزل. وعند بلوغ الطفل الرابعة، يصبح الأبوان أكثر تركيزاً في تحديد المهام المطلوب من الأطفال أداؤها، ويبدأ الصبيان والبنات في ارتداء ملابس مختلفة تبعاً لجنسهم. وفي تلك السنة يخضع الأطفال لطقس خاص «شعائر النمو» وكان طقساً يتكرر كل أربع سنوات، خلال شهر إيزكالي (النمو). وكان الأطفال من كلا الجنسين الذين ولدوا خلال السنوات الأربع السابقة، يتلقون تطهيراً بواسطة النار، وتثقب شحمات آذانهم وتعلق فيها حلقتان. وقد أطلق على ذلك الاحتفال اسم كوينكويشانايا (يمدون رقابهم) وكان يطلب من الصغار رفع جباههم وبسط أذرعهم. كما أقيم احتفال آخر في كل 260 يوماً في يوم (4 حركة)، وكان يتم فيه تفحص أنوف الأطفال ورقابهم وآذانهم وأصابعهم. وتُشد سيقانهم لضمان نمو سليم خلال دورة الـ260 يوماً المقبلة. وقد عكس هذان الاحتفالان المكونات الرئيسة للثقافة الأزتكية. فإن المرادف الأزتكي لفعل «يعلم» كان تلاكاهواباوا أو تلاكازكالتيا، مما يعني «تقوية الأشخاص» أو «دفعهم للنمو». وقد تحقق ذلك النمو والتقوية عبر سلسلة من الطقوس التي أعدت الأطفال للعمل مع الأسرة والمجتمع. وفي تلك الاحتفالات يتعرف الأطفال إلى الأرقام المقدسة 4 و260، والتي كان من شأنها مواصلة إرشادهم إلى ما بعد الموت.

وفي سن الرابعة، تبدأ الأمهات في تعليم بناتهن أساسيات صناعة النسيج، ويقود الآباء الصبية خارج حدود منازلهم ويجعلونهم يشاركون في حمل الماء. وفي سن الخامسة، يساعد الصبية على حمل حزم صغيرة من الحطب وحمولات صغيرة من السلع إلى تيانكويزتلي، أو السوق القريبة. وقد وفرت تلك المهام للأطفال فرصة إلقاء التحية على الناس، ومراقبة مرحلة تبادل السلع في السوق، ولقاء أطفال آخرين. كما تبدأ الصغيرات في تعلم غزل الخيوط مع أمهاتهن، وتعلم كيفية الجلوس واستخدام أيديهن وصنع أنسجة قطنية. وتروي لنا مخطوطة ميندوزا أنه بعد عام على بدء عملية التعلم يبدأ الأهل في:

«إشراك الأطفال في تقديم خدمات شخصية، استفاد منها الأهل



(مخطوطة ميندوزا، بتصريح من فرانسيس إف بيردين وباتريسيا ريف آناوالت).

أنفسهم. وعلى سبيل المثال، يجمع الصبية حبوب ذرة تناثرت في السوق، وحبات فاصوليا وغيرها من الأشياء الصغيرة التي أهملها التجار. كما تعلّم الأمهات البنات كيفية غزل خيوط قطنية، وأداء خدمات نافعة(47).

وكما قيل، انتفع أولئك الأطفال من تلك الخدمات بأنهم لم يضيعوا أوقاتهم سدى، وتجنبوا العادات السيئة والأخطاء الناجمة عن الكسل والتراخي. ومن اللافت للانتباه، والمؤثر في آن معاً، مدى التقارب الوثيق بين الآباء والأمهات وأبنائهم خلال تلك السنوات التأسيسية الأولى. وبمعنى حقيقي، كان الآباء والأمهات هم المدرسون الأوائل، إذ يعلمون أطفالهم كيفية استخدام لغة الجسد، ومن ثم أنماط الكلام، وكيفية استخدام ثيابهم لتغطية أجسادهم وتزيينها، وفي إشراك الصبية بالمساعدة على نقل الحمولات الصغيرة.

وما بين سن السابعة والعاشرة، يسلّم الصبية شباكاً لاستخدامها في صيد السمك، في حين تواصل الفتيات تعلُّم الغزل والطهو. وفي هذه المرحلة تكون الفتيات قد أتقنّ عملهن، وبتن يخضعن لإشراف أمهاتهن عوضاً عن تلقي تعليماتهن فحسب. ومن المؤكد، أنه خلال تلك الفترة من العمر، يبدأ الأطفال في خوض مشاجرات والتسبب بمشكلات للأسرة. وتذكر لنا مخطوطات ميندوزا أنه في تلك السنوات يبدأ الأبوان في معاقبة أبنائهم جراء سلسلة من السلوكيات المرفوضة، ومنها الكسل والوقاحة، والتمرد والتفاخر. وهناك صور لأهالي «يضعون أمام أبنائهم أشواك الصبار الأمريكي المرعبة، ويهددونهم بأنهم في حال كانوا مهملين أو عصاة للأوامر، فإنهم سيعاقبون بوخزهم بتلك الأشواك». كما تُظهر صور أخرى أطفالاً يبكون عندما تعرض أمامهم تلك الأشواك، ويحذرون من اللجوء إلى الخداع. وقد نخزت أيدي الفتيات من قبل أمهاتهن اللواتي استخدمن الأشواك لمعاقبتهن على الكسل والإهمال. كما عوقب الفتية الذين يتمردون على الأوامر، بأن توثق أيديهم وأرجلهم، ومن ثم يوخزون بأشواك الصبار في أكتافهم وظهورهم ومؤخراتهم. وهكذا يدفع الأطفال ثمن تمردهم. وتشتدّ تلك العقوبات ما بين سن العاشرة والرابعة عشرة، وتتضمن إجبار

الأطفال على تنشق ذرات الفلفل الحار، أو النوم طوال الليل على أرض رطبة بعد توثيق أيديهم وأرجلهم. وإن أخفقت فتاة في أداء عملها أو أهملته، فإنها تُضرب من قبل أمها بسبب عدم تركيزها على واجباتها المنزلية.

وتظهر صور في مخطوطات ميندوزا أن الأطفال يصبحون مطيعين وأَكْفاء عند بلوغهم سن الثالثة عشرة والرابعة عشرة. وفي تلك السنة، يبدأ الفتية في نقل الحطب من الهضاب، وقد صُوّروا وهم ينقلون نباتات البَرْدى وأغصاناً أخرى لاستخدامها داخل المنزل، كما يبرعون في الصيد بواسطة قوارب الكنو. كما يصبح بإمكان الفتيات في تلك السن طحن الذرة وصنع الكعك المحلّى لذويهن، ويظهرن في تلك اللوحات وهن ينسجن ويطهون، ويتعاملن بنجاح مع جميع أنواع المعدات الغذائية وأدوات المطبخ. وفي الواقع، عدَّت كل فتاة قادرة على طحن الذرة وصنع مشروب الآتولي بأنها بلغت سناً يؤهلها للزواج.

التعليم الشفهي

يتلقى الأطفال تعليماً شفهياً، بعبارات بليغة، من قبل الأهل في المجتمع الأزتكي. وقد صحّ هذا القول بشكل خاص وسط الأسر النبيلة، ولحسن الحظ، يتوافر لدينا عدد من الأقوال النموذجية الموجهة إلى الأطفال. فقد تلقى الأطفال إرشادات حول كيفية الظهور في الأماكن العامة وكيفية تناول الطعام، والتحدث وارتداء الثياب، وحول كيفية احتساء الشراب والنوم، وما ينبغي تجنبه في المجتمع. وربما نأخذ فكرة واضحة عن ذلك النوع من التعليم الشفهي من خلال هذه الإرشادات الثمانية الموجهة إلى الأطفال. أولاً، طُلب من الأطفال، خاصة المراهقين تمضية بعض الليالي في سهر طويل. وكان الهدف الرئيس من ذلك الإرشاد تدريب الأطفال على الابتعاد عن الكسل والنوم لساعات طويلة، فضلاً عن الصلاة إلى إله القريبين والمقربين. وخلال ليالي السهر، توجب على الأطفال كنْس الأراضي وإشعال البخور. ثانياً، كان على الأطفال السير في الأماكن العامة بحذر وسرعة «لاترم بقدميك بعيداً، ولا ترفع قدميك عالياً، ولا تقفز لئلا يُقال إنك أبله ووقح».

وقد طلب من الأطفال السير بسرعة، إنما بكرامة، أي برفع الرأس عالياً. ثالثاً، وجب على الأطفال التكلم ببطء وتأنٍ، والتنفس بعمق واستخدام صوت خفيض. «لا تتكلم بسرعة، ولا تلهث ولا ترفع صوتك لئلا يقال إنك متأوه ومتذمر»(48).

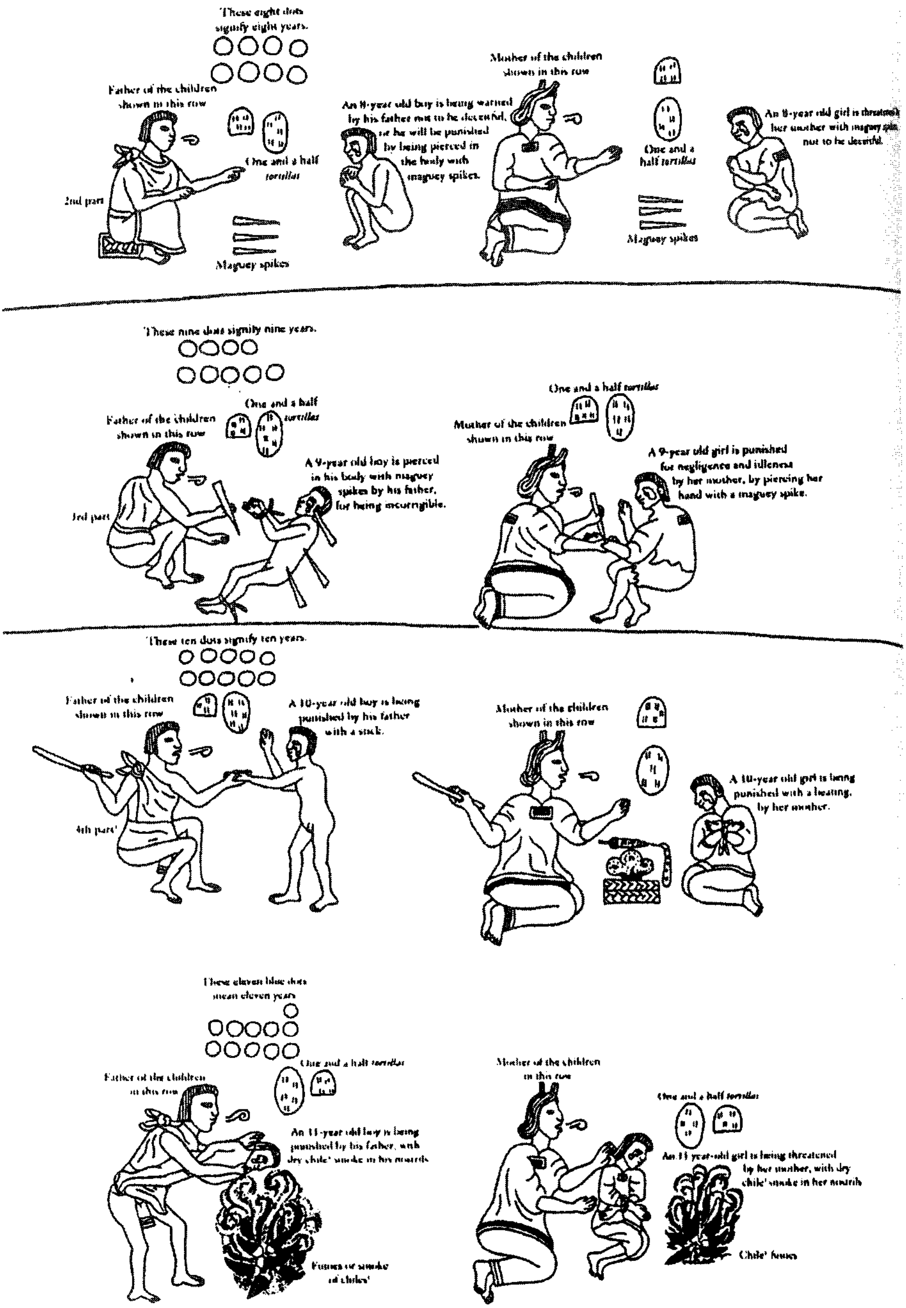
رابعاً، عند التحدث إلى شخص ما، خاصة إن كان من خارج إطار الأسرة، وجب على الصغار عدم التحدث في وجه محدثهم. وكان التحديق بامرأة، خاصة إن كانت متزوجة، يعد عرضاً جنسياً واضحاً، وكان يعاقب عليه بالسجن أحياناً.

وينص الإرشاد الخامس على تحذير الأطفال الشديد من المشاركة في النميمة ونشر الشائعات «تجاهل ذلك، وتظاهر أنك لم تفهم الكلمات، وإن لم تكن قادراً على تجاهل الحديث، فلا تقل شيئاً. استمع فقط، دع ما قيل كما قيل». وقد جاء ذلك التحذير على أساس أن خرقه يعني المشاركة في خطة شريرة أو مؤامرة إنزال الضرر بشخص ما. «إن قيل شيء ما يؤدي إلى سجن أو موت، وتصرفت بحماقة مع آخرين، خاصة إن قلت شيئاً، فإنك ستنال عقاباً رادعاً»(49).

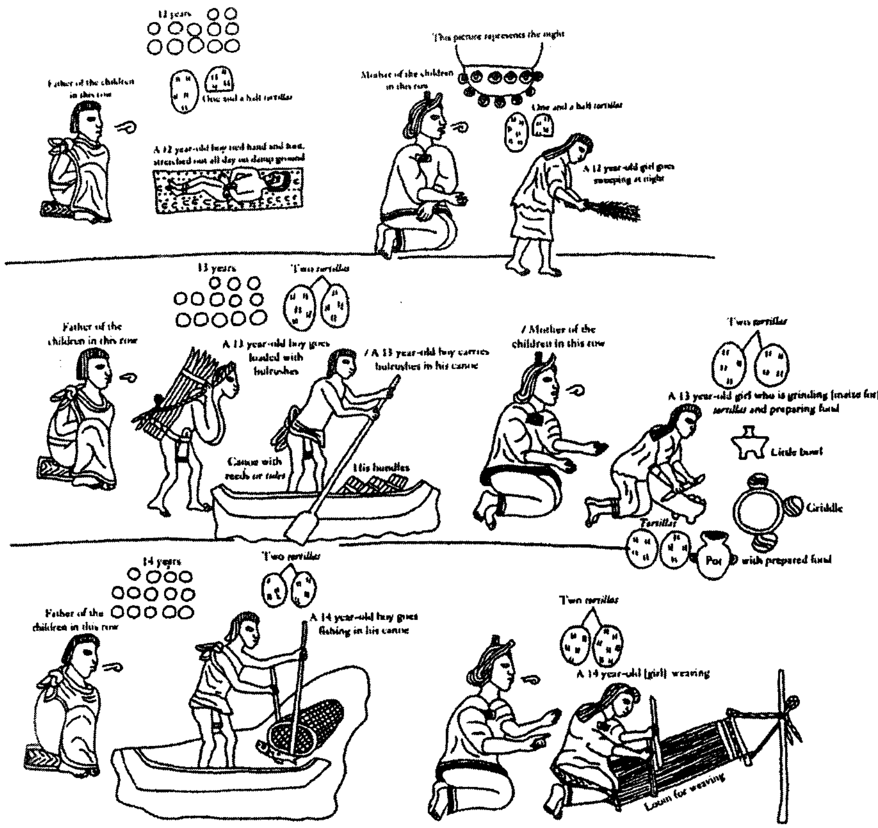
يعكس هذا الدرس خوف الأبوين العميق من أن يتورط أبناؤهم، خاصة المراهقين، في سلوكيات ضارة، وأن يتخلوا عن مسؤولياتهم الاجتماعية ويسقطوا في أتون الجريمة.

وينص الدرس السادس على وجوب تحلي الأبناء بالطاعة والمرونة، والعمل بجدية واجتهاد عند تكليفهم بعمل ما. ويجب على الأطفال الإجابة على الفور «لا أن يُنادوا مرتين»، وإن أُرسلوا لأداء مهمة ما، يتوجب عليهم الجري وتنفيذ المهمة على وجه السرعة «عليك الجري كالريح» وقد شكلت هذه النقطة أهمية خاصة للأزتك، الذين كرهوا التراخي والإهمال والتكبر. ولذا، كان الكسول والمهمل يضرب أحياناً بعصا.

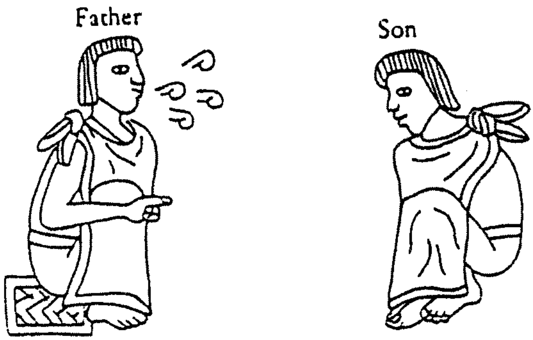
كما ورد في الإرشاد السابع ضرورة ارتداء الملابس اللائقة، وتفادي الثياب اللافتة للأنظار أو القذرة. «يجب أن تبتعد عن الملابس الزاهية اللافتة. كما يفترض بك تجنب ارتداء ما هو رثّ ومهلهل من الثياب». وقد اعتاد الأزتك على ارتداء الكاب (رداء خارجي بلا كمين يُطرح على الكتفين)، وأن يثبتوه جيداً كي يغطي الكتفين، وإلا يُعد



تبين الرسوم الواردة في اللوحة أهلاً يؤدّبون أطفالاً تمتد أعمارهم من تسع سنوات إلى اثنتي عشرة سنة (واللوحة مأخوذة من مخطوطة ميندوزا، بتصريح من فرانسيس إف بيردان وباتريسيا ريف آناوالت).



تبين الرسوم الواردة في اللوحة أطفالاً في الثالثة عشرة والرابعة عشرة (واللوحة مأخوذة من مخطوطة ميندوزا، بتصريح من فرانسيس إف بيردان وباتريسيا ريف آناوالت).



والد يقدم لابنه إرشادات شفهية (واللوحة مأخوذة من مخطوطة ميندوزا، بتصريح من فرانسيس إف بيردان وباتريسيا ريف آناوالت).

الشخص مهرجاً أو مجنوناً.

ويدور الدرس الثامن حول تناول الطعام والشراب، وقد نصّ على أشد التحذيرات. فقد كان الاعتدال في تناول الطعام، والتأني في تناوله من أهم الإرشادات. فقد وجب على الأزتك عدم ملء أفواههم بالأطعمة، وتجنب تناولها بسرعة، أو لفت الأنظار من خلال الغصّ بها. كما كانت الأيدي والوجوه تغسل قبل كل وجبة وتطهّر، وقبل تناول الطعام مع آخرين. «لا تسارع إلى الجلوس إلى المائدة، وعند الانتهاء من الطعام سارع للإمساك بأوعية التنظيف كي تغسل فم شخص آخر، ويدي شخص ما».

قد يبدو لنا أن الأزتك كانوا شديدي الصرامة فيما يتعلق بسلوكيات أبنائهم، ولكنهم نظروا إلى الحياة بوصفها مكاناً مملوءاً بالمخاطر والعراقيل التي يمكن تجنبها إن يسلّح الإنسان بالحذر والحيطة والحكمة والانضباط. وقد أشاروا إلى الأخطار في العالم على النحو التالي: «على سطح الأرض ننتقل ونعيش بمحاذاة قمة جبل، وتحيط بنا من كل جانب وديان سحيقة، وإن انحرفت عن الطريق المستقيم أو أخطأت خطأً كبيراً، فإنك ستسقط في الهاوية لا محالة». وهذا يعني أن السلوك الحسن وتوخي الحذر والإخلاص في العمل هي أفضل وقاية من مواجهة العثرات والمخاطر وإغراءات الحياة.

وفي معتقدات الأزتك ومبادئهم، كان من أكثر الأشياء مدعاة للمتاعب والعواقب

الوخيمة، الاتصال الجنسي والسُكْر. فقد اعتبر الاتصال الجنسي قبل الزواج أمراً خطراً لأنه يسبب الأمراض الجلدية وتساقط الشعر، ويؤدي إلى الموت. كما عُدّ السُكْر ملازماً للجريمة، ويقود لخزي وإذلال عامين وإلى بؤس شخصي. وكان الشيء الرئيس الذي طُلب من الأطفال، خاصة المراهقين، السعي لتحقيقه هو الاعتدال في كل الأمور. فإن الإفراط في الطعام والكلام والنظر والجري، والاتصال الجنسي خاصة، تعدّ مخاطر تؤدي إلى الإصابة بالأمراض، والاضطراب النفسي.

شرف الصبايا

عند اقتراب الفتيات من سن البلوغ، والمعروف عند الأزتك بـ «سن التعقل والحذر»، كانت أمهاتهن وآباؤهن يتحدثون إليهن حول كيفية العيش بأمان، والمحافظة على حياة متوازنة خلال السنوات الحاسمة المقبلة. وقد امتازت خطب الكبار بالبلاغة والفصاحة، وتُخاطب الفتاة على النحو التالي: «عقدي الثمين، ريشتي الغالية... دمي ولوني وصورتي الثمينة»(50).

وكان يُطلب من الصورة الثمينة أن تمعن التفكير في أسباب وجودها في هذا العالم، ولماذا منحتها الآلهة الحياة. أولاً، قيل لها إن الحياة مزيج من النضال والمشقة والفرح والضحك، وإن العالم كان دوماً حافلاً بالمعاناة والبكاء. «هذه هي الحياة، ليست الأرض مكاناً بهيجاً ولا هي مفعمة بالمحبة والرضا». لكن الآلهة منحت البشر نعمة الضحك والنوم والطعام، والقوة والعنفوان، فضلاً عن المعرفة الجنسية حتى «يتكاثر البشر».

كما استمعت الفتاة إلى حقائق ونصائح تشير إلى وجوب خوض الناس صراعاً كي يتحولوا إلى راشدين أهلاً لتحمل المسؤولية، وأن يصبحوا عمالاً وزعماء ومحاربين وبنائين ومربين. وقد كان الزواج خطوة ضرورية على طريق تحقيق صلاح الإنسان والمجتمع. كما ذُكّرت الفتاة بأنها خرجت من رحم أمها، وعليها أن لا تنسى واجبها في رعاية أسرتها: «تذكري أنك خرجت من رحم شخص ما، وأنك ولدت بفضل شخص ما». وقد تَطَّلب من الفتاة أن تتحلى بالتقى والورع، وأن تنام جيداً، وأن

تستيقظ باكراً لأداء الصلوات إلى الآلهة بالطريقة الصحيحة. «أمسكي بالمكنسة، وابذلي جهداً فائقاً في عملك». ومن هنا تبدأ مسؤوليات المرأة القائمة على رعاية بيتها. هنا يبدأ «فن إعداد الطعام والشراب، وإجادة الخياطة وطحن الذرة». ولكن من واجب الفتاة أداء جميع مهامها على الطريقة الأزتكية. كما شُجعت الفتيات على تعلم فنون التطريز والتلوين وصناعة أشياء من الريش.

لكن الرسالة الأساس التي تلقتها الفتيات تنص على الامتناع عن ممارسة الجنس قبل الزواج. فقد نظر الأزتك إلى المرأة على أنها «حجر كريم أخضر، وفيروزة ثمينة» يجب إبقاؤها نظيفة ونقية وطاهرة، ومن دون تجربة جنسية لحين اختيار زوج لها. وفيما يتعلق بقلبها، طلب من الفتاة عدم السماح لأي شيء بأن يلوثه، وأن يلامسه، أو أن يؤثر عليه(51).

وفي حقيقة الأمر، كان من شأن أي ممارسة جنسية قبل الزواج أن تؤدي إلى هلاك صاحبتها. لكن، عند ظهور الشاب المناسب، وهو الذي أرسله أحد الآلهة، مما يعني أنه شاب كفوء أرسلته السماء، فيجدر بالفتاة أن تقبل به. وقد يعبر النص التالي أبلغ تعبير عن تلك الإرشادات التي كانت تقدم للفتاة الأزتية:

> «ولكن في هذه الأثناء قدّمي نفسك جيداً، واحذري من أعدائك كي لا يسخر أحدهم منك. ولا تمنحي نفسك لهائم على وجهه، ولا لجوّال كثير الترحال، ولا لشرير يهوى المسرّات. ولا تسمحي لرجلين أو ثلاثة بأن يعرفوا وجهك ورأسك. وعندما تلتقين بمن تعتقدين أنه سيعيش معك إلى نهاية العمر، لا ترفضيه، تمسكي به، تعلقي به وإن كان فقيراً، وإن كان محارباً فقيراً، لأن إلهنا الحكيم، الخالق، الصانع سيرتب لك كل شيء وينظّمه»(52).

وهكذا تبدو الرسالة بسيطة وواضحة وهي تقول للفتاة «انتظري وخططي للزواج في يوم ما، علماً بأن الآلهة ستكافئك إن سرت في هذا الطريق المستقيم».

مسؤولية الشبان

عُثر على عدة خطب أزتكية مفصلة توضح مسؤوليات الشبان عند بلوغهم سن المراهقة. ويبدو واضحاً مدى التركيز في العملية التربوية على الانضباط الجنسي والاجتماعي. وقد وُضِعَت أمام الشاب الأزتكي، كالفتاة، صورة نموذجية يُقتدى بها. وقد عبّر عن تلك الصورة من خلال سلسلة من التشبيهات التي تتحدث عن الكمال. كما أشارت تلك الصور إلى حياة نموذجية ثمينة «كفيروزة ثمينة، أو حجر كريم أخضر أحسن تشكيله». وهذا يعني أن الشاب كان مطالباً بالعمل جاهداً لتحقيق حياة اجتماعية كاملة، ولسلوك جنسي قويم، وأن يجعل من حياته مثالاً يُقتدى به، وهو موضع تقدير لإرادة الآلهة على وجه الأرض. وكان من شأن ذلك أن يؤدي إلى الفوز بأشياء ثمينة ـ (امتلاك قلب طيب). كما وجب على الشاب الأزتكي دراسة سير حياة الكهنة الورعين والتائبين والرجال العفيفين، وكبار السن «أمناء الكتب»، والمحاربين الذين حققوا لأنفسهم المجد والشهرة في ساحات الوغى. وطوال حياته على وجه الأرض، طُلب من الشاب «عدم الجري وراء الملذات أو الذنوب (الجنس المحرّم) القاتلة». فقد قال إله القريب والحميم أنه قدّر لامرأة أن تلتقي رجلاً واحداً. «أيها الشاب، لا تنغمس في الملذات والشهوات كما تفعل الكلاب».

بالإضافة لكل ذلك، أُفترض بالشاب التحلي بالشجاعة، وأن يكون أشبه بشجرة صبار مثمرة، ينتج عقب الزواج أطفالاً أقوياء البنية وأذكياء وأنقياء ووسيمين. وقد يبدو لنا ذلك الخطاب المتشدد بشأن الانضباط الجنسي صارماً. لكن، بالنسبة للأزتك، لم يقتصر ضرر الخطيئة الجنسية على مرتكب ذلك السلوك غير الأخلاقي وحسب، بل امتد أثره إلى أبويه وأشقائه وأصدقائه أيضاً. ويستند ذلك الاعتقاد إلى فرضية تقول إن الإنسان الفاقد لتوازنه الشخصي والناتج عن سلوك جنسي لا شرعي، يكتسب قوة ضارة تنتشر بين أصدقائه كأنها مرض معدٍ. ونتيجة لذلك، إن أقام الشاب علاقة خارج إطار الزواج، أو إن زار رجل متزوج مومساً أو أقام علاقة مع امرأة متزوجة، فإن من شأن ذلك أن ينشر مرضاً جسدياً وروحياً بين أفراد أسرتي المراهقين أو البالغين. ومن الطبيعي أن تنطبق القوانين نفسها على الراشدين وكبار السن. فإن خيانة الأسرة،

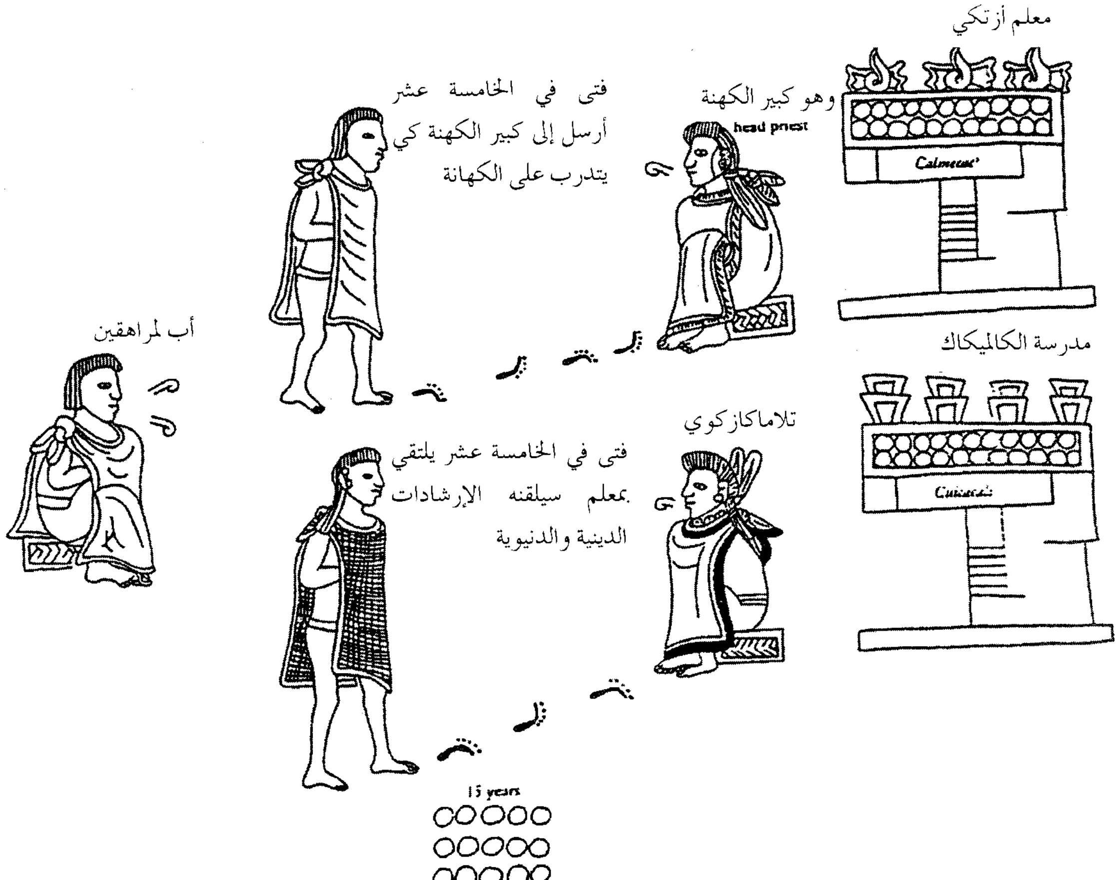
سواء أجاءت من قبل زوج أم من أحد الأبوين، عُدّت سلوكاً عدوانياً وانتهاكاً قاتلاً للروح والجسد.

وقد امتد هذا الشعور بالانضباط الجنسي والشخصي إلى جميع أنواع السلوك الاجتماعي. فقد افترض بالشاب أن يستيقظ باكراً للقيام بأعمال مناطة به سواء داخل المنزل أو في مدرسة المعبد. ويعني ذلك العمل على كنس الأرضيات والحراسة والصلاة وتبخير المكان. كما أن السير في الأماكن العامة كان تعبيراً عن كرامة المرء ومكانته. وكما رأينا سابقاً، انطبق الشيء نفسه على طريقة تناول الطعام، وإلقاء التحية وتبادل الأحاديث، واللباس والدراسة. وقد رافق أبناء النخبة، أثناء خروجهم إلى الأماكن العامة، معلمون لتذكيرهم بمكانتهم وتنبيههم لوجوب التصرف بكرامة وعزة.

سن الخامسة عشرة ـ التحول الكبير

عند بلوغ أطفال الأزتك سن الخامسة عشرة، يستهلون مرحلة تحول مهم في حياتهم، وهي مرحلة التحول في المكان والعمل والمسؤولية الدينية والاجتماعية. وفي هذا الوقت، كان يُطلب من الأهل جلب ابنهم المراهق إلى مدرسة مجاورة (اختاروها عقب ولادة الطفل)، وحينئذ تبدأ المرحلة الثانية من عملية تعليمه أو تعليمها. ومنذ تلك اللحظة، يبدأ الأولاد في اكتساب هوية جديدة، تتطلّب انضباطاً شديداً، والقدرة على مواجهة معاناة جسدية وروحية، واكتساب معرفة جيدة بالمجتمع. ونرى في صورة وردت في مخطوطات ميندوزا لمحة من تلك اللحظات الحاسمة، إذ يجلس أب فوق سجادة من النسيج القطني، ويوجه لأبنائه تعليمات حول التحولات القادمة في حياتهم. وتشير آثار أقدام لفتية يرتدون عباءات مختلفة، وهم متجهون نحو معلمين متباينين، وإلى نوعين مختلفين من المدارس.

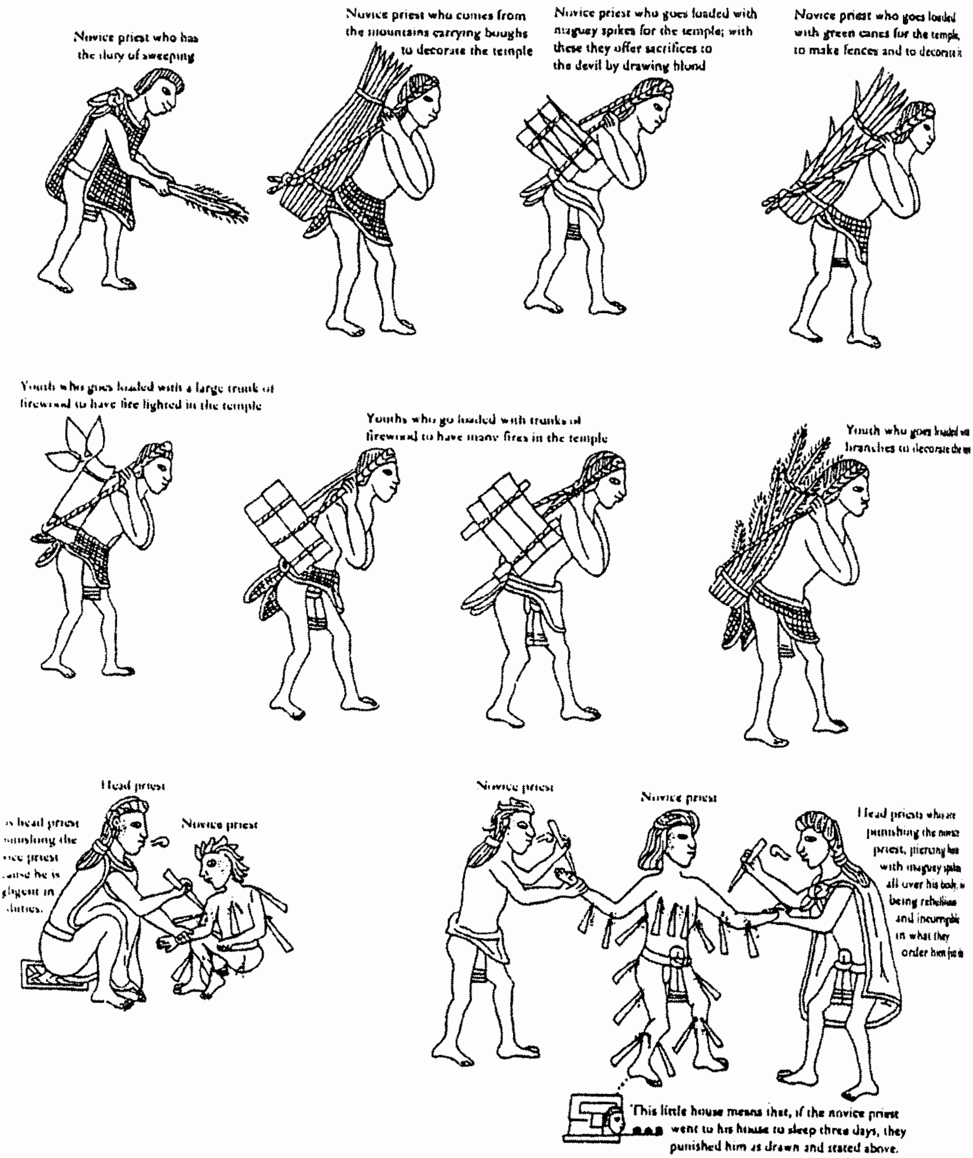
وكانت الكويكاكاللي (بيت الأغنية) من المدارس التي اختارت أسر أزتكية إرسال فتيانها إليها عند بلوغهم سن الخامسة عشرة. لكن بعض المصادر التاريخية يروي لنا أن جميع أطفال الأزتك ـ ذكوراً وإناثاً، نبلاء وعامة ـ ارتادوا هذه المدرسة بين سن الثانية والرابعة عشرة. وكانت بيوت الأغنياء أشبه بالمدارس الإعدادية، وقد وجدت ملاصقة



أب يرسل أبناءه البالغين خمسة عشر عاماً إلى مختلف أنواع المدارس (واللوحة مأخوذة من مخطوطة ميندوزا، بتصريح من فرانسيس إف بيردان وباتريسيا ريف آناوالت).

للمعابد في جميع أرجاء المدينة. كما اتخذت تلك المدارس سكناً للكهنة، وتكونت من أبنية كبيرة ذات واجهات جميلة تحيط بفناء مركزي وحوله غرف فسيحة. وقد أقيم في الفناء مسرح لإنشاد الأناشيد وأداء الرقصات. كما بدأت الدروس قبل ساعة من شروق الشمس، حيث يدرس الفتية والفتيات، تحت إشراف المعلمين، كيفية أداء الأناشيد والرقصات الدينية الخاصة والعامة. وقد ضمت تلك الأناشيد أهم المعلومات الأسطورية والتاريخية حول ثقافة الأزتك وعالمهم. كما امتدحت الأناشيد الآلهة وروت تاريخهم المقدس، ومعنى الحياة والموت، وواجبات البشر تجاه الآلهة. وقد شكلت تلك المدارس تجربة اجتماعية قوية لأطفال الأزتك وأسرهم، التي تعلمت وأعادت تعلّم التعاليم المقدسة والرقصات وحكايات عن مجتمعهم.

وكان الكالميكاك (صفّ البيوت) من أكثر المدارس صرامة، وهي تابعة لمعبد يديره تلاماكازكوي، أو كبير الكهنة، الذي يدرب الكهنة الجدد ويعلمهم مختلف المواد الدراسية ذات العلاقة بحياة الكهانة أو بالقضاء والخدمة العامة. وبغض النظر عن النتيجة النهائية، كانت الحياة داخل مدارس المعبد غنية في مضمونها، إنما عسيرة في أسلوبها. ويرمز إلى هذه المدارس في لوحة تظهر شاباً يقف مع كبير الكهنة أمام الكالميكاك. وقد بدا كبير الكهنة في زيّ أسود يغطي كامل جسده مما يشير لطراز حياة صارم، وقد جمع شعره خلف رأسه لإظهار لطخة دموية أمام أذنه، وتشير تلك اللطخة الدموية إلى ممارسة أسلوب التضحية الذاتية وسيلة للتدرب على تحمل الألم وتقوية التركيز الذهني وتقديم الدماء إلى الآلهة. وقد بدا الفتى المقابل له في صورة جسد أسود تغطيه عباءة بيضاء، وهو يتلقى الإرشادات كي يبدأ حياته بنجاح داخل المدرسة. وقد نصت قوانين الكالميكاك على النوم لساعات قليلة وبذل جهد كبير في الدراسة، وتعلم التاريخ المقدس وقوى الكون، والإرشادات الدينية حول كيفية إحداث جرح ذاتي نازف. كما شمل التعليم داخل الكالميكاك تدريبات عسكرية وآلية وفلكية ودينية. وقد درس الشباب، ذكوراً وإناثاً (كان للإناث مدارس منفصلة) من خلال لوحات مصورة كبيرة مكتوبة بأحرف هيروغليفية، دروساً في علم الأنساب والتاريخ والجغرافيا والميثولوجيا والقانون وفنون المجتمع. وكما هي الحال



واجبات وأعمال متنوعة، وعقوبات تنزل بكهنة أغرار (واللوحة مأخوذة من مخطوطة ميندوزا، بتصريح من فرانسيس إف بيردان وباتريسيا ريف آناوالت).

في الكويكالي، شكلت الأناشيد والرقصات جزءاً أساسياً من حياة الكالميكاك. وقد أطلق على الأناشيد اسم «أناشيد الآلهة»، وهي تحكي عن حياة الآلهة وأحلامها. كما تعلم الطلاب التقويم الأزتكي وحفظوه عن ظهر قلب، ورقصوا وأنشدوا. ورغم أن هذه المدرسة كانت تجتذب أبناء النبلاء عادة، إلا أن الطبقة العامة عملت على إدخال أبنائها في الكالميكاك رغم مشقة الحياة وصعوبة طرائق التعليم داخلها. وقد تطلب الالتحاق بالمدرسة والبقاء فيها التحلي بالأخلاق الحسنة والذكاء والانضباط واتباع أسلوب طاهر في العيش(53). ولذا انتظر الناس، من جميع الشباب والفتيات الذين التحقوا بالكالميكاك أن يسلكوا طريقاً صالحاً نقياً آمناً في الحياة.

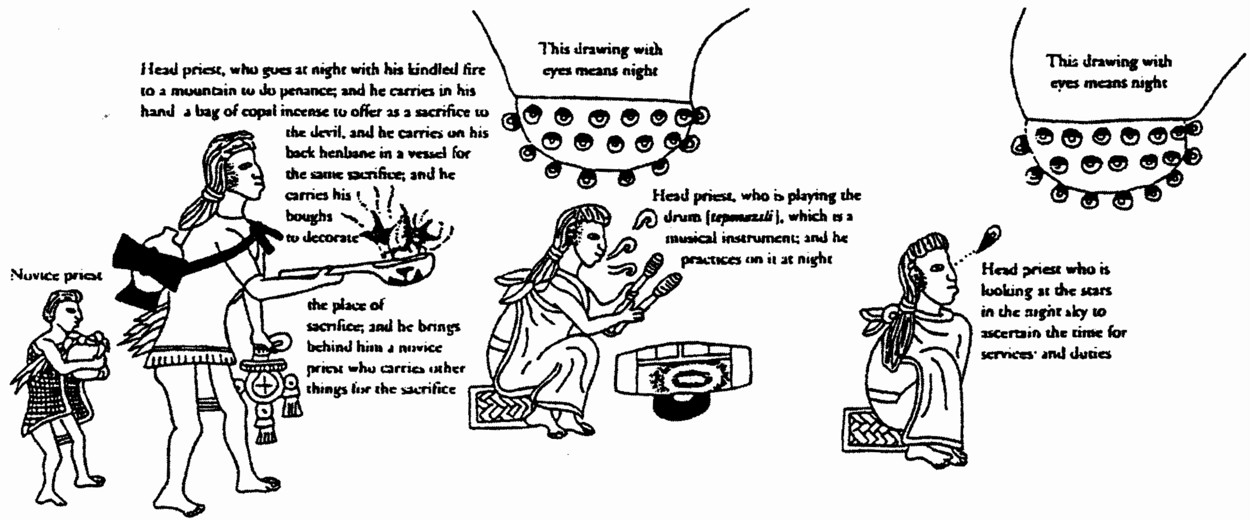
وتظهر لنا مخطوطات ميندوزا أنواع الأعمال التي مارسها الفتية خلال فترة تمرينهم في الكالميكاك. وقد تضمنت الواجبات العملية كنس المعابد في الصباح الباكر، وحمل الأغصان لمسافات طويلة من الغابة من أجل تزيين المعابد، وجلب أشواك الصبار الأمريكي لاستخدامها عند تقديم القرابين، وكذلك بناء الأسيجة. ومن الواضح أن أولئك الفتية عوقبوا مراراً عن طريق قطع أجزاء صغيرة من آذانهم وأثدائهم وأفخاذهم وربلات سيقانهم، وكان من أشد العقوبات صرامة الطرد من المدرسة، والعودة للنوم في البيت.

كما اعتمد تعليم الكهنة الجدد، في جزء منه، على خدمة كبير الكهنة، والذي نقل إلى طلابه معلومات دينية وميثولوجية وفلكية. وقد كانت تلك العملية التعليمية شاقة لأنها انطوت على اختبارات لمقدار التحمل الجسدي. في هذا السياق، وصف دييغو دوران، وقد عاش في المكسيك (أرض الأزتك) خلال السنوات اللاحقة للغزو الإسباني، وكتب عن سماعه لـ «صوت شيطاني غريب» صادر عن طرق محارات وقيثارات صغيرة، رافقت الاحتفالات الليلية وتدريب الكهنة الجدد. وقد طلب من أولئك الكهنة الأغرار إحداث جروحٍ نازفة في أجسادهم، وأن يصوموا ما بين خمسة إلى عشرة أيام، وأن يحددوا ساعاتِ نومهم في إطار طقس ديني سميّ بـ «السهر طوال الليل»، والتوجه في رحلات حج إلى جبال مجاورة للتكفير عن الذنوب وتقديم القرابين. كما اشتمل ذلك الطقس على تبخير المعبد بالكوبال (صمغ راتنجي قاس)

والتعرف إلى جهات الكون الأربع، واستخدام التبغ والأدوات للتواصل مع الآلهة. ومن أهم سمات تلك الطقوس الليلية قرع طبول تيبونازتلي وغيرها من الأدوات الموسيقية، والإنشاد إلى الآلهة من أجل استرضائها وحجب قواها الشريرة.

كما يبدو من المؤكد أن الكهنة الأزتك علموا طلابهم الشيء الكثير عن مراقبة النجوم وعلم الفلك. ومن اللوحات اللافتة في مخطوطة ميندوزا، صورة تظهر كبير كهنة يراقب عن كثب طريق النجوم لمعرفة الموعد الأنسب لإقامة بعض الطقوس والشعائر الدينية. كما تعلم طلابُ الأزتك أسماء مختلف أنواع النجوم والكواكب والنشاطات السماوية ومسالكها وقواها. ومن أهم الأجسام السماوية بنظر الأزتك كوكب الزهرة (فينوس)، نجمة الصباح والتي أطلقوا عليها اسم تلاهويز كالبانتيشوتلي. وقد عُدّ كوكب الزهرة خطيراً وخيراً في آنٍ معاً، وقد دُرّب الكهنة الشباب على إحداث جروح في أجسادهم وجعلها تنزف، ونثر الدماء من أصابعهم الوسطى والسبابة في اتجاه ذلك الكوكب. وكما أشرنا في الفصل السابق، كان تيان كويزتلي (والمعروف باسم مجموعة الثريا) من الأشكال السماوية المهمة عند الأزتك، وقد علموا كهنتهم والعامة كيفية الاستدلال على المجموعة. وقد ارتبط هذا الجزء من تدريب صغار الكهنة بالدروس الأساسية حول التقويم الأزتكي. ومن هذا المنطلق، كان تعلم النظام من أهم مسؤوليات الكهانة. وقد تطلب ذلك اكتساب قدر معلوم من القدرات الحسابية، لأن التقويم ضم ما لا يقل عن دورتين للزمن ـ التونالبواللي، وهو تقويم من 260 يوماً مع عشرين رمزاً للأيام وثلاثة عشر عدداً، وهو يتداخل مع التقويم الشمسي المكون من 360 يوماً لتشكيل تقويم تكون من 18,980 يوماً. وقد سجلت تلك الأعداد والإشارات والمسالك السماوية في تقاويم مصورة حملت اسم تونالاماتلي أو «كتاب اليوم». وقد أثمرت مراقبة شاقة ومتواصلة لحركة الأجرام السماوية، وقد دامت عدة عقود، لنقل علم الفلك الذي أصبح دقيقاً ومعقداً قبل زمن طويل من ظهور الأزتك في حوض المكسيك.

ومن المدارس الأخرى المهمة، مدرسة تيلبوشكالي أو «بيت الشاب». وقد أرسلت عدد من الأسر الأزتكية فتيانها في سن الخامسة عشرة إلى تلك المدارس. كما ارتبطت


Head priest, who goes at night with his kindled fire to a mountain to do penance; and he carries in his hand a bag of copal incense to offer as a sacrifice to the devil, and he carries on his back henbane in a vessel for the same sacrifice; and he carries his boughs to decorate the place of sacrifice; and he brings behind him a novice priest who carries other things for the sacrifice
Novice priest
This drawing with eyes means night
Head priest, who is playing the drum [*teponaztli*], which is a musical instrument; and he practices on it at night
This drawing with eyes means night
Head priest who is looking at the stars in the night sky to ascertain the time for services' and duties

تيلبوشكالي بصلة وثيقة بالكويكاللي، حيث تدرب الغالبية العظمى من فتية الأزتك، ومعظمهم من العامة، على الحياة العسكرية والعلوم الحربية. كما نعلم أن عدداً كبيراً من الفتية أتقنوا هذا النوع من التدريب بسهولة، كما أن مكافآته وأجوره، كما سنرى في الفصل السابع، كانت مجزية. وفي مدارس تيلبوشكالي، أمضى الطلاب معظم أوقاتهم في أداء أعمال جسدية شاقة، سواء داخل المدرسة ذاتها، أو لتقديم خدمات اجتماعية، مثل كنس الطرقات وتنظيفها، وبناء الجدران وشق القنوات والعمل في زراعة الحقول. كما شملت نشاطات أخرى التدرب على فنون القتال، ونقل قطع كبيرة من الحطب والأغصان من الغابات إلى المدينة لاستخدامها في التدفئة وتزيين المدارس. وقد بات حمل الحطب بمثابة اختبار جسدي، حيث حُمِّل على ظهر الشاب كميات أثقل وأثقل من الحطب لمعرفة «فيما إذا كان سيبرع في القتال فيما لو شارك، بالمصادفة، رفاقه المحاربين الأكفاء في شن هجوم أو في الدفاع عن أرضه».

كما شارك أولئك الأغرار في حمل تروس وأغذية وإمدادات عسكرية وأسلحة لمسافات طويلة نحو ساحات معارك مفتوحة مع محاربين ألدّاء. وكان القصد من تلك التدريبات تبديد مخاوف الفتية، وإعدادهم كي يصبحوا خفراً وكشافة يعتمد عليهم، ومهاجمين شجعاناً.

وبالنظر إلى تركيز التدريبات في التيلبوشاكلي على الإعداد للحروب، فقد طالب المعلمون أولئك الفتية بالتركيز التام، وبذل جهد جسدي كبير، والتحلي بالشجاعة وتحمل الألم الشديد. كما أيقن كامل أفراد المجتمع أن استقرارهم وهناءة عيشهم يعتمدان على حسن تدريب مقاتليهم وشجاعتهم، وطالبوا القائمين على التيلبوشكالي بإعداد مقاتلين أشداء. وتبعاً لذلك، نال الهاربون من المدرسة عقاباً شديداً. وتصور لوحة معلماً يضرب رأس تلميذه بواسطة جمرة من النار لأنه هجر المدرسة كي يقيم مع مومس. وكان كل من يُضبطُ ـ معلماً أو ضابطاً ـ وهو يقيم مع امرأة أثناء فترة التدريب، ينال عقاباً صارماً، فيجرد من ممتلكاته ومكافآته ومن حلية ثمينة معلقة في شفتيه. وفي سياق إنزال العقاب المهين بالمذنب، كانوا يضعونه في مكان عام، ويقصون شعره المصفف على طراز شعر المحاربين. وقد ورد في أحد النصوص:

«وبعد ذلك، يضربونه مراراً بعصا من خشب الصنوبر، ويواصلون ضربه إلى أن يغمى عليه. ثم يوسمون رأسه وجسده بالنار حتى يخرج منها الدخان ويتقرح الجلد. وبعد أن يغمى عليه، يقذفون به بعيداً فيترنح ويضطرب، وينسحب من المدرسة ولا يعود إليها قطّ. ولا يسمح له بعد ذلك بمشاركة رفاقه في الإنشاد والرقص»(54).

النساء والكهانة

لعبت النساء دوراً كبيراً في الكهانة. وفي بعض الحالات، كانت الأم تحمل رضيعتها، بعد شهر من ولادتها أو أكثر بقليل، إلى المعبد وتكرسها إلى الكهنوت. وكانت الأم تحمل إلى الكاهن مبخرة وبخور من صمغ الكوبال كتعبير عن رغبة الأسرة وأمها بأن تمتهن الصغيرة عندما تكبر الكهانة. وعندما تصبح امرأة بالغة، تتحول إلى شيهواتلاماكازكوي، أو كاهنة(55).

وقد وجب على الكاهنات الامتناع عن الزواج، والتركيز بشدة على واجباتهن تجاه المعبد، وإقامة الاحتفالات على مدار السنة. وتؤكد بعض الروايات حول المهرجانات القربانية أن مشاركة الكاهنات عدَّت جزءاً أساسياً من تلك الطقوس.

على سبيل المثال، وعند الإعداد لاحتفال أوشبانيزتلي، وهو المهرجان المخصص للآلهة الأم توكي (أمنا العظيمة)، تولت كاهنة إدارة المهرجان، فيما تولت مساعدتها واسمها إيزتاسيهواتل (امرأة بيضاء ـ لأنها رسمت بلون أبيض) مهمة تزيين المكان وترتيبه وكنس المواقع المقدسة وإشعال نار الشعائر والطقوس وإطفائها.

ولحسن الحظ، تتوافر لدينا روايات حية عن ملابس الكاهنات ورقصهن، وإذكاء الروح والقوة والبهجة في الاحتفالات. وجاء في وصف لمهرجان هوي تيكوي هويتل «مهرجان عظيم للآلهة» ما يلي:

«ارتدت النساء أزهى ثيابهن، وقد ازدانت تنانيرهن وقمصانهن بأجمل الألوان والرسوم. وحملت بعض تنانيرهن رسوماً على هيئة قلوب سجادات وطيور، كما زُيِّن بعضها كما تزين أغطية الأسرّة،

وحمل بعضها الآخر رسوماً شبيهة بلوالب أو أوراق أشجار. وقد انتهت أطراف التنانير بحواش مزركشة، وازدانت قمصانهن بشرائط صوفية ملونة، وأخرى خضراء وسوداء، وطُبع بعضها الآخر برسوم على هيئة بيوت جميلة. وعندما رقصن أسدلن شعورهن، وغطى شعر كل منهن جسدها كأنه عباءة جميلة. كما زيِّنت جباههن بواسطة ضفائر من شعورهن»(56).

وأثناء احتفال كويشوللي المقدس، حملت الكاهنات الشابات المكرسات لآلهة الذرة سبعة أكواز من الذرة مغلفة بقطعة قماش، وطفن بها من مكان لآخر. كما ظهرت تلك الكاهنات في صورة الآلهة، وحملن ريشاً فوق أذرعهن وسيقانهن، ولونت وجوههن بألوان الخصوبة. وقد سرن عبر طرقات المدينة، وواصلن الإنشاد حتى غروب الشمس، حيث نثرن حفنات من حبوب الذرة وبذور اليقطين أمام الحشود. وقد تدافع الناس لجمع تلك البذور لأنها عدَّت إشارات إلى أن موسم الحصاد المقبل سيكون وفيراً.

وكان بوسع المرأة أن تهجر الكهانة لكي تتزوج. لكن، كان من واجب الخاطب أن يوفر المتطلبات المناسبة للأسرة والمعبد وإلى الفتاة المخطوبة. وتعكس تفاصيل هذا الاحتمال، ما بدأنا في إدراكه خلال هذه الدراسة، بمعنى: أن حياة النساء كانت محكومة، بدرجة كبيرة، بهيمنة الذكور وسلطات أسرهن. ويروي لنا النص أن الكاهنة كانت قادرة على الزواج «إن طُلِبَتْ يدها، وإن قيلت الكلمات المناسبة لطلب الزواج، وإن وافق الأبوان والوجهاء»(57).

طقس الزواج

كان حفل الزواج من أهم التحولات في حياة الشباب الأزتكي، والذي ضمَّ الأسر والأصدقاء والخطّابات والعرافين، كما تقام بمناسبة الزواج المآدب وتُلقى كلمات وخطب بليغة. وقد تم الزواج عادة عند بلوغ الفتاة سن الخامسة عشرة، والشاب قرابة العشرين عاماً، بعد أن يكونا قد أنهيا تعليمهما الرسمي. وكما هي حال جميع

الاحتفالات والطقوس، يتم الإعداد جيداً لحفل الزواج، ويُفرد له مكان خاص، كما يشارك في إقامته شيوخ يلقون مواعظ مقدسة ورموزاً تدل على حدوث تحول كبير في حياة العروسين. فإن اقتحام عالم الزواج يعني تحمل مسؤوليات جديدة، وإقامة علاقات أسرية جديدة، وتكوين هوية أكبر، فضلاً عن التخلي عن بعض صداقات مرحلة المراهقة.

وقد مثلت استشارة العرافين أحد أهم الاستعدادات للزواج. فقد اعتادت أسرتا العروسين على طلب مساعدة العرافين لاختيار يوم ميمون ليوم العرس. وقد شملت الأيام المناسبة للعرس إشارات أيام مفضلة، وهي إشارات القرد والتمساح والصقر والبيت. وقبل اختيار اليوم المحدد، يتلقى العروسان إرشادات من أبويهما حول كيفية الاستعداد للزواج عن طريق التزام العفة حتى تتوافر لديهما القدرة الجنسية التامة عند عقد العقدة «رباط الزواج». وقد ضمت خطبة وجهها آباء لأبنائهم الكلمات التالية: «انتبه يا بنيّ، قال إله القريب والحميم إن امرأة واحدة خُصّصت لرجل واحد. ولذا يجب عليك الابتعاد عن الشهوات حتى لا تصبح مثل كلب فاحش. وإذ ذاك ستتحلى بالقوة والفحولة في الاتحاد، أي في الزواج»(58).

وكما هي حال جميع الأشياء في مجتمع الأزتك، فضلوا، عند الترتيب للزواج، استشارة الذكور، ومنحوهم سلطة أكبر في التعبير عن رغباتهم واختياراتهم. على سبيل المثال، عندما يحين موعد زواج الشاب، وفقاً لقرار الأبوين اللذين وجداه كفوءاً للزواج، تقوم أسرة الشاب باستشارته حول «هوية الفتاة التي سيطلبون يدها». وبعد أن يتم الاختيار، تُرسل خطّابة، وهي عادة امرأة عجوز، إلى منزل الفتاة لتبحث مع أسرتها موضوع الخطوبة. ومن أجل استكشاف قبول العرض من عدمه، جرت العادة والتقاليد على أن تقوم الخطابة بزيارة منزل الفتاة في خمسة أيام متتالية. ومن المعلوم أن ذوي الفتاة أولوا اهتماماً كبيراً لمستقبل بناتهم، وقد جرت العادة على طرح التساؤلات التالية: هل ستتزوج من شاب متواضع دمث الخلق، حسن المعشر؟ وإن جار عليهم الزمان، وإن امتلأ قلبها حزناً وألماً، كيف سينظر إليها؟ وبكلمات أخرى، عندما تواجه الأسرة أوقاتاً عصيبة، كيف ستعامل ابنتهم؟ وإن كان الاختيار مناسباً

لكلا الأسرتين، يُحدد يوم العرس وتبدأ الترتيبات الرسمية.

من هنا تبذل جهود مضنية لإقامة مأدبة تشمل الطامال[1] والذرة والكاكاو (شوكولا)، والمرق والبلْكة[2] والديك الرومي والتبغ. كما يتم تجهيز عدد من الهدايا. وكان اختيار موقع الاحتفال أهم من كل ذلك، والذي تم عادة حول الموقد المقدس، والذي من دونه لا يجري الاحتفال البتة. وقد احتوت جميع البيوت والمعابد على مواقد حيث عاش إكسيوويت شوتلي (إله النار)، وأمّن الدفء وطهو الطعام، وقوة روح توناللي، والتي شعت في جميع أرجاء المبنى. وفي وقت سابق على الاحتفال، تقدّم أطباق شهية وشراب كحولي إلى آلهة النار.

كما ترسل دعوات رسمية إلى الأصدقاء والأقارب قبل يوم من مأدبة العرس. وبحلول ظهر اليوم التالي، يجتمع المدعوون ويضعون هداياهم أمام الموقد. وقد سُمح لكبار السن بشرب البلْكة (عُرفت أيضاً باسم أوكتلي) بكميات سخية، وكثيراً ما يثملون عند الغروب حين بدء الاحتفال بالعرس. وقد ورد في نص قديم حول الشراب «استخدموا كؤوس شراب صغيرة الحجم، وهي سوداء اللون. وقد شرب بعض المدعوين ثلاث كؤوس، وآخرون أربعاً وخمسَ كؤوس. وقد كان ذلك كافياً لأن يثمل العجائز من النساء والرجال، وقد احتسوا شراب البلْكة الأصفر المحلى بالعسل»(59).

وقد ساد اعتقاد بين أوساط الأزتك، أن السكر هو وسيلة للتواصل مع آلهة البلْكة التي شاركت في تخصيب الحقول الزراعية والكائنات البشرية. ومن الطبيعي أن يخضع احتساء البلكة لضوابط صارمة، فيقتصر شربها على مناسبات محددة، لأن الأزتك أدركوا أنها تؤدي لتشوّش الذهن، ونشر الفوضى في المجتمع. وهكذا اقتصر شرب الخمر على مناسبات خاصة، ومنها حفلات الأعراس، عندما يسمح لكبار السن فقط بشرب البلكة(60).

ومع اقتراب غروب الشمس، كانت النساء من أسرة العروس يعمدن لتحميمها،

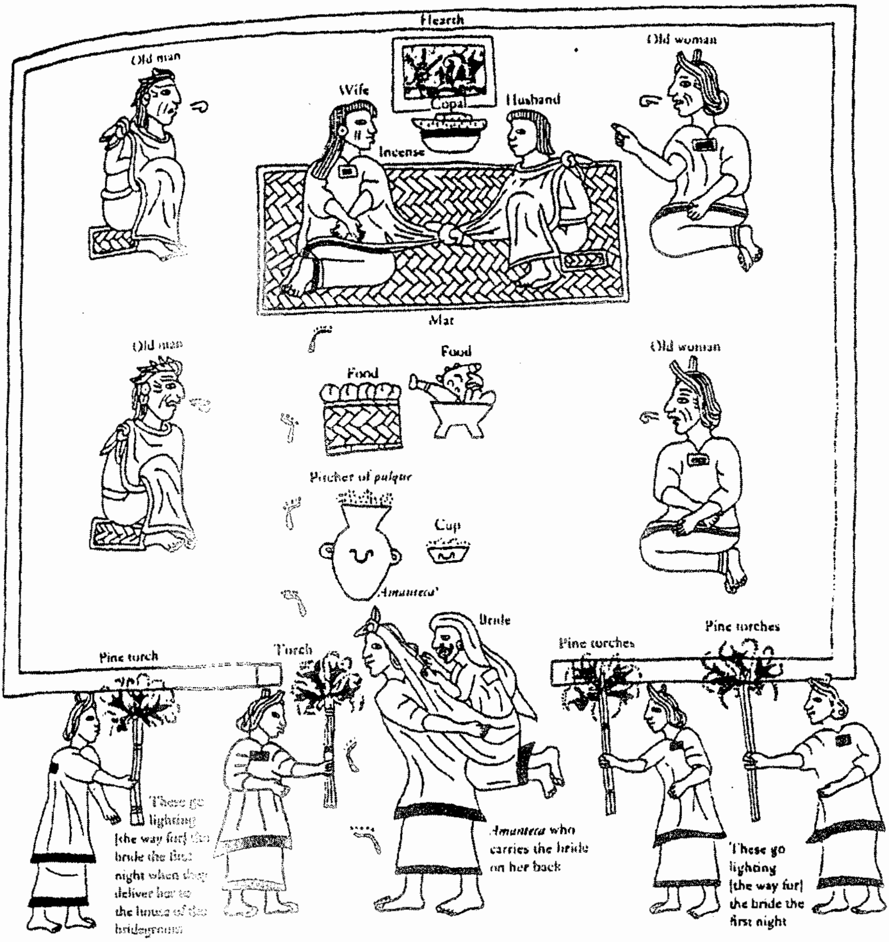
(1) الطامال: طعام مكسيكي معد من دقيق الذرة ومن لحم مفروم مع الفلفل الأحمر.
(2) البلْكة: شراب مسكر يصنع في المكسيك من عصير الصبار الأمريكي.

كما تتسارع النساء، وهن مفعمات بالفرح والسعادة لتغسيل العروس بالصابون، وتعطيرها وتزيينها بريشات حمراء، وطلاء وجهها بألوان حمراء أو صفراء. وكانت العروس تُلبس أزهى الثياب مع غطاء للرأس. وبعد تلقي الإرشادات من العجائز، تُحمل فوق ظهر امرأة تنقلها في موكب بين صفين من حملة المشاعل نحو بيت العريس. «كما يحيط بالعروس جميع أقاربها من الرجال، ويسيرون حولها، حتى يبدو للجميع كأن الأرض تدمدم من خلفها. ومع مرافقتهم للعروس، يبدو كأن جميع العيون متسمرة عليها، فقد نظر إليها جميع الحاضرين».

ويظهر رسمٌ لحظة دخول العروس إلى بيت زوجها، جمعاً من النساء يسرن في انسجام دعماً لها، وفرحاً بتزويجها.

وأما الفتاة، والتي مرت بمرحلة تحول ديني كبير ـ فتبدو حينئذ في مظهر جديد، وقد انتقلت إلى مكانة اجتماعية حديثة ـ فقد دخلت في قلب الاحتفال الذي سيمنحها هوية جديدة. «إنها تجلس فوق حصير كبير صنع من نسيج عيدان القصب في مقابل عريسها أمام موقد مشتعل. وتقوم والدة العريس بوضع عباءة جديدة على العروس، وتمنح أمها هدية مماثلة. وتعقد والدة العروس حول كتفي العريس كاب (غطاء للكتفين) وتضع أمامه مئزراً جديداً. ثم تتقدم الخاطبات ويعقدن (عقدة فعلية) عبر ربط زاوية من كاب العريس بعباءة العروس الجديدة. وتغسل والدة العريس فم العروس، وتضع في أوعية الطامال المرق، وتطعمها أربع لقيمات، ثم تقوم العروس بإطعام العريس أربع لقيمات، ثم تأخذ الخاطبات العروسين من أيديهما نحو غرفة النوم، ويغلقن عليهما الباب لمدة أربعة أيام، ويقفن في حراسة الغرفة. وفي اليوم الخامس، يخرج الزوجان الجديدان، ويحتفلان ويرقصان ويتبادلان الهدايا مع ذويهما، ويستمع الزوجان إلى مزيد من الخطب حول واجبات كل منهما تجاه الآخر ومسؤولياتهما بصفتهما راشدين. وينتهي الاحتفال بعودة الأسر إلى بيوتها «وهي راضية وتشعر بالسعادة من أعماق قلوبها».

ويبدو أن التعليم في مجتمع الأزتك لا ينتهي أبداً.



مشهد الزواج (واللوحة مأخوذة من مخطوطة ميندوزا، بتصريح من فرانسيس إف بيردان وباتريسيا ريف آناوالت).

حفلة العازب

في واقع الأمر، يكون على العريس الخضوع لطقس آخر قبل أن يتولى واجباته كرجل متزوج. وفي بعض الأوقات، وبعد حفل العرس، يقيم مأدبة لمجموعة مختارة من الأصدقاء العزاب ممن كان زعيماً لهم خلال مرحلة الدراسة. وقد تحتوي المأدبة على سلة سخية من الطامال والديك الرومي والشوكولا، وقد يتبعها تقديم هدايا لأصدقائه،

كأغطية الكتفين. كما يحضر التبغ والعطور لإغناء المأدبة بمتع إضافية. وتكون الهدية الرئيسة عبارة عن فأس نحاسية يقدمها العريس إلى معلمه القديم، ولأصدقائه العزاب. وقد جرت العادة على دعوة العريس أصدقاءه ومعلمه إلى بيته كي يعلن لهم انسحابه من أداء واجباته في التيلبوشكالي قائداً شاباً في المدرسة، ولطلب دعمهم وصداقتهم الدائمين. وفي بعض الحالات تكون «الكابات» التي يقدمها لأصدقائه من نسج عروسه التي جلبت معها بضع قطع من الأنسجة لتستعرض مهاراتها وبراعتها في صنع تلك الهدايا. وبهذه الطريقة، يكون الشاب قد استكمل عملية التحول من قائد شاب إلى زوج قد يصبح محارباً أو تاجراً أو قاضياً، أو مزارعاً أو سفيراً أو غيرها من المهن. وسوف يتم بحث هذه المهن في الفصل الخامس.

كما تُرافِقُ كل مرحلة تحول مهمة في حياة الأزتك طقوسٌ وشعائرُ محددة، وقد بلغ بهم الحرص على إقامة الاحتفالات إلى درجة أن التجار كانوا يؤدون، في بداية رحلة تجارية، شعائر صغيرة ومعقدة أحياناً لمساعدتهم في انتقالهم من بيئتهم ومدينتهم إلى الريف، حيث ستواجههم المفاجآت والأخطار، والأعداء أيضاً. كما دأب المزارعون على إقامة الصلوات والطقوس طوال أيام السنة، كي تحمي حقولهم ومزارعهم آلهة وأرواح وقوى الحقول والتربة والسماء والحيوانات والنباتات. وقد شارك المحاربون في أداء سلسلة من الشعائر لمساعدتهم في الاستعداد للقتال، وفي أداء واجبهم الحربي على أكمل وجه. وفي حالة أسر أحد المحاربين، كانت تقام طقوس للتعبير عن التحول الكبير الذي طرأ على حياة ومصير كل من الأسير والآسر.

كما أقبلت النساء والرجال، بين الحين والآخر، على حمامات البخار من أجل تطهير أنفسهم. وقد تطلبت كل مرحلة زمنية القيام ببعض النشاطات للحفاظ على الصحة والتوازن العقلي والجسدي.

المظهر العام

بالنظر إلى كل هذا التركيز على اللياقة والذوق وحسن السلوك والتدريب الموجه، نستطيع أن نتخيل أن الأزتك قدروا النظافة والأناقة والمظهر الحسن. وقد كان معظم

الأزتك أقصر قامة من سكان اليوم. كما أن هؤلاء الأشخاص قصارُ القامة والبدينين، نادراً ما فاق طول معظمهم عن 165سم للرجل، و140سم للمرأة. وقد وصفهم باحث درس صفاتهم الجسدية على النحو التالي: «تفاوت لون البشرة من اللون الأسمر إلى البني الخفيف، مع وجه أزتكي عريض وأنف بارز معقوف غالباً. وكانت العيون سوداء أو بنية لوزية الشكل مع ثنيات عند الزوايا الخارجية، مما يشير إلى أن أجداد المكسيكيين هاجروا إلى العالم الجديد قادمين من آسيا منذ أزمان بعيدة»(61).

وقد امتاز الأزتك بقدرات فائقة على العمل، وأظهروا إمكانات استثنائية في حمل أوزان ثقيلة، والمشي لمسافات طويلة، وفي الجري والغناء واللعب والقتال. وقد كتب إسباني عاش في المكسيك عن جيرانه: «إنهم داكنو البشرة كالنمور، ومن ذوي الأخلاق الكريمة والسلوكيات الجيدة. وإن معظم الأزتك مهرة أقوياء البنية، ويمتلكون قدرة فائقة على التحمل. وإنهم في الوقت نفسه، من أكثر الناس تواضعاً. إنهم مولعون بالحروب، ويواجهون الموت بشجاعة كبيرة»(62).

وقد استمتع الأزتك بالاستحمام، وقدروا النظافة الشخصية، كما استخدموا ثمار شجرة صابونية وجذور بعض النباتات لصنع الصابون. كما استحموا بالماء البارد، لكنهم فضلوا حمامات البخار. وقد وجدت حمامات البخار في عدد من المنازل، وكُشِفَ عن بعضها في حوض المكسيك. كما استخدمت حمامات البخار لإتمام شعائر التطهير، وأثناء فترات المرض، ولمساعدة النساء الحوامل، فضلاً عن كونها جزءاً من النظافة اليومية.

وقد زينت النساء الأزتيات، خاصة الثريّات منهن، وجوههن بطلاء أصفر استخلص من حشرات وزيوت للطهو. ويبدو أن الرجال لونوا أجسادهم في مناسبات خاصة فقط.. وإن لونت النساء وجوههن بكثرة، أو قبل بلوغ سن معينة، كنّ يواجهن عقوبة أبوية. كما استخدمت النساء عطوراً مستخلصة من نباتات، واستخدمن أنواعاً من العلكة لتعطير أنفاسهن. كما ثبت أن مرايا من زجاج رخامي استخدمت داخل البيوت حتى يطمئن الناس إلى حسن مظهرهم قبل الخروج إلى الأماكن العامة.

وكما سنرى لاحقاً، عكست ملابس الرجال خاصة المحاربين، خبرتهم وبسالتهم

في ساحات المعارك. لكن الرجل العادي لبس مئزراً أحاط بخصره وما بين ساقيه، وربطه بشكل يبدو أحد طرفيه متدلياً من الجهة الأمامية، والطرف الآخر من الجهة الخلفية. كما ارتدى النبلاء ثياباً قطنية ذات تصميمات مطرزة. وفي حين اقتصر رداء العمال الفقراء على المئزر، ارتدى معظم الرجال عباءات ثبتت حول أكتافهم. وكما سنرى في الفصل القادم، كان لباس الملوك مدهشاً في ألوانه وجماله ورمزيته.

وقد ارتدت النساء تنانير تلامس كواحلهن، وقد ثبتت حول أجسادهن بواسطة أحزمة مطرزة. كما ارتدت النساء من طبقة النخبة قميصاً فوق التنورة. وقد طُرّز القميص بتصميمات خاصة، وفقاً لمكانتهن الاجتماعية أو لمدينتهن. وكما أشار واروريك باري، أحب الأزتك تزيين أجسامهم وملابسهم ما أمكن لهم ذلك. كتب باري:

> «أحب المكسيكيون إبداء زينتهم، ولم يترددوا في استخدام المجوهرات وبعض الإكسسوارات، مثل المراوح والمذبات (منافض لطرد الذباب) وأغطية الرأس المصنوعة من ريش أخضر أو أحمر. وقد صنعت السبحات من أحجار نادرة أو من ذهب شُكّل على هيئة السرطانات البحرية والعقارب والطيور أو القواقع. كما علقت مع العقود أجراس ترن كلما تحرك صاحبها. وقد استخدمت المواد نفسها في صنع قلائد تزيّن صدرَ وأذرع الشباب الأغنياء، والتي ازدانت بقطع جلدية وعصابات رأس ذهبية مرصعة بأحجار كريمة. كما تزين الفقراء بقطع من النوعية نفسها، لكنهم استبدلوا المواد الثمينة التي استخدمها أبناء الطبقة الثرية بقواقع أو أحجار رخيصة. وخلاصة الأمر، أن الأزتك جهدوا للظهور في هيئة نظيفة ومرتبة وجذابة(63).

رحلة الموت

ركزت بعض أعمق الطقوس وأكثرها إلهاماً في المجتمع الأزتكي، على رحلة الموت

ومصير البشر بعد الوفاة. ويصعب على الغربيين المعاصرين فهم المواقف والممارسات الشديدة التباين التي كانت عند الأمريكيين الأصليين، خاصة الأزتك، حول الموت والحياة الآخرة. لكن، هناك شيء مؤكد، وهو ارتباط جميع مراحل الرحلة من الحياة إلى الموت ومصير أرواح الفرد (لأن الأزتك اعتقدوا أن للإنسان ثلاثة أرواح) بطقوس سهلت إتمام الرحلة الخطرة. وبكلمات بسيطة، كان الموت جزءاً من الحياة بمعنى أنه (1) رافق البشر في كل يوم من حياتهم على سطح الأرض (2) كان أحد مراحل حياة الروح البشرية (3) شكلت حالتا الموت والحياة جزءاً من دورة انبعاث الروح. ومن أجل فهم فكرة الأزتك عن الموت، من المفيد قراءة أبيات من قصيدة يحفظها أفراد منحدرون من سلالة الأزتك من المقيمين في ولاية بويبلا:

نعيش هنا على سطح الأرض
نحن جميعاً فاكهة الأرض
الأرض تغذينا
ونحن نرعى تلك الفاكهة من فوق سطح الأرض ومن باطنها
وعندما نموت نذوي في الأرض
نحن جميعاً فاكهة الأرض
نأكل من الأرض/ لأن الأرض تأكلنا(64)

تكمن النقطة المهمة في احتياج البشر إلى الطعام كي يعيشوا. وكي يأكلوا، اضطر البشر لقتل كائنات أخرى، ومنها نباتات وحيوانات. ونتيجة لذلك، عندما يأكلون فإنهم يستوعبون الموت داخل أجسادهم، وهم بذلك، يحملون الموت في أعماقهم مما يمنحهم أيضاً الحياة. إن الموت مرتبط في فكر الأزتك بشكل وثيق بهذه الصورة للأرض، والتي يأتي منها وإليها جميع الناس ويعتمدون عليها في عيشهم. ويعتمد البشر على الأرض اعتماداً كبيراً بطريقتين. الأولى، أنهم يأكلون فاكهة الأرض، خاصة الذرة، والتي تولد من «الأم العظيمة». لكن، هذه الأغذية تبرز من باطن الأرض، وهي منطقة الموتى. الطريقة الثانية، في الفكر الأزتكي، اعتُبِرت العلاقة الجنسية كمن

يقدم نفسه لـ«أشياء من الأرض»، بمعنى آخر، أن يتعرف الإنسان إلى الغبار والأوساخ والفحش على سطح الأرض. وهكذا، عندما أكل الأزتك أو مارسوا الجنس، فإنهم اقتربوا من قوى الأرض، والتي كانت هي ذاتها قوى الحياة والموت.

كما اعتبرت الأرض مثل فم جائع، أو فكين كونيين يتغذيان على أجساد البشر. وقد قيل قديماً إن إلهي العالم السفلي، هما ميكتلان تيكويتل وكويزالي «لديهما تعطّشٌ كبير وشهية دائمة لالتهامنا، إنهما يواصلان اللهاث والإلحاح»(65).

كما سيعاني جميع البشر الموت، والذي كان، في اعتقاد الأزتك، بمثابة هلاك وتشظٍ، لكنه عُدَّ أيضاً مدخلاً إلى عالم آخر يسوده نوع مختلف من الوجود تنظمه شعائر أخرى. وفي سبيل فهم هذا التزامن في الأضداد ـ الهلاك والحياة ـ من المهم الإشارة إلى دراستنا السابقة حول الأرواح الثلاثة للجسد البشري، وهي التونالّلي، ومكانها في الرأس، وهي إرادة الروح والذكاء، والتيوليا، ومكانها في القلب، وهي روح الإعجاب والحيوية، والإيهي يوتل، ومكانها في الكبد، وهي روح العاطفة والغاز المشع والعدوانية. وكانت جميع تلك الأرواح عبارة عن هدايا قدمتها الآلهة وزرعتها في جسم الإنسان، لكنها موجودة أيضاً عند الحيوانات والنباتات والكائنات الأخرى. وعند الوفاة، كانت تلك الأرواح الثلاثة الساكنة في الجسد البشري تنتشر في مناطق مختلفة من العالم. ورغم أن النصوص المتوافرة حول هذا الانقسام ليست متشابهة دوماً، يبدو أن الأرواح قد تتجه إلى أحد الأماكن الأربعة، (1) ميكتلان، وهو العالم السفلي، لمن ماتوا ميتة طبيعية (2) الشمس في السماء، لمحاربين قتلوا في ساحات المعارك، وهم قرابين إلى الشمس، فضلاً عن نساء قَضَيْنَ أثناء ولادة أول مواليدهن (3) تلالوكان، وهو الجنة الجبلية لإله المطر، لمن غرقوا أو ماتوا بفعل قوى على صلة بالمياه، كالصقيع أو أمراض البرد (4) شيشيوالكوهكو، وهو مكان خُصِّصَ للرُضَّعِ الذين ماتوا وهم ما زالوا يرضعون من أمهاتهم، أي أولئك الذين لم يأكلوا بعدُ من نتاجِ الأرض.

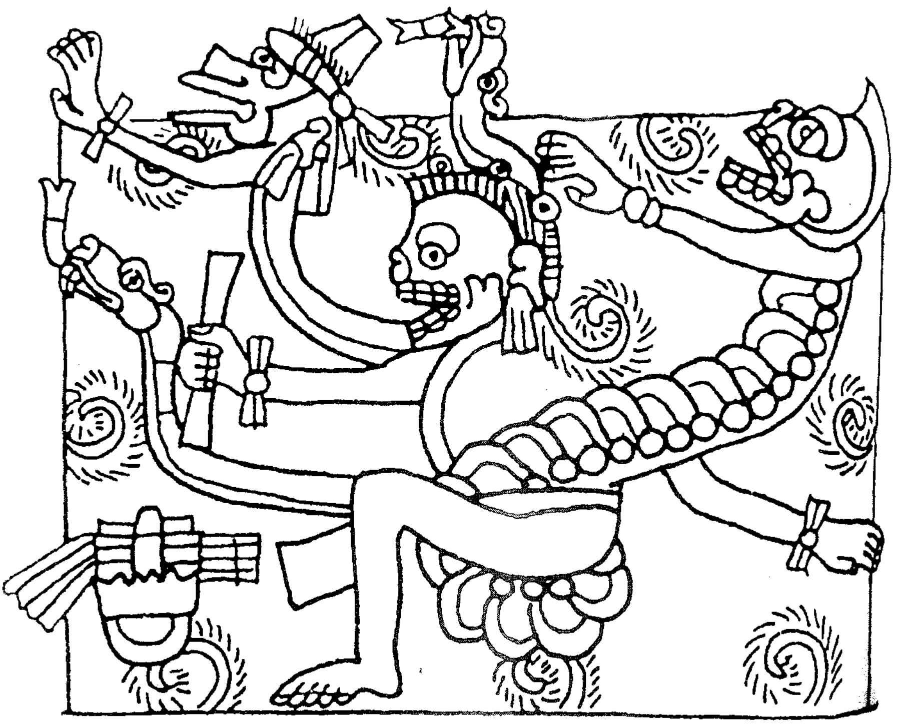
ويبدو أن إحدى تلك الأرواح، وهي التيوليا، والتي سكنت القلب، لم تكن تترك الجسد ما لم يتم إحراقه. وقد انطبق ذلك القول خاصة على الحاكم المُتَوفي، والذي

كان بمقدوره التواصل مع وزرائه، عبر التيوليا، لحين إحراق جثمانه. وعند تذكر أهمية النار أثناء الاحتفال بالأعراس، تَجْدُرُ الإشارة إلى أن النار التي أحرقت الجثة هي ذاتها التي حملت الروح في رحلتها إلى مكانها المناسب في الحياة الآخرة. وعند هذه النقطة، كانت للشعائر أهميتها لأن الأقارب قدَّموا القرابين وذرفوا الدموع وتلوا الصلوات عند نار الموقد. وقد وفرت تلك الطقوس الحماية للروح، ومنحتها القوة خلال رحلتها الخطرة. وعند وفاة بعض الحكام، قدم الخدم قرابين وأُحْرِقت جثثهم في محرقة مجاورة، لكن بعد نزع قلوبهم وإحراقها في المحرقة نفسها التي أُحْرِقَ بها التلاتو آني. وقد رافقت تلك القلوب، وهي تيوليا الخدم، وأوعية تحوي مشروبات مقوية، وقطعاً من الملابس روح الحاكم ووفرت لها الحماية أثناء رحلتها بعد الموت.

وبعد وفاة الجسد، تطلب وصول الأرواح إلى جهاتها فترات زمنية طويلة. فقد استغرق الوصول إلى ميكتلان أربع سنوات، وهي موجودة في أدنى الطبقات التسع، وثمانين يوماً فقط من أجل الوصول إلى سماء الشمس، حيث رافقت أرواح المحاربين إله الشمس في رحلته اليومية. وطوال ذلك الوقت، يواصل المكلومون تقديم الهبات الشعائرية لمساعدة الأرواح وتعزيزها. وحال وصول روح المحارب إلى سماء الشمس، أو توناتيو إيلويكاتل، يصبح بمقدور بعض المحزونين الاستحمام والترفيه عن أنفسهم للمرة الأولى بعد ثمانين يوماً على الوفاة.

وفي حالة الأرواح المقدر لها السكن في تلالوكان، وهي جنة إله المطر، لا يحرق الأزتك الجثث بل يدفنونها في التراب في خطوة رمزية لزرع الجسد كهبة إلى آلهة النباتات والمطر. ولم يكن من حاجة إلى إشعال النار، لأن الدفن في الأرض كان بمثابة وضع الأرواح مباشرة في عالم الحياة الآخرة.

كما أقيم طقس جنائزي آخر قُصد من خلاله إبقاء بعض أرواح المتوفى قريباً من أفراد أسرته الأحياء. إذ قبل إحراق الجثة، تقصّ خصلات من شعر أعلى رأس المتوفى وتوضع إلى جانب شعيرات قصت في الأيام الأولى من حياته ويوضع الشعر مع تمثال لذلك الشخص في صندوق أو وعاء مصنوع من الخزف داخل بيت أو معبد الكالبوللي. وهذا بدوره يشير بالتحديد إلى أن روح التونالّلي سكنت في الرأس،



أرواح عديدة تغادر جسد المتوفى (مخطوطة فاتيكانوس بي. بتصريح من سيجلو فينتيونو، المكسيك).

وكان بمقدورها منح الحيوية والقوة إلى الأسرة لسنين طويلة.

وهذا يعني أن الأزتك مارسوا طقوس عبادة تشبه إلى حد ما الطقوس التي مارسها الأوروبيون في العصور الوسطى. فقد حُفِظَتْ عظام الحكام وآخرون من أصحاب السيرة المقدسة داخل حاوية خاصة (صناديق، أصص أو جرار) وعرضت أو دفنت داخل معابد. وقد اكتُشِفَ خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة في معبد الأزتك الكبير، وسط مدينة مكسيكو سيتي، عدد من صناديق ضمت رفاتاً. كما وجد داخل تلك الصناديق هبات وصدقات وضعت كي تمنح أرواح الموتى القوة والحماية للمجتمع.

كما لاقت أرواح النساء اللائي قضين أثناء الولادة مصائر خاصة. فقد اعتبرت أولئك النسوة مضاهيات لمحاربين قتلوا إبَّان المعارك أو على صخرة القرابين. فقد ضحت أولئك النسوة بحياتهن من أجل ولادة أحياء جدد. وقد صعدت أرواحهن

إلى الجانب الأنثوي من السماء، حيث عشن مع الشمس ورافقنها منذ شروقها حتى غروبها. وقد نزلت تلك الأرواح إلى الأرض في تواريخ محددة، ولازمت الأحياء.

ومن المعتقدات اللافتة، أن كلباً مقدساً عاش في عالم ما بعد الموت ساعد روح /التي التيوليا/ على إتمام رحلتها. فقد ظن الأزتك أن اللهب المنبعث عند إحراق الجثة يعمل على «إرسال كلب يساعد الميت على عبور نهر تَحت أرضيٍّ، ويوفر له المواد اللازمة ليغطي جسده، وليأكل ويؤمن حمايته على الطريق. كما ظن الأزتك أن الكلب يوفر الهدايا والصدقات التي يقدمها المسافر إلى ميكتلان تيكوتل، والهدايا التي حملها أسرى الحروب عند تقديمهم قرابينَ فوق صخرة القربان. كما ظنوا أن ذلك الكلب يؤمن لأرواح الجنود القتلى في المعارك ريش الصقر الذي احتاجوا إليه كي يطيروا أمام الشمس»(66).

ومن الأفكار العجيبة التي نجدها عند دراسة هذه المعتقدات حول الموت والحياة الآخرة، الاعتقاد بكثرة أرواح الموتى. فإن بعضاً من تلك الأرواح ينتقل إلى عالم الآخرة، لكن بعضاً منها يبقى بالقرب من أفراد الأسرة، والمدينة والجماعة. وهي لا تتطابق مع المواصفات البدنية للجسد أو بقاياه. ويعود سبب ذلك لكونِ الأرواح قوى روحانية متغلغلة داخل أشكال وقوالب مادية، ولكنها ليست مقيدة دوماً بها. كما يمكن لأرواح الموتى أن تتصل أو تندمج مع الآلهة من الذكور أو الإناث، بحيث تحيا من جديد. وقد صحّ هذا الاعتقاد (بنظر الأزتك) بشكل خاص على الحكام وكبار المحاربين والفنانين والشعراء المتميزين. ومن الأمثلة الدالة على هذه الفكرة، شخصية توبيلتزين كويتزال كوآتل، الذي حكم التولتيك الخرافية. وقد قيل إنه عند إحراق جثته، صعدت التيوليا الخاصة به إلى السماء، وتحولت إلى كوكب الزهرة، والذي أطلق التولتيك عليه اسم تلاهويزكالبانتيكوتل، أي إله بيت الفجر.

كما تجدر الإشارة إلى أن جميع أرواح الكائنات البشرية يمكن أن تصبح بعد الموت أجزاء من آلهة وقوى مقدسة أقل شأناً. وكانت أرواح من يموتون دون تحقيق عمل مميز، أي جرّاء الإصابة بمرض عادي، تنتقل عبر الممرات الجليدية للعالم السفلي لمدة أربع سنوات إلى أن تصل إلى أرض ميكتلانتيكوتل، حيث تصبح جزءاً من عالمه. وقد

كان ذلك المكان كريه الرائحة مما يسبب معاناةً يمكن تجنبها عن طريق عيش حياة كريمة حافلة بالتميز. وعندما يعيش الإنسان حياة أخلاقية متميزة، فإن أحد الآلهة التي سكنت في منطقة أخرى من الحياة الآخرة تختاره كي يعيش معها. كما اعتقد الأزتك أن الموت في حوادث لا علاقة لها بالسلوك البشري تثمر عن حياة راضية ما بعد الموت.

وقد تبدو أفضل طريقة لإنهاء هذا الفصل، حول الطقوس والتعليم في دورة حياة الأزتك، في اقتباس كلمات الراهب الإسباني بارتولوم دي لاس كاساس، والذي عاش في منطقة أخرى في المكسيك، ووصف كيفية إلباس الموتى وفق شعائرهم. ونرى في تلك الأوصاف انعكاساً لاهتمام الأزتك بالطقوس والشعائر التي أثرت في أرواح أولئك الأطفال والمراهقين والراشدين، والتي نظَّم التعليمُ والخطبُ والاحتفالاتُ حياتَهمْ على وجه الأرض:

«عندما جاء موعد دفن الموتى، قام الناس بإلباسهم مختلف أنواع الألبسة وشارات الآلهة. وإن كان طفلاً، ألبسوه شارة إله آمنوا بأنه نصير الأطفال. وإن مات أحدهم نتيجة الإصابة بالقرحة أو الأورام أو بمرض معدٍ، ألبسوه شارة إله آخر. وإن كان الميت تاجراً ألبسوه بطريقة معينة، وإن كان مالك أراضٍ زراعية ألبسوه بطريقة أخرى. وإن كانت سيدة رفيعة المقام، ألبسوها بطريقة تختلف عن سواها من النساء الفقيرات. وإن مات أحد المحاربين وعُثر على جثته، فقد يحرقونها (في ساحة المعركة) من دون احتفال. وعند عودتهم بعد انتهاء الحرب، كانوا يأتون بأحد سهام المقاتل الذي أحرقوه، ويضعونه رمزاً للقتيل، ويلبسونه شارة الشمس، ثم يحرقونه. وأما من يقتلون بسبب ارتكابهم الزنا والفواحش، فقد عمدت أسرهم لوضع صورة لهم مؤلفة من شارة آلهة أسموها تلازولتويل، وهي آلهة الفحش والأقذار، لأنها أرادت أن تعبد عبر الرذائل. وأما الغرقى الذين لم يُعثر على جثثهم، فقد صنعوا لهم تماثيل وزينوها بشارة إله

المياه، «لأنه طالما أخذهم الإله، فإنه سيحسن رعايتهم»(67).

وبعد أن عرضنا لكل ما عرفناه حول نُظِم التعليم والتربية وتنشئة الأطفال عند الأزتك، أصبح بمقدورنا أن نقيّم معنى القول الوارد في مقدمة هذا الفصل وهو «كي تصبح شجرة تطرح ثماراً» يجدر بك أن تشارك بشكل كامل في مراحل الولادة والحياة والموت والتجدد الروحي.

الفصل الخامس

الهرم الاجتماعي:
المحافظة على مكانتك والعالم من حولك

«عندما يسير الحاكم قُدّماً يمسك بيده عيدان قصب تتناغم حركتها مع إيقاع كلماته. ويسير حجّابه وكبار القوم من حوله وعلى جانبيه كي يفسحوا له الطريق. ولا يمر أحدهم من أمامه ولا يتقدمه أي شخص، ولا ينظر إليه ولا يقابله أيٌّ كان»(68).

تصف الفقرة السابقة ظهور موكب حاكم أزتتي في مكان عام. كما تعرفنا بالتفاوت الطبقي الذي نظم مناحي الحياة اليومية وأثّر فيها. وإن من أشد ما يمثل تحدياً للطلبة في الولايات المتحدة، هي مواجهتهم هيئات اجتماعية وبشرية منظمة وفق أقسام غير متساوية. على سبيل المثال، علّمنا علماء الاجتماع والروائيون أن التباين الطبقي، وعدم التكافؤ في نيل الامتيازات والمكانة الرفيعة ومباهج الحياة سمة عامة للمجموعات البشرية. وقد تربى أبناء أمريكا الشمالية على أفكار (غيرَ واقعيةٍ) تقول إن «جميع الناس سواسية عند خلقهم». لكن تلك الأفكار تغفل الطبيعة الطبقية لكل مجتمع بشري، أو أن كل مجتمع منظم وفق ترتيبات حضرية. وقد أنشأ الأزتك كسواهم من معظم الشعوب، هرماً اجتماعياً، أي مجتمعاً طبقياً. وفي ظل الأزتك، وصل التمييز الطبقي بين النبلاء والعامة إلى جميع أنواع الأنشطة الاجتماعية، وخضع لإشراف ونفوذ التلاتوآني المقدس وذريته. وفي المقطع السابق، ظهر الحاكم من قصره كي يواجه الحياة البشرية بالتناغم مع «إيقاع كلماته» لأنه يُعَدُّ الزعيمَ والقائدَ، والمصدر الرئيس للقانون والحكمة وإرادة الآلهة. وكما سنرى في الفصل السادس، كان لفن الخطابة وإلقاء الكلمات البليغة، قيمته الكبرى، خاصة الكلمات المقدسة، وقد مثل الحاكم تجسيداً حياً لهذا الفن. فقد نشأ وتربى من خلال مراحل تحول شعائرية مكثفة، بأنه يشغل مكانة تميزه عن سائر البشر، كما قيل له في حفل تنصيبه «لم تعد بشراً مثلنا،

ولم نعد نراك مجرد إنسان»(69).

وإننا نشهد هذه الرفعة الاجتماعية ظاهرة بوضوح في سلوك خدم الملك، وحجّاب القصر وكبار السن الذين يسبقون الحاكم لإفساح الطريق أمامه وإبعاد العامة عنه. ويسود شكل من التناسق المناسب ورمزية مزدوجة لهذه العملية، «فيحظى الحاكم بالحراسة من الجانبين وحول اليدين». وتهدف هذه الحماية المتوازنة لضمان وجود مسافة اجتماعية وجسدية فاصلة بين الحاكم والعامة. كما يبدو واضحاً أن تلك المسافة أفقية (ساروا لإفساح الطريق أمامه)، وهي بالتأكيد عمودية (لا ينظر إليه أحد أو يقابله أي كان). وبغض النظر عن موقعه الجغرافي، فإنه يجلس ويقضي ويسير عند أعلى الهرم الرمزي للمجتمع، ولا يعترض طريقه سوى الآلهة أو حكام آخرون.

وكما يُظْهِرُ النص التالي، زين الوجه الملكي الذي نظر من عليائه نحو باقي العالم. وعندما رقص الحاكم، بدا كصورة لامعة متحركة من الجمال والغنى والمعجزة المقدسة.

زُيِّنَتْ عصابة (الرأس) بشرابتي ريشتين لطائر الكتزل[1] ورصعتا بالذهب. وقد اعتاد الملوك على ربط شعورهم بتلك العصابات. كما زينت الخوذة بريشة لطائر كتزل ورصعت بالذهب. وكانت تتدلى فوق رقبته. وقد صنع غطاء الرأس من ريش طائر أبو ملعقة[2]، مع ريشات مبهرة لطائر الكتزل، مع طبلة مغطاة بالذهب، وهي أداة علقها الملك خلف ظهره أثناء رقصه.

كما تزين الملك بأقراط ذهبية وبحجر أخضر مرصع بالذهب زرع في شفته. كما زرعت في شفته السفلى شفيهة بيضاء[3] من الكريستال النقي زينت بريشات زرقاء صغيرة داخل قالب ذهبي.

كما تزين الملك بأشياء أخرى مثل:

- شفيهة صفراء طويلة من الكهرمان داخل قالب ذهبي.
- قلادة تعلق بالشفة في صورة طائر البجع.

(1) الكتزل: طائر من طيور أمريكا الوسطى.

(2) أبو ملعقة: طائر مائي ذو منقار ملعقي الشكل.

(3) الشفيهة: حلية تعلق في الشفة بعد ثنيها.

- قلادة تعلق بالشفة في صورة صقر.
- قلادة تعلق بالشفة في صورة أفعى النار.
- قلادة تعلق بالشفة في صورة سارية قارب.
- حلية للشفة من حجر أخضر كريم داخل قالب ذهبي على صورة صقر.
- قلادة من الذهب تعلق بالشفة في صورة نبات مائي ذي أوراق عريضة.

عقد مؤلف من قلادئد ذهبية لامعة يحمل في وسطه قرص من أحجار كريمة خضراء(70).

إنه في الواقع رأس ملكي مزين بالذهب وريش طائر الكتزل، وأحجار كريمة خضراء وريش أزرق اللون. وترمز تلك الأشياء إلى مناطق كونية في الأرض والسماء، وإلى نباتات وحيوانات وفنانين وعمال (قلادة للشفة على شكل سارية قارب). وقد تركزت جميع تلك الأشياء في شخص أنبل طبقة النبلاء، والذي تنقَّل عبر أطياف المجتمع مستعرضاً قوته الكونية. وعندما يظهر الحاكم في مكان عام، يقدّم للمجتمع، خاصة عندما يرقص، أداءً مقدساً للهرم الاجتماعي في أعلى مراتبه. كما كان لقرع الطبول ميزة رفيعة، لأن الطبول صانعة الأصوات الكونية. وقد كتب عن مواصفات تلك الطبول: «كانت هناك طبول ذات نغمتين تساندها طبول أخرى لها النغمات عينها، وطبول أرضية وأجراس ذهبية». وقد دلت ضربات تلك الطبول على تميز ورفعة اجتماعيين. لكن كل ذلك يقودنا إلى طرح سلسلة من التساؤلات ومنها: «من عمل على دعم هذا الهرم الاجتماعي؟ ومن هم صناع تلك الأشياء؟ وكيف ظل متماسكاً ذلك الهرم الاجتماعي الذي قسم الناس إلى طبقة متميزة وأخرى عامة؟». وهنا نرى فكرتين قويتين ارتبطتا معاً أثناء خروج الموكب الملكي وأداء الرقصات، وهما التزام الناس عامة بمدأي التمايز الطبقي واللامساواة. ومن أجل الإجابة عن هذه الأسئلة يدور هذا الفصل في فلك فكرة تقوم على النظرة المكانية للمجتمع الأزتكي. وتقضي وجهة النظر المكانية بأن المجتمع والكون بأكمله يكون في أفضل حالاته إن



أتباع حاكم أزتكي يقومون بإلباسه وتزيينه في لوحة جدارية للفنان المكسيكي دييجو ريفيرا معروضة في القصر الوطني في مدينة مكسيكو سيتي (بتصريح من سكوت سيشينز).

وجد كل شخص وكل شيء مكانه المناسب، وتقيَّد بمتطلبات ذلك المكان في الكون. وفي إطار هذه النظرة إلى العالم، من الخير والصلاح أن تجد مكانك المناسب، وأن تلتزم بحدود مجموعتك الاجتماعية ومهنتك، وأن تساهم في توطيد استقرار المجتمع وتوازنه عبر التقيد بالإرشادات المقدسة بشأن ذريتك. وهذا بدوره يعني أن الأعمال الصالحة تؤكد بقاء الشخص في مكانه الاجتماعي الصحيح. ومن هذا المنطلق، كره الأزتك الانشقاق عن الجماعة، ورفضوا أن يقوم المرء بعمله وفقاً لأهوائه أو طريقته الخاصة. كما عبّر الأزتك عن استيائهم من التسكع أو المواقف الغامضة. ويلخص آلفريدو لوبيز أوستين هذا النظام الاجتماعي فيقول: «ينشأ الطفل وسط بيئة من التسلسل الطبقي في بيته وفي مدرسته داخل المعبد. وكان أول تمييز تعلمه الأزتي قد تمَّ داخل أسرته الصغيرة. وقد تعززت قواعد الطبقة الداخلية بالخوف من الضرر الجسدي. فإن شرب الطفل قبل أخيه الأكبر، سيُوقِفُ نموه. وإن لم يحافظ على مسافة كافية تفصله عن الكبار، فإن القوى الحيوية التي راكموها عبر السنين ستصيبه بأذى. وكانت أول أشياء يلمسها الطفل هي الأدوات الخاصة بمهنته أو تجارته المستقبلية، وهي هدايا مقدمة من الإله نصير الكالبوللي. ومنذ أن يكون في المهد، يقدم الطفل إلى الإله في مدرسة المعبد من أجل ربطه بطريقة حاسمة بالمؤسسة التي سيتلقى فيها تعليمه وفق قواعد المجتمع التقليدية(71).

وبهذه الطريقة وبهذا الشكل، وُضِعَ الناس داخل عالم اجتماعي منذ بداية حياتهم إلى نهايتها، وحتى إلى ما بعد موتهم. ولكن، كيف تكونت تلك النظرة المكانية إلى العالم؟ وكيف تمت المحافظة على هذا الهرم الاجتماعي الكبير؟ ولماذا دعم عامة الناس بنية اجتماعية منحتهم امتيازات محدودة؟ من الضروري فهم معتقدات وأفكار أرست دعائم التمييز الاجتماعي. إن الاعتقاد بالعيش في مكان مناسب كان حجر الأساس في حماية الهرم الاجتماعي. وفيما يلي سندرس بعض الأفكار والرموز والسلوكيات الرئيسة التي فصلت بين الحكام والنبلاء والمحاربين والتجار، والعامة في عالم ساده التمييز الاجتماعي.

الإيمان بالمكان المناسب

تعلمنا في الفصل الثاني أن قوى مقدسة دخلت عالم الأزتك وزودته بالطاقة، وهي القوى عينها التي شكلت أكواناً متوازنة ومنظمة. وعند استرجاع صورة الأكوان المأخوذة من مخطوطات فيجير فاري ـ ماير، نعجب من شدة تنظيم عالم الآلهة. فإن كل قسم في الكون نظّمتهُ وأدارته آلهة وطيور مقدسة، وألوان وأشجار مليئة بقوى روح التونالي وتيوليا. وكان القصد من التنظيم الدقيق للأكوان هو أولاً: مطالبة الآلهة للبشر بالعمل معاً للمحافظة على توازن المجتمع. ثانياً: يعني هذا التوازن أن مجموعات بشرية محددة تتولى مهام معينة ركزت على مكانتهم الاجتماعية ودورهم في خدمة كامل المجتمع. ثالثاً: كان لكل مجموعة اجتماعية، مثل صناع السلع الريشية، والتجار والصاغة وبائعي الكاكاو، وصناع الصلصال والخياطين، آلهة تحميهم وتوجه أعمالهم وحياتهم الاجتماعية، وهم يعبدونها. وقد أعدت الآلهة جماعة خاصة، وهم البيبتلين، ودربت أفرادها كي يحكموا بقية أفراد المجتمع. كما جعلت الآلهة من الغالبية الماسيوالتين عمالاً يعملون في خدمة المجتمع تحت إشراف وهيمنة البيبتلين. وقد دُرّب الناس من خلال الطقوس والمواد التعليمية والمكانة الاجتماعية، والملابس والحكايات على الإيمان بالحاجة لإيجاد مكان مناسب وسط هذا النموذج الاجتماعي الشامل وصورة الكون. ولابد من تأكيد حقيقة أنه في نظرة الأزتك إلى الأكوان والمجتمع، كان الإخفاق في الالتزام بمكانتك سواء كنت ماسيوالي أو بيبيلي (وما يترتب عليه من مهن ومسؤوليات محددة ضمن إطار هاتين الفئتين) لا يؤدي لعقاب جسدي وحسب، بل لإطلاق قوى سحرية ضارة كفيلة بتلويث أفراد الأسرة وأبناء الجوار. وإن المنبوذ من المجتمع الذي لم يلتزم فعلياً بدوره (أو دورها) في المجتمع يعد تيتزاويتل، أي شخص أرسل قوى ضارةً وولّد خوفاً وفضيحة وأخطاراً(72).

الجبل المقدس: النبلاء

أبناء الأجسام الثمينة

من أحجار كريمة، من الخواتم

نفخ بهم توبيلتزين كويتزالكوآتل
وجاؤوا واقتبسوا الحياة منه
وُلِدوا ليعيشوا حياة سعيدة مرفهة
ليستحقوا السجادة والكرسي، وليحملوا ما هو جدير بحمله
وما يجب ولادته. لهذا مُنِحوا الحياة
ولهذا ولدوا وخلقوا
وفي الليل تقرر أن يكونوا حكاماً.
وأن يكونوا تلاتوك(73)

يوضح لنا المقطع السابق أن الآلهة اختارت مجموعة وحيدة كي تحكم الناس في زمن الخلق ومكانه «خلقوا في الليل حيث تَقرّر». كما يطلعنا هذا المقطع أنهم جاؤوا من سلالة محددة، لأن توبيلتزين كويتزالكوآتل إله/زعيم التولتيك هو الذي منح المكانة والجدارة لاعتلاء العرش «السجادة، الكرسي». كما يشير النص إلى أن تلك مسؤولية ثقيلة لأن يحملها المرء مدى الحياة «ليحملوا ما هو جدير بحمله وما يجب ولادته». وقد تضمنت حياة الزعماء والنبلاء قيوداً صارمة رغم امتيازات عديدة تمتعوا بها.

وفي هذا السياق، سنبحث في أفكار تتعلق بسلالة النبلاء، والامتيازات والمسؤوليات التي أنيطت بهم.

سلالة النبلاء

عندما جاء الأزتك إلى حوض المكسيك في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، أشير إليهم أحياناً باسم شيسميك أو شيشميكا. وتعني هذه الكلمة «سلالة أو حبل من الكلاب»، وتشير إلى الأهمية القصوى للأسرة والسلالة الملكية في التاريخ والمجتمع الأزتكي. وكان النبلاء، نظرياً، ينحدرون من سلالة إما كويتزالكوآتل، إله الأفعى الممتلئة لمملكة التولتيك القديمة، أو من سلالة إكسويت شوتل، إله النار، والذي كان أماً وأباً لجميع الآلهة، وهو تبعاً لذلك، نصير الحكام والنبلاء. وكان ذلك بدوره، يعني أن طبقة النبلاء امتلكت قوى سحرية هائلة تجذرت في أسرهم وأجسادهم

وأعمالهم. وإن سلالة النبلاء تعني أن النبيل، رجلاً كان أو امرأة، ورث اسماً وملابسَ وتقاليدَ ونقاءً خُلُقِيّاً، وهو أسمى من أفراد طبقة الماسيوالي. تذكر أن موضوعات النقاء الأخلاقي والسلوك المستقيم دُرّست للأطفال، خاصة أبناء النبلاء طوال فترة تنشئتهم. وقد أشارت إحدى النصائح الشائعة إلى أنك إن سلكت سلوكاً غير أخلاقي – مما يعني أي شيء بدءاً من السير في الطريق بطيش وجموح وصولاً للفحش الجنسي – فإنك تسيء إلى سمعة أسرتك وأقاربك، الأحياء منهم والأموات. وسنرى من خلال النص التالي إرشادات قدمها نبيل لابنه:

«اسمع واعلم لِمَ وجدت على هذه الأرض؟ لأي هدف ولدت بفضل أحدهم؟ لقد ولدت بنعمة من آلهتنا الأسياد والحكام، والذين حَرِصوا على أن تأتي إلى الحياة وأن لا تولد بين الأعشاب ووسط الغابات. يجب أن تتعلم كيف تحسن التصرف في هذا العالم؟ هل سَتُولي الرعية عنايتك ورعايتك؟ إليك مهماتك. اعتنِ بالطبلة وبخشخيشة اليقطين. فإنك ستوقظ المدينة وسوف تبهج إله القريب والداني. وأوْلِ اهتمامك للصناعة الماهرة، لفن الصناعة بالريش، ولمعرفة الأشياء»(74).

إن «معرفة الأشياء» كانت تعني بالنسبة إلى نبلاء الأزتك معرفة كيفية تسيير الأمور في هذا العالم. وفي اعتقاد النبلاء، قُصِدَ من ذلك القول الالتزام باتباع قوانين ذلك العالم. وقد عُدَّت ثقافة التولتيك بمثابة نموذج عظيم يقتدى به على طريق التميز. فقد نقل توبيلتزين كويتزالكوآتل لسلالته النبلاء حرفية التولتيك ومعارفهم وزراعتهم وسلوكهم القويم، وهو الذي ساد طوال «عصر الفيروز» قبل أن يخرق قواعد النبالة وينتهي أجله. فقد دمر توبيلتزين قوته وقوة سلالته، مما علّم الأزتك درساً قيماً حول مدى قوة وأثر سحر تلك السلالة. ونتيجة لذلك، عندما ارتكب أحد النبلاء جريمة، قضى القانون بإنزال رتبته إلى مصاف الماسيوالي مع جميع أفراد أسرته.

وقد تعززت امتيازات طبقة النبلاء عبر اجتياز برنامج تعليمي وصف في الفصل الرابع. إن اكتساب المعرفة والخبرة في الإشراف على ورش العمل والمدارس، وقوات المحاربين والمحاكم جاءت نتيجة السمعة والقوة المتعاظمتين لسلالة النبلاء، والذين اعتُبِروا من أصحاب الأخلاق الحميدة. وعندما أظهر أحد النبلاء براعة في القيادة

أو في التعبير الفني، اكتسبت سلالته أو سلالتها ناراً سحرية استثنائية في قلب النظام الملكي. وكان المرادف لهذا الشكل من النجاح كلمة «يوللوبيلتيك» أو «من لديه قلب نبيل».

الامتيازات

حظي النبلاء بامتيازات رفيعة المستوى. فقد امتازت بيوتهم وملابسهم وطعامهم بجودتها الفائقة، خاصة في زمن الوفرة والاستقرار السياسي. وقد أمكن لهم الحصول على أغلى السلع، ومنها أغطية الكتفين والعباءات والمجوهرات، والأزهار والكاكاو والآلات الموسيقية، واللحم البشري أيضاً. وقد يفيدنا تذكر مدى أهمية «أرواح» الناس والأشياء في عالم الأزتك. فقد كان لكل شيء القدرة على امتلاك التونالّلي، وهي القوة الروحية التي سكنت الدماغ البشري. كما أمكن للنبلاء الحصول بطريقة مباشرة على قطع محدودة من لحم البشر من خلال الضحايا القربانية، والتي عُدَّتْ من لحوم الآلهة. وقد احتوت تلك اللحوم على القوة الحية للطاقة الإلهية، والتي انتقلت إلى من تناولها. وقد نَعِمَ النبلاء، من حين لآخر، بتناول كميات صغيرة من لحوم البشر ضمن الوجبات الشعائرية. ومن الوسائل التي مكنت النبلاء، والماسيوالتين الذين رُفّعوا إلى مرتبة النبلاء نتيجة إنجازات فائقة في ساحات المعارك، على اكتساب قوة سحرية هي شرب الكاكاو وتنشق دخان البخور المحترق، وأخذ حبوب مخدرة كالبِيّوت[1]، وكذلك الفطر المسبب للهلوسة. وقد عُدّت الحالة الحالمة الناتجة عن تعاطي تلك النباتات المخدرة أوقاتاً ثمينة تواصلوا خلالها تواصلاً مباشراً مع الآلهة، ذكوراً وإناثاً، والتي دخلت إلى الوعي البشري خلال تلك الأوقات. كما ساد اعتقاد بأن النبلاء يصبحون أقوى وأكثر فعالية في القيام بواجباتهم العامة عندما يأكلون البِيّوت والكاكاو والفطر أو لحوم البشر. وتلك كانت ميزة خاصة بطبقة النبلاء، لكن من الجدير بالذكر أن الهدف الرئيس من وراء استهلاك تلك المواد المخدرة هو مساعدتهم على تحمل مسؤولياتهم بكفاءة أكبر. وبالإضافة إلى ذلك كله، كان النبيل الحائز أكبر

(1) البِيّوت peyote: الضرب من الصبار الأمريكي محتو على مادة مخدرة.

قدر من المسؤولية القيادية هو الحاكم المطلق، والذي تحفل حياته بأكملها بالامتيازات والتقدير الكبير.

التلاتوآني: المهام.. التتويج.. السلطة

نستطيع تكوين صورة أوضح عن نفوذ وسلطة حاكم أزتي مثل موتيكوزوما اكسوكويوتزين، التلاتوآني الذي حيّا كورتيز، عبر دراسة طقوس التتويج العظيمة التي علّمته وكل من شهد الحفل مكانته في العالم. وقد انطوى حفلُ تتويج الحاكم الجديد على خفض مستواه الاجتماعي وتبعه بعد ذلك رفع مكانتهِ الاجتماعية. في بداية الأمر، جُرِّد الحاكم المقبل من ملابسه الخاصة بالنبلاء، وأُلْبِسَ مئزراً عادياً، وأُخِذَ إلى قاعدة هرم هويتزيلوبوشتلي. وقد رافقه في تلك الرحلة نبلاء. وقد اقتاده حاكما (تلالوك) مدينتين حليفتين، وهما تيزكوكو وتاكوبا، فوق درجات المعبد. وفي ذلك المكان، طُلِيَ بلون أسود على أيدي كبار الكهنة ثم ألبس سترة خضراء دون أكمام، وحمل ثمرة يقطين وتبغاً وحقيبة من بخور قطني أخضر مزينة بعظام. ومن ثم أخذه الكهنة أو «خدم الآلهة» كي يمثل أمام تمثال هويتزيلوبوشتلي، حيث عطره بالبخور. وقد ورد في نص قديم وصف لحفل التتويج الذي يعكس فكرة الهرم الاجتماعي. جاء في النص «وقف جميع أبناء الطبقة العامة ونظروا إليه، وعزفت الأبواق ونفخ في الأبواق المحارية». ثم قاده أربعة نبلاء ارتدوا ملابس مشابهة، وغطوا وجوههم بأقنعة، ووضعوا على أكتافهم كابات الصيام وأشكال وتصاميم عظام، واقتادوه على درجات السلم نزولاً نحو «بيت الصوم» وكان عبارة عن مقر قيادة عسكرية. وفي ذلك المكان، أمضى النبلاء والحاكم المقبل أربعة أيام من الصوم والتكفير عن الذنوب. وفي كل يوم، كانوا يصعدون في صمت معبد هويتزيلوبوشتلي لتقديم القرابين الذاتية، ولإحداث جروح نازفة في أجسادهم من أجل تغذية الآلهة. كما اغتسلوا يومياً بغية تطهير أنفسهم. وفي اليوم الخامس، عاد الحاكم إلى قصره الملكي بمرافقة حراسه، ورجع النبلاء إلى بيوتهم. وأعلن التلاتوآني عن مأدبة ملكية دعا إليها حكام جميع المناطق، بمن فيهم الحكام الأعداء. وقد لبى الدعوة الجميع، وجاؤوا لتلقي الهدايا والأغذية،

وللرقص وللسير في موكب النبلاء الأزتك.

وفي هذه المرحلة الأولية من حفل التتويج، نرى كيف يطلع الحاكم على مكانه في العالم. إنه يؤخذ خارج المجتمع، ويخضع إلى عملية تحوّلٍ سحري قبل أن يدخل من جديد إلى المجتمع ليستهل المرحلة الثانية من التتويج. إنه يُجرّد من ثيابه ويُطلى بلون الكهانة، ويتحول إلى خادم للإله هويتزيلوبوشتلي، ويقوم بتغذيته بالبخور، كما يُعرض على العامة من مكان عالٍ، ثم يؤخذ نزولاً نحو دير عسكري، حيث يجلس للتأمل قبل أن يصعد إلى الهرم أربع مرات لتقديم الدماء وتطهير نفسه. وهكذا حظي الحاكم بمكانة مقدسة بعدما تحول إلى إنسان مقدس يعلو بقية البشر، وهو أعظم منهم ومختلف عنهم، لكنه موجود بينهم كما يجري أثناء المأدبة. لكن، ضمن تلك المأدبة، يعلن عن نفسه حاكماً لجميع أرجاء العالم. ويُفترض بجميع النبلاء أن يأتوا لتلقي هداياه ومأكولاته، ولمشاركته رقصاته واحتفالاته.

وقد بدأت المرحلة الثانية من حفل التتويج عند ظهور تلاتوآني مدينة تينوشتيتلان، والذي غدا أكثر من مجرد رجل، وهو يتقدم حاكم مدينة تيزكوكو. ويعود سبب ذلك لأنه لا يحق سوى لملك مقدس آخر أن يتوج ملكاً مقدساً. ويوضع على رأس الحاكم الجديد تاجٌ من ذهب وأحجار خضراء، وقد ثقب أنفه وزرعت فيه زمردة. وفي ذلك الوقت، يُقاد الملك نحو «مقعد الصقر»، حيث يجلس ليستمع إلى سلسلة من الخطب الإرشادية حول مهامه ومسؤولياته الجديدة. وتروي لنا عينات من تلك الخطب أشياءً مدهشة عن كيفية تقدير الأزتك لحكامهم واعتمادهم عليهم.

في البداية نسمع استعارات رفيعة «أيها السيد، الحاكم، الإنسان القدير، الثمين، حجرة خضراء نفيسة، أيها العقد والريشة الثمينة، أنت حاضر بيننا». ثم تأتي الإشارة إلى السلالة المقدسة «في الواقع رحل أسلافك، أجدادك العظماء ليرتاحوا». ثم يرد التركيز على ثقل مسؤولية القيادة «غادروا المكان وتركوا الحمل الثقيل، ثِقَلَ حُكْمٍ لا يطاق ولا يحتمل».

وهكذا يبقى أولئك المواطنون الثقيلو الوزن من دون حاكم، وتظل المدينة مظلمة ومهجورة حتى تحين هذه اللحظة، عندما «يحث سيدنا، سيد القريب والداني الشمس

على إرسال أشعتها وبزوغ الفجر. إنه أنت الذي اختارته الآلهة وأشارت إليه وسجل اسمه في الكتب».

ويعني هذا الاختيار، أن الملك الجديد سيحمل مسؤوليات جمة. لأنه «سيحمل الثقل»: «ستحمل الحزمة وثقلاً تركه أسلافك على ظهرك وعلى حجرك. وبين ذراعي سيدنا سيجلس أبناء الرعية والأتباع والعامة والقلّب والمتذمرون».

إننا نرى هذا التمييز الواضح بين الماسيوالتين والبيبتلين. فقد حذّر الحاكم الجديد من مشكلات ومعوقات قادمة: «ستقع في عهدك خلافات وقتال في المدينة. وقد تفقد احترامك وتقديرك. كما ستواجهك حروب». لكن الحاكم يلاقي التشجيع على مواجهة جميع تلك المصاعب، لأنه الصورة الحية الحاضرة للإله المسيطر على جميع الأشياء. «استجمع قواك، وابذل أقصى طاقاتك واستعن بروحك. وتنهّد واحزن، ونادي من أعماق حزنك إله القريب والداني. ولا تكن مغفلاً ولا تتكلم بسرعة، ولا تقاطع أحداً ولا تشتم. أنصت وفكّر حتى تصل إلى الحقيقة، لأنه قيل، وهذه حقيقة، إنك البديل، وإنك صورةٌ لإله القريب والداني».

ولأنه صورة حية للإله القريب من جميع الكائنات الحية، فإن مهمة الحاكم الرئيسة تتركز في تأمين النظام والترتيب والموقع المناسب كي يواصل الأزتك طريقهم في الحياة في مواجهة أخطار حقيقية.

كما وردت في نص آخر الإرشادات التالية: «وتحيط بنا الوديان السحيقة من كل جانب، من أمامنا ومن خلفنا، وعلى يسارنا وعلى يميننا. لا تغضب بشدة واضبط أعصابك. واعمل على إسعاد رجالك النبلاء وجمعهم وتوحيدهم وإدخال الفرح والسرور على قلوبهم. واعمل على تحقيق السعادة والهناءة لسكان المدينة. وضع كل شخص في مكانه المناسب، ووطّد دعائم ملكك وطريقك في الحياة»(75).

وبعد الانتهاء من إلقاء تلك الخطب، ينقل الحاكم الجديد إلى عرشي الصقر والأسْلوت (نمر أمريكي) حيث يُعطى مخلب نمر كي يثقب بواسطته، بين الحين والآخر، أذنيه وساقيه. وفي تلك اللحظة، يصعد مرة ثانية فوق درج معبد هويتزيلوبوشتلي، إله الشمس والحرب. ومن ثم يؤخذ إلى كوآتيكوآلي، بيت الآلهة الخارجية، حيث تُقام

طقوس أخرى. وفي تلك اللحظة يقوم الحاكم الجديد بزيارة المعبد الذي يضم تماثيل الآلهة وشعوب أخرى هزمها الأزتك، وحمل تماثيلها كهنة الأزتك من أرض العدو إلى العاصمة لسجنها رمزياً. وبمعنى آخر، يقوم الحاكم بزيارة أفقية شاملة للجهات الأربع، ولأراضي تم غزوها اجتماعياً ودينياً، وقد تكاملت حالياً داخل «بيت الآلهة الخارجية». وبعد ذلك يؤخذ الحاكم الجديد إلى معبد كهف يوبيكو، حيث يتواصل مع آلهة الأرض. وفي هذه اللحظة، ينزل رمزياً نحو الأرض، حيث يقدم الدماء وطائر السُّمان والبخور.

وفي أعقاب تلك الرحلة الرمزية لمناطق علوية وسفلية وإلى الجهات الأربع، يُعاد الحاكم إلى القصر، حيث يستمع إلى خطب أخرى يلقيها حكام ونبلاء آخرون. وفي تلك الخطب يتم تذكيره بنسبه الذي يعود إلى كويتزالكوآتل وتيزكاتليبوكا وهويتزيلوبوشتلي. ومن ثم، وفي أول تعبير عن كرمه، يوزع الهدايا على الأصدقاء والحلفاء، وفي تلك اللحظة الحاسمة لتدشين عهده، تحتل الهدايا التي يقدمها إلى محاربين جاؤوا لأجله أهمية خاصة. فقد قيل عن التلاتوآني الجديد «عُرف الحاكم بأنه سيد الرجال. وقد تولى مسؤولية إدارة الحروب وإعلانها والإشراف عليها أو وقفها»(76).

وفي حقيقة الأمر، وجب على كل حاكم جديد شنّ حرب غازية كأول عمل يستهل به عهده. ومن دون شنّ حرب ناجحة ينتج عنها ضحايا قربانية وأتاوات مدفوعة، فإن شرعيته كحاكم تصبح موضع شك. ونتيجة لذلك، شكّل المحاربون حجر أساس لرسم «طريقه في الحياة» وتنظيمه للأشياء. وسنركز فيما يلي على طبقة المحاربين وإنجازاتهم ورتبهم وتقاليدهم ومعارفهم.

اليغور[1] والصقور: محاربو الإمبراطورية

عند شرح فكرة العثور على المكان المناسب في المجتمع الأزتكي، ليس أوضح من الإشارة إلى رتب طبقة المحاربين وإنجازاتهم. وتظهر الوثائق الباقية، مرة بعد مرة، دور

(1) اليغور Jaguar: نمر أمريكي استوائي مرقّط.



تمثال من التراكوتا (الطين النضيج) لمحارب صقر عثر عليه في موقع المعبد الكبير(بتصريح من سلفادور جويلليم آرروبو، المعهد الوطني لتاريخ علم الإنسان).

المحاربين الأساس في المحافظة على الحياة الاجتماعية وتجديدها، وأنهم نالوا الرتب والامتيازات تبعاً لإنجازاتهم الحربية. وقد تأكدت الأهمية البالغة للمحاربين خلال الحفريات الأخيرة في المعبد الأزتكي الكبير في وسط مدينة مكسيكو سيتي. فقد اكتشف خبراء الآثار، وفي منطقة ملاصقة للمعبد الكبير، مجمعاً سكنياً يضم سلسلة من الحجرات المزينة بلوحات جدارية ومفروشة بمقاعد طويلة تعلوها نقوش تظهر مواكب لمحاربين، إلى جانب هدايا قيّمة عثر عليها فوق أرضيات الغرف. وإلى جانب أحد المداخل، وجدت تماثيل بحجم الإنسان لـ «صقر محارب» تظهر كائنات بشرية مغلفة بأغطية لرأس الصقر ومزينة بجصّ يمثل ريش صقر. وقد أدى وجود تماثيل لصقر محارب ونقوش لمواكب من المحاربين لجعل علماء الآثار يطلقون على المجمع اسم «فناء المحاربين»، ويشهد وجود هذا المجمع الخاص بالمحاربين، وهو ملاصق للمعبد العظيم، على المكانة المقدسة للمحاربين والحروب. وعندما نتذكر أن أحد أهم معبدين في المدينة بأكملها كُرّس لإله الحرب هويتزيلوبوشتلي، والذي قاد الأزتك نحو منطقة البحيرات في القرن الرابع عشر، تتضح أمامنا مكانة المحاربين الكبرى والمقدسة.

ويتوافر لدينا عدد من روايات شهود عيان إسبان تصف محاربين أزتك في المعارك، ومنها رواية مدهشة حول ضراوة المعركة وآلامها:

«من أجمل المشاهد في العالم أن تراهم في صفوف الجند في المعركة، لأنهم يحافظون على تشكيلتهم الجميلة. ومن بين هؤلاء المقاتلين رجال شجعان يواجهون الموت بتصميم منقطع النظير. وقد رأيت أحدهم يدافع عن نفسه بشجاعة في مواجهة حصانين جامحين، وآخر ضد ثلاثة وأربعة خيّالة. وعندما أخفق الخيالة الإسبان في قتله، رمى أحد الخيالة رمحه في حركة يائسة، فأمسك به الهندي وهو يلوح بالهواء، وقاتل بواسطته لأكثر من ساعة إلى أن تقدم جنديان من المشاة وجرحوه بواسطة سهمين أو ثلاثة أسهم. وقد استدار نحو أحد الجنديين، لكن الآخر أمسكه من ظهره وطعنه. كما أن المحاربين الأزتك غنوا ورقصوا أثناء القتال، وأطلقوا في بعض الأوقات أعلى الصيحات والصفير الذي يمكن تخيله، وخاصة إن علموا أنهم متفوقون

في المعركة. وكان كل من يواجههم للمرة الأولى يصاب بالرعب من شدة صياحهم وضراوتهم»(77).

ولا يسع المرء إلا أن يعجب بقدرات المحاربين الرياضية، وشدة التزامهم وحماستهم وأدائهم رفيع المستوى. لكن من الجدير ذكره أن تلك الأنواع من الاستعراضات الوحشية والقوية جاءت نتيجة تطبيق نظام دقيق قائم على المكافآت والخطط التكتيكية المحددة وبروتوكول شعائري. كما شُنّت الحروب وخيضت غالباً في مناطق محددة. وقد حظي المحاربون برتب رفيعة وسلسلة من الشارات وأزياء خاصة، وعندما يقتلون يذهبون (في اعتقاد الأزتك) إلى جنة خاصة. وقد أشرف التلاتوآني على هذا النظام بأكمله. وهو الذي يخطط للحروب ويكافئ المحاربين الشجعان بالجوائز، ويعتمد على جنوده في الدفاع عن المدينة.

شنّ الحروب

كان التلاتوآني، بوصفه المحارب الأعظم، مسؤولاً عن شنّ حرب التتويج عقب تنصيبه مباشرة. وكما هي حال جميع الحروب، اضطلع التلا توآني بمهمة وضع استراتيجية المعركة والخطط العسكرية. وقد بدأت تلك الاستراتيجية عند إرسال الجواسيس خارج المدينة لاستكشاف مجتمع الأعداء. وقد طلب من أولئك الكشافة العودة بمعلومات مفصلة على شكل رسوم لسكن آلتيبيتل العدو، وللأراضي المحيطة به ومداخل المدينة. ومن ثم استُدعِيَ قادة الجيش لصياغة خطة هجوم تقوم على توقيت ساعة الهجوم وكيفية تأمين العتاد والمؤن وتنظيم المحاربين. ومن أبرز ملامح هذه المرحلة من الإعداد للمعركة، والتي كانت أشبه بمسرحية تُعرض في مسرح مفتوح، كان العرض العام وتقديم هدايا ثمينة وملونة من ريش طائر الكتزل وصور ذهبية وتروس قيمة. كما مُنح المحاربون بزّات نظامية تبعاً لإنجازاتهم في معارك سابقة. وكما سنرى لاحقاً، غالباً ما كانت تلك البزات مزخرفة ولعبت دوراً كبيراً في سلسلة الرتب العسكرية. كما أرسل التلاتوآني مبعوثين إلى حكام حلفاء لحشد التأييد والدعم لمعركته. وقد حمل المبعوثون معهم الهدايا أيضاً.

وقد وصلنا نص يصف بناء تحالف نفسي ومادي بين الحاكم ومقاتليه وحلفائه «عند الإعداد للمعركة يقوم الحاكم بتقديم الشارات (الثمينة) وإلباس جميع الأمراء الذين أثبتوا جدارة في الحروب، والمقاتلين الشجعان، والمحاربين المؤقتين والمجردين من أسلحتهم، والأوتومي والنبلاء الذين أقاموا في بيوت الشباب.

وبعد أن ينتهي الحاكم من إلباس المحاربين الشجعان، يأمر كبار الخدم في قصره بحمل السلع والمعدات الثمينة وأغطية الكتف الفاخرة إلى ساحة المعركة، حيث يهب ويمنح امتيازاته إلى جميع الحكام والنبلاء والمحاربين الشجعان. فقد أهداهم أغطية للكتف فاخرة ومنحهم شارات ثمينة(78).

وقد طُبع القتال بطابع ديني وشعور بالقوة والعنفوان. وقد تسلم كهنة أطلق عليهم «أسياد الشمس» مسؤولية إدارة الحرب. حمل «خدم الآلهة.... أولئك الكهنة الآلهة على ظهورهم» (يعني أنهم حملوا معهم صوراً للآلهة).

وقد استبقوا زحف المحاربين ووصلوا إلى تخوم ساحة المعركة قبلهم بمسيرة يوم واحد من أجل استحضار القوى السحرية لتقف في صف تينوشتيتلان. وقد ألهب وجودهم حماسة المقاتلين، وساعدهم في تركيز انتباههم على المعركة المقبلة، ومنحهم القوة والشجاعة لشن الهجوم.

وكان من الممكن لتلك المواكب الزاحفة أن تكون عبارة عن مناورات تكتيكية معقدة يشارك بها آلاف المحاربين من مراتب متفاوتة في الخبرة القتالية، فضلاً عن فتية حملوا كميات من الأغذية ومعدات حماية وأدوية. وعند وصول القوات إلى منطقة الهجوم، يتولى القادة العسكريون زمام القيادة، وينظمون المحاربين وفق نظام حربي صارم. وإن استولى الخوف على بعض الأغرار (لم يكن ذلك أمراً غير عادي) كانوا يُضربونَ بقسوة، ويُعدمونَ أحياناً في المكان. «لم يُسْمح لأحد بخرق الصفوف أو بشق طريقه بين الآخرين، وإن حدث ذلك، فإن القادة يقتلون أو يضربون كل من يسبب الفوضى والاضطراب بين باقي العسكريين»(79).



رسم لمعركة دارت بين محاربين من تينوشتيتلان وتلاتيلولكو (مخطوطة دييجو دوران. مدينة مكسيكو سيتي: آررينادادورا انترناسيونال 1990، نسخة فاكسيميلي).

وقد وصفت لحظات التوتر عند شنّ الهجوم على النحو التالي: «عندما يكتمل استعدادهم للهجوم على المدينة لتدميرها، كانوا ينتظرون اللحظة المناسبة وقت اندلاع النار ـ عندما يشعل الكهنة ناراً جديدة. وعند فرقعة الأبواق الصدفية ينفخها الكهنة. كما تُعَدُّ لحظة اشتعال النار بمثابة صوت يوقظ جميع المحاربين. وتعلو صيحات الحرب ويعلن الهجوم، ويطلقون سهاماً نارية على المعابد»(80).

وقد اتسمت المعارك بالضراوة والضجيج وصخب جسدي خطير. فقد توجهت أهداف المعركة إلى القتل والأسر. وكان أول محارب يتم أسره يقتل في المكان، ويُشق صدره بواسطة سكين حادة. وكان المحاربون يتقدمون في مجموعات وعلى شكل أزواج من أجل السيطرة على الأغرار، والوصول إلى المقاتلين الأكثر خبرة ومهاجمتهم وأسرهم إن أمكن ذلك. وكما سنرى لاحقاً، كان أسر محاربين من صفوف العدو، خاصة إن كانوا من مرتبة رفيعة، خطوة مهمة لرفع مكانة المحارب في المجتمع. وحال الاستيلاء على المدينة وحرق المعابد الرئيسة، يَتِمُّ إجراء إحصاء فوري لعدد الأسرى وقتلى الأزتك أيضاً. وسرعان ما يُعلم التلاتوآني بعدد القتلى من جنوده وعدد الأسرى. ويرسل العداؤون، على الفور، إلى تينوشتيتلان «من أجل إعلام جميع

أصحاب البيوت التي أرسل أحد أبنائها ليقتل في ساحة المعركة، باحتمال ذرف دموع على من قَضَوْا في الحرب، كما يخبرون من يقيم في بيوت من مَضَوْا لأسر مقاتلين، بأنهم نالوا امتيازات جراء بسالتهم(81).

وكما قبل المعركة، تُمنح المكافآت إلى المقاتلين الشجعان، ومن ضمنها أغطية كتف قيمة وأغذية، وشوكولا وحليّ للأذن والشفاه، وغيرها من الأشياء الملونة. كما ينال النبلاء، خاصة إن اقتادوا أسرى، أثمن الهدايا في صورة «ألقاب مشرفة وشهرة» فضلاً عن الترقيات. وأما الذين «أخطأوا في ساحة المعركة، فيعدمون في المكان عن طريق رجمهم بالحجارة، أو ضربهم حتى الموت».

وفي بعض الأوقات تثور نزاعات بين المقاتلين المنتصرين بشأن من سيطر فعلياً على أحد الأعداء، وتمكن من أسره. ويقوم ضابط معيّن يحمل لقب «سيد الأسرى»، ويكون قد نجح في أسر ما لا يقل عن أربعة محاربين في المعركة، بالاستماع إلى القضية ويحكم بها. وفي الحالات شديدة الغموض، ينقل الأسير إلى ساحة مفتوحة في المدينة، حيث يقدم قرباناً.

وكان أهم تنظيم طويل الأجل يتعلق بقرار يحدد نوعيات الأتاوات ومقاديرها، التي يتوجب على المدينة المهزومة دفعها إلى العاصمة والحاكم. وقد شملت تلك الأتاوات الذرة والريش والتروس، والكاكاو وأغطية الكتف وأحجاراً خضراء، وجلود النمر الأمريكي (اليغور) وجميع أنواع السلع الثمينة. وقد عيّن ضابط أزتي لتحصيل الأتاوات من سكان المدينة المهزومة، وإرسالها إلى العاصمة وفقاً لجدول صارم.

النساء والحروب

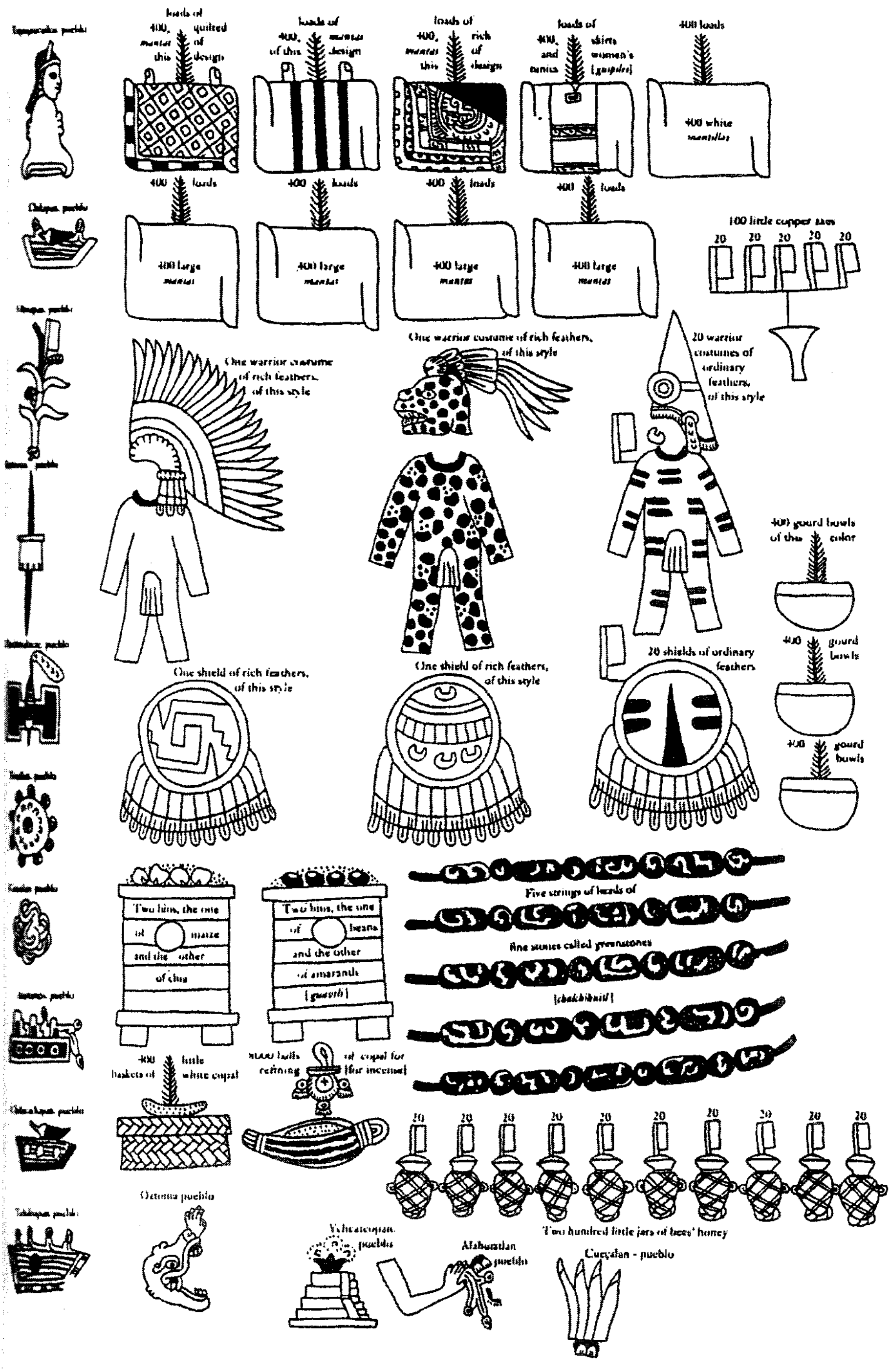
رغم أن النساء لعبن أدواراً ثانوية، في الحروب، فقد تأثرت حياتهن بدرجة كبيرة بنتائجها وسماتها. ورغم ندرة عدد النساء المحاربات، إلا أنهن، عند الضرورة، يدافعن عن أسرهن وبيوتهن ورجالهن إلى درجة التضحية بأرواحهن. ويتوافر وصف حي لنساء قاتلن محاربات عندما تعرَّضَ مجتمعهن لخطر بليغ. يقدم لنا دييجو دوران، وهو أحد كهنة الدومينيكان الذي أجرى دراسة فور غزو تينوشتيتلان، الرواية التالية حول

نساء عملن محاربات. فقد كان الأزتك، إبان الحصار الإسباني للعاصمة تينوشتيتلان، في موقف دفاعي.

كتب دوران: «في ذلك الوقت، افتقد كواتيموك (الصقر الغواص) تلاتوآني الأزتك للرجال والقوة للدفاع عن نفسه والمدينة. ولكن، رغم شعوره بغضب شديد جراء مقتل عدد كبير من أبناء شعبه، وانصراف عدة حلفاء عنه، وهروبهم من المدينة، فضلاً عن معاناة السكان من جوع شديد، فقد قرر عدم إظهار الضعف أو الجبن. كما تظاهر بأنه لا يفتقر إلى المحاربين المدافعين عنه. ونتيجة لذلك، أمر جميع النسوة للصعود إلى أسطح منازلهن، حيث صنعن إشارات تنم عن استهزاء بالإسبان وسخرية منهم. وعندما رأى كورتيز أعداداً كبيرة من الأشخاص ينتشرون فوق أسطح المنازل وشوارع المدينة، استبدّ به الخوف، وخشي من عجزه عن غزو المكسيك حتى لا يصاب الإسبان وحلفاؤهم بأذى بالغ. لكن كورتيز حثّ الشالكان والتيزكوكانيون على التحلي بالشجاعة وإنهاء المعركة. وهكذا استأنف جميع الرجال القتال. وفي ذلك الوقت، أدركوا أن المحاربين الذين انتشروا على الأسطح كانوا نسوة. وسرعان ما أبلغوا كورتيز بالأمر فسخر من عدوه، وشنّ هجوماً وقتل عدداً كبيراً من النساء. وفي نهاية الأمر، هزم الإسبان الأزتك، لكن، بمساعدة حلفائهم الهنود، وهرب الملك الشجاع كواتيموك(82).

ولا شك في أن مشاركة النساء في تلك المعركة لم تكن الأولى من نوعها. فقد استعين بالنساء وسيلة دفاع أخيرة عن المجتمع المعرض لهجوم قاتل. وتتوافر عدة مصادر تشير إلى مشاركة النساء بفعالية في المعارك. لكن الأثر الأكبر على النساء كان في مواجهة حالة (الترمل)، أي الحرمان الدائم من الأزواج جراء الحروب.

كما تشير كثرة طقوس الجنائز التي أقامها الآلتيبيتل للمحاربين الذين قتلوا في المعركة، أو عند تقديمهم قرابين، إلى أن النساء وأطفالهن أصبحن من دون أزواج



ضرائب دفعت لتينوشتيتلان من قبل عدة قبائل(مخطوطة ميندوزا، بتصريح من فرانسيس إف بيردن وباتريسيا ريف آنوالت)



نساء يدافعن عن مدينتهن (مخطوطة دييجو دوران. مدينة مكسيكو سيتي: آريندادورا انترناسيونال 1990، نسخة فاكسيميلي).

أو آباء لصغارهن. ويروي لنا أحد المصادر أن التلاتوآني جمع المكلومين وخاطب الأرامل بهذه الطريقة:

«ابنتي، لا تسمحي للحزن بأن يسيطر عليك، وأن يقضي على حياتك. لقد جلبنا لك الآهات والدموع حزناً على فقدان أبيك وأمك وملاذك. تحلي بالشجاعة وأظهري حبك لمن لم يموتوا وهُمْ يحرثون الأرض أو يحفرون في الحقول، ولمن لم يموتوا على الطريق وهم في رحلة تجارية، لكنهم قَضَوْا دفاعاً عن شرف وطننا. وقد ذهبوا وهم ممسكون بأيدي بعضهم بعضاً، وهم الآن ينعمون بالعيش في الشمس المنيرة، حيث يمشون في صحبتها متزينين بنورها... ولهذا كله ابكين (لذكراهم) أيتها النساء الأزتكيات الشهيرات المتميزات»(83).

وهكذا حملت النسوة، واللاتي أصبحن متميّزات بفقدهن الزوج أو الابن،

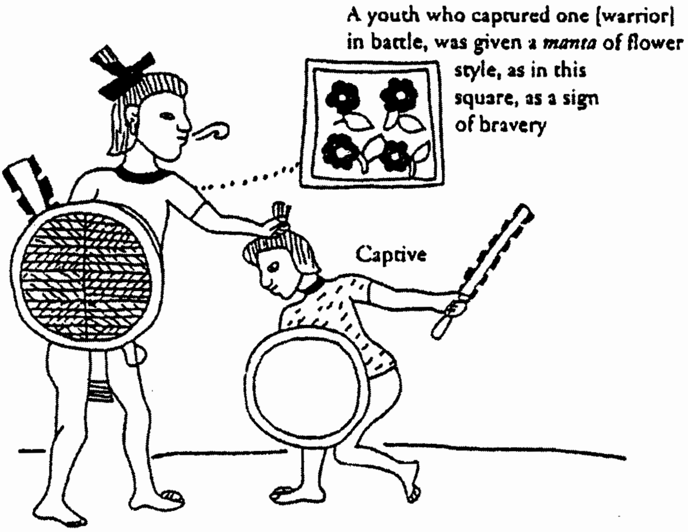
عباءات أزواجهن وسرن في موكب مهيب. كما أسدلت الأرامل شعورهن علامة على الحزن، وصفقن بأيديهن بالتناغم مع قرع الطبول. وقد أخذن في البكاء بحرقة، ورقصن في بعض الأوقات وهن مطرقات الرؤوس، وفي أوقات أخرى رقصن وهن مائلات إلى الخلف. كما شارك، في تلك المواكب أبناء القتلى، وقد لبسوا عباءاتهم، وحملوا فوق ظهورهم صناديق صغيرة تحوي حليّ الشفة والأذن والأنف، وغيرها من المجوهرات. وفي بعض الأحيان، بلغ البكاء والعويل أعلى مداه حتى إن المجتمع بأسره بات يرتعش من شدة الخوف.

كما واجهت النساء تجربة مخيفة أخرى تمثلت في أخذهن أسيرات حرب، وقد ساد ذلك الأسلوب الحربي. فما أن تهزم مدينة أو عاصمة، حتى يسارع الكهنة والمحاربون لأخذ الغنائم وتنظيم دفع الأتاوات. ولطالما شكلت النساء جزءاً من مدفوعات فورية وطويلة الأجل للجماعات المنتصرة. وعندما كان الأزتك منتصرين، عمدوا لأسر نساء وأطفال ومحاربين وتقييدهم بحبال مشدودة عبر ثقوب في أنوفهم. أو، كما جرى عندما هزم الأزتك الهواكستيك «ربط نير خشبي حول حناجر العذراوات الهواكستيك والأطفال وصغار الفتية ممن لم تثقب أنوفهم بعد، وأوثقوا بهذه الطريقة»(84).

وكما جرى في جميع الحروب، غالباً ما تم قتل النساء مع الرجال والأطفال، خاصة عند ظهور مقاومة فعلية ضد الأزتك، أو من قبلهم.

رتب المحاربين وأزيائهم

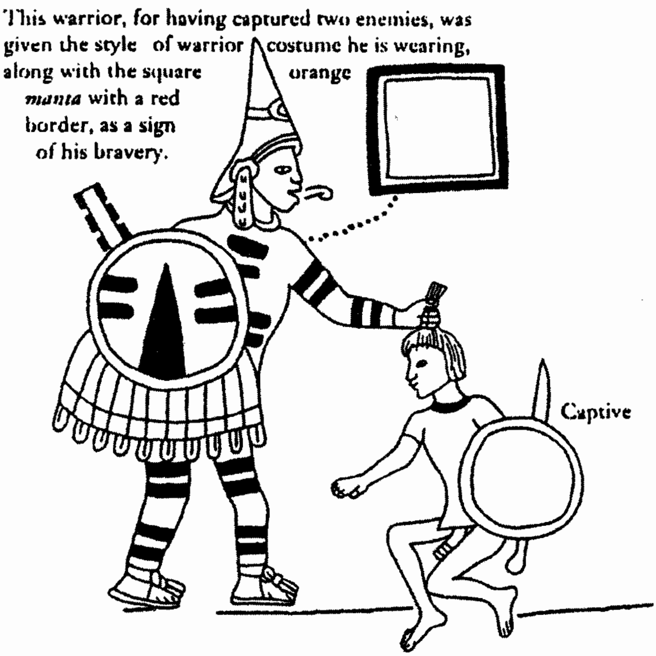
شكل المحاربون من طبقة النبلاء (بيبتلين) والعامة (ماسيهوالتين) دوراً حاسماً في حياة الأزتك وانتصارهم في الحروب. وفي حين اختلف أسلوب التدريب العسكري، إلى حد ما، بين الطبقتين الاجتماعيتين (كما ورد في الفصل السابق، في مدرستي كالميكاك وتيليبوشكالي)، من الصعوبة بمكان معرفة في ما إذا تباينت المكافآت الخاصة بالبسالة والنجاح في ساحات المعارك. وفيما يلي صورة عامة عن رتب ومكافآت تلقاها محاربون في مختلف مستويات التراتبية العسكرية. فمن يحمل لقب محارب



محارب تمكن من أسر محارب (مخطوطة ميندوزا، بتصريح من فرانسيس إف بيردين وباتريسيا ريف آنوالت).

وأسير وحيد، يعني أنه شاب أسر أحد الأعداء دون مساعدة أحد. وكان ذلك المحارب يحمل ماكواويتل، أو عصا فاخرة مصنوعة من خشب البلوط. فقد شقت أخاديد صغيرة على طول جانبي العصا، وأدخل فيها زجاج رخامي أُلصق بواسطة روث سلحفاة. كما منح المحارب شيماللي أو ترساً خالية من تزيينات. فقد عُدّ جلب أسير حرب خير دليل على قيام المحارب بواجبه العسكري على أحسن وجه. وكان يُكافأ بمنحه مانتا أو عباءة مطرزة بالأزهار. كما تلقى غطاءً للكتفين برتقالي اللون بحاشية مقلمة، ومئزراً قرمزي اللون، فضلاً عن غطاء للكتفين طرز بالتصاميم والرسوم على شكل عقرب. وكان ارتداء لباس يحوي رسوماً وتصميمات يضفي قيمة إضافية إلى ملابس شخص ما.

كما حصل كل محارب يأسر أسيرين على حق انتعال صندل في ساحة المعركة، فضلاً عن قبعة مدببة مخروطية الشكل، وزي محارب مكسو بريش مع خطوط سوداء متوازية. ويظهر هذا الزي في معظم الصور الواردة ضمن مخطوطات ميندوزا حول أزياء المحاربين. وفي الواقع، أرسلت أكثر من تسع عشرة مقاطعة من ثقافات مختلفة هذا الزي إلى عاصمة الأزتك كأتاوات مادية.

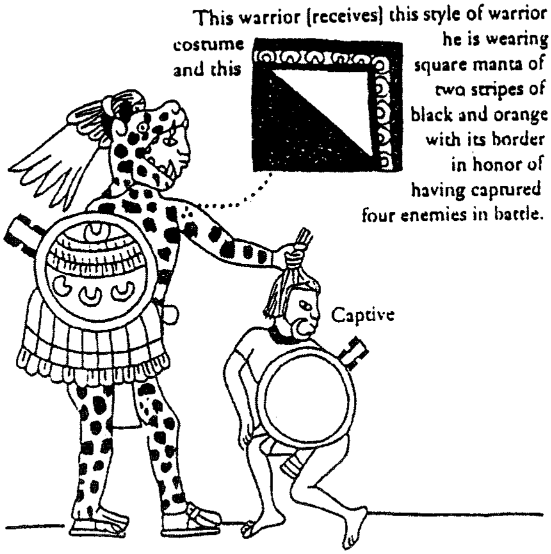


محارب استطاع أسر أسيرين. نقشت ترس المحارب بالرموز، وتدلى ريش من أطرافها (مخطوطة ميندوزا، بتصريح من فرانسيس إف بيردين وباتريسيا ريف آنوالت).

وقد كان زي الأوكيلوتل، أو اليغور (نمر أمريكي)، من أكثر الأزياء إثارة للإعجاب، وكان يُهدى لمحارب تمكن من أسر أربعة أعداء. وقد امتازت النمور (اليغور) بقوتها وأجسادها القصيرة الممتلئة ومهاراتها الفائقة في الصيد والهجوم. وكان ذلك الزيّ عبارة عن جلد أوكيلوتل يلف جسد المحارب، في حين يبرز رأسه من فم الحيوان. وقد شكل الفائزون بذلك الزي وحدة خاصة ضمن الجيش الأزتكي. وقد حظي محاربو اليغور والصقر باحترام وتقدير في جميع أرجاء الإمبراطورية تبعاً لشراستهم وشجاعتهم.

وقد اطلع دييجو دوران، والذي نشأ في مدينة مكسيكو عقب الغزو، على تفاصيل عدة حول أولئك المحاربين والمكانة العظيمة التي نالوها، كتب دوران:

«حظي أولئك الرجال بتقدير الملوك وإعجابهم، ونالوا أرفع الامتيازات والمناصب. وقد منحهم الملوك أثمن الهدايا، وأسبغوا عليهم أجمل الأسلحة والشارات. وعندما

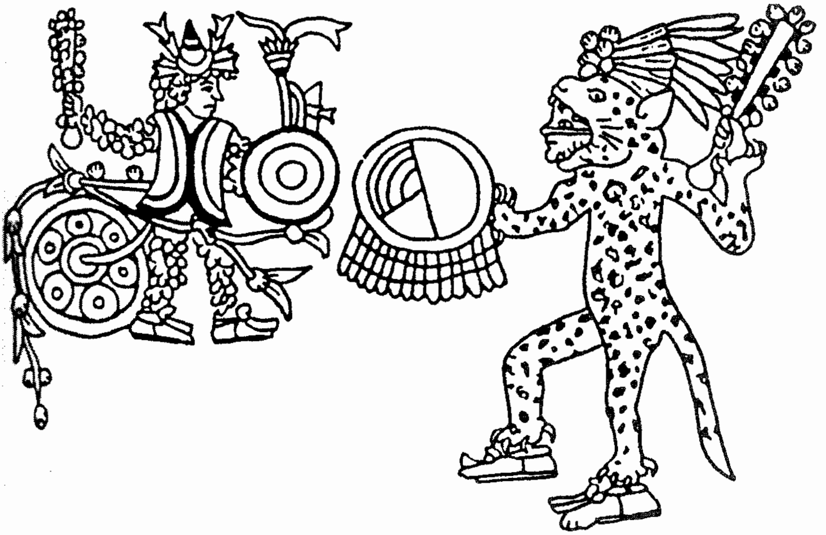


نال هذا المحارب أوسمة وزياً خاصاً تشريفاً له واعترافاً بفضله وبسالته. محارب استطاع أسر أربعة مقاتلين (مخطوطة ميندوزا، بتصريح من فرانسيس إف بيردين وباتريسيا ريف آنوالت).

يحقق أحد أولئك الفرسان بطولة في الحرب، كأن يأسر أو يذبح أحدهم، نال تلك الامتيازات. وحال عودة المحارب إلى القصر، يبلِّغُ الملك بشجاعة ذلك الفارس، فيقوم باستدعائه. وبعدها يثني عليه ويمنحه لقب فارس ويكرمه. وقد جرت العادة على تقسيم شعر أعلى رأسه إلى قسمين يُلف حولهما حبل أحمر. وفي الحبل نفسه، تلصق حلية من ريش بألوان خضراء وزرقاء وحمراء، مع شرابة حمراء»(85).

كما استخدم أولئك المحاربون الشجعان في تقديم القرابين من المقاتلين الأسرى خلال شهر الاحتفال بسلخ جلود الرجال. فقد هاجم أربعة من محاربي اليغور العدو الذي أوثق إلى صخرة قربانية، وظلوا يلوحون بخناجرهم الحادة وعصيهم المملوءة بثقوب من زجاج رخامي، إلى أن يقتل الأسير.

وقد رُقّي المحاربون الفائقو التميز إلى رتب عسكرية رفيعة (جنرالات)، وزُينوا بحلي للشعر مصنوعة من ريش الكتزل، وبحلي للشفة صفراء اللون من الكهرمان. وقد أطلق على أغطية كتف خاصة بهم اسم «جواهر ايهي كاتل» (إله الرياح)، ونالوا

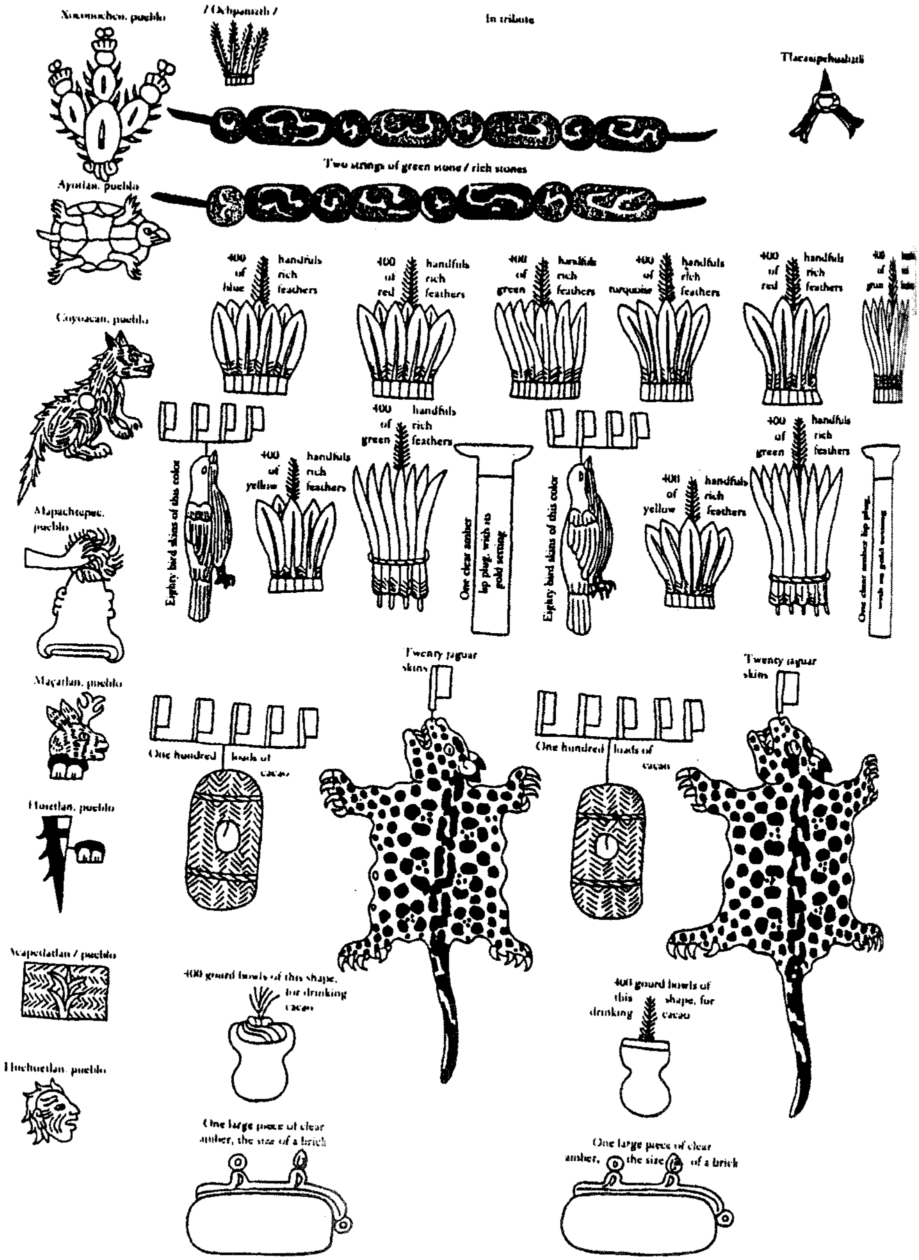


لوحة توضح كيفية تقديم قربان للآلهة. في هذه اللوحة يقوم محارب نمر بمهاجمة أسير حرب ربط بحبل إلى حجر دائري كبير (مخطوطة ماجليابيشيانو، بتصريح من اليزابيث اتش. بون).

ألقاباً مرهبة مثل «راعي مرآة الأفعى» و«حامي وعاء الجوع» و«حامي بيت الرماح» أو «الدم الماطر».

وقد حمى أولئك المحاربون وصانوا الحياة اليومية للأزتك، وقديماً قيل في وصفهم «انتشروا وشكلوا جداراً صنع من رجال بارعين في استخدام الأسلحة». وقد شكلت تلك الأسلحة جداراً حامياً حول المدينة. ولكن ذلك الجدار لم يمتد إلى ساحات المعارك وحسب، بل وصل إلى المتمردين على الأزتك، خاصة من هاجموا التجار الأزتك(86).

وقد حدث ذات يوم، أن هاجم متمردون من مدينة كوآيكستلاهواكان، وهي تقع جنوب تينوشتيتلان في منطقة اواكساكا، وقتلوا مجموعة كبيرة من التجار، بلغ عددهم أكثر من مائة وستين تاجراً أزتكياً كانوا يمارسون عملهم في سوقهم المحلي. وقد رأينا نموذجاً عن رد أزتكي على تلك الاغتيالات، وقد تم تحت قيادة التلاتوآني. فقد شُنّت حرب، وتسلل الجلادون إلى مدينة اوآكساكان، وأُعدم المتمردون. لكن هذه القصة تعرفنا إلى أحد المفاصل الاجتماعية المهمة في الهرم الاجتماعي للآناهواك،



سلع أرسلت إلى عاصمة الأزتك في إطار أتاوات دفعتها مدن أخرى (مخطوطة ميندوزا، بتصريح من فرانسيس إف بيردين وباتريسيا ريف آنوالت).

أي التجار، واسمهم بوشتيكا. وسوف نبحث تالياً في أنشطة ورموز وطرق سلكها كبار تجار تينوشتيتلان بهدف تكوين صورة أشمل حول الإجراءات التي اتخذت للمحافظة على مجتمع الأزتك وصيانته.

صياح الصقر الضاحك: تجار العاصمة

كما رأينا، زُينت مدينة الأزتك وحاكمها وسكانها بمجموعة كبيرة من الأشياء الجذابة والثمينة. وقد ورد عدد من الأشياء القيمة، ومنها المؤن الغذائية وأزياء النساء، وبزات المحاربين والحيوانات المقدسة، من مناطق وأراض بعيدة عن حوض المكسيك. وقد شكلت طبقة البوشتيكا حجر الأساس في عمليات الاستيراد والتصدير عند قبائل المكسيكا. والبوشتيكا هم التجار الذين يسافرون قريباً وبعيداً للاتجار والتجسس وشن الحروب وجلب البضائع. ولذا لا يمكن إغفال شدة المخاطر والصعوبات التي تعترض سبيل أولئك التجار وحملة السلع. فهم يهجرون بيوتهم، ويتجهون نحو مناطق خطرة، ويمرون بجماعات معادية. وهم يسيرون عبر مضائق محفوفة بالمخاطر. ويهبطون فوق هضاب وجبال شديدة الانحدار، ويعبرون أنهاراً غدّارة. كما يعملون وسط مخاوف من احتمال سماع صياح الهواكتلي أو «الصقر الضاحك» والذي عُدَّ ضجيجه إشارة إلى اقتراب أجلهم. فإن ضحك الصقر لمدة قصيرة خلال رحلتهم، اعتبر ذلك فألاً طيباً، وتأكيداً على إتمام الرحلة بنجاح. لكن إن «سمعوا أنه يضحك طويلاً وبصوت مرتفع - وكأن صدره وخاصرته قد تشنجتا، أو أن صياحه مشبعٌ بفرح، شعروا بأن مصيبة ستحل بهم، وأنهم سيواجهون حالة خطرة»(87).

وقد اعتبرت جهودهم بطولية، وعند نجاح مهمتهم جلبوا إلى حاكمهم ومدينتهم، وإلى أنفسهم الثروة والعزة. وقد ورد ضمن مخطوطات ميندوزا وصف للثقافة المادية التي تدفقت على تينوشتيتلان. وكانت تلك الثقافة ثمرة جهود طبقة التجار، والتي حققت فكرة النظرة المكانية إلى العالم. فقد عاش أولئك التجار في منطقة خاصة بهم داخل المدينة، وعبدوا آلهة معينة، وقدموا قرابين خاصة أو سددوا ديوناً من أجل تأكيد أن تبادل السلع بين المناطق الأرضية اعتمد في جزء منه على مبادلات بين الآلهة.

وقد تضافرت الحياة التجارية والتاريخية بدم الحياة عند الماكسيكا. وقد وصف التجار بكونهم الأساس لكل مرحلة تاريخية ترتبط بذكرى كريمة وجليلة عند المجتمع. على سبيل المثال، عندما رُوِي تاريخ الحكام وماضيهم للإسبان، تداخل النمو التجاري مع السرد القصصي. فقد ذكر أسماء كبار التجار إلى جانب الحكام، كما اعتبر النمو التجاري واستيراد سلع جديدة جزءاً مهماً من التاريخ الملكي. وقد نقل لنا، أنه عند بداية النشاط التجاري، اقتصرت المبادلات التجارية على ريش الببغاء الأزرق والأصفر اللون. وخلال عهد الحاكم الثاني، أضيفت إلى قائمة السلع ريش طائري الكتزل والأقطَروس (طائر أمريكي) وأحجار الفيروز، والحجر الأخضر وأغطية الكتفين والمآزر القطنية، والتنورات المصنوعة من ألياف الصبار الأمريكي. وقد شهد الحاكم التالي تجاراً جلبوا إلى المدينة حلياً للشفة وأقراطاً ذهبية، وقلادات من فيروز براقٍ، وجلود حيوانات برية.

كما ارتبط تاريخ التجارة بشكل وثيق مع الغزوات الحربية وتوسع المملكة. فقد عمل التجار جواسيسَ وضباط مخابرات ومحاربين حين اتسع نفوذ الأزتك وازداد اهتمامهم بمنطقة آناواك. كما كان التجار جزءاً من نظام اتصالات حدودي. وقد حظيت السلع التي حملها التجار بأهمية كبيرة وقيمة عالية كقيمة الأسرى. فقد جاؤوا بخوذات مصنوعة من ريش الكتزل وقمصان من ريش أزرق، وتروس مزينة بفسيفساء فيروزية، وأطباق ذهبية مخروطية الشكل»(88).

وبهذا المعنى، إنك «تساوي قيمة ما تلبس». وعند تحقيق نصر في الحروب، كانت عملية تقييم الغنائم تتم تحت إشراف التجار. فكانوا يدخلون المدن المهزومة ويقيّمون السلع والمؤن والقدرات الإنتاجية لسكان المنطقة من أجل فرض الأتاوات المناسبة. وكان أولئك التجار «طليعة الجيش» يدخلون المدن ويعلنون «جئنا بحثاً عن الأراضي لضمها إلى ملك سيدنا، المعجزة، هويتزيلوبوشتلي. انظروا إلى الغنائم التي استَحْقَقْناها عن جدارة، والتي ستبدو جوائز على صدورنا ورؤوسنا. وعندما نصل إلى المكسيك، سنحمل معنا حلي شفاه من الكهرمان وقلادات خضراء معقوفة مزينة بأجراس وهراوات سوداء، ومراوح مزينة بريش الغوان «طائر أمريكي شبيه بالديك

الرومي»(89).

وفي حقيقة الأمر، بذل التلاتوآني آهويتزوتل جهوداً كبيرة لإنشاء نظام اتصال فعال مع التجار العائدين لضمان وصول غنائم الحرب بسرعة إلى سوقه الملكي. وبهذه النتيجة، يحقق فائدة من تلك الغنائم ويعيد توزيع السلع، ويرجع بعضها إلى التجار العائدين مكافآت على عملهم الشاق الخطر.

وتصف لنا عدد من الخطب البليغة، أو هويهوتيلاتوللي، التي ألقاها كبار السن، حياة التجار وأنشطتهم. كما تصف لنا تلك الأقوال والعظات القديمة ثلاث مراحل من حياة التجار، وهي طقوس المغادرة للقيام برحلات تجارية، وطقوس العودة، وشعائر تقديم العبيد قرابين إلى الآلهة. وتعكس كل مرحلة الفكرة الرئيسة لهذا الفصل، وهي أهمية المكان في الفضاء الاجتماعي والجغرافي. لكننا سنرى أيضاً كيف ارتبطت طقوس الانتقال من مكان إلى آخر، وهي شبيهة بطقوس تم بحثها في الفصل السابق، بفكرة الترتيب الظرفي والمكاني. فقد أولى التجار اهتماماً عميقاً لأي عملية انتقال من المكان. وفي هذا السياق، أقاموا احتفالات كبيرة عند الإعداد للرحلات التجارية بهدف حشد قواهم السحرية. ولدى عودتهم، أقاموا طقوساً لتطهير أنفسهم وللدخول ثانية في عالم المدينة الاجتماعي والمقدس. كما توجب عليهم إجراء مبادلة نهائية مع الآلهة، وذلك لشكرهم على تأمين ونجاح رحلتهم التجارية والتجسسية والحربية.

مغادرة الوطن

«ستغادر المدينة وتنتقل من مدينة إلى أخرى. وستتعرض للأخطار ولن تكون رحلتك سهلة. وسوف تعاني لمدة من الزمن، وستذرف دموعاً... وقد تنام عند مضيق أو واد شديد الانحدار، أو فوق قمة جبل، أو تحت ظل شجرة»(90).

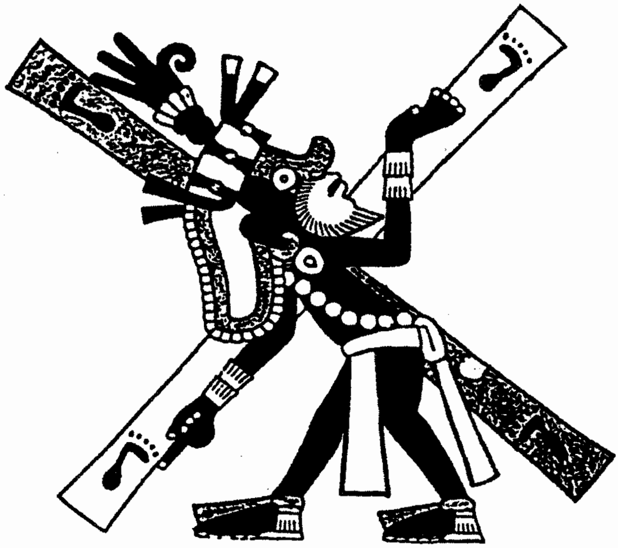
فقد اتسمت حياة التجار بالاحتفالات ومواجهة المصاعب، ثم نيل المكافآت. وكانت مغادرة الوطن آلتيبتل في رحلة تجارية أو مخابراتية، تمثل حدثاً بهيجاً رغم

ما تكتنفه الرحلة من مخاوف. ولم تكن تلك الرحلة لتتم ما لم يشارك التجار في طقوس مطوّلة ويستمعوا إلى خطب بليغة. وكما أشرنا سابقاً، كان على التاجر أن يعيش ويمارس نشاطاته التجارية وفقاً لإشارات التقويم، وأن لا يغادر بيته إلا في يوم ميمون ذي إشارات مطمئنة. وقد شملت تلك الإشارات أفعى 1، وسميت «الطريق المستقيمة»، وكذلك الأيام تمساح 2، قرد 1، أو أفعى 7. وقد أقيم احتفال أمام حشد كبير من الناس، ومأدبة أشرف على إعدادها زعيم التجار أو كبيرهم. وفي الاحتفال، يستمع التجار القدامى والجدد، أي الذين سيخرجون للمرة الأولى من المدينة، إلى نصائح تجار عجائز وآبائهم، وغيرهم من كبار السن الذين خَبِروا التقاليد والأعراف الحكيمة.

وكما قضت العادة، يبدأ الاحتفال بطقس التنظيف، حيث يغسل جميع المسافرين رؤوسهم بالصابون ويقصون شعورهم. ويعلم الجميع بأن المغادرين لن يغسلوا رؤوسهم، ولن يقصوا شعورهم ما لم يعودوا إلى المدينة. فقد طُلِبَ منهم غسل أجسادهم فقط حتى الرقبة طوال مدة الرحلة. كما يعقب طقس التنظيف تزيين عصا التاجر وفق رمز إلههم وصورته. فيقصون أوراقاً بشكل متشعب ويلصقونها بالعصي بواسطة مطاط سائل «رسموا شفاهاً وأنوفاً وعيوناً، فبدت العصي أشبه برجال. وبهذه الطريقة صنعوا صوراً تمثل إله النار»(91).

كما غلفوا عصيَّ وهراوات المسافرين بصور لا تمثل إله النار (إكسيوتيكوتلي) فحسب، بل صوراً لإله الأرض (تلاتلاتيكوتلي)، ومعبود التجار (ياكاتيكوتلي) وغيرهم من الآلهة. وقد اتُّخِذَتْ تلك العصي أو الهراوات مرشدين وحماة للتجار.

وفي ذلك الوقت، يغدو التجار على استعداد للتضحية أو «لسداد الدين» كما وصفوا تلك الحالة. ونحن نذكر أن عالم الأزتك شهد تقديم البشر قرابين أو لسداد دين للآلهة لأنهم ضحوا بأنفسهم من أجل خلق الأرض والسماء والعالم السفلي، وجميع الكائنات الأخرى. وعند منتصف الليل، يضع التجار عصيهم في كومة شعائرية مكرسة إلى الآلهة في ساحة دار، ثم يدخلون بيتاً ويقفون أمام النار من أجل زيادة التونالي عندهم، أي قوة الروح في رؤوسهم. ثم يقطعون رؤوس طائر السمان



ياكاتيكوتلي، معبود التجار(مخطوطة فيجرفاري ـ ماير، بإذن من آكاديميشي وفيراجاساندستالت، جراز، النمسا، نسخة فاكسيميلي 1971).

لتغذية النار، ويمسكون بشفرات من زجاج رخامي ويثقبون آذانهم وألسنتهم وينثرون دماءهم على النار. وبعد ذلك، يرجعون إلى ساحة الدار وينثرون دماءهم باتجاه السماء، ونحو جهات الشرق والغرب والشمال والجنوب. كما تُرشّ قطرات من الدماء على أوراق وجدت في ساحة الدار، ثم تنقل تلك الأوراق إلى داخل الدار وتقدّم إلى النار لمنحها قوة وحياة جديدين. ويخاطب التجار النار بقولهم: «نطلب حمايتك أيها المحارب النمر، سيد النواحي الأربع. آمل أن ترضى عن عبدك وملِكك، عسى ألا أكون قد ارتكبت بالمصادفة، ذنباً صغيراً أثار غضبك».

ثم يفترض بالتاجر أن يحدث نفسه: «كان سيدي إلهنا راضياً عني، وسوف أصل بالتأكيد إلى وجهتي».

يُعد هذا الاحتفال مثالاً واضحاً على الروابط المقدسة التي ربطت التاجر بالآلهة. إنها روابط تبادل مقدسة. فالتاجر يقدم إلى الإله، وهو محارب النواحي الأربع الذي يقيم في وسط البيت والمعبد والكون، وهو يعلم أن الإله سيبادله العطاء فيؤمن له الحماية طوال الرحلة. وكان هناك بالطبع، احتمال تعرض التاجر للخطر. كما أشارت إليه

عبارة «عسى أن لا أكون قد ارتكبت، بالمصادفة، ذنباً صغيراً أثارَ غضبك»(92).

وبعد إقامة شعائر تفصيلية أخرى، كان المساعدون وكبار السن يجتمعون ثانية حول وليمة، وتُلقى خطب أخرى. ويُشجّع التجار المسافرون على مواجهة مخاطر الطريق بشجاعة، ومواجهة الموت، إن حضر، ببسالة، وليتذكروا أن الموت على الطريق شبيه بموت المحارب في المعركة. وذلك يعني أنهم سيجازَوْنَ بحياة آخرة رائعة في بيت الشمس. وتتكرّر مطالبتهم بالعمل معاً كمجموعة شديدة التماسك، وتلاوة الصلوات والحفاظ على أماكنهم. وكان ذلك يعني أن يراقب التجار الأكبر سناً التجار الأغرار، والذين أُمِروا بخدمة من هم أكبر سناً طوال الرحلة. كما يتم التركيز على زعيم التجار، والذي يجلس ويستمع ويتفاعل مع دعم أسرته العاطفي، ويفكر بمسؤوليته الكبيرة تجاه رفاقه التجار. وينهي زعيم التجار الاحتفال بقوله «سنودعكم الآن. وسنبدأ رحلتنا. وقد استمعنا لنصائحكم ورأينا دموعكم، ولمسنا تعاطفكم النابع من قلوبكم وصدوركم. وسوف نبتعد عن بيوتنا، ونأمل أن لا تنسونا أيها الأهل والأخوات والعمات والخالات»(93).

وفي حقيقة الأمر، لطالما اتسمت حفلات الوداع بالآلام والأحزان والمخاوف والبكاء التي يصلي فيها أفراد الأسر وينشدون ويبكون ناصحين التجار بتوخي الحذر.

وكما ورد سابقاً، اكتنفت حياة ومهنة التجار، وتنقلهم من مكان لآخر، مخاطر جمة. فإلى جانب الخوف من الحوادث وصياح الصقر الضاحك، واجه التجار الكمائن والسجن والتعذيب، وتقديمهم كقرابين إلى الآلهة. ولذا وجب عليهم التماسك والتلاصق معاً من أجل شحذ الهمم واستقطاب النشاط والحماسة من القوى السحرية لِعِصِيِّ المسير، ومن الآلهة والدماء القوية في عروقهم. وقد يعطينا النص التالي فكرة عامة عن حال التجار أثناء رحلتهم الطويلة، فقد انتاب مجموعة من التجار خوف شديد كاد أن يقضي عليهم بسبب نذير شؤم، ورؤيتهم أشباح أعداءٍ وسط الظلال، ومخاوف لا حد لها من عتمة الليل.

جاء في النص: «وعند حلول الظلام، كانوا يتجمعون ويتقاربون

ويجلسون عند جذع شجرة أو عند فتحة مضيق، وقد التصقوا ببعضهم بعضاً. وكان من عادة التجار، في تلك الحالة ـ أن يضعوا عصيهم على الأرض، والتي مثلت إلههم ياكاتيكوتلي. وفي ذلك المكان، كانوا يعاقبون أنفسهم تكفيراً عن خطيئة، ويجرحون آذانهم كي تنزف، ويدخلون فيها عيداناً من القش كي لا يستسلموا لما يحل بهم. وعندما لا يصيبهم شيّء، فإن قلوبهم تمتلئ من جديد بشيء من الشجاعة، ويرفعون رؤوسهم وينعشون أرواحهم بعد أن زال الخوف من نفوسهم»(94).

العودة إلى الوطن: غسل الأقدام

عند عودة التجار بعد رحلة شاقة ومفعمة بالأمل بتحقيق أرباح كبيرة، يكرس يومان لإعادة تعريفهم بمكانهم، ووجودهم الثقافي داخل المدينة. ويحفل هذان اليومان بالمآدب وشرب الأنخاب، وسرد الحكايا وإلقاء الخطب. وكان التجار يعودون وهم مشبعون بقوى مبهمة. فمن جانب أول، إن أكملوا مهمتهم بنجاح، نالوا أشياء قيمة ونفيسة كانت في حوزتهم، وتحت رقابتهم وعنايتهم لبعض الوقت. ويمكن للمرء تخيل الإغراءات والأحلام التي تراود التجار عند امتلاكهم لتلك الثروات. ومن جانب آخر، امتلك التجار عند عودتهم شكلاً من النفوذ الخطير لأنهم ابتعدوا فترة من الوقت عن النظام الاجتماعي، وتواصلوا مع حلفاء وخصوم، وتعرضوا القوى سحرية أثناء الرحلة عبر جبال وأودية، فضلاً عن مواجهتهم حيوانات متوحشة. كما يجلب التجار عند عودتهم أخباراً مؤلمة عن الموت على الطريق. فقد وجب عليهم وصف الأخطار والهجمات وأسماء المتوفين أثناء الرحلة. ونتيجة لذلك، يخضع العجائز التجار العائدين لتحقيقات صارمة حول صدقية الرحلة، ووقائع المواجهات والكمائن واللقاءات، والمبادلات التجارية وشدة جهودهم.

وقد نقل لنا، بأن تلك التحقيقات كانت تؤدي لبكاء بعض التجار، لكن يبدو أن تلك الدموع لم تكن أكثر من دموع احتفالية، أي طريقة مدروسة للانخراط مجدداً في

حياة المدينة. كما يبدو أن التجار كانوا حريصين، عند عودتهم، على إظهار التواضع الجمّ، عوضاً عن استعراض ثروتهم الجديدة. وقد نقلت لنا النصوص أن كبار السن «أذلوهم، وذكروهم بوجوب عدم تجاهل أو إهمال آلهتنا»(95).

بعد تناول الأطعمة والمشروبات، تنقل السلع إلى التلاتوآني، حيث يقوم معاونوه بتسجيلها وترتيبها كي تُوّزع وفقاً لرغبات الحاكم. وفي معظم الحالات، ينال التجار مكافآت مجزية.

تسديد الدين: التضحية بشخص آخر

بما أنه سيتم التركيز في فصل لاحق على القرابين البشرية، فليس من الضروري الخوض في أي تفاصيل حول مسؤولية التجار في تقديم «العبيد»، أو ضحايا شريوا كقرابين للآلهة في إطار تسديد الدين لنجاح الحملة التجارية. ويكفي القول إنه بعد التحقيقات، وغسل الأقدام، وتسلّم المكافآت، يتعهد التجار بتقديم ضحايا ابتيعوا لهذا الغرض، في احتفال سمي بطقس «الاغتسال». وقد ابتيع أولئك الضحايا، ذكوراً وإناثاً، في سوق خاص من قبل تجار العبيد. وتُلبس الضحايا أغطية كتف ثمينة وصنادل، وتزيّن بحلي الشفة، وتُقصّ شعورهم وفق طراز قصة المحاربين الموسميين. وبالطريقة نفسها تُزيّن النساء، ويعطين أنابيب من التبغ لامتصاصها وأزهاراً لحملها. كما تقام طقوس خاصة من أجل حمل القرابين داخل حاويات للأرواح، وتشعل نيران الآلهة. وتقام أيضاً مأدبة كبيرة تكريماً لكل من المحاربين والتجار. وكان من أول أهداف ذلك الاحتفال القرباني، توزيع الهدايا الثمينة.

> فتقدّم المآزر وأغطية الكتف الثمينة إلى الزعماء وقادة الجيش والمحاربين الشجعان، وإلى جميع أمراء الأسرة الحاكمة. ولهؤلاء جميعاً، يقدّم القائم على استحمام العبيد الهدايا وفقاً لرغباتهم. ومن ثم يقدم الهدايا إلى كبار التجار ولمن قاموا بغسل العبيد، وإلى جميع التجار المتميزين، والمخبرين منهم الذين اقتحموا ميادين المعارك، وإلى تجار العبيد. ومن ثم تُمنح الهدايا إلى النساء اللاتي يغسّلن

الإماء. وقد يتلقين الهدايا في صورة تنانير تحمل رسوماً لقلوب أو لوالب(96).

وفي نهاية المطاف، قُدِّمَ العبيد قرابين بعد أن ظهروا في صورة آلهة.

الهياكل الخلفية: أشخاص عملوا على دعم الهرم

نذكر أن الأزتك بنوا مجتمعاً مدنياً، ولذا من الضروري التركيز على الرتب العديدة، والطبقات البشرية المتنوعة، والمراكز الاجتماعية والمهن. كما يفترض بنا ذكر العمال الذين دعموا الهرم الاجتماعي بأيديهم وظهورهم، وصانوه بوساطة جهودهم وقدراتهم. وكما هو متوقع، لا تتوافر معلومات مفيدة حول الأشخاص الذين شغلوا النصف الأدنى من الهرم الاجتماعي. لكن من الممكن تقديم لمحات وأوصاف للمزارعين والحجارين، والنجارين والباعة، والعاملين بصناعة الخزف، وباعة الشموع والنساجين. وفي النص التالي نجد صوراً كلامية تصف تلك المجموعات المهمة وأعمالها.

المزارعون الكادحون

قسم المزارعون قسمين ـ المزارعون الصالحون والمزارعون السيئون. وقد امتاز المزارع الصالح بحيويته وقوته البدنية، واهتمامه الشديد بحقوله وبذوره وتربته ومعالم أرضه. كما عرف المزارع الجيد بأنه نحيل كدليل على كدّه لساعات طويلة، وأنه يتناول كميات قليلة من الطعام، ويسهر على عمله. وكان المزارعون هم رجال الأرض المهرة في شق القنوات، وشقّ خطوط زراعية وتقليب التربة، والعمل بجد خاصة في ري النباتات الصيفية ورشها بالماء، وحراثة التربة واستخلاص أنواع الذرة السيئة من الذرة الجيدة، وتوقيت موعد الحصاد.

وكان المزارعون هم رجال الذرة، وبوصفهم رعاة الذرة، فإنهم يدعون لإله الذرة كي يعينهم في عملهم «إنه يقطع كيزان الذرة ويزيل أوراقها، ويقشرها ويهرسها، ويغسلها ويغربلها ويبذرها»(97).

وقد اخْتُصَّ بعض المزارعين بأنواع مختلفة من البذور والأشجار، كما كان بعض المزارعين، خاصة كبارهم، متخصصين في قراءة إشارات الأيام في الكتب المصورة، والتي دلت على مواقيت تجهيز الأرض وزراعتها وريها وحصادها. وقد عرفوا أشياء كثيرة عن حركة النجوم، وكان عليهم مواءمة الإشارات الواردة ضمن الكتب مع الطقس وتبدّل الفصول.

كما وُصف المزارع السيء بأنه «متهرب تعوزه الحماسة، وهو عامل لا ينهي عمله، ومحدث للضجة وتعوزه اللياقة البدنية، مترهل ويأكل بنهم».

النجارون والحجارون

وصف النجار بأنه «شخص يستخدم الفادن، وهو واسع الحيلة... إنه يسوي القطع الخشبية فيجعلها مستقيمة، ويجعل الحواف ملساء ويلمعها ويطابق الحواف على بعضها بعضاً». ومن الواضح أن النجارين كانوا خبراء في وضع الأشياء في أماكنها المناسبة. وقد حظي النجارون المهرة باحترام وتقدير كبيرين، خاصة من قبل النبلاء الذين تطلبت بيوتهم وشرفاتهم وأثاثهم منتجات خشبية متقنة. وفي مقابل ذلك، اتصف النجارون السيئون بإحداثهم الضجيج من حولهم واللامبالاة، وتحطيم القطع الخشبية.

ويعطي وصف مشابه للحجارين بأنهم رجال أقوياء نشيطون، نحيلون ويمتازون بأيد ماهرة. وقد تولى الحجارون مسؤولية اقتلاع الأحجار من المقلع، وتكسيرها إلى حجارة صغيرة وكبيرة وحفرها ببراعة كبيرة، وصنع الأقواس والتماثيل والبيوت وكل شيء منها. كما كان الحجارون مصممي ومخططي أبنية «إنه يبني بيتاً ويرسمه ويضع خططاً عمرانية، وأفكاراً جديدة. وقد اضطلع كبار حجاري الإمبراطورية بمهام دينية كبيرة مثل تشكيل حجر التقويم وغيره من البُنى الفنية الرائعة. وعلى خلاف بنّاء سيء أو فاشل، لم يكن لأولئك الحجارين «ذراع عرجاء ضعيفة».

الحرفيون

من مجموعات الحرفيين الذين أشير إليهم باسم التولتي كاتل، ومعناها «المحافظون على البراعة الفنية التقليدية للتولتيك»، كان صناع السلع الريشية والصاغة، وصانعو الأدوات النحاسية والنقاشون. وقد امتاز المهرة في صناعة المنتجات الريشية، من سكان المنطقة الأصليين، بسعة الخيال وكانوا محل تقدير جميع فئات المجتمع خاصة النبلاء والحكام. وكانوا يصممون من الريش تروساً وأغطية لرؤوس المحاربينَ والنبلاءِ وأسرةِ الحاكم وأكتافهم. كما امتازوا ببراعة اختيار الألوان وتنسيقها.

كما كان الصاغة وصناع الأدوات النحاسية تقنيين بارعين في استخدام أيديهم في صب المعادن السائلة، وتشكيل القوالب وتحويلها إلى آلهة ومجوهرات ورموز قيمة أخرى. ومن خلال النص التالي، نأخذ فكرة واضحة عن مهارة وبراعة العاملين في صناعة النقوش: «إن النقاش صانع للأعمال البديعة. إنه حاذق يدوياً ومصمم للأعمال الفنية. وهو بارع في لصق فسيفساء من الأحجار. إنه يطحن الأحجار ويملسها ويصقلها ويضيف إليها مادة كاشطة. إنه يدعك الأحجار بواسطة عصا ناعمة، ويجعلها لامعة. وهو يلصق قطع الفيروز. وعلى خلاف النقّاش الفاشل، هو لا يكسرها ولا يسحقها ولا يشظّيها»(98).

كما حظي الخياطون والنساجون بتقدير جميع فئات المجتمع، لأنهم كانوا يصنعون ويرتقون ويزينون الثياب المناسبة لجميع المناسبات. وقد عرف الخياط الناجح فن الخياطة والدرْزة، وثني الحواشي والقياس، وصنع الثياب حسب المقاسات الصحيحة. كما امتاز الخياط الماهر بالقدرة على تصميم الملابس وتطريزها وتنسيق الألوان. وكانت مهمة غزل الخيوط حكراً على النساء. وكما رأينا عند وصف تربية البنات بأن هذا الفن كان خاصاً بهن «إن الغزّالة الماهرة هي التي تستطيع صنع خيط رفيع جداً، وهي القادرة على مدّ وسطه برقّة. إنها تضعه في حجْرها وتملأ المغزل وتمد الخيط. إنها مجتهدة وجادة في عملها». كما نال النساجون التقدير إن كانت أيديهم بارعة وهادئة، وقد امتازوا بقدرة فائقة على التركيز في عملهم، واحتاجوا لاستخدام عيونهم بدقة أثناء وضع روافد النسيج.

الباعة

وجد في مجتمع الأزتك عدة أنواع من الباعة الذين يبيعون مختلف أشكال السلع، بدءاً من الأحجار الخضراء والريش وقطع المجوهرات، وأغطية الكتف والزجاج الرخامي والجير، والأصباغ والمواد اللاصقة والشموع، والحقائب والسلال والصنادل، وأوعية ثمار اليقطين وأنابيب للتدخين وأدوية، وصولاً إلى بقول أرجوانية اللون وكعك وفاكهة، ولحوم وملح وكاكاو وشوكولا لذيذة أيضاً. وقد عُدّ الكاكاو والشوكولا من الإضافات الرائعة للغذاء البشري، وحظي باعة تلك المواد بالاحترام. وإنه لشيء جميل أن ننهي بالحديث عن الشوكولا، هذا الفصل الذي يدور حول الهرم الاجتماعي في مجتمع الأزتك، ولذا فلنقرأ هذين الوصفين الموجزين حول «بائع شوكولا لذيذة» و «بائع لكاكاو سيء».

> ورد في نص قديم: «تقوم بائعة شوكولا لذيذة بطحن حبوب الكاكاو وسحقها وتكسيرها. ثم تقوم بنقع الحبوب، وتضيف إليها القليل من الماء بعناية شديدة، وتشبعها بالهواء وتصفّيها وتعصرها، إلى أن تفرز رغوة تجمع جانباً حتى تتكون عجينة سميكة. وهكذا، تقدم البائعة شوكولا صالحة للشرب. إنه شراب النبلاء والحكام، وقد أضيف إليه عسل النحل البري ومسحوق أزهار عطرة»(99).

وعلى نقيض ذلك، يتصف بائع الشوكولا السيئة الطعم، بأنه «مخادع» و«مزيّف للكاكاو الأصلي»، عن طريق إهمال حبوب الكاكاو الطازجة وتركها حتى يبيض لونها. ثم يحركها تحريكاً ضئيلاً، ويضيف إليها عجينة مشكلة من بذور أرجوانية وشمع وقطع من الأفوكادو. وفي خلاصة الأمر، «يزيف هذا البائع السيء مشروب الكاكاو، ويغشه عبر مزجه بحبوب كاكاو طازجة من أجل خداع الناس»(100).

الفصل السادس

الجماليات عند الأزتك:
الأزهار والأناشيد

«استطاع تحقيق أربعمائة شيء»
تطلق هذه العبارة على من أجاد صنع مجموعة من الأشياء، ومن كان على اطلاع واسع. إنه رجل يؤلف الكتب ويجيد فن الرسم، أو يبرع في صنعته، كقولبة النحاس، أو النقش على الخشب وصنع الحليّ والأدوات الذهبية. «إنه رجل حقق أربعمائة شيء»(101).

عندما رأى الرسام والنقاش الألماني آلبرت دورير للمرة الأولى مجموعة من القطع الفنية الأزتكية قدمها موتيكوزوما إلى هيرنان كورتيز، والذي أرسلها بدوره إلى الإمبراطور تشارلز الخامس[1] عقب غزو تينوشتيتلان، صاح: «ما أجمل هذه القطع النفيسة، إن قيمتها تساوي مئة ألف فلورين[2]. لم أرَ في حياتي شيئاً أثار إعجابي، وأسعدني إلى هذه الدرجة. فقد وجدت فناً مثيراً للإعجاب، وقد دهشت من مهارة وروح الإبداع الفني عند سكان تلك الأراضي النائية الغريبة».

إن الإعجاب والدهشة لدى رؤية القطع الفنية والهدايا الملكية الأزتكية، والتي أسعدت قلب دورير، يوازيان بطريقة لافتة ما شعر به الأزتك أنفسهم تجاه جماليات وإبداعات منشديهم وشعرائهم وصناع الريش عندهم، والنحاتين والخزّافين، والنجارين والرسامين. فقد ارتكزت أعمالهم على ثلاث قوائم، وهي الجمال والقلب والروح. وكما علمنا من خلال دراستنا لعالم الأزتك، أن التولتيك في القرنين العاشر والثاني عشر نالوا التقدير لأنهم ابتدعوا التقاليد الفنية العظيمة، والتي ألهمت خيال الفنانين وساعدت في تزيين تينوشتيتلان، وكانت رمزاً لروح الآلهة في الحياة اليومية.

(1) الإمبراطورية الرومانية المقسة (Holy Roman Empire) (من القرن 9 أو 10 إلى 1806).
(2) فلورين Florin: عملة فلورنسية أو هولندية أو إنجليزية.



تمثال حجري لرجل أزتكي معروض في متحف العلوم الإنسانية في مدينة مكسيكو سيتي (بتصريح من سلفادور جويل ليم آررويو، المعهد الوطني لتاريخ علم الإنسان).

ولنقرأ النص التالي، والذي فاق إعجاب ومديح دورير، وهو يوضح كيف تذكر الأزتك التولتيك بوصفهم مصدر الفنون:

«تظهر آثار التولتيك، أهراماتهم، متاريسهم، ليس في مناطق سميت تولا وإكسيكوكوتيتلان، ولكن في كل مكان آخر. إن فنون التولتيك وإبداعاتهم تظهر في آنيتهم الخزفية، وفي جرارهم وفي المدقات (أيدي الهاون)، والتماثيل وأربطة الذراع أيضاً. وقد استخدم التولتيك المواد المستخرجة من سطح الأرض وباطنها لصنع أربطة الذراع وقطع مجوهرات من الأحجار الخضراء الكريمة والفيروز

الصافي. ومنذ قديم الزمن، تولوا مهمة لصق الريش بالفراء، ويعود الفضل لهم في اختراع هذه الصناعة الفنية. وفي حقيقة الأمر، اخترع التولتيك جميع الأشياء الرائعة والثمينة والمدهشة. وقد بحثوا ونقبوا عن مناجم الكهرمان والزجاج الصخري والجمشت (حجر كريم أرجواني أو بنفسجي). كما استخدموا في صنع قطعهم الفنية اللآلئ والأوبال (حجر كريم تتغير ألوانه تغيراً جميلاً). وقد امتاز التولتيك جميعاً بالحكمة، وكانوا مفكرين ومبدعين لأنهم أوجدوا نظام الحساب السنوي، حساب الأيام»(102).

ومن الخطأ الاعتقاد بأن الفنون الأزتية جاءت نتيجة قدرتهم على أخذ الأشكال الطبيعية وتحويلها إلى تحف ثقافية. فقد كان الأزتك من أفضل الحرفيين والرسامين والشعراء. ولكن لابدّ من أن نتذكر إيمانهم العميق بأن عالمهم كان مشرباً بقوى مقدسة، وأنه لم يتشكل نتيجة عبقرية البشر أو جهودهم وخيالهم. وبدلاً من ذلك، خلقت الآلهة عالم النباتات والأحجار والحيوانات، والسماء والأرض والريش والبشر، وأوجدتها مثالاً على عمل فني من إنتاج الآلهة. كما تركزت مهمة البشر في صياغة فنونهم مثل محاكاة لإبداع وخلق الآلهة. وقد أيقن الأزتك أنهم لن يستطيعوا مجاراة فنون وإبداع الآلهة. وفي النص التالي، نقرأ وصفاً لبيوت دينية أو معابد بناها في القرن العاشر الحاكم كويتزالكوآتل مثالاً على أن الفنون والعمارة محاكاة لأنماط سماوية (في هذه الحالة نواحي الكون الأربع) وحقائق مؤكدة:

«أينما بني بيت التولتيكا، بذلت جهود فائقة واهتمام بالغ في بنائه وتصميمه. فقد كان ذلك موقع عبادة كاهنهم كويتزاكوآتل. وقد بدا في صورة رائعة عجيبة. كما تكون من أربعة أقسام، وقد بني القسم الأول إلى جهة الشرق، وكان ذلك هو بيت الذهب. ولهذا السبب حمل اسم بيت الذهب وقد ألصق به، بواسطة الجص، طبق ذهبي. كما بني قسم آخر نحو جهة الغرب، أي جهة غروب الشمس. وكان ذلك هو بيت الحجر الأخضر، بيت الفيروز النقي. وقد بني البيت الثالث نحو الجهة الجنوبية، أي باتجاه الأراضي المروية، وكان ذلك هو بيت المحارات أو الفضة. كما بني البيت



تلاكويلو (مخطوطة ميندوزا، بتصريح من فرانسيس إف بيردين وباتريسيا ريف آنوالت).

الرابع في مقابل الجهة الشمالية، أي باتجاه السهول، وكان ذلك هو البيت الأحمر، وهو أحمر لأن محارات حمراء وضعت داخل جدرانه الداخلية»(103).

يستكشف هذا الفصل عدداً من التقاليد الفنية الرئيسة عند الأزتك في محاولة لتقييم وفهم رأيهم في الفنون والجماليات. فقد كان الفن، برأيهم، تعبيراً مؤقتاً، أو تكتيكاً بهدف (1) انفتاح الفنان والمتلقي على الحقيقة المقدسة (2) محاكاة الجمال الكوني وأشكال الآلهة ومقاربتها (3) التواصل مع الآلهة والاحتفاء بها كي تصبح حياة البشر على الأرض أفضل مما كانت. كما استُخدِمت الفنون في الأعمال التجارية، وكانت جزءاً من الحياة المحلية والسياسية، ومن العروض الملكية والقرابين الدينية. لكن قوة الفنون الراقية والمتقنة نبعت من قدرتها على عكس صورة الآلهة والتواصل معها. وفيما يلي سندرس التلاكويلو (رسام الأحمر والأسود)، والتلاماتيني (الفيلسوف الحكيم/المدرس) والنحات، والعامل بصناعة الريش، ومهناً فنية أخرى.

التلاكويلو

إنك تكتب بوساطة الأزهار
مانح الحياة
بالأغاني تلون
وبالأناشيد تظلل
من يعيشون هنا على سطح الأرض
وفيما بعد ستمحو الصقور والنمور
ونبقى أحياء في لوحاتك وكتبك المصورة
هنا، على سطح الأرض (104)

تصور هذه القصيدة أومي تويل، وهو الإله الثنائي، كاتباً ومنشداً ورساماً. إن واهب الحياة فنان مقدس، وينشد، ويرسم الحياة البشرية ويحولها إلى شيء ملموس في كتابه/كتابها المقدس. كما تعني هذه الرسالة أن «من يعيشون على سطح الأرض» سيفنون لأن حياتهم قصيرة الأمد. وقد خلق العالم بوساطة «أزهار وأناشيد» الآلهة. وكما سنرى لاحقاً، أوجد البشر أزهارهم وأناشيدهم وسائل لمحاكاة المقدسات والتواصل مع الآلهة. فإن رسمت الآلهة العالم ضمن كتاب، فإن الرسام البشري، التلاكويلو، من يرسم بحبر أحمر وأسود «هو الفنان الأقرب إلى الآلهة». وفي القصيدة التالية، نقرأ وصفاً للرسام المثالي، ونرى الرابطة القوية بين الرسم والآلهة:

إن الرسام البارع هو تولتيك، فنان
إنه يبدع لوحات بالحبر الأحمر والأسود
وبماء أسود ....
إن الرسام الجيد رجل حكيم
يسكن الإله قلبه
يضيف القداسة إلى أشياء
إنه يتحدث مع قلبه
وهو خبير بالألوان، وهو يستخدمها ويظللها،

إنه يرسم الأقدام والوجوه
ويصور الظلال ويصل إلى الكمال
إنه يرسم ألوان جميع الأزهار
وكأنه تولتيك (105)

وقد امتاز أولئك الرسامون المدربون في المدارس الدينية، بسعة اطلاعهم على الميثولوجيا (علم الأساطير)، وعلم الأنساب وتاريخ المجتمع. وقد سجلت الكتب الأزتكية المصورة التقاويم والمهرجانات والميثولوجيا، والتاريخ والسلوك الحربي، والبشائر ونذر الشؤم، وعلم الفلك واحتفالات التتويج، وعدد كبير من ملامح الحياة الاجتماعية. لكن جميع تلك الأحداث والأنماط وُصِفت على أنها مشبعة بالمعاني والأهداف المقدسة. وكي يعد رساماً حقيقياً، كان على من يرنو إلى هذه الصفة أن يطور شعوراً ضمنياً وفهماً لطبيعة الإله ونيته. وقد سميت تلك الصفة «محاورة القلب» ما أثمر عن تحول الرسام إلى «يولتويتل» أو «قلب متأصل بإله». وإن شخصاً يضع إلهاً في قلبه أو قلبها، قادر على نقل صورة وهدف الحقيقة المقدسة إلى رسوم ومخطوطات وجداريات شكلت أهمية كبيرة بالنسبة للأزتك.

كما نستقي شعوراً بالقوة الإبداعية لأولئك الفنانين وقوة قلوبهم وصورة وجوههم، عندما ننظر إلى صور تظهر في مخطوطات قديمة، وإلى رسوم طبعت على أصص أثرية. فإن جمال الألوان ورشاقة الخطوط، وتنسيق الصفحات وروعة القصص التي تظهر على الصفحات، تثير خيال كل من يراها وإعجابه، وحتى إن لم يفهم مغزاها. فمن جهة، تشبه تلك الرسوم الصور المتحركة إلى حد ما، ومن جهة أخرى تبهرنا بمجموعاتها المؤلفة من ألوان وقصص. وتحفل تلك الكتب الأثرية بصور لآلهة وآلهات ولهضاب مقدسة، ورموز لتقاويم وطقوس وكواكب ونجوم. ونرى ضمن تلك المخطوطات صوراً تظهر آلهة التلالوك مقيمين في الجنة، وصوراً لنواحي الكون الأربع متوازنة حول إله الحرب، والطقوس القربانية وإشارات تقويم لامعة مترافقة مع صور آلهة في أزياء رمزية. كما تحفل مجموعات من الألبسة والأثواب التي زينت صور

الآلهة والآلهات والحكام والحيوانات بإشارات ومعانٍ لم يفهمها الباحثون إلا مؤخراً، رغم محاولتهم منذ عدة قرون، قراءة تلك المشاهد وتفسيرها. وتعود المشكلة، جزئياً، إلى عبارة «يضيف القداسة إلى أشياء». إذ يصعب على المعاصرين استيعاب مفهوم الأزتك للقداسة الإلهية، أو فهم كيفية رسم وتصوير الفنان للآلهة والأرواح والقوة السحرية في لوحات فنية ظهرت على أوراق وأخشاب وأحجار، وأعمال فنية من الريش ورموز أخرى.

التلاماتينيم والفنون الشفهية

كانت الخطب من أقوى الفنون عند الأزتك وأكثرها رقياً. فيتمّ التركيز، طوال فترة تعليم الأطفال والمراهقين، على الخطب البلاغية، وتُبذل جهود كبيرة لتطوير مهارات الخطباء. ولا يقتصر الأمر على إلقاء الخطب البليغة، بل التركيز على أهمية التعبير بوضوح عن أفكار وحقائق ورموز مهمة. وعندما أجرى الكاهن الفرانسيسكاني بيرناردو دي ساهاجون دراسته الاستثنائية حول حياة الأزتك ولغتهم في أربعينيات القرن السادس عشر، اكتشف لغة ناهوآتل، وهي لغة منمقة أنيقة مفعمة بالمعاني. ولحسن الحظ، جمع عدداً من الخطب الرسمية التي تمثل فلسفة الأزتك في الجزء السادس من مخطوطة فلورنتاين. يحوي هذا المجلد أكثر من أربعين كلمة وخطبة بليغة حول صلوات ونصائح، وتحذيرات وإرشادات ألقاها آباء وحكام وقابلات ومواطنون عاديون. وكما سنرى، أحب الأزتك الألغاز والأمثلة والأقوال الظريفة. وتظهر تلك الكلمات والخطب كيف طور الأزتك فنون الخطابة، وهو أهم أشكال الفنون، وسمي هويهويتلاتولي، أو الكلمات القديمة.

وقد لقب البارعون والأكثر تدريباً على الهويهيتلاتولي باسم تلاماتينيم، أي «العارفون بالأشياء». وقد يفيد الوصف التالي في تكوين صورة واضحة عن كبار المعلمين والخطباء:

«إن الرجل الحكيم نور، مشعل جريء لا ينفث دخاناً. إن كلماته تشكل الحبر الأسود والأحمر، وهي التي تؤلف المخطوطات. وهو الذي يدرس المخطوطات

المشروحة. ويمثل الخطيب المفوّه الكتابة والحكمة. إنه الطريق، الطريق الهادية للآخرين. وهو يوجه الناس والأشياء، وهو مرشد في الشؤون البشرية. إنه يضع مرآة أمام الناس ويعلمهم التعقل والحذر، ويساعدهم في التعرف إلى شخصياتهم (106).

يلقي النص السابق الضوء على الميزات الرئيسة لأولئك المعلمين. أولاً: إنهم حكماء. فإن معنى كلمة تلاماتيني بلغة ناهوآتل تعني «العارف بالأشياء أو الحكيم». وقد قورنت هذه القدرة بنور مشعل لا ينفث دخاناً ولا يخبو نوره، بل ينير الحقيقة. كما تعني الإشارة إلى «الحبر الأسود والأحمر» إلى أن أولئك التلاماتينيم كانوا رعاة لكتب الناهوآتل التي ضمت الحكمة والثقافة التقليدية. وقد صنعت تلك الكتب من لحاء شجر الآماتي (تين بري)، أو من جلود حيوانات ثنيت في طبقات فبدت كالأكورديون. وقد وصف أولئك الرجال وشرحوا علوم الأزتك وأساطيرهم وأنسابهم وتقاويمهم وتاريخهم. وقد أشير إلى فن رسم ومعرفة تلك الكتب بعبارة «الحبر الأحمر والأسود» أو «حكمة الناس». وبهذه الطريقة، يمثل المعلِّمُ الحكمة النابضة بالحياة، حبر المجتمع ذي اللونين الأسود والأحمر. وبوصفه مثالاً للحكمة النابضة بالحياة، فإن المعلم الحكيم فائق الحيوية والنشاط، وهو مَنْ يقود الناس ويرشدهم إلى الطريق القويمة بواسطة مشعله الجريء الذي لا ينفث الدخان في أعينهم. وينبع «فنه» الحقيقي من قدرته على تمكين الناس من رؤية أنفسهم على حقيقتها، أي الواقع الملموس، عبر وضع مرآة أمام وجوههم. إن هذه صورة رائعة، وهي أساس لفهم أهداف الفن والثقافة عند الأزتك. إن المعلم الحقيقي فنان قادر على دراسة وجوه الناس، كما يساعدهم في التعرف إلى هوياتهم، وفهم من يكونون في هذا العالم.

وقد فهم أولئك الشعراء ـ الفلاسفة ماهية الوجود الإنساني، ولكنهم أدركوا، في الوقت نفسه، أنه وجود هش سريع الزوال. وفي النص التالي نقرأ قصيدة من نظم الكاهن الكبير الملك نيزاهواكويوتل:

أدرك السر الدفين
أيتها الآلهة

هكذا خلقنا
إننا هالكون
وسوف نمضي بعيداً
وسنموت جميعاً على هذه الأرض
وسُنمحى كلوحة مرسومة
وسوف نذوي كزهرة
على هذه الأرض
فكري في هذه الحقيقة
أيتها الصقور والنمور
وإن كنت من أحجار كريمة
وإن كنت من الذهب الخالص
ستمضين أيضاً إلى حيث
لا وجود لأجساد من لحم ودم(107)

تدلنا هذه القصيدة على أن الحياة ثمينة وزائلة في آن معاً. فالأحجار الكريمة والذهب والأزهار، والرسوم والبشر كائنات عابرة وعرضة للزوال، ولا تملك أساساً صلباً طويل الأمد. وقد ألقى مشعلاً قوي الضوء على هذه الحالة الكونية، وأظهر أن الحياة البشرية غير مستقرة ووهمية. إذن كيف للمرء أن يتعرف إلى الحقيقة، أو الواقع الكامن خلف هذا العالم، أي أنه «مكان يخلو من دم ولحم»، أو هو موت ميكتلان في العالم السفلي؟ تأتي الإجابة، جزئياً، من خلال الفنون، خاصة فن القصيدة والخطب البليغة. وقد طور أولئك التلاماتينيم استراتيجية بلاغية وُجّهت نحو اكتشاف طبيعة الحقائق والأساس المتين في العالم واختبارها. وقد آمنوا بوجود مثل تلك الحقيقة فيما وراء الحياة البشرية «في منطقة الآلهة السماوية، وفي منطقة الموتى السفلية». ومن أجل التغلغل إلى تلك المناطق واكتشاف الحقيقة الثابتة، كان على الأزتك ابتداع أساليب من أجل سبر أغوار الشخصية الإنسانية وكشف حقيقتها. وكان الأسلوب الرئيس هو خلق إن اكسوشيتيل، إن كويكاتل، أو أزهار وأناشيد. وهو تعبير فني على شكل كلمات وأناشيد ورسوم عبرت عن الشخصية الإنسانية، وقد أشير إليها بعبارة «وجه

وقلب» السماويات.

وقد نظر الأزتك إلى السماويات أو الأساس الحقيقي للأكوان، وفهموها في إطار ثنائية شملت جميع طبقات العالم ومناطقه. ومن المفيد أن نتذكر أن الأكوان، في ثقافة الناهوا، خلقت ونُظِّمَتْ بداية من قبل إله مزدوج، وهو أومي تيوتل.

وقد ظهرت هذه الثنائية بوضوح في مجموعات مؤلفة من ذكر ـ أنثى، بارد ـ حار، يسار ـ يمين، عالم سفلي ـ علوي، أعلى ـ أدنى، ظلام ـ نور، مطر ـ جفاف، وحياة ـ موت. كما خُلِقَ الإنسان من مجموعة ثنائيات. وقد وجد الأزتك بأن أفضل الوسائل للتعبير عن الثنائية البشرية، والتي عكست الأبعاد الثنائية المقدسة تكمن في استعارات تكونت عامة من كلمتين أو عبارتين جُمِعَتا كي تشكلا فكرة واحدة، مثل «زهرة وأنشودة» مما يعني الشعر أو الحقيقة. وبمعنى آخر، كانت الثنائية المقدسة المؤلفة من أوميتي كوتلي وأوميكي هواتل التي شكلت معاً أومي تيوتل (واهب الحياة) كانت ديفراسيسمو، أو كلمتان تعنيان شيئاً واحداً. كما شملت ديفراسيسمو أخرى شعبية المعاني التالية:

إيكس إيكسوشيتل، إن كويكاتل = وردة وأغنية = شعر أو حقيقة.

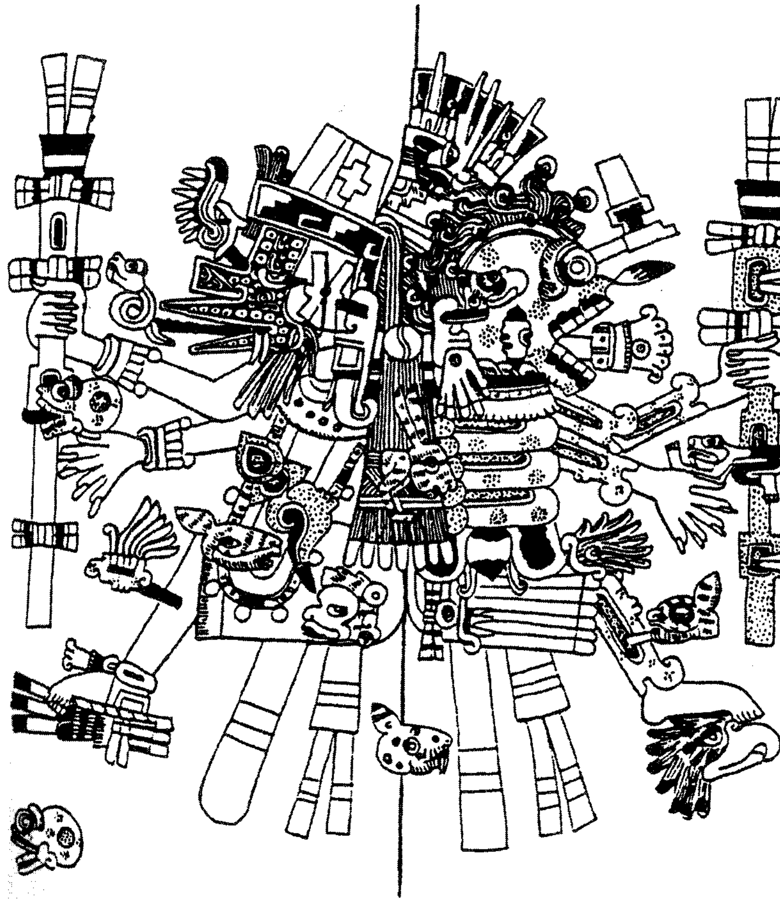
إن آتل، إن تيبيتل = ماء وهضبة = مدينة

إن توبان، إن ميكتلان = ما يعلو رؤوسنا، منطقة الموتى = عالم ما وراء البشر

توبكو، بيت لاكالكو = داخل حقيبة وضمن صندوق = سر

إن كويتل، إن هوييللي = التنورة، القميص = الطبيعة الجنسية عند النساء.

وقد حاول الخطيب البارع أن يعبر عن قلبه (قلبها) من خلال زهرة وأغنية، أي بوساطة شعر أثمر أحياناً عن تأليه القلب، وهو إدراك داخلي مقدس يشير إلى أن التوصل إلى الحقيقة تمَّ عبر مقاربة الطبيعة المزدوجة للكون. وقد أشار تحقيق هذا الأمر إلى أن الشعر والشخصية الإنسان باتا مرتبطين بالثنائية المقدسة العلوية. وهكذا تمثلت أكثر الحقائق عمقاً وأهمية في إدراك وجود أساس للكون يعتمد عليه في صورة إله



كويتزالكوآتل إيهيكاتل (يسار) وميكتلاتيكوتل (يمين) وهما يمثلان ثنائية الحياة والموت (مخطوطة بورجيا، سيجلو فينتيونو ايديتورز، المكسيك).

وآلهة الثنائية. وقد تمت مقاربة تلك الثنائية المقدسة عبر الخطب أو غيرها من أشكال التعبير الفني.

أمثلة على هويهوت لاتوللي

كانت التعاليم والأقوال القديمة من أهم الوسائل الفعالة لتنظيم السلوك البشري بأسلوب فني، وقد كانت مملوءة بالديفراسيسمو والرمزية المزدوجة. وقد اتسمت تلك الخطب والأقوال بالبلاغة والاستعارات اللغوية الرشيقة، كما تم حفظها عن ظهر قلب

وألقيت في الاحتفالات الرسمية كحفل تتويج الحاكم، أو عند التحاق فتى بمدرسة كالميكاك، أو عند مباشرة قابلة عملها أو في حفل عرس. كما ألقيت مثل تلك الخطب والأقوال المأثورة، كما رأينا، عند توديع التجار أو خلال لقاءات النبلاء والمحاربين. ويمكن تلخيص الفكرة بالقول إن الأزتك أرادوا من خلال أقوالهم وخطبهم أن تصبح الحياة شكلاً من أشكال الفنون، لكنه شكل فني يتأثر بالمقدسات ويحاكيها، خاصة الثنائية المقدسة التي كانت عماد جميع الأشياء. وفيما يلي كلمة وجهها أحد النبلاء إلى ابنه ينصحه من خلالها بالتزام العفة الجنسية. وسنلاحظ أن عناصر الرؤية الكونية تتسرب إلى الخُطْبَةِ وتشكل نقطتها الرئيسة. وقد يفيد القارئ تركيز اهتمامه على الديفراسيسمو، أو الاستعارات المزدوجة (العبارتين، في السطر الأول، على سبيل المثال):

«بني، شبابي، استمع إلى هذه الكلمات، ضع وانقش في حُجُرات قلبك الكلمة أو الكلمتين اللتين تركهما أجدادنا في حوزة كبار السن من الرجال والنساء، وعند أصحاب العقول الراجحة والرجال المحترمين على هذه الأرض. إليك ما تركوا لنا من كلمات حفظوها عن الحكماء وكبار السن، وهي كلمات جديرة بالحفظ والصيانة. قال لنا القدماء إن الحياة النقية تشبه فيروزة ثمينة، وهي مثل حجرة خضراء قيمة دائرية الشكل جيدة الصنع. وهي تخلو من جميع الشوائب. إن أنقياء القلوب الأتقياء في حياتهم وسلوكهم يشبهون تلك الأحجار الخضراء الثمينة، والفيروز النقي الذي يلمع ويشع أمام إله القريب والداني. فقد قال إله القريب والداني بأن امرأة واحدة خُصِّصَتْ للزواج من رجل واحد. وعلى هذا الأساس، لن تدمر نفسك عبر اتباع شهواتك، والسير في طريق الفواحش كأنك تحولت إلى كلب شارد»(108).

تنبع قوة هذه الكلمة من خلال تركيزها المتواصل على الأفكار والسلوك المتزن، وهي تعكس نظاماً إلهياً متوازناً. إننا نقرأ كلمات «بني، شبابي، الرجال العجائز،

النساء المسنات»، «لا شوائب ولا لطخة» «ولا وصمة» «أنقياء القلوب» «أتقياء في حياتهم». وهي جميعها انعكاس لصفات «إله القريب والداني».

الأحاجي

كما استُخدم فن الخطابة والكلمات المنمقة في وضع صور كلامية فكهة شارك في تأليفها الكبار والمراهقون والأطفال. وقد دلت معرفة الإجابات الصحيحة على الأحاجي والألغاز على أن المجيب كان يقظاً وشديد الانتباه عند تلقيه الدروس المركزة في المدارس أو في المعبد. وهذه أمثلة على الأحاجي التي تداولها الناس في العاصمة عند وصول الإسبان إليها:

– ما هي.. جرة صغيرة خضراء مائلة إلى الزرقة مملوءة بالفشار؟
لابدّ من أن يعرف أحدهم حلّ لغزنا: إنها السماء.
– ما هو الحجر الذي يعطى عملة ذهبية فيقفز بسرعة؟
الذبابة.
– ما هو الشيء الذي يقول: اقفز حتى أقفز بدوري؟
إنها عصا الطبل.
– ما هي المرآة الصغيرة في بيت صنع من أغصان خشب التنوب؟
أعيننا.
– ما هو الشيء الذي ينتقل عبر سفوح الجبال، وهو يربت بيديه على كعكنا المحلى؟
إنها فراشة.
– ما هو الشيء الذي يشهد تحولاً كبيراً؟
ثمرة الطماطم.
– ما هو الشيء الذي ندخل إليه عبر ثلاث مراحل ونغادره بحركة واحدة؟
إنه قميصنا.

– ما هو الحجر الصغير الملون الذي يقف على الطريق؟

غائط كلب.

– ما هو الشيء الذي ينحني فوق رؤوسنا في جميع أنحاء العالم؟

شراب الذرة(109).

تلك هي بعض الأدوات التي استخدمها التلاماتينيم لمساعدة الناس على رؤية الأشياء والعلاقات في العالم، ولمساعدتهم على تطوير «وجه وقلب» أي شخصية قوية. وإلى جانب تلك الأحاجي، استمتع الأزتك باستخدام الأمثال لتثقيف وإلهام بعضهم بعضاً عبر الفنون اللغوية. ومن أبرز تلك الأمثال ما يلي:

ايبال نون اكسباتلا أوآ = بسببه أصبح وجهي عريضاً. يقال هذا المثل عندما يتفوق ابن أو ابنة أو تلميذ أحدهم، أو ينشأ نشأة صالحة.

يوللوتل، ايزتلي = قلب ودم. قيل ذلك المثل كناية عن الشوكولا، لأنها كانت فيما مضى غالية الثمن ونادرة. ولم يكن عامة الشعب والفقراء قادرين على احتساء شراب الشوكولا. كما قيل إنها تشوش الذهن، وإنها شبيهةٌ بالفطر السام.

نازتا او، نوميكا اكسيكول = ريش طائري مالك الحزين، سترتي. عندما تسنح لي فرصة عمل في المدينة أصبح عبداً. وإن أصبت أحداً بأذى أو عرضت آخر لخطر ما، فإن السجن سيكون بانتظاري.

إن اي تليكوجيليكسكواك، إن أي تلاماماتلاك، قريباً من حافة النار، قريباً من الدرج. قيل هذا المثل في من أوشك على الموت، ومن أُحضِر كي يموت، أو أنهم وُضِعوا على حافة النار، أي آن أوان موتهم.

ميكستيتلان آيا أو تيتلان = في الغيوم، في الضباب. قيل هذا المثل في الأشخاص رفيعي المقام، والعظماء، ومن لم يُعرفوا من قبل، ولم يشاهدهم أحد قط لا في الحاضر ولا في الماضي. ولهذا قيل في المكسيك أن الإسبان برزوا من بين النجوم، ومن الضباب.

آنجتلاناماتي، آنجتلاتاماتي = لا أبالي لأم، لا أبالي لأب. قيل هذا المثل فيمن عوقب أكثر من مرة، لا يبالي بأحد، ويتجاهل النصائح والإرشادات(110).

أحجار مقدسة

استرشد النحاتون من قبائل المكسيكا بمبادئ وتعاليم نقش محددة تطلبت امتلاك قوة سحرية لتنوير العامة، أو القدرة على رؤية القوة المقدسة الكامنة في الطبيعة «ما يتم نقشه يجب أن يضاهي الأصل، وأن يكون نابضاً بالحياة. فإنه أياً كان الشيء المراد نقشه أو نحته، فلا بدّ أن يكون شبيهاً بالنموذج الأصيل ومفعماً بحياة الأصل. ركز جيداً على الحيوان الذي تريد محاكاة صورته، وفكر جيداً في كيفية إظهار شخصيته ومظهره»(111).

وفي حقيقة الأمر، تظهر الأعمال المنحوتة على الأحجار، سواء كانت ضخمة أو منمنمة، العالم الطبيعي للجنادب والأفاعي والفراشات والقرود والضفادع والبراغيث والطيور، في أدق تفاصيل ذلك العالم. كما عُدَّت تلك الأعمال وسائلَ تقود البشر نحو الآلهة المقدسة في العالم. وتبدو صور ونماذج تلك الحيوانات والحشرات في منحوتات من زجاج بركانيّ وبازلت، وأصداف ومحارات، وعلى أوراق نبات القطيفة، وسواها من الوسائط الطبيعية. كما كانت تلك المنحوتات، في بعض الأحيان، مزيجاً رائعاً من الأشياء الطبيعية والخارقة للطبيعة، كما في صورتين عجيبتين نحتتا فوق أحجار، ومعروفة لنا باسم حجر التقويم وتمثال كوآتيلكو (سيدة تنورة الأفعى). وفي هذا السياق، قد تفيدنا دراسة هذين العملين الفنيين الكبيرين لتكوين فكرة أوضح عن مفهوم الفن عند الأزتك.

حجر التقويم

عند العودة إلى بحثنا السابق حول أساطير الشموس، نتذكر كيف كان تكرار خلق العالم ودماره نقطة مركزية في نظرة الأزتك إلى العالم والأكوان عامة. فقد نحتت فكرة العالم الديناميكي على مَنْليث[1] ضخم، عرف باسم صخرة التقويم، وهو يوضح كيف تم التعبير بأشكال فنية عن عناصر قوية وفعالة في الطبيعة إلى جانب صور من الطبيعة. وكان القصد من ذلك العمل الفني تصوير عملية الخلق الأوَّلِ والمشاركة فيه، بحيث

(1) المَنْليث (monolith) : حجر ضخم مفرد يكون عادة على شكل عمود أو مسلة.

يمكن تكراره والمحافظة عليه.

وقد اكتشف الحجر الضخم (الصخرة) في 17 ديسمبر1790، عندما كان العمال يسوون ويعيدون رصف الساحة العامة المركزية في مكسيكو سيتي. فقد عُثِر على كتلة ضخمة غير عادية من حجر البازلت تحت سطح الأرض مباشرة. وعندَ رَفْعِ الحجر، دُهِشَ المحققون حينما وجدوا سلسلة من دوائر متحدة المركز ومغطاة برموز معقدة. وقد بلغ قطر القرص الدائري أكثر من ثلاثة أمتار ونصف المتر. وقد وضع الحجر بشكل عمودي كي تسهل مشاهدته، وانتهى به المطاف إلى البرج الجنوبي الغربي من كاتدرائية المكسيك حتى عام 1885. وقد أجريت خلال السنوات الأولى لاكتشاف الحجر، دراسات مهمة له، قام بها الباحث المكسيكي أنطونيو ليول يوجاما والعالم الألماني آليكساندر فون هامبولدت «العالم المكتشف للعالم الجديد» وقد أصبح الحجر ثاني أهم صورة شعبية في المكسيك، بعد صورة الصقر والأفعى الظاهرة على العلم المكسيكي. وكما ورد على لسان باحث شهير «لا شكّ في أن الحجر هو أشهر عمل فني أنتجه سكان أمريكا الأصليون قبل وصول الأوروبيين»(112).

ويبدو أن الحجر الضخم استخدم ككوا إكسيكاللي أو «وعاء الصقر» وهو ملتقى شعائري للهبات من قلوب ودماء قربانية، وغيرها من هدايا وهبت للآلهة.

وللحجر الهائل صورة تتضح معالمها بدءاً من الدوائر الصغرى وصولاً إلى الدوائر الكبرى. وفي الدائرة الصغرى يبدو وجه إله الشمس بفم مفتوح ولسان منتفخ. ويضع الإله عصابة للرأس مرصَّعةً بثلاثة أحجار كريمة خضراء اللون. كما توجد جوهرتان دائريتا الشكل، وجوهرة مركزية لصورة على شكل كشتبان يحوي أربعَ وريقات شجر. وتحيط عصابتان متقوستان بالعينين والشعر. وقد قُسِّم الشَّعْرُ خمس خُصلات منحنية تدلت على جانبي الوجه. كما رُصِّع الأنفُ بجواهر، والأذنان الدائريتا الشكل بأقراط مرصعة بأحجار خضراء كريمة.

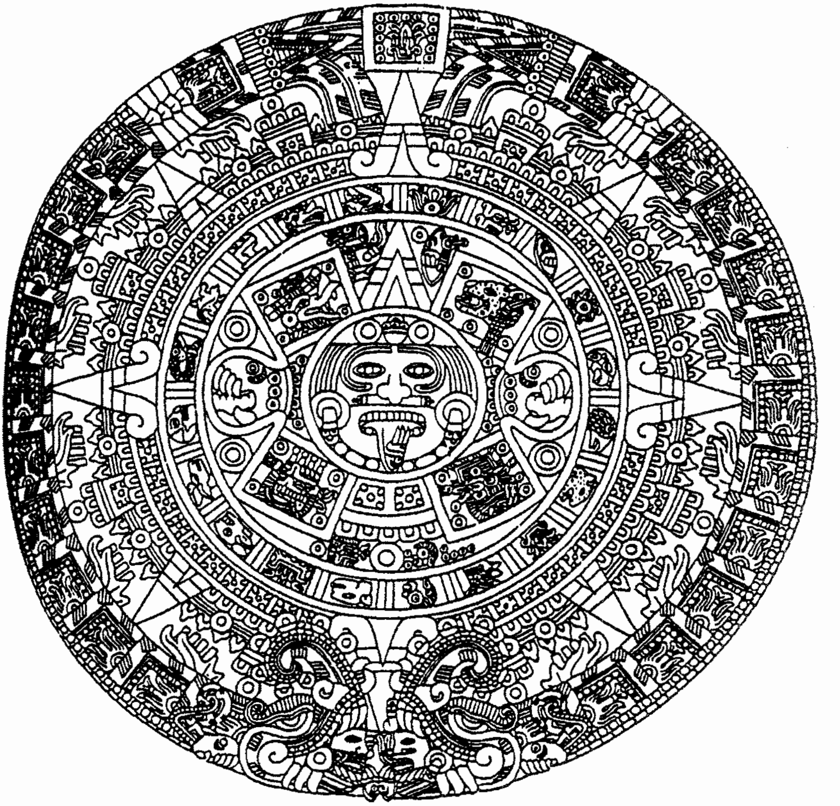
وفي وسط الصورة، يتدلى لسان من فم مفغور يبدو أشبه بتيكباتل، أو سكين قربانية، مزينة برسم «وجه الشيطان»، والذي يظهر في معظم النصب الأزتية. تعود هذه الصورة إلى إله الشمس، توناتيو، والذي يستقي قوته الخلاقة من قرابين قدمتها



تمثال حجري ليغور(نمر أمريكي) معروض داخل متحف تاريخ علم الإنسان في مدينة مكسيكو سيتي (بتصريح من سلفادور جويل ليم آرروبو، المعهد الوطني لتاريخ علم الإنسان).



تمثال حجري لكلب معروض داخل المتحف الوطني لعلوم الإنسان، مدينة مكسيكو سيتي. (بتصريح من سلفادور جويل ليم آررويو، المعهد الوطني لتاريخ علم الإنسان).



التقويم الحجري الأزتكي (أعيد طبع اللوحة من مجموعة راؤول نورييجا، 3 استوديو سوبر لا بيدرا ديل سول. المكسيك، 1954).

آلهة وبشر. وقد ظهرت هذه الصورة للسكين الحجري/اللسان في عدة تماثيل أزتية، كما ظهرت بالقرب من أسفل حجر التقويم، حيث برزت خارج فَمَيْ ثعبانَيْ نارٍ كبيرين أحاطا بجسديهما المشهد بأكمله.

وعند الإشارة إلى نص سابق حول مبادئ نحت التمثال الأزتكي، ندرك أن وضع الصورة الأصيلة وسط التمثال يعد وسيلة مفيدة لإنتاج قطعة فنية مشابهة للأصل. وهكذا وضع توناتيو في مركز الكون الجائع، وقد أحيط بدائرة أخرى. وفي داخل تلك الدائرة إشارة كبيرة لأوللين (الحركة)، وهي تتكون من أربعة صناديق، كل منها يحوي بدوره رموزاً كونية لعصور انهارت، وهي عصور النمر والرياح والنار والمطر. ويبرز رمح شمسي هائل من أعلى رأس توناتيو، في حين تظهر رؤوسٌ خمسةٌ

من ريش الطيور أسفل رموز خماسية تحت ذقنه. كما تبدو على جانبي وجه الإله، صورتان، وهما أشبه بأذنين كبيرتين، وقد عرفتا باسم مخالب «شيطانية الوجه» تمسك بقلوب بشرية.

ويحيط بقلب الحجر شريط ضيق دائري الشكل يضم إشارات الأيام العشرين. وهنا نرى كيف دمج النحاتون إشارات طبيعية مع أخرى خارقة للطبيعة لتكوين صورة كونية. وعند النظر إلى أعلى الصورة ومن ثم الانتقال حسب حركة عقارب الساعة نجد إشارات لتمساح ورياح وبيت وسحلية، وأفعى وموت وغزال وأرنب وماء، وكلب وقرد وحشائشَ وعيدانَ قصب، ونمر وصقر ونسر وحركة وسكين حادة ومطر وزهرة. إن تلك هي الإشارات الكبرى للطبيعة والثقافة، وهي أشياء صنعتها الآلهة، وأخرى صنعت من أشياء صنعتها الآلهة. وتحيط بهذه السلسلة من الإشارات سلسلة من الصناديق تعلوها الإشارة الخمسية، وهي إشارة من خمسة أجزاء تمثل منمنمات لصور متوازنة للمركز والنواحي الأربع. وتنفصل تلك الأجزاء عن بعضها بعضاً، وهي مرتبطة بأشعة الشمس.

وتضم الصورة الخارجية رسوماً لأنواع من الحيوانات أو الحشرات ذات رموز نارية داخل عبوات في موازاة أجسامها. تبدو أذيال تلك الحيوانات أو الحشرات في أعلى الصورة في حين تشير سهام نحو صندوق يحمل إشارة السنة 13 عيدان قصب. وينحني جسد الحيوان أو الحشرة إلى الأسفل وتقابل الرؤوس بعضها بعضاً، في حين يبرز من بين فكي أفعى وجهان لكل منهما لسان من سكين حجري. وقد تباينت الآراء حول نوعية هذا الحيوان أو هذه الصورة. إذ تقول وجهة النظر التقليدية إن هذه الصور الضخمة هي «أفاع نارية»، كما تدل عليه رؤوس الأفاعي وصور النيران التي تغطي أجسادها. وقد رسمت الأفاعي النارية في معظم الأعمال الفنية الأزتية للتعبير عن قوة إله الشمس أو سلاح إله الشمس. لكن تفسيراً حديثاً قدمه العالم كارل توب يدحض الرأي التقليدي، ويقول إن تلك الصور ليست لأفاع بل ليرقانات هائلة ترمز إلى تحول المحارب وولادته من جديد، في حين تبرز الشمس من مركز الصورة في صورة فراشة عملاقة.

سيدة تنورة الأفعى

في عام 1791، وبعد بضعة أشهر على اكتشاف حجر التقويم، اكتُشِفَ نصب تذكاري آخر يصوّر آلهة الأزتك كوآتيلكو (سيدة تنورة الأفعى) في الساحة الرئيسة لمدينة مكسيكو. ويعد هذا التمثال، الذي يبلغ ارتفاعه أكثر من مترين ونصف المتر، واحداً من أعجب التماثيل المكتشفة في العالم الجديد. ولا بد من أن نتذكر ما ورد في الفصل الثالث أن هذه الآلهة لعبت دوراً رئيساً في ولادة إله الأزتك الأكبر هويتزيلوبوشتلي، وهو إله الشمس والحرب. وكما هي حال حجر التقويم، تتألف صورة هذا التمثال للإله كواتليكو، من مجموعة مركبة من صور لآلهة وإرشادات وحيوانات ومدلولات رمزية. وهذا ليس إيماناً بإله واحد، لكنه يكشف، بطريقة أو بأخرى، أن مسؤولية كبيرة أُنيطت بالنحاتين والنقاشين الأزتك لإضفاء صورة حية على التماثيل الحجرية، ولكي يجعلوها في صورة النموذج الأصل. ويا لها من صورة للأصالة لا تصدق.

إن تمثال كوآتيلكو يتحدى أي مفهوم غربي عن الجمال والحقيقة مرتبط ببساطة الخطوط والتوازن المنطقي. فإن التمثال يحمل رأساً كبيراً يتألف من حيتين من نوع الأفعى المجلجلة تواجه إحداهما الأخرى وتشكلان معاً صورة وهمية لأفعى هائلة تنظر إلى وجه ناظرها. ويعكس هذا التمثال بحثنا السابق حول الثنائية والاتحاد. وتخبرنا الأسطورة أن هاتين الحيتين تمثلان فعلياً جدولين من دماء تدفقا من رقبتها بعدما تم بترُ رأسها. وهي تحمل على صدرها عقداً كبيراً يتألف من أيدٍ وقلوب بشرية ما يشير لتلقي الأعضاء الجسدية لقرابين إلهية وبشرية. كما تشكّل حزام الآلهة (التمثال) من أفعى ذات رأسين (الثنائية مجدداً). وقد ثُبّت الحزام من الجهة الأمامية بوساطة قلادة من جمجمة بشرية. وقد نحت أسفل تلك المجموعة الرهيبة من الرموز تنورة من أفاعي مجدولة معاً، ما منحها اسم «سيدة تنورة الأفعى». كما بدت قدما الأفعى على شكل مخالب طير من الجوارح، وقد يكون صقراً، لكن للمخالب عيون. وعند النظر إليها من جهة جانبية، تبدو يداها مرفوعتين كأنها تنحني إلى الأمام برأسي أفعى ضخمين وأنياب متأهبة للهجوم، ولسان ناتئ يتحسس الهواء. كما يحمل سطح



تمثال أثري هائل لكواتليكو معروض داخل المتحف الوطني لعلوم الإنسان، مدينة مكسيكو سيتي (بتصريح من سلفادور جويل ليم آرر ويو، المعهد الوطني لتاريخ علم الإنسان).

قاعدة التمثال الذي تستند عليه، صورة منحوتة لآلهة الأرض بفم مفترس، وقد فهم بعض الأشخاص أنه يمثل مدخلاً إلى العالم السفلي.

ومن المهم التفكير بتنوع أنواع الفنون الأزتكية واختلافها، لأن تمثال كوآتيلكو يمثل بعداً آخر للفنون الأزتكية الكونية يختلف عن تمثال التلاماتينيم الذي منح البشر قلباً ووجهاً وشخصية. فإن كوآتيليكو تأخذ القلوب والوجوه والأيدي وتحوّلها إلى آلهة ذات قوى هائلة واحتياجات نهمة. ولم تكن جميع الآلهة على هذه الصورة، لكن نصت القواعد الأساس في الأعمال الإبداعية الأزتية، على حاجة تلك الآلهة لتغذية متواصلة على أجساد ودماء وطاقة آلهة آخرين وبشر. ومن المؤكد أن نحت هذه الصورة مثَّل أهم التحديات في تاريخ صناعة التماثيل والأعمال الحجرية.

لكن صناعة التماثيل الحجرية لم تقتصر على النصب والصور المخيفة كتلك الصورة. وفي الواقع، عندما نقب عمال مكسيكيون عن الآثار، وفتحوا أكثر من 135 صندوقاً دفنت تحت معبد تيمبلومايور، عثروا على لوحات جميلة من أحجار المرمر تصور غزلاناً ورماحاً شمسية ومياه جارية، وقطع مجوهرات من زجاج بركاني.

صناعة الريش

افتتن الفنانون الأزتك بالعناصر الطبيعية الزائلة الهشة، كافتتانهم بالأحجار الباقية القوية. وقد لا يتوافر مثال أوضح على حبهم للأشياء الهشة من إتقانهم لصناعة الريش وقطع الزينة التي أنتجوها وتزين بها الحكام والمحاربون والآلهة والعامة على المستويات كافة في الإمبراطورية الأزتكية.

وفي النص التالي وصف لصناعة الريش في مدينة آمانتلان قدمه أشخاص وخبراء من سكان المدينة الأصليين إلى ساهاجون:

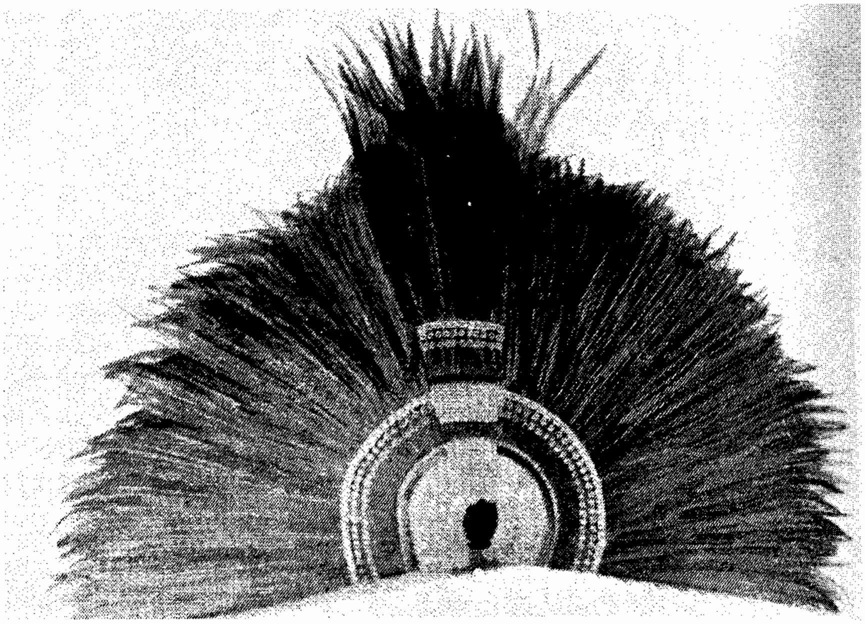
> بأيديهم يمسكون قطعاً ثمينة من الريش، ويصنعون منها أشياء جذابة، وتروساً رائعة يقدمها الحكام هدايا ثمينة. وقد غطيت تلك التروس من جميع جوانبها بريش فاخر، ثم طُليت وزُيّنت وصُممت من ريش الطائر الأزرق والطائر الطنان (الذبابي) والطائر الملاعقي ذي

الريش الأحمر الزاهي. كما يستخدم صانعو الريش ريش القنزعة (الريش المجتمع في رأس الطائر) الذهبيِّ اللون، إلى جانب ريش ببغاوات زاهية زينوا بها الحواف الخارجية والتي تدلت منها حليّ مزخرفة، كما زُيّنت تلك القطع الفنية الفاخرة بريش طائر الكتزل والأقطروس (طائر أمريكي) والملاعقي الأحمر(113).

وقد بدا فن صناعة الريش واضحاً للإسبان فور لقائهم بالحاكم موتيكوزوما إكسوكويوتزين في عام 1519. إذ لم يقتصر الأمر على روعة غطاء الرأس الذي تزين به، بل إنه أهدى غطاءً آخر إلى كورتيز ما زال معروضاً، حتى يومنا هذا، في متحف فولكيركاندي في فيينا. وقد تشكلت تلك الهدية من خمسمائة ريشة مأخوذة من ذيل طائر الكتزل بلونيه الذهبي والأخضر، بالإضافة إلى ريش بألوان زاهية أرجوانية زرقاء وحمراء، ثبتت جميعها بوساطة أقراص ومشابك ذهبية. وقد استوطن طائر الكتزل في جواتيمالا البعيدة، ولذا اسْتُورِدَ ريشه إلى حوض المكسيك وبِيعَ في السوق الملكي. كما اسْتُورِدَ الريش الأزرق من طائر أطلق عليه الأزتك اسم «إكسيوتوتوتل» أو «الطائر الفيروزي» الذي عاش في السهول الحارة في المناطق الشرقية والجنوبية. كما وفرت الببغاوات الأمريكية (المَقْو) الريش الأحمر. وقد ربطت قطع الريش بواسطة خيط من الصبار الأمريكي، وثبتت فوق قماش خشن متشابك شُدّ إلى إطار صنع من غُصَيْنٍ لدن، كي تظهر بوضوح وتبقى ثابتة لمدة طويلة. وقد عُرف الأزتك بهوايتهم في مراقبة الطيور، وقد وصلتنا عدة نصوص تروي لنا تفاصيل دقيقة حول سلوكيات الطيور، وكيف تبدو وتطير، وتبني أعشاشها وتأكل وتغرد. وقد اعتمدت صناعة الريش وعملية التحول من جسد الطائر إلى غطاء للرأس وغيره من الصناعات الريشية، على مهارة العامل بالريش، والذي وصف بكونه «ماهراً ومخلصاً لعمله».

كما امتاز صانع الريش بكونه واسع الخيال ومجتهداً وأهلاً للثقة. إنه يمارس فن صناعة الريش ويلصق وينسق، ويجمع الريش من مختلف الألوان والأطوال، ويأخذ مقاسات ويصنعها في أشكال مبهرة.

وعلى نقيض ذلك، عرف صانع الريش الفاشل بأنه منافق مخرب للعمل الجيد، لا



نسخة مطابقة لغطاء للرأس من ريش طائر الكتزل قدمه موتيكوزوما إلى كورتيز. والصورة معروضة داخل المتحف الوطني لعلوم الإنسان، مدينة مكسيكو سيتي (بتصريح من سلفادور جويل ليم آررويو، المعهد الوطني لتاريخ علم الإنسان).

يسترشد بآخرين، وهو كسول وغير مهذب. إنه أحمق بليد، ولا يجيد صنعة، وهو يخرب قطع الريش ويتلفها(114).

وكما يشير إليه النص، كان صانع الريش حرفياً ماهراً، وخبيراً بأخذ المقاسات، ويمتلك ذائقة فنية تمكّنه من التعرف إلى العلاقة بين الألوان والنور وبنية الريش. ولا شكّ في كونه خبيراً في تفسير الرموز، أي كيفية ترتيب وتنسيق الألوان والظلال. وقد اعتمد صنّاع الريش على الكتب القديمة لإرشادهم في صناعتهم، فَقَدْ ظهرت مهارتهم الفائقة من خلال تصاميم المنتجات الريشية الخاصة بالحكام، وبالأخص تلك الأشياء المهمة المستخدمة في المناسبات الشعائرية وعند أداء الرقصات. وقد جاء في أحد النصوص: «إن الكتب القديمة هي مصدر التصاميم والأنماط الأولية. وعندما رأى صناع الريش كيف تم تصميم تلك الأشياء، أتقنوا صنع تفاصيل دقيقة ورسمها. ومن ثم جلبوا قماشاً قطنياً ألصقوه بورقة من نبات الصبار الأمريكي حتى يصبح

قاعدة صلبة متينة»(115).

ومن المؤكد أن الريش لم يكن قيّماً وثميناً بحدّ ذاته، بل ساد اعتقاد، بين أوساط الأزتك، أنه يحمل قوةَ الطائر وجماله إلى المنتج ذاته، سواء أكان غطاء للرأس أم ترساً. ومن اللافت أن الأزتك طبقوا قانوناً يحظر بموجبه استخدام مصنوعات معينة من الريش حملت اسم «ظل الآلهة والملوك» ما لم يأذن الحاكم باستخدامها. كما حظيت صناعة الريش بتقدير رفيع، ومارسها عدد من النبلاء بوصفها مهنة مشرّفة. وقد اعتبرت هذه المهنة عنصر حماية إبَّان أوقات العسرة. ولهذا ينصح والد أبناءه وبناته بالتركيز على «فن صناعة الريش» كي يخدمهم كسورٍ واقٍ في زمن «المعاناة وعندما تهيمن الأحزان»(116).

وقد بقي من حضارة الأزتك عدد من التروس الريشية، مما يدل على أن المحاربين حرصوا على الظهور في ساحات المعارك في صور جميلة زاهية، وليس في صورة رهيبة خطرة وحسب.

المصنوعات الذهب

كانت صناعة المصوغات الهبية قد ارتبطت بأشكال التعبير الفني، إلى جانب ألعاب الكرة. وفي ما يتعلق بصناعة الذهب، ندرك أن الكوزتيك تيوكويتلا بيتزكوي، أو الصاغة، تلقوا واردات منتظمة من الذهب من أقاليم دفعت أتاوات (ضرائب). وكان الصاغة يعيدون تشكيل الذهب على شكل حليٍّ وأشكال للزينة يزدان بها الحكام والنبلاء والتجار وممثلو الآلهة. وقد حصل الهنود على ذهبهم، والذي لم يكن مرغوباً بكميات وفيرة، عن طريق غسل مياه الأنهار بحثاً عن المعدن الأصفر، وقد عثروا أحياناً على قطع ذهبية «كبيرة بحجم الذرة». ومن العجب أن معنى كلمة ذهب بلغة ناهوآتل تعني «غائط الآلهة»، وهي آتية من كلمتي «كويتلاتل (غائط) و«تيوتل» (آلهة). وقد عُدّ الذهب «مادة رائعة صفراء، مفيدة وثمينة. إنه يمثل الثروة والغنى والامتلاك، وملكاً للحكام والآلهة»(117). وقد نظر الأزتك إلى الذهب بكونه سائلاً يسيل من الأرض. وقد شبه ظهوره الأول بالإسهال، ولذا وصف بأنه إما

براز الآلهة أو الشمس. لكن استخدامه عند إقامة الشعائر وتزيين الأزياء اعتمد على جهود الصاغة، كما يظهر النص التالي طريقة التعامل مع الذهب: «أستخرجُ الذهب ثم أسحق الرمال، وأغسلها ثم أنفخ الرمال بعيداً. وبعد ذلك أغسل الذهب وأنقي الرمال وأجعلها نظيفة. ثم أصنع قوالب وأشكّلها وأجهّز القطع الذهبية لصنع الأواني والكؤوس ذهبية. ثم أصنع أوعية للصقر وجراراً لحفظ الماء من الذهب الخالص. وبهذه الطريقة أصنع أشياء جميلة برّاقة»(118).

ألعاب الكرة

رغم أنها لا تعد أعمالاً فنية، إلا أن ألعاب الباتوللي والألاماليزتلي «ألعاب الكرة» اعتمدت على مهارة الفنانين وحسن أدائهم. فقد عثر المنقبون عن الآثار على تلاشتلي «صالات للعب الكرة» في جميع أرجاء أمريكا الوسطى. وقد استمتع الأزتك بممارسة هذه اللعبة، كما دعم الحكام والنبلاء هذه الألعاب، وأصبحت صالات اللعب مقرات لممارسة المراهنات. وقد وهب الحاكم «كل من يدخل الكرة إلى الحلبات» جوائز قيّمة. كما فاز اللاعب الماهر بجوائز من قبل جميع المتفرجين على اللعبة(119). وقد صممت صالة اللعب على شكل الحرف (I) باللغة الإنجليزية، وأحيطت بأسوار عالية. وعلى كل جانب وضعت في الجدار حلقة حجرية، وتسجل نقاط كل لاعب يدخل كرة مطاطية صلبة داخل فتحة صغيرة ضمن حلبة الخصم. ولم يكن مسموحاً للاعب باستخدام يديه أو قدميه أو ربلة ساقيه أو ذراعيه لرمي الكرة، بل كان بوسعه رمي الكرة بواسطة ركبتيه وفخذيه ومؤخرته. وكما جاء على لسان دييجو دوران الذي شاهد بعضاً من تلك الألعاب عقب وصول الإسبان، «اتسمت الكرة بحيوية نابضة، كما امتازت الكرة بالقفز والتحرك عالياً وإلى الأسفل، وإلى هنا وهناك. وكان اللاعب يصاب بتعب شديد وهو يلاحق الكرة من جهة إلى أخرى قبل أن يدركها»(120).

ووفقاً لما قاله دوران، امتاز بعض اللاعبين بمهارة مكنتهم من اللعب لمدة ساعة دون أن تلمس الكرة الأرض. كما وصف دوران الأخطار الجسدية التي واجهها

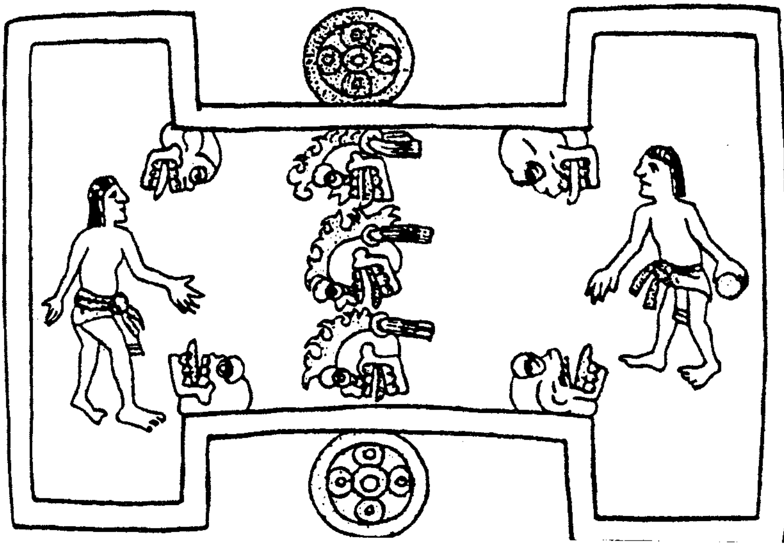
اللاعبون:

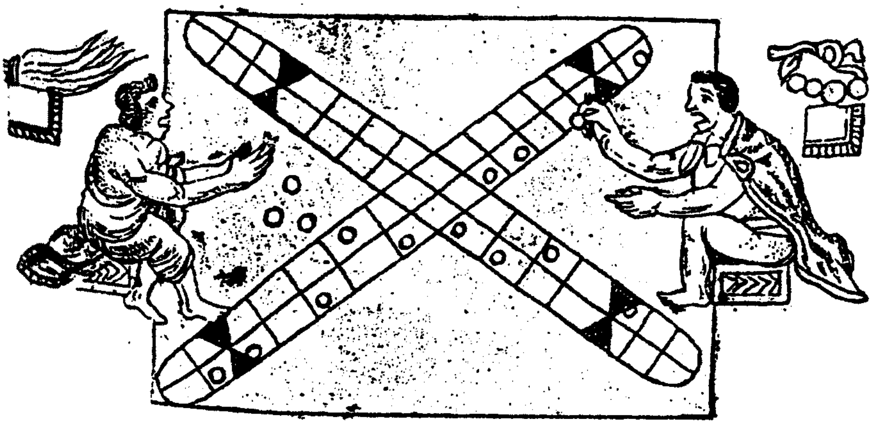
«عند رؤية الكرة متجهة نحوهم، وقبل أن تلامس الأرض، كان اللاعبون يسارعون لثني ركبهم أو مؤخراتهم كي يردوا الكرة بسرعة لا نظير لها. وبسبب القفز إلى الأمام وإلى الخلف، عانى اللاعبون إصابات خطيرة في مناطق الركبة أو الفخذ، فتصاب منطقة العجز لدى من مارسوا تلك الألعاب الخطرة ببقع دموية، وكان لا بدّ من فتحها بواسطة سكين صغيرة لإزالة الدماء المتجلطة فيها جرّاء ضربات الكرة»(121).

باتوللي

وقد استخدمت لعبة باتوللي، رغم كونها ليست شكلاً حقيقياً من الفنون، في الفوز بجوائز قيمة المجوهرات وغيرها من أدوات التعبير عن قيمة الفن والجمال. وفي هذه اللعبة، توضع حبوب فاصولياء فوق لوح مقسم إلى مربعات، والهدف من اللعبة هو أن يكون اللاعب سباقاً في تحريك ست حبوب عبر المسار بأكمله. وتشهد لعبة باتوللي لحظات من التوتر الشديد والحماسة، حيث لو رمى اللاعب بحبة فاصولياء (نرد) وحطت على اللوح ثم وقفت على جنبها، عُدّ رابحاً. كما شبهت لعبة باتوللي بلعبة البرجيس أو النرد (لعبة الطاولة). وفيما يلي وصف بارع لكيفية ممارسة هذه اللعبة فوق حصير طلي بحرف X كبير بوساطة سائل لاصق:

«رسمت خطوط شكلت مربعات داخل ذراعي الشكل X. وقد استخدمت اثنتا عشرة حصاةً ـ حمراء وزرقاء ـ داخل تلك الأقسام. كما أعلنت مراهنات باسم اللاعب الأفضل في التعامل مع النرد الذي تكون من خمس أو ست حبات سوداء من الفاصولياء، سجل فوق كل منها رقم خاص بها. وقد استقطبت اللعبة عدداً كبيراً من المشاهدين، كما تدافع المتفرجون والمقامرون حول الحصير، حيث انتظر بعضهم دوره في اللعب، فيما أخذ آخرون في وضع





أعلى اللوحة

لعبة كرة: لاعبان يقفان بحيث يقابل أحدهما الآخر داخل صالة اللعب (مخطوطة ماجليبيشيانو، من كتاب واروبك بري «الحياة اليومية لقدماء الأزتك. لندن: بي. تي. 1968، بتصريح من بي.تي. باتسفورد).

أسفل اللوحة

لاعبان يمارسان لعبة الباتوللي فوق لوحة لعب تعكس أهمية الجهات الأربع والمركز في علم الكونيات عند سكان أميركا الوسطى (دييجو دوران، مخطوطة دوران، مكسيكو سيتي: آررينادورا انترناسيونال 1990، نسخة فاكسيميلي).

المراهنات(122).

ويحصل الفائز على بعض الجوائز الثمينة التي ذكرت ضمن هذا الفصل، مما يثبت أن ما أسميناه فناً (الهدايا ومحاكاة الآلهة)، كان هدفاً سعى الفائزون بألعاب المصادفة أو القمار للحصول عليه، وهي ألعاب لاقت شعبية عند الأزتك.

كما يفوز الرابح في ألعاب الباتوللي بأشياء قيمة مثل عقود ذهبية، وأحجار خضراء وفيروز نقي، وعقود من أحجار خضراء وفيروز. كما يحصل الرابحون على عبيد وريش الكتزل، ومنازل وأراض زراعية وأغطية فاخرة للكتف، وحلي للشفة من أحجار خضراء، وأقراط ذهبية وأغطية للكتف من ريش البط. لكن حتى داخل أوكار القمار عند الأزتك، كانت الآلهة حاضرة أيضاً، وقادرة على النفاذ عبر الغشاء الرقيق الذي فصل بين العالم المرئي واللامرئي. فقد نقل لنا أنه «من مارس لعبة الباتوللي، ومن رمى حبوب الفاصولياء، وجعل إحداها تقف على جنبها، فإنَّ مستقبلاً طيباً ينتظره، كما أنه أنجز معجزة عظيمة»(123).

الفصل السابع

حيث تزأر النمور:
القرابين البشرية سداد ديون عند الأزتك

لا بدّ من أن نواجه حقيقة أن كثيراً من الناس ينظرون إلى الأزتك من منظور صور القرابين البشرية التي وصلت إلينا عبر القرون. وإننا نعتقد أن الثقافة الأزتية قامت على بناء الأهرامات الشاهقة وتعطّش الكهنة للدماء وتقديم القرابين البشرية، وشيء من السلوكيات الوحشية. وتأتي هذه الصورة، إلى حد بعيد، من خلال روايات الإسبان عند غزوهم للعاصمة تينوشتيتلان. على سبيل المثال، وصل إلينا على لسان بيرنال دياز ديل كاستيلو إحدى آخر الروايات عن معبد الأزتك الكبير، قبل أن تدمره جزئياً المدفعية الإسبانية. إنه وصف رهيب تقشعر له الأبدان يروي لنا تفاصيل تقديم الجنود الإسبان قرابين بشرية إلى إله الحرب هويتزيلوبوشتلي، في حين طرد المحاربون الأزتك كاستيلو وأنصاره من المدينة:

> «كنا قد تراجعنا واقتربنا من معسكرنا. وبعد أن عبرنا فتحة واسعة ملأتها مياه وفيرة، صدرت من جديد أصوات كئيبة مرعبة وقرع طبل هويشيلوبوس (هويتزيلوبوشتلي) وأصوات قرون مجوفة وأشياء شبيهة بأبواق. وقد أصابنا الذعر واستدرنا نحو المعبد العالي، فرأينا رفاقنا الذين أُسروا عندما هُزم كورتيز وهم يجبرون على صعود الدرج بالقوة، وقد أخذوهم لتقديمهم قرابين بشرية. وعند وصولهم إلى ساحة صغيرة في مقابل المُصلّى حيث تقبع آلهتهم الملعونة، رأيناهم وقد وضعوا ثمار خوخ فوق رؤوس عدد من الأسرى، وأشياء بدت كمراوح في أيديهم، ثم أجبروهم على الرقص أمام هويشيلوبوس. وبعد أن رقصوا وضعوهم على ظهورهم فوق حجارة رفيعة أُعدت كمواقع لتقديم القرابين. ثم أمسك الأزتك بخناجر شقوا بها صدور

الجنود وأخرجوا قلوبهم النابضة، وقدموها إلى الآلهة الجاثمة في المكان. ثم ركلوا الأجساد على طول الدرج، وقام الجزارون الهنود، الذين كانوا ينتظرون أسفل المعبد، بتقطيع الأذرع والأرجل وسلخ جلود الوجوه، وإعدادها لاحقاً كقفازات جلدية مع الإبقاء على لحاها. وقد استخدمت تلك القفازات الجلدية عند الاحتفال بطقوس العربدة وأكل اللحم البشري»(124).

عندما ننظر، بصفتنا باحثين في الفكر والثقافة الأزتكية، إلى هذا الوصف الشديد التحيز لطقوس القتل الأزتكي، إلى جانب تقديرنا لأخلاقيات هذا الشعب وحرصه على تربية أبنائه تربية صالحة وتعليمهم، نجد أمامنا صورة متناقضة تظهر رعاية إنسانية وعبقرية بشرية، في مقابل عنف وهمجية إنسانيين. وإن هذا بدوره، يطرح تساؤلات عميقة وعاطفية. على سبيل المثال، كيف أمكن لأناس صمموا ونقشوا حجر التقويم العجيب والفريد من نوعه، وطوروا أحد أكثر أنظمة التقويم دقة في العالم القديم، أن يمضوا وقتاً طويلاً، وأن يبددوا طاقة كبيرة وثروة هائلة من أجل الحصول على قرابين بشرية لتقديمها في كل احتفال أمكن تصوّره في ذلك التقويم؟

وبكلمات أخرى، كيف أمكن لشعب أتقن فنون النحت وصناعة الريش والصناعات الحرفية، والشعر والرسم، أن يتمسك بفكرة الانبعاث الروحي ويلتزم بها من خلال طعنات السكين الشعائرية؟ إن الصورة الساطعة في وجوهنا تأتي عبر شواهد لتناقضات مذهلة.

سنحاول خلال الفصل الحالي، الإجابة عن تساؤلات بشأن الصورة المتناقضة للأزتك، وذلك عبر تقديم أوصاف وشروح عن القرابين البشرية. ولابدّ للقارئ من أن يتذكر الفصول الأولى حول نظرة الأزتك إلى العالم و«جبال من مياه» كي يتحقق فهم كامل وقرائني للقرابين الشعائرية. والمقصود بالفهم القرائني (قائم على القرائن) هو مجموع القوى والأفكار والرموز والمعاني المختلفة التي نسجت معاً في الثقافة الأزتكية، وأنتجت فكرة مقنعة لعالم قائم في جزء منه، على الحاجة إلى تقديم القرابين البشرية من أجل تجديد العالم والحفاظ على سلامته.

وليس مطلوباً من القارئ، بالطبع، تبني فكرة القرابين البشرية أو تأييدها، لكن أن يحاول فهم ما ظن الأزتك أنهم معرضون لمواجهته. وعند التفكير بالممارسات العنيفة والمؤلمة عند تقديم القرابين البشرية، وهو عمل عرفه جميع الراشدين وشاهدوه، قد يفيدنا التفكير بسلوكيات بعض الجماعات أو الأحزاب في القرن العشرين، والتي ارتكزت إلى أعمال عنف وممارسات وحشية تجاه شعوب أخرى. إذ كيف أمكن تجنيد ملايين وملايين الرجال وإجبارهم على هجر بيوتهم الآمنة وأسرهم المحبة، والانتقال إلى مناطق بعيدة من أجل قتال غرباء حتى الموت في ساحات معارك قاحلة خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية؟

ولماذا قبلت أعداد كبيرة من النساء، اللاتي تأذين جسدياً على أيدي رجال طوال تاريخ البشرية، أن يقبلن أيديولوجية تولي الذكور جميع مواقع القيادة السياسية؟ وكيف أمكن لعدد من الأوروبيين المشاركة، بدرجة أو بأخرى، في ترحيل ملايين اليهود وتعذيبهم وحرقهم خلال ما نسميه اليوم بالهولوكوست؟

وكيف أيدت مئات الكنائس المسيحية استعباد أفارقة في حين صرح مسيحيون بأن «محبة الجار» تكمن في صلب ديانتهم؟

إن الإجابة عن التساؤلات السابقة بسيطة، وهي تعكس عنوان الفصل الثاني في هذا الكتاب، وهي أن كلاً من تلك المجتمعات كونت فكرة عن العالم، وهي فكرة عن النظام الطبيعي والمقدس في العالم، وقد برزت تلك الفكرة وشُرِّعت وأقنعت الشعوب بممارسة العنف تجاه مجموعات بشرية أخرى. إذ ما إن يضفي البشر صفة ذاتية على فكرة ما حتى تصبح هادية لهم بوصفها حقيقة كونية، ويندفعون للقيام بأي عمل من أجل تحقيقها. وينطبق الشيء نفسه، بالطبع، على تعبئة جماهير حاشدة للقيام بجهود إنسانية وتقديم خدمات صحية وأشياء مفيدة، مثل تنظيف البيئة ومقاومة التمييز العنصري، ومساعدة الفقراء والجوعى، أو العمل على وقف الحروب.

وعند مناقشة القرابين البشرية ودراستها، تجب مراعاة ثلاثة أشياء:

(1) تذكر أن الفلسفة الأزتكية تقول إن الجسد البشري شكل مخزوناً حياً للقوى المقدسة في العالم، وكان القلب والرأس متلقيين لمصادر القوة والتجدد في

الطبيعة.

(2) استندت الديانة والحياة اليومية الأزتكية على فكرتين وهما، تكرار صنع الآلهة في الخلق والتدمير، وتغذية الآلهة عبر تقديم هبات من الطاقة المقدسة.

(3) كان الأزتك مشربين بالروح الحربية والزراعية. فقد نظم النبلاء الأزتك مجتمعهم ونظامهم التعليمي بهدف توسيع نفوذهم على عدد من المجتمعات في أمريكا الوسطى من أجل فرض مزيد من الأتاوات وجمع الثروات والهبات لأنفسهم ولآلهتهم. وقد أدى ذلك لتوتر العلاقات وتزعزعها مع الحلفاء والممالك المعادية، مما أدى لنشوب حروب، بعضها في مناطق قريبة، وأخرى في ساحات معارك بعيدة. كما أن نظرتهم إلى النشاط الزراعي، ارتكزت على دورة الحياة والموت، ما دفع النبلاء والمحاربين وعدداً من المبدعين للإيمان بأن الولادة واستخلاص القوة من أجساد بشر آخرين عبارة عن عملية خلق أساسية تتكون من جزأين. وسوف نورد بحثاً سريعاً حول القرابين البشرية في ديانات أخرى. ومن ثم سنركز على الحالة الأزتكية عبر استعراض «الحروب الوردية» والمواقع، والممتلكات الشخصية والأدوات، وعملية تقديم القربان. كما سنبحث بالتفصيل احتفالين قربانيين، وهما قربان تيزكاتليبوكا (المرآة الدخانية) واحتفال سلخ جلود الرجال. وسوف تساعدنا هذه الدراسة في فهم ما حاول الأزتك تحقيقه عند تقديم الجنود الإسبان قرابين، وهو ما تم وصفه في بداية الفصل الحالي.

القرابين البشرية في ديانات أخرى

تعني القرابين البشرية قتل أحياء من البشر، واستخدام أجسادهم ودمائهم لأهداف شعائرية تشمل التواصل مع الآلهة. وفي الواقع، لطالما قُدِّمَت القرابين البشرية على مدار التاريخ البشري، كما تدل شواهد من الهند وهاواي، واليابان والصين، وأوروبا وأمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية. وفي الصين، على سبيل المثال، قُدِّمَ عددٌ كبير من الجنود وسائقو العجلات والمرافقون والخيولُ قرابين، ودفنوا مع الحاكم الأعظم

حوالي عام 1500 ق.م.. وقد استندت تلك الطقوس إلى فكرة تنص على وجود علاقة وثيقة بين الأحياء والأموات، والذين شكلوا بيروقراطية الدولة. وقد فُهِمَ من ذلك أنه بعد الموت يقوم جمع من الخدم والمساعدين على خدمة الحاكم الميت وأسرته كما عملوا في الحياة الدنيا. وقد تلقى الموتى «رواتبَ» في صورة قرابين بشرية لكونهم اشتغلوا شفعاء، أو وسطاء، بين الملك وأكبر الآلهة(125).

وهناك مثال آخر حول القربان البشري قدم للإله بوشيدو، وهو إله الساموراي اليابانيين من القرن السابع عشر حتى التاسع عشر. فمن خلال فكرة دينية، وجب على المحاربين تقديم الولاء الكامل لآلهتهم، بما فيها التضحية بالنفس أو سيبوكو (الانتحار الشعائري) لو تطلب الأمر ذلك. وقد شملت سيبوكو تمالك النفس أثناء قيام المحارب بِشَرْطِ بطنه بسكينَ خاصةٍ، ثم يقطع جلاّدٌ عنقه. وقد مورس هذا الشكل من القرابين الذاتية لعدة أسباب، بما فيها التكفير عن خطيئة بحق الحاكم، أو تجنباً للأسر، أو عند وفاة أحد الحكام، أو كنوع من السلوك الغَيْري لإجبار حاكم متقلب للعمل وفقاً لنظام أخلاقي مستقيم. وقد جرى نموذج دراماتيكي للسيبوكو وعلى الملأ، في عام 1970، من قبل الكاتب الياباني يوكيو مشيما الذي عُرِفَ بإنتاجه الغزير، كما حقق شهرة كبيرة. فقد استولى مشيما مع أربعة من رفاقه على مقر القيادة العامة للجيش بالقرب من الجزء القديم لمدينة طوكيو، وذلك احتجاجاً على السياسات العسكرية للحكومة اليابانية في أعقاب الحرب العالمية الثانية. في ذلك اليوم ألقى مشيما كلمة لمدة عشر دقائق أمام حشد من الناس، ثم نفذ هارا ـ كيري (نزع أحشاء الجسم) ثم قطَع رجل آخر رأسه.

وتتوافر أمثلة عديدة أخرى في التاريخ العالمي لشعوب تغاضت عن القرابين البشرية ومارستها ثم انتقدتها. ورغم كون هذه الممارسات مستهجنة وغريبة طبقاً للحساسيات المعاصرة، فإن حالات فقر شديد وحروب وإرهاب وتعصّب تنتج غالباً سلوكيات قربانية. على سبيل المثال، تمت في 18 نوفمبر 1978 عملية انتحار جماعي. فقد أقدم على الانتحار 914 عضواً في معبد الشعب، وهو اسم لطائفة دينية كان مقرها كاليفورنيا ثم انتقلت إلى جونز تاون في جوانا (أمريكا الجنوبية). وقد انتحروا بواسطة

شراب فاكهة أضيفت إليه مادة السيانيد السامة. لقد مارس أفراد تلك الجماعة مذهباً مسيحياً، وقد حركهم شعورٌ جماعي بحب الشهادة، إيماناً منهم بأن حياتهم في هذا العالم فسدت بفعل مؤثرات خارجية، وأن حياةً طوباويةً تنتظرهم في «الجانب الآخر» في جنة سماوية(126).

وفي حالة مشابهة أحدث من سابقتها، أقدم على انتحار جماعي تسعة وثلاثون فرداً من جماعة عرفت باسم «بوابة الجنة» داخل منزل في رانكو سان دييجو في كاليفورنيا، وذلك قبل أيام قليلة من اكتشاف جثثهم في 26 مارس 1997. فقد آمن هؤلاء الأشخاص أنهم سيركبون في مركبة فضائية تتحرك خلف المذنب هالي بوب أو مرتبطة به، وأنها ستنقلهم إلى «مملكة أو مكان بعيد عن البشر». ولأنهم تشبعوا بتلك الفكرة أنهَوْا حياتهم، وعُثِرَ عليهم مستلقين في أسرّتهم وقد ارتدَوْا ملابس سوداء، وغطوا رؤوسهم بأقمشة وردية. لقد اختار هؤلاء الأشخاص، كالأزتك تماماً، الزمان والمكان وطريقة إنهاء حياتهم إيماناً منهم بأن تضحياتهم ستمنحهم حياة أفضل.

مواقع القرابين الأزتكية

لابدّ من معرفة أن القرابين البشرية عند الأزتك تمت ضمن نظام شعائري أكبر وأكثر تعقيداً، إذ صرِف قدر كبير من الطاقة والمال والوقت في شعائر متنوعة كُرِّسَتْ لمجموعة جائعة من الكائنات المقدسة. وقد انعكس هذا النظام في عدة مجازات ورموز مرتبطة بالحروب والقرابين. فقد شُبِّهَتِ القلوب البشرية بحجر فيروز ناعم ومصقول، كما أشير إلى الحرب بوصفها أشبه بتيوآتلتلاشينوللي ومعناه «سائل مقدس وأشياء محروقة». وكانت الحرب هي مكان «يزأر فيه النمور» وحيث «تعلو قلنسوات حربية ريشية كزَبَدٍ فوق الأمواج». كما سمي الموت في ساحة المعارك اكسوشيميكويزتلي مما يعني «الموت الوردي». وقد يشبه هذا الوصف أحد الأقوال التي صدرت حول الموت في حروب القرن العشرين، أي أن «الموت في سبيل الوطن حدث نبيل ومشرف».

وقد تمت تلك الاحتفالات الشعبية في عدد من المراكز الشعائرية في المدينة وفي أرجاء الإمبراطورية. كما شكل المركز الشعائري الكبير الذي ورد وصفه في الفصل

الثالث محور مدينة تينوشتيتلان وبلغ طوله 440 متراً من جوانبه الأربعة. وقد ضَمَّ، وفقاً لبعض الروايات، أكثر من ثمانين معبداً وحاملات جماجمَ ومدارسَ وغيرها من الأبنية الشعائرية. ويحوي الجزء الثاني من مخطوطات فلورنتاين لساهاجون قائمة قيمة لأوصافِ بعضٍ من تلك المباني، ومن ضمنها المعبد الكبير والذي انتصب «وسط الساحة»، «وهو شديد الاتساع وشديد الارتفاع... وبُنِيَ في مقابل غروب الشمس».

كما نقرأ في المخطوطات حول معبد حيث «قدم موتيكوزوما الكفارات، وكانت هنالك وفيّات، وقضى أسرى في المكان». كما أنشئت في المكان المدرسة الرئيسة في المدينة، وحملت اسم «مكسيكو كالميكاك» وهناك أقام التائبون وأشعلوا البخور عند قمة هرم معبد تلالوك. وكانوا يقدمون تلك الكفارة يومياً. كما وُجِدَ معبد كان يُرمى منه رجال نحو نيران كي يموتوا حرقاً. وإلى جانب ذلك المعبد انتصب حاملٌ كبير للجماجم، حيث كانت رؤوس الضحايا القربانيين تُعلّق وتعرض للعيان. وقد كُرِّسَ معبد آخرُ لآلهةِ الذرة، فقُدِّمتْ امرأة مثلت الآلهة أفعى 7 قرباناً أثناء الليل. «وبعد موتها كانوا يسلخون جلدها.. ويلبس كاهنُ النارَ الجلدْ». كما وُجِدَ أيضاً معابد الطهو، كالمعبد الذي «أعدوا داخله عجينة من بذور نبتة القطيفة لاستخدامها في تزيين صورة هويتزيلوبوشتلي». وقد وُصِفَ معبد آخر كُرِّسَ لطهو وتناول اللحوم البشرية بأنه المكان الذي «جَمَّعوا فيه الضحايا القربانية المسماة تلالوك. وبعد أن يتم ذبحهم كانوا يقطعونهم إرباً إرباً ثم يطهونهم. وكانوا يمزجون تلك اللحوم البشرية مع هريس أزهار ثم يقدمونها إلى النبلاء وكبار القضاة، ولا يُسْمَح للعامة بأكل لحوم القرابين، بل للحكام فقط»(127).

إن أسماء تلك الأماكن والأوصاف المختصرة تُظْهِرُ لنا أن القربان البشري كان شكلاً محدداً من العنف مورس داخل مراكزَ شعائرية معينة، بهدف مساعدة الأزتك على التواصل مع بعض الآلهة، والقوى والكائنات المقدسة. وقد أدى تخصيص تلك الأماكن المقدسة لحصر هذا العمل داخل مكان شعائري محدد، كما وفر مجالاً لكي يركز القائمون على تقديم القرابين أفكارهم ومشاعرهم.

النمط العام للقربان الأزتكي

رغم تنوع الأنشطة الشعائرية داخل تلك المعابد والمدارس وحوامل الجماجم والحمامات، فإن الشكل العام أو نموذج القربان البشري كان يتمّ كما يلي. تبدأ معظم الطقوس الأزتية ببنيزاواليزتلي، وهي مرحلة إعدادية من الصيام الكَهَنِيْ، تدوم عادة أربعةَ (أو أضعاف أربعةٍ) أيام. لكن استثناءً لذلك ينفّذ صوماً جزئياً لمدة عام كامل، مجموعة من الكهنة والكاهنات عرفوا باسم تيوكواك (أكلةُ الآلهةِ) أو الذين يثيرون رعباً شديداً، وهم إن اياشوان هويتزيلوبوشتلي إن موسي اكسيوزوكي (الإخوة الأكبر لهويتزيلوبوشتلي الذين صاموا مُدَّةَ عام). كما تشمل تلك المرحلة التمهيدية توزوالي زتلي (السهارى طوال الليل) وتقديم هبات من أزهار وأطعمة وملابس، ومطاط وورق وأعمدة شرائط ورقية، فضلاً عن كوبالتيماليزتلي (إحراق البخور) والإراقات (كسكب الخمر) وتظليل المعابد والتماثيل والمشاركين في الطقوس. كما تسير مواكب دراماتيكية يشكلّها مشاركون يرتدون أبهى الملابس، ويسيرون بمرافقة مجموعات موسيقية، وينشدون أناشيد دينية، ويمرون عبر المركز الشعائري قبل الوصول إلى المعبد المحدد لتقديم القربان، وقد سُمِّيّ كبار المشاركين بالشعائر باسم تيتوي ايكسيبتلا (ممثلو الآلهة). وقد شملت جميع الطقوس الكبرى تقديم قربان سواء من الحيوانات أو من البشر.

وكانت التضحية بالنفس من أكثر القرابين شيوعاً. وقد تمت تلك التضحية عن طريق استخدام أشواك الصبار الأمريكي أو غيرها من الأدوات الحادة في وخز شحمات الأذن والأفخاذ والأذرع واللسان، أو كما في حالة المذنِبينَ والكهنة، وخز الأعضاء التناسلية، من أجل تقديم الدماء إلى الآلهة. كما كان قطع رؤوس حيوانات كطائر السُّمان من أكثر عمليات القتل انتشاراً. لكن أشد عمليات تقديم الأضاحي دراماتيكية وقيمة، كانت تلك التي تتم على الأسرى من المحاربين والعبيد. فيُخضع أولئك الضحايا بداية لعملية اغتسال شعائري، ثم يُلبسون ثياباً أنيقة، ويُدرّبون على أداء رقصات خاصة. وفي بعض الأوقات يتمّ إخضاعهم لبرامج غذائية لزيادة أوزانهم، أو لإنقاصها خلال المرحلة التمهيدية. كما يُلبسون، بعناية شديدة، ثياباً زاهية وأنيقة



قسم من تمثال لحامل الجماجم في موقع المعبد الكبير (بتصريح من جوزي. بي. كويللار).

كي يظهروا في صورة آلهة معينة سيقدمون قرابين لها.

وتروي لنا مصادرُ أوليةٌ مختلفةٌ طيفاً واسعاً من الأساليب القربانية، ومن ضمنها قطع الرأس وإطلاق السهام أو الرماح، والإغراق والإحراق والقذف من أعالي المرتفعات، والشنق والدفن والتجويع، والمصارعة حتى الموت.

وكان يتُوِّجَ الاحتفال، الذي يدوم غالباً مدّة عشرين يوماً، بتقدم موكب نحو يسير فيه السجانون والأسرى، وقد ارتدوا أبهى الثياب، وأخذوا في الغناء والرقص معاً. ثم يقتاد الأسرى (رُغْماً عنهم) إلى أعلى الدرج نحو تيكاتل أو الحجر القرباني(128).

وسرعان ما يوضع الضحايا على الحجر، حيث يقوم كاهن المعبد بشق صدورهم بواسطة تيكباتل، أو سكين حادة. وكان الكاهن يمسك بالقلب الذي ما زال ينبض، ويسمى «صقر فاكهة الصبار الثمينة» وينتزعه من صدر الضحية، ويقدمه إلى الشمس كغذاء ومصدر للطاقة، ثم يضعه في وعاء دائري منقوش أطلق عليه اسم كوا أوكسيكاللي أو «وعاء الصقر». وفي عدة حالات، كان الجسد، والذي أصبح بعد نزع قلبه يحمل اسم «رجل صقر»، يُدحرج فوق درجات المعبد إلى أن يصل إلى القاع، حيث يُقَطَّع إرباً. وكان الجلادون يقطعون الرأس ويستخرجون الدماغ. وبعد سلخ جلدة الرأس، يعلقون الجمجمة فوق تزومبانتلي أو حامل جماجم مُكَوَّنٍ من أعمدة طويلة ثُبِتَتْ أفقياً وحُمِلَتْ بجماجم. وفي بعض الحالات، كان الآسِر (المعتقِل) يتزين، بالطباشير وزغب الطيور، ويتلقى الهدايا. ومن ثم يجلس بصحبة أقاربه، ويحتفل بوجبة شعائرية تتكون من «طبق من يخنة ذرة مجففة سُمِيَّتْ تلاكاتلاأوللي.. وقد أضيفت إلى الطبق قطع من لحم الأسير»(129).

وقد أثير، قبل قرابة خمسةَ عشرَ عاماً، جدل حامٍ داخل أوساط أكاديمية وفي مجلات شعبية حول شدة الوحشية الأزتكية، والهدفِ من أكلهم لحوم البشر. ورأى بعض الباحثين أن الأزتك التهموا أعداداً كبيرة من البشر كمصدر للبروتين الضروري للحياة. كما أطلق عالم متخصص بعلم الإنسان على دولة الأزتك «مملكة أكلة لحوم البشر»، ولكن ذلك العالم، لم يُجْرِ، لسوء الحظ، دراسة موسعة حول الأزتك. لكنّ المعارضين لفرضية البروتينات قالوا إن أكل لحوم البشر عند الأزتك في المكسيك جاء



تقديم قلب قرباني إلى الشمس (مخطوطة فلورنتاين، على غرار رسم فرانسيسكو باسو ترونسكوسو، بتصريح من جامعة أوتاوا ومعهد الأبحاث الأمريكية).

تلبية لحاجة شعائرية من أجل تغذية الآلهة وتجديد طاقتها، وليس لإرضاء حاجات الإنسان في الطعام أو الشراب. وإن هذا بدوره يعني أن مفهوم الأزتك للقرابين وأكل لحوم البشر والوحشية تكوَّنَ على أساس أن الآلهة التهمت البشر من خلال الهبات الشعائرية المكونة من دماءٍ ولحوم بشرية. وبالإضافة إلى ذلك، توافرت للأزتك في بيئتهم مصادر وفيرة من البروتينات الحيوانية والنباتية. كما تجدر الإشارة إلى تأكيد الأدلة المتوافرة على أن شعب الأزتك، والنبلاء خاصة، تناولوا كميات ضئيلة من لحوم البشر خلال الوجبات الشعائرية، وفي مناسبات نادرة نسبياً.

قربان تيزكاتليبوكا: إله المرآة الدخانية

سنتحول الآن إلى قربان خاص لنرى كيف عُدّ الجسد البشري مصدراً للقوة المقدسة، وكيف حوّل الأزتك محارباً من الأعداء إلى واحد من آلهتهم. وسنحاول تخيّل كيف بدا هذا القربان في عين مراقب عاش في مدينة تينوشتيتلان، وشهد كامل مراحل المهرجان القرباني.

إن مشاهدنا فتى في السابعة عشرة من عمره يدعى نا أوميتل (أربعة سهام). وقد اختير كي يرسم مهرجان توكسكاتل لذلك العام لصالح مكتبة مدرسته كالميكاك. وبينما كان يستعد للمهرجان، أخذ في وصف ما شاهده وما شعر به، وما تعلّمه، بوصفه كاهناً غِرّاً، أثناء تنفيذ قربان المرآة الدخانية قبل عام. قال:

> «طلب معلمي في كالميكاك، وهو كاهن الأفعى الثمينة (كويتزالكوآتل) رسم مراحلَ أقدسِ مهرجانٍ، والذي أطلقنا عليه اسم «الفصل الجاف» (توكسكاتل). وقد أخبرني كاهن الأفعى الثمينة، وهو أستاذي الصارم، والرؤوف في الوقت عينه، والذي أشرف على تعليمي مدَّةَ ثلاث سنوات شمسية، أنه أعجب بطاقتي الفائقة، وأسلوبي في رسم روح المناسبات الشعائرية على الصفحات المقدسة. وفي العام الماضي، طلب مني تتبع جميع تفاصيل هذا الاحتفال الملكي من أجل الاستعداد لرسم احتفال العام الحالي. وقد عملت طوال ثلاث سنوات بِجدٍّ ودأبٍ، وسهرت الليالي واستيقظت باكراً، وأشعر الآن بفخر كبير لتشريفي للرسم بالحبر الأحمر والأسود حقائقَ مهرجان المرآة الدخانية (تيزكاتليبوكا)، والذي يقول كاهن الأفعى الثمينة إنه «إله آلهتنا». وعندما شهدت هذا الاحتفال، في العام الماضي، بصفتي طالباً في المدرسة الكهنوتية، أعجبت بجمال ولياقة المحارب الخصْم الذي قُتِلَ في نهاية المهرجان. وقد امتاز ذلك المحارب الموسمي، والذي حولناه من إنسان إلى الإله تيزكاتليبوكا، بخلو جسده من أية عيوب أو تشوهات، وقد عومل كأحد أفراد

أسرتنا المالكة طوال عام كامل، إلى أن حان موعد تقديمه قرباناً. وخلال تلك الفترة، تلقى هدايا فاخرةٍ من مخازنِ النبلاء، ومنها ألبسة وأطعمة، ونساء. كما تلقى دروساً تعليمية وإرشادات. وكان يسير بيننا كأنه إله حي، وقد تأثرت وشعرت بالفخر، خاصة عندما أوقف الطلاب الأصغر سناً دراستهم أو لعبهم جرّاء انشغالهم به وبحاشيته من الخدم والحراس وهم يسيرون في طرقات المدينة، أو يقودون قوارب الكنو عبر القنوات. وقد تعلق عدد كبير منا بذلك الإله الحي، وقد أصاب بعض النساء حزن شديد عندما اقتيد، في نهاية العام، إلى شالكو، وذُبح وقُطِّعَ إرباً في مشهد عام. وسوف أصف لكم صوراً وأحداثاً جرت في العام الماضي عندما تتبعت كل حركاته وسكناته. وسوف يساعدني ذلك في إعداد رسوماتي التي سَتُضَمُّ إلى كتاب التاريخ المقدس.

لقد تعلمنا في الكالميكاك أن جميع الاحتفالات التي تشهد قتل آدمي تعتبر نيكستلا أوآللي أو «سداد دَيْنٍ» لحياة آلهتنا التي أخِذَتْ بعيداً في زمن الأساطير، حتى تنشأ الحياة في آناهواك. ويبدأ سداد هذا الدين، وهو احتفال يدوم عاماً كاملاً، عندما يذهب كاهن الأفعى الثمينة إلى بيت احتجز داخله مجموعة خاصة من المحاربين الأسرى تحت حراسة مشدَّدة، لعدة أشهر قبل بدء المهرجان. وعندما رافقته مع حراس الملك في العام الماضي إلى ذلك البيت، أعجبت أشد الإعجاب بالأجساد الرياضية الخارقة لأولئك المحاربين. فقد تطلب أن يكونوا، وفقاً لمعاييرنا، خالين من العيوب، لأن الإله تيزكاتليبوكا يمثل الكمال بالنسبة لنا. وعندما اقتادنا الحراس نحو ساحة المشاهدة، تفحّص كاهن الأفعى الثمينة الرجال عن كثب، وأتذكر أنه ألقى الأنشودة التالية قبل أن يختار التيوتل ايكسيبتلا الجديد:

نبحث عن جسد كامل، عن محارب قوي بهي الطلعة، رشيق كعود قصب، طويل ونحيف. نبحث عن رجل شبيه بعصا قوية، كعمود حجري، صلب العود. كما أننا نبحث عن رجل فطن متنبه إلى

الآلهة. ويجب أن يكون ناعم البشرة كثمرات طماطمنا، كحصى دائرية صلبة، أو كشخص نحت من الشجرة السماوية. ويجب أن لا يكون ذا شعر أجعدَ أو جبينٍ خشنٍ أو رأسٍ طويلٍ. كما لا يفترض أن يكون جفناه منتفخين أو كبيرين. كما يجب أن لا يكون ذا أنف مفلطح أو عريض أو معقوف. وليس مرغوباً أن يكون ذا شفتين غليظتين أو سميكتين أو كبيرتين. ويفترض بذلك الشخص إتقان فن الكلام، وأن لا يتلعثم وأن يتقن لغة ناهوآتل قبل أن يسدد الدين. كما ليس مقبولاً أن يكون ذا أسنانٍ ناتئةٍ أو كبيرةٍ أو صفراءَ، أو بشعةِ الشكل. ويجب أن تكون أسنانه كأصداف البحر، و أن لا تكون عيناه دائرتي الشكل أو شبيهتين بثمرة طماطم وليس بأعور. كما يفترض أن تكون يدا الرجل المرغوب جميلتين. فليس مرغوباً أن يكون ذا يدين طويلتين، أو يداً واحدة، أو أصابعَ عريضة. ومن المطلوب في ذلك المحارب أن يكون ذا جذع مستقيم متوازن، وأن لا يكون شديد النحول، ولا ذا كرش وسرّة بارزة، أو معدة متجعدة أو منكمشة، ولا ذا مؤخرة شبيهة ببلطة أو طويلة ومشوّهة. إني أبحث اليوم عن رجل كامل الأوصاف. وإن وجدنا مثل ذلك الرجل، الخالي من العيوب الجسدية، والخالي جَسَدُهُ من أيِّ علامات أو تشوهات، فإننا سنعلِّمُهُ كيف يتحول إلى إله، وكيف يعزف على القيثارة، ويتلاعب بالصافرة كأنه موسيقي مقدس. سوف نعلمه كيف يتحول إلى أفضل رجل بيننا، وسيتعلم كيف يسير مثل إله، وكيف يحمل الأزهار المقدسة، ويدخن من أنبوب الدخان، وأن يصبح شبيهاً بالمرآة الدخانية كاملةِ الأوصاف(130).

ثم تجري عملية فحص دقيق، وينتقي كاهن الأفعى الثمينة رجلين ويأمرهما بالوقوف جانباً، ثم يأخذهما إلى غرفة مشاهدة جانبية. وبعد التشاور مع مساعديه، يختار أحدهما، ويكون رجلاً ذا جسد متكامل يحمل اسم إكسوتيل، مما يعني

حشائش ونهر قديم وتَجدُدْ. وبعد نقل ذلك المحارب كامل الأوصاف إلى مساكنَ ملكيةِ، يخضع إلى مرحلة تدريب طويلة تحت رقابة مشددة متواصلة إلى أن يتحول إلى واحد من فنانينا العظماء. فيُدرّب على عزف ألحان الأغاني المقدسة على القيثارة، والتحدث بطلاقة مثل تلامياتيني، وحمل أثمن أزهارنا كأنه رجل نبيل، والسير كحاكم في أرجاء المدينة.

إن هذه المرحلة، هي في الواقع، من أكثر المراحل إثارة في احتفالنا العظيم، والذي يمتد عاماً كاملاً، إذ كان تيزكاتليبيكا ايكسيبيتلا دائم الحركة والانتقال من مكان إلى آخر. وقد روعي أن يتحلى بالحذر واليقظة في سلوكه، وأن يتحدث بلباقة وكياسة مع من يلتقيهم. وكان يتنقل يومياً بين أرجاء المدينة، ويستعرض نفسه ويعزف ألحانه، ويحيّي من يقف لتحيته وإبداء تقديره واحترامه له. وكلما رآه الناس، يشيرون إلى جماله ويقولون له «إلهنا إننا ننحني أمامك، ونسألك أن تمسك أصابعنا الرطبَةَ وأن تمسحها بالتراب الذي يمنحنا الحياة، ومن ثم نلعق أصابعنا تقديراً واحتراماً لك».

وإننا نطلق على هذا السلوك احتفالَ أكلِ التراب، مما يعني أننا لسنا جديرين بتيزكاتليبوكا، لأننا مكوَّنينَ من تراب وموت وفناء. وإني أذكر جيداً ذلك اليوم، عندما أتقن تيزكاتليبوكا الفنون، واستعرض قدرته على التجول بين أحياء المدينة، حيث أُخِذَ للقاء موتيكوزوما أوكسوكويوتزن، وهو أقدس تلاتوآني عندنا. في ذلك اليوم، تجمع النبلاء في لباسهم الملون الخاص، وعلت أصوات قرع الطبول، وعُزِفَتْ بالقيثارات أجملُ الألحان، واتجهت جميع الأنظار للقاء حاكمنا بإلهه. وقد حَمَلَ موتيكوزوما الملابس المقدسة، وألبس تيزكاتليبوكا وزيَّنَهُ بأحجار اليشْب (الجاد) الكريمة والريش، وبمئزر وغطاء للكتف، وهدايا ذهبية وأخرى ثمينة جلبها تجارنا من مناطقَ بعيدة. وفي ذلك الاحتفال بالذات أدركتُ مدى الفارق الكبير بين الحاكم والعامة فيما يتعلق بامتلاك الثروة والمجد والأشياء الجميلة. لكنني تأثرت أيضاً بحجم التقدير والاحترام الذي أولاه الحاكم للإله الحي تيزكاتليبوكا».

سنتوقف هنا برهة قصيرة من أجل تسجيل بعض الملاحظات قبل مواصلة قراءة رواية نا‌أوميل. فقد نقل مخبرون إلى ساهاجون تفاصيل عملية التحول إلى إله الحاكم.



خلال مهرجان توكسكاتل، تم تحول أسير من صفوف الأعداء إلى إيكيسبتلا أو صورة من الإله تيزكاتليبوكا (مخطوطة فلورنتاين، على غرار رسم فرانسيسكو باسو ترونسكوسو، بتصريح من جامعة أوتاوا ومعهد الأبحاث الأمريكية).

قالوا له إن الكهنة أَلصقوا برأس الأسير المختار ريش صقر، وأزهارِ نبات الذرة. كما ألبسوه ثوباً فضفاضاً. وقد عُلِّقت حول أذني المحارب قلادات من أصداف ذهبية، وأُدخلت في شحمتي أذنيه أقراط من الفيروز. كما أحاط بعنقه عِقْدٌ من أصداف بحرية لامعة، وزُيِّنَ صدره بحليٍّ من أصداف بحرية بيضاء، وعُلِّقَتْ بشفته قلادة من قشورِ سحلية.

ولم يخل أي جزء من جسده من الحلي أو الزينة. فقد غطي أعلى الذراعين بأساور ذهبية، في حين غطت أساورِ فيروزية معظم ساعديه. وقد ارتدى مئزراً وصل طوله حتى ربلتي ساقيه، كما تدلى فوق كتفيه (كاب) صنع من شبكة ذات فتحات واسعة وحافة من خيوط قطنية بنية اللون. وقد زينت ساقا المحارب (الإله) بأجراس ذهبية، وانتعل صندلاً صنع من جِلْدِ النمر ومن زجاج بركاني.

ومن جديد، برزت أمام العامة الصورة الحية التي تمثل القوة الجسدية والثقافية والأبَّهة الملكية، ورأى السكان من جديد «الإله المحبوب».

كما تمّ، خلال الأيام العشرين السابقة للقربان، تحولان رئيسان. أولاً، نُزِعَتْ جميع تلك أنواع الزينة عن جسد «الصورة»، وقُصَّ شعر الأسير حسب طراز توشي آكاتل للمحارب الموسمي. ولم يعد يزين رأسه سوى ريشة متشعبة من ريش مالك الحزين، وأخرى من ريش طائر الكتزل.

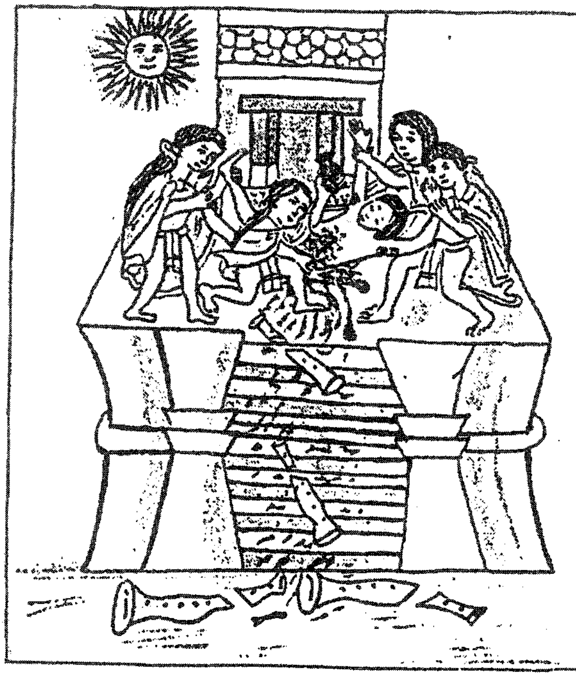
ثانياً، زُوِّجَ بأربع نساء، وعاش مدة عشرينَ يوماً فقط رجلاً متزوجاً، وسُمِحَ له بمعاشرة أولئك النسوة». وإن لرمزية ذلك الزواج الاحتفالي مغزى وهدفاً، لأن كلاً من تلك الزوجات كانت أيضاً تيوتل ايكسيبتلا تمثل الآلهات (الأنثويات) إكسوشيكويتزال آكسيلونين وآتلاتونان ويواكستوسيوآتل. وقد رقص خمستهم وأنشدوا في الأماكن العامة لمدة خمسة أيام، ووزعوا الهدايا إلى الناس في سلسلة من مواقع محددة، ومن ضمنها تيكانمان، ومن ثم في مكان تمت فيه حراسة صورة تيتلاكاوان، كما عند صورة تيبيت زينكو وسط بحيرة ضحلة. وفي اليوم الرابع، تم الرقص والغناء وتوزيع الهدايا عند صورة تيبيب أولكو. ونعود الآن إلى رواية ناأوميتل: «لا أبالغ عند تأكيد أنه بعد تلك الزيارات لمواقعَ مقدسة في البحيرة، تغيرت فجأة، وبشكل حاسم ونهائي الحالةُ العامةُ لتلك الاحتفالية الطويلة. فقد انطلق تيزكاتليبوكا والنساء الجميلات إيكسيبتلا في قارب، وأخذت النساء في إنشاد أناشيدَ حزينةٍ شجيّةٍ جعلتنا نحن المشاهدين والمستمعين عند الشاطئ نرتعد خوفاً. فقد أخذن في مواساته وتعزيته استعداداً للحظات رهيبة قادمة. ومع تردد صدى تلك الألحان الحزينة، طافوا بالبحيرة، ثم عادوا. وقد عانقته النساء وودعنه. وفي العام الماضي، اضطُّرَ الحراس للتدخل من أجل إبعاد امرأة تعلقت بتيزكاتليبوكا، ولم تستطع تحمل فكرة أنه سيقتل ويقطع رأسه وينتزع قلبه. ورغم معرفتها بالمصير المحتم للرجل ـ الإله، حضرت الاحتفال وانهارت باكية متفجعة، فأُبعدت وقد أصابها الذل والعار. ولابدّ من أن أعترف بأن إبداء تلك العواطف والمشاعر الجياشة الحزينة أزعجني وحرّك مشاعري. وفي وقت متأخر من تلك الليلة عبَّرْتُ لكاهن الأفعى الثمينة عن تجربتي المريرة. وقد أكد لي بكلمات لا

لَبْسَ فيها أن هذه الشكوك تعد خرقاً عميقاً للقواعد الدينية، وهي تتعارض تماماً مع تدريبنا الثقافي والتعليمي، وأنها لا تُقبل إطلاقاً من كاهن شاب مثلي. وعندما نظرت في عينيه خشيت أن يعاقبني بوخز الأشواك وسكاكين من أحجار رخامية كما جرى لي قبل عام. لكن أدركت، في الوقت ذاته، أنه قدّر ضعفي، وأنه لابدّ من أن يكون قد مرَّ بالتجربة نفسها، وخبر الأفكار ذاتها منذ وقت طويل عندما كان كاهناً شاباً. بدت في عينيه نظرة واعية مدركة لمشاعري، لكنها كانت أيضاً نظرة تحذير بأن لا أتطرق إلى الأمر مرة أخرى.

وفي ذلك الوقت، بقي تيزكاتليبوكا بمفرده على الشاطئ باستثناء حراس أخذوا في التشدد في مراقبته خوفاً من محاولته الهرب وسط ذلك الجو المشحون والمضطرب. ثم بدأت مسيرة الموت عندما سار والحاشية للمرة الأخيرة أمام أبناء الشعب الذين تجمعوا على طول الشاطئ والطرقات لرؤيته، وهو متجه نحو معبد القربان في شالكو. ولا أستطيع أن أصف لكم نظرات الرعب والرهبة والتقدير التي لاحت على وجوه الرجال والنساء الذين وقفوا يحدقون النظر في ذلك الإله السائر نحو مقتله. وقرعت الطبول ببطء، وأطلقت صافرات كصيحات طويلة عالية، وملأت الأجواء أناشيد رددها كَوْرَسٌ طوال مسافة ثلاثة أميال قبل الوصول إلى الجزء الجنوبي من المدينة.

وقد دُهِشْتُ عندما رافقت للمرة الأولى كاهن الأفعى الثمينة إلى شالكو حيث وجد المعبد الذي قتل فيه تيزكاتليبوكا. إذ لم يكن المكان، كما توقعت، مهيباً وملوناً بأزهى الألوان، بل كان معبداً صغيراً لا يزيد عدد درجاته على عشر.

لكن، كان لكل درجة أهميتها بحسب ما تم لاحقاً. وقد ساد صمت مطبق عندما توقف تيزكاتليبوكا عند أسفل الدرج والحراس يحيطون به، وكبار الكهنة ينتظرونه بسكاكينهم وخناجرهم أعلى الدرج. وقد بدأ تيزكاتليبوكا، بعد عدة دقائق من التفكير المركز، بصعود درج المعبد بنفسه، وبمحض إرادته كي يموت هناك. وكان يصعد درجة ثم يتوقف، ثم يرفع إحدى قيثاراته نحو السماء ويكسرها إلى قطع صغيرة. وعند درجة أخرى يحطم قيثارة أخرى وتنقضي صافرة أخرى. وقد كانت عملية صعوده شديدة البطء، وعندما وصل إلى أعلى الدرج، تمَّ كل شيء بسرعة هائلة كما يجري عند



قربان تيزكاتليبوكا إيكسيبتلا (مخطوطة فلورنتاين، على غرار رسم فرانسيسكو باسو ترونسكوسو، بتصريح من جامعة أوتاوا ومعهد الأبحاث الأمريكية).

منحدرات أحد أنهارنا القريبة. فقد أمسك به كهنة القرابين بقوة شديدة وطرحوه على ظهره فوق صخرة القربان. وقد أُحيط بستة رجال، أمسك خمسة منهم بأطرافه الأربعة ورأسه، ثم أطلق السادس عويلاً وشق صدره بطعنة قوية بوساطة السكين المقدسة. وقد ملأت السماء صيحة مرعبة رهيبة، وارتعش الجميع وتصلبوا. وبعد ذلك، اقترب كاهن الأفعى الثمينة، وأخذ قلبه والذي بالكاد رأينا أنه ما زال يقطر دماً، ورفعه تكريماً للشمس. وأُنشدت أنشودة عندما وضع القلب داخل أحد أوعيتنا المقدسة، وهو الكوايكسيكالي، حيث بدأ في تغذية الإله الذي نقش وجهه داخل الوعاء.

عندما شاهدت تلك العملية للمرة الأولى، بدأت أفقد الوعي من شدة الدهشة والعجب، لكن صديقي كوا أوتيمول ثبتني. ثم أُنْزِلَ جسد تيزكاتليبوكا بحذر على

درج المعبد كي لا يتأذى جسده الكامل الأوصاف. وقد فصل رأسه عن جسده، وبعد نزع الدماغ والعينين، حَمَلَ الرأس رسول خاص إلى حامل جماجم كبير يوجد وسط المدينة، كي يُعلّق هناك ويراه جميع الناس.

ورغم شعوري العارم بالتعب والوهن العاطفي والجسدي، فقد لحقت بمجموعة من الكهنة نحو وسط المدينة، حيث تجمعنا من أجل الاستماع إلى كلمات حزينة ألقاها كاهن الأفعى الثمينة. وقد وقف إلى جانب الرأس المعلق ورفع يده، وأشار إلى جمجمة تيزكاتليبوكا، وأنشد مقطعاً ما زلت أذكره «تدل هذه الجمجمة على حياتنا فوق سطح الأرض. فقد تمتع صاحبها بمباهج الدنيا، وامتلك ثروات وحظي بهدايا وعطايا وعطور، وأشياء ثمينة من سيدنا، انتهت به الحال إلى هذه النهاية المأساوية. وفي الواقع، يجب أن يتذكر الجميع أن لا أحد على هذه الأرض يستنزف السعادة ولا الغنى ولا الثروات»(131).

يجب أن أخبركم وأنا أنهي هذه الأفكار أني تعلمت أشياء كثيرة من مشاركتي في تلك الطقوس السامية. فقد تعلمت على وجه الخصوص، أن تيزكاتليبوكا موجود حقاً في كل مكان. إنه يكمن في جمال أجسادنا وفي تحلل حياتنا. كما أدركت الآن لماذا نسميه «عدو من جانبين»، لأننا بينما نستطيع أن نعيش في سلام وهناء في منتصف حياتنا، فإننا نحاط بآلهة يطلبون حياتنا قرابين ولسداد دَيْنٍ استُحِقَّ علينا. وأشعر الآن أني بِتُّ على استعداد لرسم احتفال توكسكاتل لهذا العام، حتى تتمكن المجموعة القادمة من الطلاب سماع ورؤية قصة المرآة الدخانية المجيدة».

تظهر ملاحظات ناأوميتل النقاط التالية: في الوصف الأزتكي لما كانوا منهمكين بالإعداد له، لا يتم التركيز على القربان الفعلي. فقد أعدوا لاحتفالٍ قام على (1) تحويل رجل إلى إله (2) استعراض الأسير المقدس بأبهى حلة (3) تقديس المواقع والساحات التي زارها ومرَّ بها، و(4) توجيه رسالة أساسية تفيد بأن حياتنا على سطح الأرض ليست هي الحياة الفعلية، ولا هي الحياة الرئيسة. إن التضحية بالحياة سبيل لتجدد الآلهة الكبرى. وفيما يلي، سندرس مثالاً حربياً آخر لكي نفسر لغز التهام الآلهة.

احتفال سلخ جلود الرجال: المدينة ساحة معركة خيالية

رأينا في المثال السابق، أن حركات تيزكاتليبوكا إكسيبيتلا وتنقلاته ترسم خطوطاً للمسرح الشعائري للقربان، وقد أصبح جسده الكامل فضاءً مقدّساً متحركاً. وسنرى في المثال التالي، كيف تحولت المدينة إلى ساحة معركة مثالية، ساحة لا يواجه فيها المحاربون الأزتك هزائم، ولا تقع فيها أخطاء. وبكلمات أخرى، يمكن القول إن ساحة المعركة الخارجية التي يمكن أن تشهد نصراً أو هزيمة للأزتك، تحولت إلى ساحة معركة كاملة ومثالية داخل المدينة، حيث يتحقق النصر للأزتك. وقبل التحول إلى هذه الشعائر، قد يفيدنا أخذ فكرة موجزة عن الحروب الوردية، في فهم طبيعة العلاقات بين الحروب والقرابين البشرية.

كانت الإكسوشيا أويوتل (الحروب الوردية) أحد أهم الأعراف السياسية والشعائرية للإمبراطورية الأزتكية. وقد بدأت تلك الحروب في عام 1450 واستمرت حتى عام 1519، وتكونت من سلسلة من المعارك والمواجهات المبرمجة وفق مواعيد محددة بين حلف ثلاثي (تحالف بين حكومات تينوشتيتلان وتيزكوكو وتلاوكوبان) ومحاربين من ممالك الوادي تلاكسكالا ـ بيوبلا. وقد كانت تلك الحروب، في جزء منها، حروباً بديلة، بمعنى أن معارك منظمة دارت بين حكام تلك الممالك المتصارعة، عندما لم تكن هناك حاجة لإثارة حروب حقيقية. كما كانت شبيهة بألعاب الحروب المعاصرة، وهي أكثر جدية وحسب، حيث سقط ضحايا وأُسِرَ أسرى لتقديمهم قرابين. وقد سبقت تلك الحروب تدريبات صارمة للمحاربين وتنظيمٌ للمؤن والعتاد، ومسيرات طويلة للجيوش والأنصار، وتصميم ساحات الوغى والمعارك ذاتها. ومن العناصر الرئيسة للحروب الوردية، وضع التكتيكات وإظهار البطولات، وعمليات الأسر وإيقاع الجرحى والقتلى وأخذ الغنائم.

ويدور حالياً جدل واسع بين الباحثين حول أسباب الحروب الوردية وأهميتها. فمن وجهة نظر الأزتك، شنوا تلك الحروب من أجل الحصول على الضحايا القربانية للاستفادة منهم في الاحتفالات الشعائرية، فضلاً عن إبقاء المحاربين في حالة تدريب إبّان زمن السِّلْم. كما يبدو أنه ما بين عامي 1450 و1454 عانى الأزتك من مجاعة

مدمرة اعتبرها كبار الكهنة إشارة لغضب الآلهة التي احتاجت إلى مزيد من المحاربين والضحايا القربانيين. كما رأى المؤرخ دييجو دوران، والذي عاش في القرن السادس عشر، أن الحروب الوردية شُنَّت لهدف محدد، وهو تقديم القرابين لتيمبلو مايور في تينوشتيتلان. وقد شبَه تلاكا إيليل، وهو كبير المرشدين لعدد من التلاتوك، المحارب المشارك في الحروب الوردية بتاجر متجه إلى أسواق بعيدة لشراء نفائس وأشياء قيمة. فقد مضى الإله وجيشه إلى ساحات الحروب لشراء الدماء والقلوب ونفائس المعابد.

وقد أوضحت دراسات حديثة فكرتنا عن الحروب الوردية عن طريق الكشف عن أن تلك المواجهات العسكرية لم تثمر عن أسر محاربين لتقديم قرابين للمعابد فحسب، بل أدت لعمليات قتل حربية واسعة النطاق استنزفت الجيوش المتصارعة، وأحدثت فيها حالات فوضى ودمار. وفي تلك الحالات، تكون الحروب الوردية حروباً فعلية دارت بين دول، وليس مجرد معارك بسيطة بهدف أسر محاربين من أجل تقديمهم قرابينَ في المعبد. وبالإضافة لذلك، بات من المؤكد أنه، خلال فترات الهدنة بين تلك الممالك المتناحرة، دُعي حكام مناطق معادية كي يشهدوا القربان المسرحي في مركز الاحتفالات في تينوشتيتلان. فقد شهد أولئك الملوك الزائرون، وهم يجلسون فوق ظلل (أسرّة، عروش) مخفية عمليات القتل الشعائري لمحاربين من الأصدقاء والخصوم. وقد تمت تلك الدعوات بهدف ترويع وترهيب كل من الحلفاء والخصوم، وتخويفهم من تلاتوك الأزتك ونبلائهم، حتى يبقى الشعور الفوقي عند الأزتك سيد الموقف.

كما كان التلاكا إكسيبيهواليزتلي، أي «عيد سلخ جلود الرجال»، من أبرز المهرجانات القربانية ذات العلاقة بالجوانب النفسية والسياسية للحروب. ولهذا العيد أهمية خاصة لأنه ينطوي على التهام كميات صغيرة من جسد الضحية. وسوف نبحث في ثلاث سمات من هذا المهرجان (1) الاستعدادات للقربان (2) ذبح القربان (3) الهدايا المقدمة للآلهة والآسرين، أي أكل لحم البشر الشعائري من قبل الآلهة والرجال.

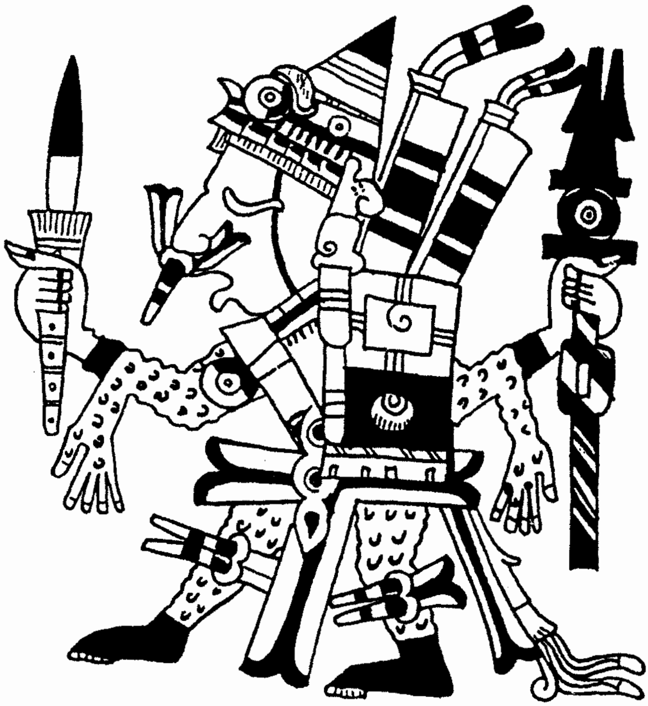
الاستعدادات للقربان

يتم خلال هذا المهرجان تشريف الإله إيكسيبي توتيك (إلهنا المسلوخ). ومن الأعمال الرئيسة في هذا المهرجان، قتل المحاربين الأسرى وسلخ جلودهم بعد أن يكونوا قد شاركوا في سلسلة من الطقوس المعقدة في عدة مناطق قريبة من العاصمة تينوشتيتلان، وفي مركز الشعائر الرئيس. وقبيل تقديم القربان وسلخ الجلود، تجري عملية تحول للمحاربين كي يظهروا في هيئة الآلهة. وقد ورد في إحدى الروايات أن محاربين أسرى استحموا وتعطروا، وأُلبسوا ثياباً شبيهة بثياب تيتوي إكسيبيتلا، وهو صورة حية من إكسيبي توتيك، وذلك قبل أربعين يوماً من يوم الاحتفال، وعرض على العامة في جميع أنحاء المدينة(132). وقد طليت أجساد أولئك المحاربين الأسرى بخطوط حمراء طولية في أعقاب ليلة سهر كاملة قُصّ خلالها الشعر من أعلى رؤوسهم. كما تمت حراسة الشعر المقصوص بوصفه قوة كامنة من «الرجل الصقر» والذي سيؤول مصيره بعد القربان إلى الإقامة في «حضرة الشمس». وقد قيل إن «الرجل الصقر يؤخذ غالباً إلى السماء كي يجلس في حضرة الشمس». وقد ساد اعتقاد بأن ذلك الشعر سيضمن المكانة الرفيعة وتوافر الأزهار والتبغ وأغطية الكتف «لا تفنى شجاعته. وبدا كأن الآسر يأخذ الشهرة والسمعة الطيبة من الأسير».

وبينما يتم تحويل الأسير إلى صورة من الإله، كان الآسر ينقل إلى معبد تيكانمان، ويُزَيَّنُ بزغب ديك رومي أبيض اللون، ويُغطى بالطباشير ويتلقى الهدايا. وقد مُنِحَ الآسر أسماء «الشمس، الطباشير والريش»، لأنه لم يمت في الحرب، أو لأنه سيذهب كي يموت، أو لأنه سيسدّد الدين في حروب، أو عن طريق قربان. وهذا يعني الإعلان عن ترشيحه لأن يصبح لاحقاً ضحيةً قربانية.

تقديم القربان

تبدأ المرحلة الرئيسة لهذا القربان الدموي بحضور جميع سكان المدينة. يشهد هؤلاء النظارة الأسرى وآسروهم وهم يسيرون نحو صخرة القربان، يتبعهم محاربو الصقر والنمر الذين يرقصون ويثبون ويستعرضون تروسهم وعصيّهم ذات النصال



إكسيبي تولتيك «إله الأزتك» (مخطوطة بورجيا، بتصريح من سيجلو فينتيونو ايديترز، المكسيك).

الحادة المصنوعة من زجاج بركاني، وقد رفعوها عالياً تكريماً للشمس. ووسط أصوات محارات وغناء وصفير، يبدأ القربان عندما يمسك الآسر بالأسير من شعره ويقتاده نحو الصخرة القربانية، حيث يرفع شراب البَلْكة أربع مرات ويشربه بوساطة عصا طويلة مفرّغة. ثم يُقطعُ رأس طائر سمانّ ويُرمى بعيداً، ثم يُطلب من الأسير شرب البَلْكة، ويُجبر على صعود الصخرة دائرية الشكل، حيث يقوم كاهن يسمى «الدب العجوز» وهو يلبس جلد دب، بتقييده من كاحله أو رسغه إلى وسط الحجر بواسطة «حبل المؤازرة».

ويعطى الأسير عصا مزينة بريش، ثم يهاجمه محارب نمر يقوم بالرقص حوله وهو مسلح بعصا حربية مملوءة بنصال من زجاج رخامي. ويروي النص:

«ثم يتقاتلان، ويواصلان تبادل التهديد والوعيد، متفرّسين واحدهما

بالآخر ليعيّنا مكان الضربات الخطيرة، في ربلة الساق أو في الفخذ،



ممثل الإله إيكسيبي تولتيك يشهد تقديم أسير حرب قرباناً للآلهة على يد مقاتل نمر(دييجو دوران، مخطوطة دوران، مكسيكو سيتي: آررينادورا انترناسيونال 1990، نسخة فاكسيميلي).

أو الرأس أو الجذع. وإن كان الأسير شجاعاً جريئاً، فإنه قد يتفوق، وإن بصعوبة بالغة، على خصمه. وقد يواجه الأسير أربعة من محاربي الصقور والنمور ويقاتلهم جميعاً، وإن عجزوا عن إضعافه، كان يواجه أحدهم، وهو محارب أعسر. وعندما ينجح ذلك المحارب في إحداث جروح في ذراعيه يسقط الأسير على الأرض، ويبدو كالإله اوبوشتلي. ورغم أن الأسير الذي طلي جسده بخطوط طولية، قد أصيب بالتعب والإرهاق، فإنه أبلى بلاءً حسناً كرجل شجاع. ولكن حالما أصابه تعب شديد، وبدأ بالدبيب على أربعة، وبفقدان الوعي، وأصبح عاجزاً عن القتال، فإنهم انتزعوا عصاه الحربية. وحينئذ واجهه من رسم على جسده خطوطاً حمراء، وأصبح الأسير عاجزاً

عن فعل أي شيء، ولا الدفاع عن نفسه، ولا الإتيان بأية حركة أو التفوه بكلمة، وارتمى كالميت، ويتمنى لو توقف نفسه وانتهى أجله، وتخلص من عبء الموت(133).

وكان بعض الأسرى لا يُقتلون بتلك الطريقة، بل يُؤخذون في اليوم التالي من قبل كهنة الهبات الذين يجرونهم من شعرهم من منطقة أعلى الرأس، ويجبرونهم على صعود الهرم نحو معبد هويتزيلوبوشتلي. وقد قاوم بعض الأسرى أو فقدوا الوعي، لكن الصورة المثالية للقربان تقول «لم يتصرف الضحية كامرأة، بل بدا قوياً متماسكاً، وصمد كرجل، وأخذ يتكلم كرجل، وبذل جهداً خارقاً، وأبدى صلابة، وتحلى بقلب شجاع، وأخذ في الصياح وتمجيد مدينته «هأنذا ماضٍ، ستذكرون اسمي في وطني»(134).

وقد مُدد الأسير فوق صخرة القربان بأيدي ستة من كهنة القرابين الذين انتزعوا قلبه المسمى «الصقر الثمين، ثمرة الصبار»، وقدموه إلى الشمس (يقول النص إن القلب «أطعم الشمس» قبل أن يتم وضعه قي وعاء الصقر. وفي ذلك الوقت يصبح اسم الأسير «الرجل الصقر»، ويدحرج جسده فوق درجات المعبد. وينقسم الجسد إلى أجزاء وينقلب رأساً على عقب عند وصوله إلى قاعدة الهرم).

كما شهد الاحتفال أشخاص آخرون، غرباء عن المدينة، وقد دعا موتيكوزوما إلى الاحتفال حكاماً ونبلاء أجانب جاؤوا من مدن بعيدة تقع خلف الجبال، وقد خاضوا معه حروباً. وقد أجلسهم خلف تعريشة من الورد والأغصان المتشابكة كي لا يراهم سكان تينوشتيتلان.

وبعد مقتل المحارب الخصم/ صورة الإله عند صخرة القربان، يقترب شخص مخيف يسمى «شارب الليل»، ويشق صدر الأسير وينتزع قلبه قائلاً: «هكذا يقدم إلى الشمس كي تشرب منه»، ثم يأتي كاهن القرابين ويثبت عصا صقر مجوّفة داخل فتحة صدر الأسير. إن هذه الإيماءات، وهي غمر العصا المجوّفة في الدماء ورفع الدماء باتجاه الشمس تعني أنه «قدِّم قرباناً كي تشرب منه الشمس»(135).

ثم ينقل الآسر، وهو يضع شارات المحارب، وعاء الصقر المملوء بدماء الأسير إلى

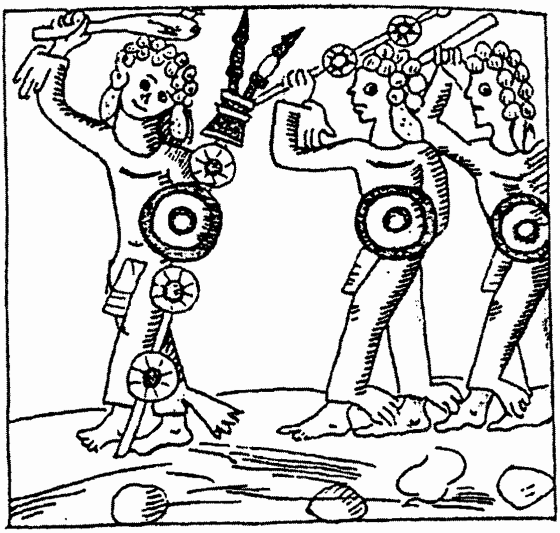
«كل مكان، ولا ينسى أية منطقة في الكالميكاس ولا في الكالبولكوس. ويمسح شفاه تماثيل الآلهة بالدماء». وبعد أن يزور المناطق المجاورة والمدارس، يودِع المحارب شاراته الحربية في القصر.

ومن ثم يحمل كبار الكالبوللي الجسد الممزق إلى المعبد المحلي، حيث تعهّد الآسر سابقاً بجلب أسير. ويُسلخ جلد الأسير ثم ينقل إلى بيت الآسر، حيث يتم تقطيعه لتقديمه في وجبة شعائرية. «وقيل قديماً إن (من يأكل من تلك الوجبة) يُعد إلهاً»(136).

كما تناول أقرباء الآسر قطعة من اللحم وضعت داخل طبق من يخنة الذرة المجففة. ومن الأشياء الملهمة في هذه التفاصيل المأساوية، أن الآسر لم يُقبل على تناول أية قطعة من جسد الأسير قائلاً: «هل يعقل أن آكل بالمصادفة نفسي؟» لأنه عندما أسر خصمه في المعركة، قال «إنه ابني المحبب»، وحينئذ أجابه الأسير «إنه أبي المحبب». وقد جرت العادة على إرسال عظم فخذ هدية إلى موتيكوزوما، في حين احتفظ الآسر بعظم الفخذ الأخرى جائزة. وبعد مضي عشرين يوماً، يعلق عظم الفخذ على عمود داخل بيت الآسر.

ومن الجدير بالملاحظة أن أصدقاء الآسر ومساعديه تناوبوا على ارتداء الجلود المسلوخة للضحايا القربانيين، وتنقلوا على شكل مجموعات حول المدينة لإنجاز مهمتين. تتم المهمة الأولى على شكل مناوشات مع فتية يتدربون على القتال، وقد حاولوا اقتطاع قطعة من الجلد إشارة على شجاعتهم، وأنهم شاركوا رمزياً في أسر أحد أفراد العدو. وأما المهمة الثانية، فقد تمت عبر تنقل أولئك الرجال اللابسينَ الجلودِ من باب إلى آخر من أجل جمع الأغدية لأنفسهم ولأصحاب الجلود، أي الآسرين. وقد عدت تلك التنقلات عبر المناطق المجاورة استعراضات مثيرة، وغالباً ما نجم عنها معارك وهمية شرسة بين المحاربين الأزتك الأغرار وبين الاكسيبيمي، أي اللابسينَ الجلودْ. فقد حاول المحاربون الشباب الذين لا يلبسون تلك الجلود الإمساك بمنطقة السرة عند الرجال اللابسينَ الجلودِ، في محاولة لاقتطاع قطعة من الجلد، ومن أجل «إثارة غضبهم وإغاظتهم»(137).

وكان لابسو الجلود يلاحقون المهاجمين عبر المنطقة الشعائرية، ويضربونهم بعصي



محاربون يلبسون جلود أسرى تم تقديمهم قرابين إلى الآلهة ضمن مهرجان تلاكا لإكسيبيواليزتلي (مخطوطة فلورنتاين، على غرار رسم فرانسيسكو باسو ترونسكوسو، بتصريح من جامعة أوتاوا ومعهد الأبحاث الأمريكية).

مصلصلة ويثيرون غضبهم. وكان شارب الليل يلاحق تلك المجموعة، فيهدد المحاربين الأغرار، ويلقي القبض أحياناً على بعضهم، ولا يطلقهم إلا مقابل فدية تقدم عند المعبد. وتكون الفدية على شكل ديوك رومية أو مواقد. وفي سياق هذا الطقس الذي يسمى «نيتي أوتو كويليزتلي»، أو «تمثيل شخصية إله» يضيف المحاربون، وهم يطوفون عبر شوارع المدينة، إلى شاراتهم، صورة الإله إكسيبي. وقد انطوى طقس التسول على مناوشات ومعارك وهمية وزيارات للبيوت، حيث يقدم العامة كيزان ذرة، في حين يهدى النبلاء الملابس والريش والمجوهرات. ووفقاً لرواية دوران، كانت النساء تحملن أطفالهن إلى الاكسيبيمي، والذين يضمونهم إلى صدورهم، ويخاطبونهم بكلمات خاصة، ويدورون حول فناء البيت أربع مرات، ثم يعودون بالأطفال إلى أمهاتهن، اللاتي يقدمن الهدايا إلى تلك الصور الحية من الإله إكسيبي(138).

وكان رأس الأسير يُحمل أثناء الرقصات، وقيل «إنهم يرقصون مع الرؤوس المقطوعة». وإذ يستمر الاحتفال والرقص والتزين بالقرب من المعبد الكبير إلى ما بعد

منتصف الليل، يتفرق زوار قدموا من مدن خاضت من قبل حروباً مع الأزتك.

وفي اليوم الثالث، يبدأ المشهد الاحتفالي عند القصر الكبير باستعراضات أكثر بهاءً وبذخاً، حيث يرقص موتيكوزوما في المركز الاحتفالي ويتبعُهُ حاكما مدينتي تيزكوكو وتيبانيكا. وكما ورد في رواية موتولينا، وهو كاهن فرانسيسكاني، ارتدى أولئك الحكام جلود أبرز الضحايا، وبعد إلقاء خطبة بليغة، يقوم موتيكوزوما بتوزيع العباءات والأغذية على المحاربين جزاءً على إنجازاتهم.

وفي اليوم العشرين بعد تقديم القربان، يدعو المحارب الآسر أقرباءه وأصدقاءه إلى وليمة. ويأخذ الآسر والرجال اللابسونَ الجلودِ بالرقص والقفز، وقد صدرت عن الجلود البشرية المهترئة رائحة نتنة، ثم يطوفون في الشوارع حتى الوصول إلى معبد إكسيبي، حيث يضعون الجلود الممزقة المتشققة داخل سلة ويدفنونها أسفل كهف. ثم يغتسل الإكسيبيمي ويعودون إلى فناء بيت الآسر الذي يقوم بتعليق عظم فخذ الأسير على عمود سلخ الرجال مما يرمز إلى أسيره الذي سلخ جلده. وعند أعلى العمود علّق «سترة من دون أكمام من حبال معقودة إلى جانب مجموعة صغيرة من ريش مالك الحزين». وقد غلّف عظم الفخذ بالورق وصنع له قناعاً، وقد سمى ذلك «إله الأسير». وكان من عادة الآسر إقامة حفل لأصدقائه وأقاربه، حيث يشمل كبار السن من الرجال والنساء. ويقوم رجل يرتدي زيّ المحارب الآسر بتقديم شراب البلْكة الأبيض في أربعة أماكن. ويستمر الغناء والاحتفال حتى نهاية الشهر. وقد جاء في النص «لقد أنهوا عملاً نفذوا شبيهاً له من قبل في عدة أماكن. وقد تمّ ذلك في يوم واحد. لكن الأغاني لا تتوقف في بيت الأغاني، إلا عند إقامة مهرجان هوي توكوزتلي»(139).

احتفالات أخرى والقربان الجماعي على أيدي الإسبان

جاء في الكتاب الثاني من مخطوطة فلورنتاين وصف كامل لثمانية عشر قرباناً تم تقديمها سنوياً. ومن أهم تلك القرابين ما سميّ آتلكاوالو، والذي شمل تسديد الديون لإله المطر، تلالوك.

في هذا اليوم، يجمع أطفالٌ (يطلق عليهم وصف «شرائط ورقية بشرية») ولدوا

في أيام ميمونة وهم ذوو شعور جميلة، وقد ألبسوا أزياءً ـ رُصِّعَ بعضها بلآلئ، خضراء ومقلّمةٍ بالأحمر والأسود والأزرق الفاتح، ويقدمون كأضاحٍ فوق أعالي سبعة جبال مختلفة تطل على حوض المكسيك. وقد بشرت دموعهم المنهمرة بقدوم المطر.

ومن الاحتفالات المذهلة، حفل أوشبانيزتلي، والذي يقام على شرف الآلهة الأم توسي (جدتنا). ويتمّ فيه تحويل فتاة، تشبه في ملامحها الجسدية ملامح الآلهة، إلى تيوتل إكسيبتلا عبر تزيينها بحليٍّ نسائية قيمة. وتشرف على تزيين الفتاة مجموعة من النساء، خاصة القابلات والخبيرات بالتداوي وطرق العلاج. وقد ساد اعتقاد بوجوب عدم إبلاغ الفتاة بأنها ستُقدم قرباناً، لأنه إن أصابها حزن أو كآبة، فإن مفعول القربان سيبطل. وتُقتاد الفتاة وسط غناء ورقص عبر الطرقات وصولاً، في نهاية المطاف، إلى قصر الحاكم أو نبيل آخر. وفي ذلك المكان، يعاشرها ذلك الرجل صاحب المقام الرفيع، والذي ساد اعتقاد بأن قوته الجنسية ستتضاعف من خلال معاشرته لآلهة. وبعد ذلك تُؤخذ الفتاة إلى المعبد الهرم، وعلى نحو مفاجئ يمسكها كاهن يقف خلفها ظهراً إلى ظهر، وينحني إلى الأمام كي تتمدد. وعلى وجه السرعة، يُقطع رأسها ويُسلخ جلدها، ويُنتزع قلبها ويوضع في الكوا أوكسيكاللي. ثم يضع شاب جلدها فوق جسده ويطوف به عبر أرجاء المدينة، ويتلقى الهدايا، ويشارك في رقصات وطقوس أخرى.

ومن الصعب عدم الإصابة بالدهشة، وأحياناً بخيبة أمل، أمام تلك الأشكال من العنف والشعائر، وذلك مهما بذلنا من جهد لفهم مغزى تلك السلوكيات. فقد وصل العنف البشري عند الأزتك إلى درجة خارقة في التاريخ البشري. وإن هذه الحقيقة بالذات تدعونا لدراستهم ومحاولة فهمهم. لكن من الجدير ذكره، أنه عند وصول الأوروبيين إلى الأمريكتين، أُطلقت أيضاً أشكال من العنف بحق السكان الأصليين، لم يوازها شيء في العالم الجديد. فقد قُتل خلال مئة عام أكثر من 85٪ من السكان الأصليين نتيجة ما عرف باسم «صدمة الميكروب، (الجرثومة)»، أي جرّاء القتل في الحروب، وظروف العمل القاسية في المناجم، وفي الحقول والمدن، وفي المجازر. فقد عاش في المكسيك قرابة 25 مليون شخص في عام 1500، وبحلول عام 1600 لم يبق على

قيد الحياة من سكان أمريكا الوسطى، سوى مليون شخص. فقد كانت غالبية السكان الأصليين الذين ماتوا خلال القرن السادس عشر من ضحايا الأمراض التي نُقلت إليهم عبر «المصافحة القاتلة»، أي التواصل الجسدي مع الأوروبيين، بما فيها إجراءات التعميد التي نفذها كهنة كاثوليك. وكما أشار أحد الكتاب، كان عند الأزتك هيئة للقرابين، لكن الأوروبيين جلبوا هيئة للقرابين الجماعية، أي مذبحة بحق المجتمع، أو بحق العالم الجديد. وقد شبه كاهن فرانسيسكاني، وهو موتولينيا، الهلاك الذي لحق بالسكان الأصليين بالكوارث العشرة التي أرسلها الرب لمعاقبة المصريين القدماء، والتي ورد ذكرها في العهد القديم. كانت الكارثة الأولى هي مرض الجدري «ماتوا بكميات كبيرة، كبقّ الفراش». وكانت الكارثة الثانية هي الموت بأسلحة الإسبان. وكانت الكارثة الثالثة هي المجاعة التي تزامنت مع تدمير الإسبان للمحاصيل الهندية. وجاءت الكارثة الرابعة على يد المشرف الشرير الذي عذّب السكان الأصليين. وأما الكارثة الخامسة فقد تمثلت في الضرائب التي فُرضت على السكان الأصليين، والتي صودرت بموجبها الأراضي والسلع الزراعية. وقد عانى الهنود ضغوطاً شديدة لدرجة اضطرتهم عندما نفدت مواردهم لبيع أطفالهم إلى الإسبان، كما باعوا أنفسهم، في نهاية الأمر. وكانت المناجم هي الكارثة السادسة، إذ اضْطُرَّ الهنود إلى العمل لساعات طويلة في ظروف خطيرة، وحملوا في بعض الأوقات ما يعادل وزنه 120 كيلوجراماً صعوداً نحو سطح الأرض. وكانت الكارثة السابعة هي بناء مكسيكو سيتي التي قتل خلالها عشرات الهنود جراء السقوط من فوق عوارض خشبية منهارة، أو سحقاً تحت حجارة مبانٍ مهدمة. وأما الكارثة الثامنة فهي عبودية المناجم. وكان العبيد يحملون وشماً يدل على أسماء من اشتروهم وباعوهم. وفي بعض الأحيان، كان العبيد يوشمون بأسماء عدة في مناطق مختلفة من أجسادهم. وجاءت الكارثة التاسعة من خلال قبور مفتوحة انتشرت حول المناجم. وقد روى شاهد عيان أنه كان من الصعب على المرء تجنب الوطء فوق أجساد موتى أو عظام «على طول مسافة تزيد على نصف فرسخ (من 2,4 إلى 4,6 من الميل) حول تلك المناجم وعلى امتداد قسم كبير من الطريق. كما كثرت أسراب الطيور والغربان التي جاءت لتقتات على الجثث

حتى حجبت أشعة الشمس»(140).

ووقعت الكارثة العاشرة نتيجة التقاتل الداخلي بين الفصائل الإسبانية، وتبادل الاتهامات فيما بينهم. فقد أدت مشكلاتهم الاجتماعية الداخلية لإصابتهم بإحباط، والعمل على قتل أعداد كبيرة من الهنود بلا مبرر قانوني أو عقلاني. ولنقرأ، على سبيل المثال، هذا التقرير والذي لا يُصدّق، وقد سجله الكاهن بارتولومي دي لاس كاساس. فقد قررت مجموعة من الإسبان، في يوم ما، وبعد العودة من نزهة، اختبار سيوفهم للتأكد فيما إذا كانت ماضية أم لا.

«نهض إسباني، ممن يعتقد أن الشيطان تلبّسه، واستلّ سيفه فجأة. ثم استلّ مائة إسباني آخرين سيوفهم، وأخذوا في بقر بطون أولئك الحملان ـ الرجال والنساء والأطفال، والعجائز، والذين كانوا جالسين ومتيقظين ومرعوبين، وهم يراقبون خيول الإسبان. وفي أقل من دقائق، لم يبق أيّ من الهنود على قيد الحياة. ثم اقتحم الإسبان البيت الكبير المجاور للمكان، لأن عملية القتل جرت عند بابه. وبالطريقة نفسها، وعن طريق الطعن وبقر البطون، أخذوا في قتل كل من كان داخل ذلك البيت، حتى جرت الدماء كجدول، وكأن عدداً كبيراً من الأبقار قد ذبح»(141).

وعند التفكير في بعمليات القتل الجماعي التي ارتكبها الإسبان، من الضروري القول إن عدداً من القساوسة والراهبات وغيرهم لم يسعوا جاهدين لفهم طبيعة المجتمع الأزتكي وتقييمه فحسب، بل سعوا بكل ما في وسعهم، رغم ما تعرضوا له من مخاطر شخصية، لوقف الاضطهادات وعمليات القتل واستغلال السكان الأصليين. ولابدّ من الاعتراف في نهاية هذا الفصل حول القرابين والحروب، بأن نظرة الإسبان القادمين إلى الأمريكتين، رفعت من قدرهم وأعلت من شأن إنسانيتهم، وحطّت من القيمة البشرية للأزتك بطريقة شرّعت، في أذهانهم، القسوة الشديدة التي مارسوها وآمنوا بصحتها.

الفصل الثامن

اللسانان: الأزتك في مواجهة الأوروبيين

كانت امرأة تدعى مارينا، وهي هندية مثله، ونشأت على أرضه، هي التي هزمته فعلياً. ورغم أنها استخدمت لغتين، فقد كانت هي التي كشفت لكورتيز أن إمبراطورية الأزتك منقسمة على بعضها بعضا، وأن الشعوب الخاضعة لميتوكوزوما يكرهونه كما يكره بعضهم بعضاً، وقد استغل الإسبان تلك الفرصة أحسن استغلال.

كارلوس فوينتس(142)

من أكبر الألغاز التي تواجه الباحث في تاريخ الأزتك، هي الإجابة عن السؤال التالي: كيف انهارت إمبراطورية الأزتك أمام مجموعة متنافرة من الغزاة الإسبان في أقل من عامين، بكل ما امتلكته من تقاليد عسكرية قوية ومؤسسات دينية معقدة، ونظام تجاري وتجسسي قديم ومتجذر في تنظيمه؟

ولابدّ للباحث من أن يحارَ أيضاً أمام السؤال التالي: كيف انقسم الأزتك إلى مجموعات متنافرة هُزموا أمام الغزاة الإسبان على ترابهم؟

نذكر أن الأزتك وثقوا بأنفسهم وبقدراتهم الفائقة، كما تدل هذه القصيدة في مدح المدينة:

إنها فخورة بنفسها
إنها مدينة مكسيكو تينوشتيتلان.
وفي هذه المدينة لا يخشى أحد الموت في الحروب
فإن ذلك لمجد وشرف لنا
هذه قيادتك
يا واهب الحياة!
لا تنسوا ذلك، أيها الأمراء

من يستطيع قهر تينوشتيتلان؟
من يستطيع هزّ أركان السماوات؟ (143)

في واقع الأمر، ما بين أحد الفصح في عام 1519 و 13 أغسطس 1521، اهتزت أركان عاصمة الأزتك ونظامها الديني، وممارساتها الثقافية، وطبقات نبلائها ومزارعيها وشعرائها وفنانيها. وجرى تحول كبير في العاصمة. وقد وصف شاعر من قبائل المكسيكا الدمار الذي لحق بالمدينة وسكانها في هذه العبارات المثيرة للمشاعر والشفقة:

حراب مكسرة مرمية على الطرقات
وقد اقتلعنا شعرنا من شدة حزننا
ولم يعد للمنازل أسطح،
وتلونت جدرانها بلون الدماء.
أسراب النمل تملأ الشوارع والساحات
واكتست الجدران ببقع من الدم...
من شدة يأسنا ضربنا أيدينا بعنف بجدران من اللبن
لأن إرثنا، مدينتنا ضاعت وماتت
كانت تروس محاربينا تدافع عنها
لكنهم ما استطاعوا إنقاذها(144)

فيما يلي سنتتبع أهم الأحداث التي سبقت المأساة الكبرى فيما سميّ «غزو المكسيك» عبر التركيز على:

1) رواية الأزتك حول وصول الإسبان وتقدمهم ودخولهم إلى تينوشتيتلان.
2) تطابق كورتيز مع الإله - الرجل كويتزاكواتل.
3) المعركة من أجل الاستيلاء على العاصمة.

وسنرى أن ما سميّ غزواً، كان في معظمه، ناتجاً عن تمرد خصوم الأزتك من السكان الأصليين ممن شكلوا تحالفات قوية مع الإسبان بقيادة كورتيز. كما سنتعرف

إلى إحدى أهم الشخصيات في التاريخ الأمريكي، وهي امرأة من السكان الأصليين عملت مترجمة بين الأزتك والإسبان، وكان اسمها دونا مارينا، كما عرفت باسم لامالينشي. وسوف نبدأ بوصف موجز لعهد موتيكوزوما إكسوكويتزين، حاكم الأزتك الشهير ما بين 1502 و 1520.

عهد موتيكوزوما إكسوكويوتزين

تقدم لنا مخطوطات ميندوزا وصفاً دقيقاً لمواهب هذا الحاكم الأزتكي وإنجازاته، والذي تسلم السلطة عقب وفاة آهويتزول في عام 1502 والتقى كورتيز في عام 1520. ويعني اسم موتيكوزوما (الإله الغاضب)، من تيكو [تلي] = إله، موزوما = تَقَطَّبَ حاجباه من شدة الغضب، إكسوكويوتزين (الأصغر، من إكسوكويو (تل) = الطفل الأصغر، تزين = الموّقر).

«وكان بطبيعته حكيماً وفلكياً وفيلسوفاً، وماهراً في جميع الفنون، ومدنياً بقدر ما كان عسكرياً. وقد حظي باحترام أبناء شعبه نسبة لجاذبيته وحسن تصرفه ونفوذه. وعند مقارنة عهده بأسلافه، لم يحظ قط أي حاكم سابق بمثل ما حظي به موتيكوزوما من نفوذ كبير وهيبة»(145).

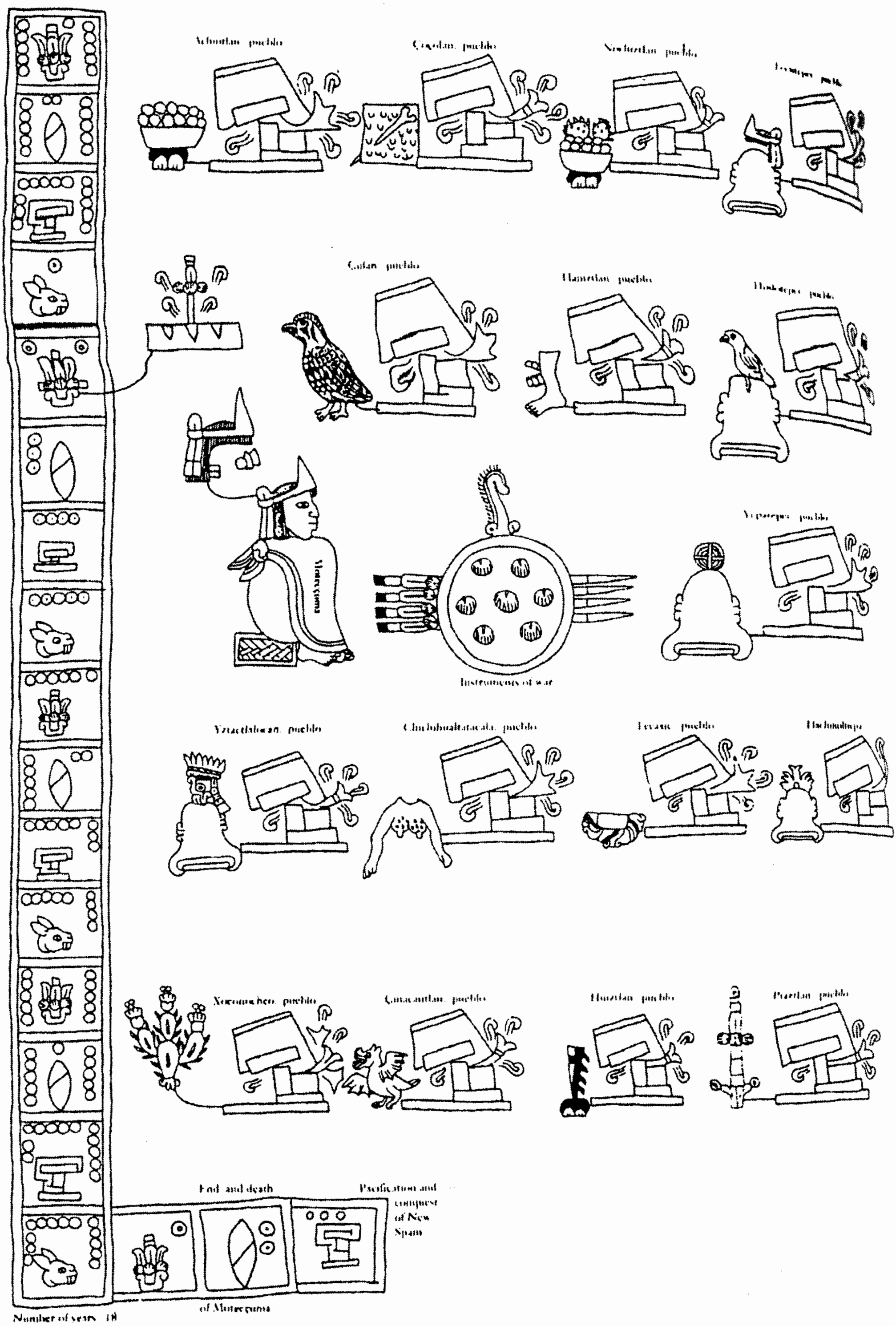
ووفقاً لما ورد على ألسنة المخبرين الذين ساهموا في رسم مخطوطات ميندوزا وتلوينها وكتابتها، حظي موتيكوزوما بمحبة أبناء شعبه «كما كان مرهوب الجانب من قبل أتباعه وقادته العسكريين والزعماء المحليين، حتى أنهم عندما ناقشوه في أمر ما، لم يرفعوا بصرهم إليه من شدة خشيتهم واحترامهم له، بل كانوا يطرقون رؤوسهم»(146).

وإلى حين وصول الإسبان، تؤيد جميع الروايات بشأن عهد هذا الحاكم، هذه الصورة البهية من النجاح والتألق. ولقد حصلنا على هذا الوصف الدقيق حول فترة اعتلائه العرش:

> «عند تسلمه السلطة واعتلائه عرش الأزتك، كان موتيكوزوما في الرابعة والثلاثين وقد اشتهر بأنه قائد عسكري. فقد حصل على

رتبة عسكرية عالية، وهي رتبة تلاكاتيكوتل، أو الإله العظيم. وقد أمضى القسم الأكبر من عهده في تعزيز فتوحات سلفه. وعند اعتلائه العرش، قاد حرب تولي سلطة ناجحة (تذكّر أن كل حاكم اضطر لشنّ حرب في إطار الاحتفالات بتتويجه على العرش) في أقصى المناطق الغربية للإمبراطورية. وتوالت الانتصارات، فقد ورد في مخطوطات الميندوزا أربعة وأربعون وصفاً لمعارك خيضت خلال عهده من عام 1502 إلى عام 1520. وقد تصاعدت خلال عهده الحروب الوردية، والتي ورد ذكرها في الفصل السابق. كما يبدو واضحاً قيام عدة حركات تمرد (ضد الهيمنة الأزتكية على عدد من الفصائل المكسيكية)، ويحتمل أن تكون تلك الحركات قد لعبت دوراً كبيراً في تسهيل عقد الإسبان تحالفات عديدة.

وقد شمل طراز حياة موتيكوزوما المترفة اتخاذه عدة زوجات، وتذكر بعض الروايات أن عدد زوجاته فاق مائتي زوجة. وقد كانت تلك الزيجات في قسم منها ـ عبارة عن ترتيبات سياسية عززت قدرة الماكسيكا على تشكيل وحفظ تحالفات عسكرية واقتصادية مع دول مدن قريبة ونائية. كما أثمرت زيجاته عن ولادة عدد كبير من الأبناء الذين كوّنوا حاشية ملكية وحكومة متضامنة. وقد أفادنا توافر عدة أوصاف دقيقة لهذا الرجل رواها شهودُ عيان أوروبيون. ومن هؤلاء بيرنال دياز كاستيلو، وكان ضابطاً في قوات كورتيز. وقد كتب كاستيلو، لاحقاً، مذكرات ضخمة حول الغزو، ويروي لنا أن الإمبراطور كان أنيقاً ونظيفاً، ورشيقاً وطويلاً وقوي البنية. وكان الإمبراطور يبدل ملابسه بأخرى نظيفة أكثر من مرة يومياً. كما وصف هيرنان كورتيز حياة القصر فقال: «في كل يوم عند شروق الشمس، يرد إلى القصر أكثر من خمسمائة نبيل وأتباعهم، ويمضون اليوم في التحدث والسير والتخطيط للمشاريع الحكومية. وقد ملأ جنبات القصر والشوارع المؤدية إليه مئات من الخدم. وكان ذلك العدد من الخدم يساويه عدد آخر يقومون على تقديم وجبات الطعام. إذ عند جلوس الحاكم إلى طعامه، كان أكثر من ثلاثمائة خادم يحملون أطباق اللحوم والأسماك والفاكهة



ـتيكوزوما إكسكويوتزين، تاسع تلاتوآني في تينوشتيتلان، والذي حكم بدءاً من عام 1502 وحتى عام 1520، وقد صور في
ـت عشرة غزوة من غزواته الأربع والأربعين (مخطوطة ميندوزا، بتصريح من فرانسيس إف بيردين وباتريشيا ريف آنوالت).

والخضار، ويضعونها داخل غرفة واسعة حيث يأكل موتيكوزوما، وهو جالس فوق أريكة جلدية وثيرة».

وقد وصف دياز ديل كاستيلو الوجبة: «سمعت أنهم اعتادوا على طهو لحوم الصبية الصغار خصيصاً من أجله، لكن نظراً لتنوع الأطباق المعدة من عدة أنواع من اللحوم لم نفلح في تمييز أنواعها وفيما إذا احتوت على لحوم آدمية أو أشياء أخرى. فقد حمل إليه الخدم أطباقاً من لحوم مطهوة من الدجاج والديك الرومي والتدْرج (طائر شبيه الحجل)، والحجل المحلي والسمّان والبط الأليف والبري، ولحوم الغزال والطرائد والخنزير البري، وطيور القصب والحمام والأرانب البرية والأليفة، وأنواع أخرى من الطيور تربى في هذه المنطقة، وهي عديدة لا أستطيع ذكرها في عجالة(147).

كما أشرفت على خدمة الحاكم أربع فتيات فائقات الحسن والجمال، وقد وضعن أمامه شاشة خشبية ملبّسة بقشرة ذهبية كي تحجبه، ولا يُرى عند تناوله الطعام. وفي بعض الأوقات، شارك موتيكوزوما زعماء آخرين في تناول الطعام، وشربوا معه شراب الشوكولا في أكواب من الذهب الخالص. وكما روى الإسبان، استمتع الحاكم بالاستماع إلى المطربين ومشاهدة الراقصين والمهرجين، وكان يعطيهم حصصاً من المأكولات والمشروبات التي فاضت عن حاجته وحاشيته.

الإسبان قبل كورتيز

من المعتقدات الخاطئة الشائعة أن الإسبان وصلوا إلى ما يعرف حالياً باسم المكسيك بقيادة كورتيز في عام 1519. وفي الواقع، وصلت في عام 1517 حملة استكشاف وبحث عن العبيد إلى ما يعرف حالياً باسم يوكاتان. فقد غادرت مجموعة من السفن مستوطنة كوبا، وأمضى أصحابها عدة ليالٍ في رعب وخوف بسبب عواصف هوجاء، إلى أن وصلوا إلى شواطئ المكسيك. وبعد أن تعرضوا لهجوم ضارٍ، وذُبح معظمهم في كمائن نصبت لهم عند الشواطئ وفي داخل مدينة مايان، سمعوا كلمة «قشتالي» تتردد على ألسنة المهاجمين. وفي حقيقة الأمر، عرف أفراد قبيلة المايا هوية الغرباء، لأن إسبانيين نَجَوْا من سفينة غرقت في عام 1511 وصلوا إلى الشاطئ، ووضعوا

تحت رحمة السكان المحليين.

وعند وصول كورتيز بعد ثمانية أعوام، اكتُشِفَ عبر مترجم أن اثنين من الناجين من حطام السفينة الإسبانية ما زالا أحياء ويقيمان في مكان ما على سطح جزيرة كوزوميل. وعند البحث عن الرجلين، عُثر على جيرونيمو دي آجويلار، والذي أصبح في ذلك الوقت متقناً للغة المايا أكثر من لغته الإسبانية الأم، لكنه ما زال قادراً على إعادة وصف تجارب ومحن الناجين من حطام السفينة. وقد روى آجويلار لكورتيز كيف قضى بقية الناجين من الجوع، أو جرّاء أمراض، أو عند تقديمهم قرابين، باستثناء رجل آخر، وهو جونزالو جيريرو، وقد أصبح قيادياً عسكرياً لقبيلة المايا. وفي حقيقة الأمر، بينما كان آجويلار سعيداً بنجاته، أذهلت قصة حول جيريرو الإسبان كما أصابتهم بالصدمة. فقد تزوج جيريرو امرأة هندية، وأنجب منها أطفالاً، ووشم جسده كسائر السكان المحليين، وأصبح قائداً عسكرياً لدرجة أنه شنّ هجوماً ضد بعض السفن الإسبانية.

وفي تحول درامي لا يكاد يصدق، ساعد آجويلار الإسبان عبر ترجمته معلومات مهمة أفادتهم عند محاولتهم تشكيل تحالف مع دول المدن التي أضمرت كراهية دفينة للأزتك. ومما يدعو إلى الدهشة أن جيريرو واصل دعم المايا ومساعدتهم في مقاومة الإسبان وقتالهم بشتى الوسائل والسبل. وتظهر أدلة على وجود جسده الأبيض الموشوم بين جثث هنود قتلوا في معركة جرت مع الإسبان في عام 1535 جنوب يوكاتان. فقد قاد جيريرو هجوماً بقارب كنو ضد الإسبان، وقُتل في المعركة.

ثلاث لغات

تحققت هزيمة نبلاء الأزتك ومحاربيهم وحاكمهم عبر عدة قوى، من بينها قوة اللغة. إذ كما بيَّن النص المقتبس في بداية الفصل الحالي، ما كان لغزو عاصمة الأزتك أن يتم دون دور الترجمة. فقد تحدث الأزتك والإسبان لغتين مختلفتين، وهما ناهوآتل والإسبانية. وفي معظم الأبحاث، تم تجاهل مدى صعوبة التواصل بين هذين الشعبين، وكيف لم يعتمد كورتيز على لغتين، بل على ثلاث لغات من أجل التعرف إلى موقع عاصمة الأزتك والأوضاع داخل المدينة، وللتواصل مع موتيكوزوما العظيم، ولتنظيم

هجومه على تينوشتيتلان.

لكن، الشخصية الرئيسة، لم تكن موتيكوزوما ولا كورتيز، بل امرأة هندية هي دونا مارينا. فقد نشأت مارينا كابنة كاسيك، أو زعيم، تتحدث لغة ناهوآتل، على ساحل منطقة الخليج في الإمبراطورية الأزتكية. وعندما تزوجت أمَّها ثانية، تقرر أن يحلّ أخوها غير الشقيق في مكانها في الترتيب لتولي العرش. فتمّ بيع مارينا لأفراد آخرين من قبيلة المايا. وقد نشأت ضمن أسرة من المايا بالقرب من مدينة سينتلا. وبعد أن انتصر الإسبان في معركة ضد الهنود المحليين، قُدمت كهدية إلى كورتيز مع مجموعة أخرى من النساء. وهكذا أصبحت مارينا إحدى عشيقات كورتيز، وأنجبت له ولداً أسماه مارتن، يبدو أنه كان ابنه المفضل. ولأن مارينا كانت تتحدث ما لا يقل عن لغتين هنديتين، وهما شونتال مايا (اللغة التي تعلمها آجويلار)، ولغة ناهوآتل (لغة الأزتك)، أصبحت مترجمة عند كورتيز. فقد تلقت المعلومات من ممثل موتيكوزوما الناطق بالناهوآتل، وترجمتها إلى لغة آجويلار، وهي لغة المايا، وقام أجويلار بدوره بترجمتها إلى الإسبانية لكورتيز. كما رافقت الإسبان خلال تقدمهم في السهل المكسيكي الكبير، وكانت حاضرة خلال اللقاءات الأولية بين كورتيز وموتيكوزوما. ويبدو أن اسمها الحقيقي كان «مالينتزين»، ولكن تمت الإشارة إليها مع كورتيز باسم «مالينشي». وهي تعرف اليوم في المكسيك باسم «لامالينشي». وقد كانت موضوع كتب ساخرة بوصفها خائنة للسكان الأصليين. كما صدرت كتب تمجّد دهاءها وتكتيكاتها الذكية في تجسير الثقافات التي كونت المكسيك.

الرواية الأزتكية حول الغزو

في عام 1962، أصدر ميجيل ـ ليون بورتيللا، وهو من أشهر الباحثين في حضارة الأزتك، كتاباً بعنوان «الرماح المتكسرة: الرواية الأزتكية حول غزو المكسيك». وقد اشتهر هذا الكتاب في جميع أرجاء العالم، وتُرجم إلى أكثر من اثنتي عشرة لغة. ويضم الكتاب مجموعة من الروايات حول وصول الإسبان إلى الشاطئ الشرقي للمكسيك، وعن لقاءاتهم الأولية مع الجواسيس والتجار الأزتك، ومطابقة كورتيز بالإله الملك

العائد كويتز الكوآتل، وتقدمهم في الأراضي المكسيكية، ولقاءات كورتيز ودونا مارينا مع حاكم الأزتك، والمعارك الضارية للاستيلاء على المدينة، وموت موتيكوزوما، وسقوط العاصمة.

وفي ما يلي وصف موجز ودقيق لتلك الأحداث الرئيسة، مستعينين فيها بآراء الأزتك، ومعلومات مستقاة من أهم وثيقتين إسبانيتين حول الأحداث نفسها. إنهما روايتا هيرنان كورتيز «الرسالة الثانية» التي أرسلها إلى الإمبراطور تشارلز الخامس (ملك إسبانيا)، وكتاب بيرنال دياز كاستيلو «اكتشاف المكسيك وغزوها». وسوف يساعد هذا السرد الموجز في فهم وتقييم هذه الكارثة المثيرة للشفقة، وهذه المواجهة غير القابلة للتصديق.

نذر الشوئم والآلهة

عندما قدم الأزتك روايتهم عن أحداث الغزو بعد عشرين عاماً من وقوع الواقعة، أوردوا مقدمة لها. فقد أشار الأزتك إلى أنه قبل عشر سنوات من وصول الإسبان، ظهرت سلسلة من نذر شوئم حذرتهم من حدوث شيء كارثي سيقضي على حياتهم اليومية وقوّتهم الإمبراطورية. وكان النذير الأول على هيئة «لسان من النار، كلهب... اخترق السماء». وجاء النذير الثاني عبر حريق هائل «شبّ من تلقاء نفسه» وقضى على معبد إله الحرب، هويتزيلوبوشتلي. وقد كانت ناراً سحرية، لأنه «عندما حاولوا إطفاءها بالمياه ازدادت اشتعالاً». فقد أصيب معبد إله النار بصاعقة، وانتقل مذنب في السماء من جهة الغرب إلى نحو الشرق، وألقى «رذاذاً من جمرات لامعة» أثارت خوف السكان. كما ظهرت فقاقيع فوق سطح البحيرات «هاجت مياهها وصدرت عنها أصوات فرقعات» وغمرت مياهها بيوت المدينة. وقد أعقبت تلك الهجمات السماوية والبرية على المكان، «حيث لا يخشى أحد الموت في ساحات الحروب»، عويل امرأة انتاب شبحها الطرقات ولازم الناس ليلاً وهي تصيح «أبنائي الأعزاء، سنموت قريباً».

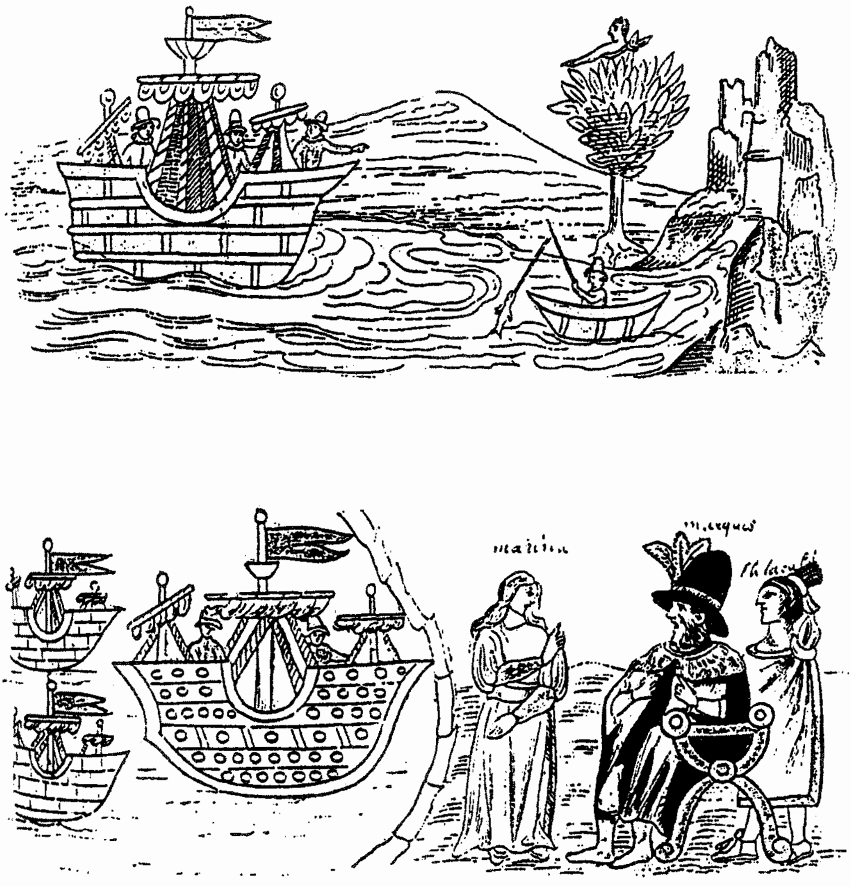
وأما النذير السابع، والذي أعقب صيحة الهلاك والنهاية، فقد جاء من خلال ظهور

طائر كركي (غرنوق) بني اللون وجد فوق رأسه مرآة دائرية مثقوبة في وسطها. وعندما نظر الحاكم في المرآة، رأى «أشخاصاً قادمين في مجموعات، قادمين كغزاة، ومطوّقين بأرتال عسكرية. وقد حملت غزلان الغزاة فوق أظهرها». وأخيراً، جاء نذير الشؤم الثامن عند اكتشاف رجال برأسين اختفوا فجأة عندما رآهم موتيكوزوما(148).

ما مغزى ذكر نذر الشؤم تلك في بداية رواية الأزتك للغزو؟ إنهم يقولون إنه عند التمعن بالأحداث التي رافقت نهاية إمبراطوريتهم، فإنهم يدركون أن القوى السماوية والأرضية في عالمهم الكوني، كانت مسؤولة عن انهيارهم، وليست الجيوش الإسبانية بمفردها. فقد اجتمعت قوى سماوية كالمذنبات والبرق والرعد، والفيضانات السحرية، وظهور أشباح حيوانية وآدمية لإنذارهم بأن نهايتهم باتت وشيكة.

وتمضي الرواية الأزتكية في وصف الأنباء الأولية عن وصول الإسبان إلى الشاطئ، وتبادل الهدايا مع موتيكوزوما، والمخاوف الفورية التي انتابت الحاكم. ومن أعجب جوانب هذه الرواية، وأكثرها إثارة للحيرة، أن حاكم الأزتك ظنّ عندما وصفوا له هيئة الغرباء على الشاطئ، بأن جدّ التولتيك قد عاد، «عندما سمع بقدومهم، سرعان ما أرسل الرسل. وهكذا ظنّ أن القادم هو توبيلتزين كويتزالكوآتل الذي حطّ على الأرض. فقد آمنوا أنه سيعود إليهم، وأنه سينزل إلى الأرض، كي يجد حصيرته، أي مقعده. فقد اتجه نحو الشرق عند مغادرته المكان»(149).

وقد أثار النص السابق أكبر وأطول جدلٍ في تاريخ العلاقات الأوروبية ـ الهندية في الأمريكيتين. ويرجع ذلك لكون الأزتك، أي حاكم الأزتك نفسه، قد ظنّ بأن كورتيز والإسبان هم أجداده التولتيك القدماء، وقد عادوا لتحقيق النبوءة والاستيلاء على عرش الأزتك. فقد ورد في النص «آمنوا أنه سيعود إليهم.... كي يجد حصيرته أي مقعده». وتشير الفقرة السابقة إلى نبوءة عند السكان الأصليين تقول إن توبيلتزين كويتزالكوآتل، أي الملك العظيم للتولتيك الأقوياء، سيعود ويستولي على العرش الذي فقده منذ قرون. وإننا نتذكر ما ورد سابقاً، بأن الحاكم الشهير الذي كان ممثلاً بشرياً للإله كويتزالكوآتل قد نزل عن عرشه مَخْزِيّاً مُهاناً، وأنه اتجه نحو الشاطئ الشرقي. وقد ورد، وفقاً لفكرتين تقليديتين متباينتين، أنه إما ضحّى بنفسه في نار جنائزية، وتحول



كورتيز والإسبان عند وصولهم إلى شاطئ الخليج في المكسيك (دييجو دوران، مخطوطة دوران، مكسيكو سيتي: آررينادورا انترناسيونال 1990، نسخة فاكسيميلي).

إلى كوكب الزهرة، أو أنه أبحر شرقاً فوق طوافة مشكَّلة من أفاع، ومن هنا توقع بعض الناس أنه سيعود يوماً ما. ومن أغرب المصادفات التاريخية، أن حملة كورتيز وصلت في عام 1519، وهو معروف عند الأزتك بالعام 1 قصب السكر (سي آكاتل)، وهو تاريخ ميلاد واسم توبيلتزين كويتزالكوآتل في التقويم الأزتكي. وكما سنرى، سيرد هذا التماثل بين كورتيز وكويتزالكوآتل، والتنبؤ بعودته في جزء لاحق من هذه الرواية.

فقد أرسل حاكم الأزتك إلى كورتيز أربعة أزياء فاخرة خاصة بآلهة الأزتك، وهي تيزكاتليبوكا وتلالوك، وزيين آخرين للإله كويتزالكوآتل. ومن المؤكد أن تلك الهدايا



معركة جرت بين الإسبان وسكان أمريكا الوسطى الأصليين (دييجو دوران، مخطوطة دوران، مكسيكو سيتي: آررينادورا انترناسيونال 1990، نسخة فاكسيميلي).

نبّهت كورتيز إلى ثروات السكان الأصليين، وسرّعت في دخول الإسبان إلى المناطق البرية.

وتروي كلا الروايتين الأزتكية والإسبانية، وإنْ بأساليب مختلفة نوعاً ما، كيفية التقدم الإسباني. لكن الخط العام للرواية يسير على النحو التالي: «تقدم الإسبان عبر الأراضي البرية نحو مدينة سيمبوآلا، حيث خطا كورتيز أولى خطواته السياسية الذكية. فقد عمد لدى اكتشافه كره السكان المحليين للأزتك، جرّاء سنوات من خضوعهم لهيمنتهم، إلى إقناع حكام مدينة سيمبوآلا باعتقال جباة الضرائب الملكية. ونظراً لإعجابهم الشديد ببسالة كورتيز، شكل حكام سيمبوآلا تحالفاً مع الإسبان. ثم، وفي منتصف الليل، أطلق كورتيز خفية سراح جباة الضرائب، وأعادهم إلى تينوشتيتلان مع رسالة صداقة وتحالف مع الأزتك. وهكذا، شكل كورتيز تحالفين، محرّضاً السكان الأصليين ضد بعضهم بعض.

ومن ثم تقدم كورتيز والإسبان إلى مسافة طويلة وصولاً إلى تلاكسكالا، وهي مملكة كبيرة مزدهرة نجحت لعدة سنين في مقاومة الهيمنة الأزتكية. وقد شنّ



دونا مارينا تقدم خدمة الترجمة (مخطوطة فلورنتاين، على غرار رسم فرانسيسكو باسو ترونسكوسو، بتصريح من جامعة أوتاوا ومعهد الأبحاث الأمريكية).

الإسبان بمساعدة السيمبوآلانيين سلسلة من الهجمات ضد التلاكسكاليين، وبعد عدة مواجهات دموية، شكلوا معهم تحالفاً جديداً معادياً للأزتك. ورغم أن الأزتك كانوا لا يزالون يعتبرون الإسبان قوة محايدة، إلا أنهم خشوا من أن يشكل التحالف الإسباني ـ التلاكسكالي خطراً حقيقياً عليهم، لذا أرسلوا إلى كورتيز سفراء في محاولة لإقناعه ورجاله بالابتعاد عن تلاكسكالا. لكن كورتيز سارع، بعد أن استثمر ذلك الوضع السياسي برمته، لجمع قواته، والتي تعاظمت في حينه بمشاركة المحاربين السيمبولانيين والتلاكسكالانيين في التقدم نحو منطقة شولولا، وهي من أعظم مراكز الحج الشعائري في وسط أمريكا الوسطى. وقد هاجم الغزاة المدينة، وقتلوا أكثر من أربعة آلاف مواطن داخل الفناء الواسع للمعبد الرئيس.

وتروي لنا الروايات الأزتكية أن تلك التطورات زرعت الرعب في نفس موتيكوزوما، فأرسل سحرة على المسار الإسباني لزرع أعمال الشعوذة والخدع

السحرية على طريق قواتهم. كما نُصِبَتْ حواجز على الطرق، لكن كل تلك التكتيكات لم تفلح في وقف التقدم الإسباني. وقد ورد في وصف تقدمهم نحو العاصمة:

«جاء الإسبان على شكل مجموعات، وجاؤوا في تجمعات، وقد أثاروا الغبار من حولهم. وقد التمعت رماحهم وحرابهم، كما تموجت سيوفهم كأنها جدول. وقد سُمع لخوذاتهم صوت مدوٍّ، وجاء بعض المقاتلين وقد لبسوا سترات حديدية لامعة. ومن هنا أثاروا دهشة كبيرة ورعباً شديداً»(150).

وصلت القوات العسكرية المتنامية، والمؤلفة من الإسبان وحلفائهم من المحاربين الأصليين إلى مدينة تينوشتيتلان. وقد خرج موتيكوزوما لتحية البطانة التي جمعت بين إسبان وسكان أصليين. ووفقاً لروايات أزتية وإسبانية، ألقى الحاكم خطبة رحبّ خلالها بكورتيز بوصفه إلهاً عائداً. وقد نُقل إلى الكابتن الإسباني عبر مترجمته، دونا مارينا أن عودته متوقعة، وفقاً لتعاليم دينية، وأنه عاد لتسلم عرشه الذي قام حاكم الأزتك على حراسته من أجله. وقد غادر المكان جميع الحكام، ومن بينهم موتيكوزوما الهويكامينا، جدّ موتيكوزوما. وقد جاء في النص «إننا نغادر المكان لتأكيد قدومك لزيارة مدينتك، وأنك هبطت فوق سجادتك وعلى كرسيك. وقد تحققت الآن نبوءة عودتك. وها أنت في زيارة إلى قصرك».

ويثور في الوقت الحالي جدل حقيقي حول معاني تلك العبارات. ويرى بعض الباحثين أنها تمثل الأسطورة الأزتكية والتنبؤ بمملكة كويتزالكوآتل، ورحيله ثم عودته. وذلك يعني، حسب رأي هؤلاء الباحثين، أن الأزتك، خاصة موتيكوزوما، ظنوا، لفترة قصيرة، بأن كورتيز كان في حقيقة الأمر ممثلاً أو سليل توبيلتزين كويتزالكوآتل الذي عاد لاسترداد عرشه. بالإضافة إلى ذلك، يرى هؤلاء الباحثون أن ذلك الاعتقاد أثّر في سياسة الأزتك تجاه الإسبان، وسمحوا لهم بكسب موطئ قدم في العاصمة، مما ساهم بالتالي، بتحقيق نصر عسكري إسباني، ولم يكن سبباً مباشراً في تحقيقه. لكنَّ باحثين آخرين يتخذون موقفاً مغايراً كلياً لهذا الرأي. إنهم يؤكدون بأن تلك القصة بأكملها لفقها كورتيز وإسبان آخرون خلال حملة الغزو وما بعدها كي يبدو

كورتيز شخصية شديدة التأثير والفطنة، ومن أجل تصوير موتيكوزوما رجلاً ضعيف الشخصية الروحية ويفتقر إلى الحنكة السياسية. ويقول هؤلاء الباحثون إن الهدف الرئيس من وراء تلك الخدعة كان التأثير على ملك إسبانيا، والذي سرعان ما كتب إليه كورتيز مادحاً نفسه وقال في رسالته: «تحلى الكابتن الإسباني بعبقرية عسكرية وحنكة سياسية مكنتاه غزو مناطق واسعة واحتلالها لصالح إسبانيا».

وكيفما كان الوضع الحقيقي، وفَّر حاكم الأزتك للإسبان حسن الضيافة في القصر الملكي، وصحب ضيوفه في جولة حول المدينة، وأطلعهم على المعابد والبساتين، وحديقة الحيوان وموقع السوق الكبير. ومن ثمّ، وفي خطوة جريئة، أخذ كورتيز موتيكوزوما رهينة داخل قصره الشخصي، مما أدى لوقوع أزمة بين أوساط نبلاء الأزتك. وألقى بعضهم اللوم على الحاكم لسماحه للإسبان بدخول المدينة والمجمع الملكي. وهرب بعضهم الآخر خشية وقوعهم أيضاً في الأسر. ومن ثم غادر كورتيز المدينة على عجل، واندفع نحو الشاطئ لمواجهة مجموعة أخرى من الإسبان أُرسلوا من أجل اعتقاله ووقف حملته. وقد أعقب ذلك كارثة كبرى عندما أقدم نائب كورتيز في القيادة، وهو بيدرو دي آلفارادو، على ذبح عدد هائل من المحاربين والكهنة العُزّل خلال مشاركتهم في أحد أقدس احتفالاتهم. وثار الأزتك وردوا بضراوة على المجزرة، وشبّت حرب عصابات في المدينة. وقُتل موتيكوزوما على يد الإسبان كما يقول بعضهم، وبأيدي الأزتك، كما يقول آخرون، وذلك عقاباً على سوء زعامته وضعفها. وسارع كويتلاواك، وكان شقيق الحاكم القتيل، وقد حث منذ بداية الغزو على مقاومة الإسبان، على قيادة حركة مقاومة ضد الغزاة. وشنّ كويتلاواك هجوماً كاسحاً في ليلة ممطرة في يونيو 1520، واستطاع طرد الإسبان خارج المدينة. وفيما يعرف اليوم في الفولكلور المكسيكي باسم لانوشي تريستي (ليلة الحزن)، قُتل أكثر من خمسمائة مقاتل إسباني وألفي محارب تلاكسكالاني في تلك المعركة، وملأت جثثهم القنوات. وبصعوبة شديدة، استطاع قرابة أربعمائة إسباني، ومعظمهم جرحى، الهروب من المدينة، وجرّوا أنفسهم خارج منطقة حوض المكسيك وعادوا إلى تلاكسكالا. وقد تعافوا هناك وأمضوا مدة خمسة أشهر ونصف الشهر في تعزيز



في غياب كورتيز، أقدم القائد الإسباني بيدرو دي آلفارادو على ذبح محاربين وكهنة عند المعبد الكبير خلال مشاركتهم في مهرجان توكسكاتل (دييجو دوران، مخطوطة دوران، مكسيكو سيتي: آررينادورا انترناسيونال 1990، نسخة فاكسيميلي).

صفوفهم. وقد خطط كورتيز لفرض حصار لتجويع الأزتك وإجبارهم على الخضوع لسلطته.

لكن الجراثيم الأوروبية ساهمت أيضاً في مساعدة كورتيز، وأثبتت أنها من أمضى الأسلحة على الإطلاق. فقد انتشر، خلال مدة الأشهر الخمسة تلك، وباء الجُدَري بين السكان الأزتك، وقضى على محاربين ونبلاء ومصابين من الطبقة العامة أيضاً. كما مات كويتلاواك، الحاكم الجديد، بعد شهرين. وقد تذكر الأزتك تلك الكارثة لاحقاً ووصفوها كما يلي:

«وقعت مجاعة، ومات عدد كبير من السكان جوعاً. ولم تعد مياه الشرب النقية متوافرة، باستثناء الماء النتري (محتوي على نيتروجين ثلاثي التكافؤ عادة). وقد مات كثيرون جرّاء شربهم تلك المياه، وأصيبوا بزحار قضى عليهم. وقد أكل الناس أي شيء ـ سحالي وطيور سنونو وأوراق ذرة، وحشائش ملحية، وقضموا جلد غزال، وطهوا أو شووا أي شيء. كما تناول الناس من شدة جوعهم قطع

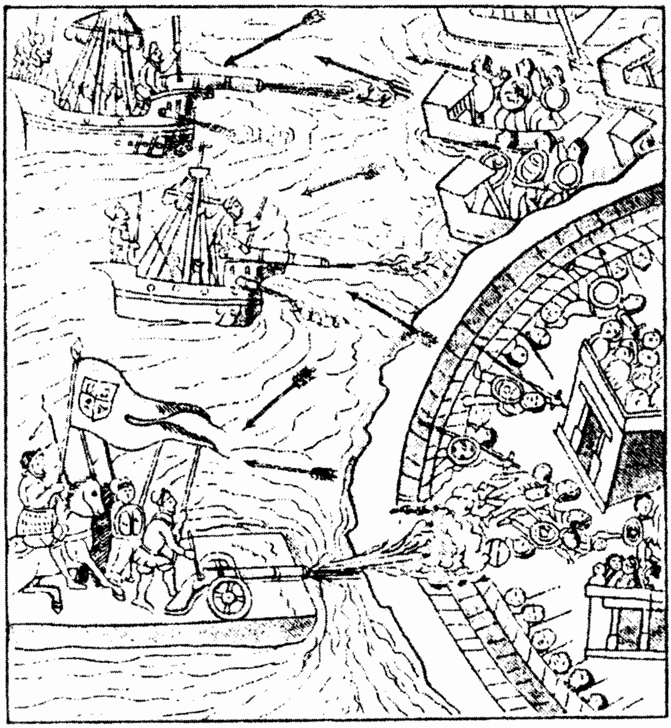


قضى مرض الجدري وغيره من الأمراض على أعداد كبيرة من السكان الأصليين أثناء غزو تينوشتيتلان (مخطوطة فلورنتاين، على غرار رسم فرانسيسكو باسو ترونسكوسو، بتصريح من جامعة أوتاوا ومعهد الأبحاث الأمريكية).

الأحجار اللبنية. ولم يشهد الأزتك قطّ مثل تلك المعاناة. فقد عشنا في رعب شديد ونحن نرى أعداداً كبيرة من الناس تموت بيننا، ونحن محاصرون حيث كنّا»(151).

ومن اللافت، كما أشار أحد الإسبان، أن الأزتك المتضورين جوعاً لم يأكلوا قط لحم مواطنيهم، بل التهموا لحوم المحاربين الأعداء عند أسرهم.

وكان سكان المدينة على تلك الحالة عندما بدأ الحصار الذي استمر مدَّةَ ثلاثة أشهر. ولم يكتف الإسبان بمنع وصول المؤن الغذائية ووقف حركة النقل من المدينة وإليها فحسب، بل هاجموهم عند كل فرصة سنحت لهم مستخدمين المدافع والمنجنيق لإضعاف المدينة أكثر فأكثر. وقد وقفت مجموعات سكانية كبرى في منطقة البحيرة إلى جانب الإسبان، ومنهم أحد أقدم حلفاء المكسيكا، وهي مجموعة تيزكوكو، مما جعل الحصار حرباً أهلية داخلية، أكثر من كونه أي شيء آخر. وقد وُصفت هذه الحرب بتفاصيل دراماتيكية مؤلمة على ألسنة الأزتك أنفسهم ضمن المذكرات المثيرة للمشاعر والتي سُلِّمَتْ إلى ساهاجون.



حصار مدينة تينوشتيتلان (مخطوطة فلورنتاين، على غرار رسم فرانسيسكو باسو ترونسكوسو، بتصريح من جامعة أوتاوا ومعهد الأبحاث الأمريكية).

وفي الوصف التالي، نجد كيف دافع المحاربون الأزتك عن أنفسهم ضد الهجمات الإسبانية، حتى آخر رمق فيهم. ويبدأ النص بوصف الهجوم بوساطة المراكب الشراعية الإسبانية «عندما أطلقت تلك المراكب مدافعها أصابت الجدران التي انهارت إلى قطع تناثرت في عدة أماكن. وقد تفرق المحاربون البواسل الذين كمنوا خلف تلك الجدران، وساد بين صفوفهم خوف شديد».

وقد أعقب تحطيم جدران الأزتك وهروب المحاربين هجوم إسباني على المعبد الكبير ومقتل الكهنة.

«ثم كثف الإسبان ضربات مدافعهم، والتي سقطت فوق الحجر الدائري الخاص بالقرابين. وعند قمة هرم هويتزيلوبوشتلي وقف الكهنة يراقبون ما يجري بيأس وقلة حيلة. وقد طرقوا على الطبول ذات النغمتين. ثم صعد مقاتلان إسبانيان إلى قمة

الهرم. وأخذ كل منهما في مهاجمة كاهن. وعندما تمكنا من الكاهنين، قاما بإلقائهما من أعلى درج المعبد»(152).

وقد قاوم الأزتك وشنّوا هجوماً مضاداً، واستولوا على المدفع (الذي تُرك عند الحجر القرباني) وألقوا به في البحيرة. وقد اشتدت مقاومة الأزتك للإسبان المقتحمين للمدينة إلى درجة أن الغزاة «شعروا كأنهم يتصدون لحجارة»، لأن المحاربين الأزتك قاتلوا بشجاعة كبيرة. لكن من ظنّ الأزتك أنهم حلفاء لهم، انقلبوا عليهم وكبّدوا المدينة مزيداً من الخسائر والمآسي.

«لكن الأكسوشيميلكان زأروا وصعدوا على سطح القوارب. إلا أن ظننا خاب عندما لم يقدموا لنا أي دعم، بل سرقوا أبناء شعبنا، وسرقوا النساء العزيزات والأطفال الصغار والنساء العجائز الغاليات. ثم ذبحوا بعض هؤلاء، حيث لفظوا أنفاسهم هناك»(153).

ومن شدة يأسهم، أخذ رجال المكسيكا في تقديم أسراهم، من الإسبان والهنود، قرابين لآلهتهم على أمل استعطاف القوة الإلهية كي تدعمهم في صراعهم حول الحياة أو الموت. وفي إحدى المناوشات، أُسر خمسة عشر إسبانياً بعدما صاح مقاتل أزتكي:

> «يا مقاتلي المكسيكا، تشجعوا». وسُمع صوت هدير ونفخ أبواق، ولوح الخفير بترسه. وسرعان ما لاحقوا الإسبان، وأخذوا في التضييق عليهم وأسرهم. وقد أُلقي القبض على خمسة عشر إسبانياً. وقد جردوهم من ملابسهم ومن عتادهم الحربي ومن دروعهم المبطنة بحشوة قطنية. لقد جردوهم من كل شيء. ثم ذبحوهم(154).

وتتوافر لدينا أيضاً رواية من شاهد عيان حول هذا القربان البشري. لكن لا يمكن مقارنة أي شيء كتبه الإسبان بهذا الوصف الحي لرجال أقدموا من شدة يأسهم على قتل بعضهم بعضاً من أجل إنقاذ أنفسهم.

«وفيما بعد، أخذوا الأسرى إلى ياكاكولكو. وقد أجبروا على الذهاب إلى ذلك المعبد. كما بدأوا يجمعون أسراهم. وقد أخذ أحدهم في البكاء، وآخر في الغناء، وآخر

في الصياح وهو يضرب فمه براحة يده. وقد نُظّم الأسرى في صفوف، ثم أُخذوا واحداً بعد الآخر إلى المعبد الصغير، حيث ذبحوا قرابين. وقد أخذوا الإسبان بداية، ثم أخذوا سكان المدن (الحليفة). وبعد ذبح جميع الأسرى، قطعت رؤوس الإسبان وعُلِّقوا فوق حامل الجماجم. كما قطع المحاربون الأزتك رؤوس الخيول، وعلقوها أسفل رؤوس الإسبان. وقد وضعت الرؤوس المعلقة في مواجهة نور الشمس. ولكن الأزتك لم يقطعوا رؤوس سكان المناطق البعيدة بوصفهم من الحلفاء القدامى»(155).

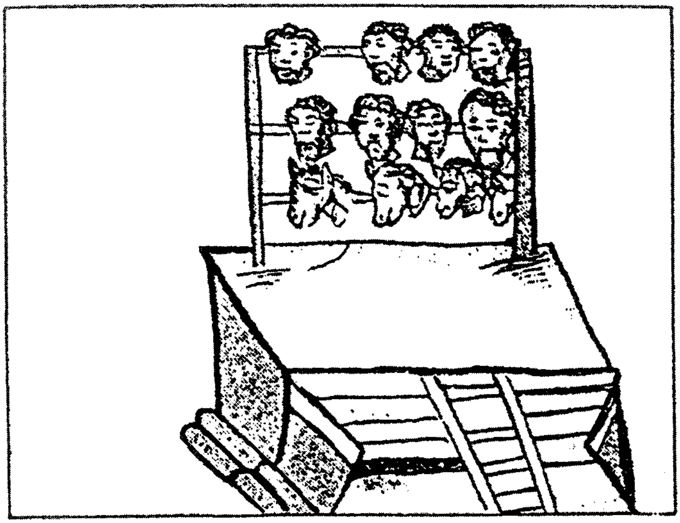
ورغم تلك الإنجازات الخاطفة، تراجع الأزتك وفقدوا السيطرة على مناطق مجاورة وطرق وقنوات وجدران نجت من القصف. فقد أدت نيران المدافع والمنجنيق وضربات السيوف الإسبانية الماضية لتراجع المقاومة الأزتية، وانحصارها في ركن صغير من المدينة، حيث صمدت بضعة جدران.

ومن ثم، وفي أشد المواقف تأثيراً في النفس حول شجاعة رجال يهزمهم عنف وعدوان ذكوري، تحول بقية المحاربين إلى جدران من المقاومة. فقد حوصر الأزتك في معقلهم الأخير، وهرب الناس عبر البحيرات، وخرج محارب للقتال حتى النهاية.

«صعد محارب شجاع، مجرّد من السلاح، وكان اسمه يوتزيلهواتزين إلى سطح شرفة بيت الشباب. وقد تحول إلى ما يشبه جدار، كما تبعه بعض الرجال، لكن الإسبان سرعان ما لحقوا بهم وشتتوا شملهم، وأخذوا في ضرب المحارب الشجاع، وأصابوه بجراح بليغة وتغلبوا عليه. لكن سرعان ما استرد المحارب الشجاع قوته، وأخذ في مقاومة الإسبان إلى أن ساعده المحاربون الشجعان في التخلص منهم»(156).

لكن الإسبان تعقبوا مقاتلاً عظيماً آخر، وهو التلاتوآني الأزتكي، كوا أوتيموك (الصقر الغواص)، والذي واصل القتال لحين وقوع بقية قواته في الأسر بالقرب من موقع السوق الإمبراطورية في تلاتيلولكو. وقد هرب في قارب، لكنه وقع في قبضة الإسبان، وعُدّ ذلك مؤشراً على سقوط العاصمة في أيدي الغزاة. وقد تمّ ذلك في 13 أغسطس 1521، ويتذكر الأزتك ذلك اليوم على النحو التالي «عندما وضعت التروس جانباً سقطنا. وقد جرى ذلك في عام الحصان 3، وفي يوم الأفعى 1».

وينتصب حجر عمودي بجوار موقع أسر كوا أوتيموك وسط مدينة مكسيكو



رؤوس إسبان وخيول قربانية معلقة على حامل الجماجم (مخطوطة فلورنتاين، على غرار رسم فرانسيسكو باسو ترونسكوسو، بتصريح من جامعة أوتاوا ومعهد الأبحاث الأمريكية).

سيتي. ويحمل النصب الكلمات التالية «في 13 أغسطس، 1521، وبعد أن دافع كوا أوتيموك ببطولة، سقط تلاتيلولكو في أيدي هيرنان كورتيز. لم يكن ذلك نصراً ولا هزيمة. لقد كانت ولادة مؤلمة لدولة ميستيزو، وهي دولة المكسيك حالياً».

وقد دهش الإسبان عندما قضت أعداد كبيرة من الأزتك بسبب مرض الجدري قبيل المعركة الأخيرة. وقد كتب كورتيز إلى الملك الإسباني قائلاً «في الواقع، بلغت معاناتهم درجة عالية فاقت قدرتنا على استيعاب كيفية تحملهم لها». لكن الإسبان ضاعفوا من حجم تلك المعاناة أضعافاً مضاعفة في أعقاب استسلام كوا أوتيموك. فقد نهبوا المدينة وسلبوا البيوت، واغتصبوا النساء، وعاملوا الرجال بوحشية. وقد جاء في النص «أمسك الإسبان بالنساء واختاروا أجملهن، من صاحبات البشرة الصفراء. وقد عمدت بعض النسوة لتلطيخ أوجههن بالطين والوحل، ولارتداء ملابس رثّة قديمة في محاولة لإخفاء جاذبيتهن. كما تم وسم الرجال، وضُربوا وأُجبروا على العمل عبيداً.

وقد بدأنا هذا الفصل بالاستفسار عن كيفية وقوع هذه الهزيمة وهذا الغزو العسكري بسرعة هائلة، في مواجهة تفوّق عديد الأزتك وميزة الحياة في المدينة.

ومن هنا نستطيع طرح المقترحات التالية: انهارت إمبراطورية الأزتك بفعل مجموعة من القوى تضافرت ضدهم. أولاً، وصل الإسبان في توقيت مشؤوم وفقاً لتقويمهم. فقد ارتبط العام قصب 1 (سي آكاتل)، أو عام 1519، بقصة انهيار مملكة التولتيك بزعامة توبيلتزين كويتزالكوآتل. ومن المحتمل أن تكون تلك الأفكار التقليدية موجودة في رؤوس النبلاء الأزتك الذين تلقوا تعليمهم في الكالميكاك، كما ورد ذكره في الفصل الرابع.

ثانياً، كان الغزو في جزئه الأكبر تمرداً قوياً من قبل مجموعات هندية أخرى أكثر من كونه غزواً تم بحنكة وبطولة الجنود الإسبان. فقد تماسكت الإمبراطورية الأزتكية الثرية من خلال سلسلة من التحالفات وحملات الغزو والتهديدات، والحروب الوردية وفرض الأتاوات لاسترداد الأسرى القربانيين، وعلى الممتلكات والثروات. وقد برزت حركات تمرّد ومقاومة، قرب العاصمة وفي مناطق بعيدة، خاصة خلال الأعوام العشرين السابقة لوصول الإسبان. وبعد أكثر من مئة عام من هيمنة الماكسيكا، تاقت تلك الدول المتحالفة والمعادية إلى فرصة لكسر طوق تلك الهيمنة الأزتكية. وكما أشار أحد الكتاب «شكلت البنية الهشة للإمبراطورية سلاحاً أدى لتدميرها»(157).

ثالثاً، خاض الأزتك والإسبان حروباً على أسس متباينة كلياً مما سهل مهمة الغزاة الأوروبيين. فقد شنّ الأزتك حملات حربية بهدف أسر محاربين من صفوف الأعداء لإذلالهم وتقديمهم قرابين، بقدر رغبتهم في قتلهم في ساحات المعارك. كما خاضوا صراعات مع الإسبان واضعين تلك الأهداف نصب أعينهم. ومن جهتهم قاتل الإسبان من أجل قتل عدوّهم في ساحة القتال دون اهتمام كبير بالأسرى، ما لم يكن من أجل استخلاص معلومات مهمة منهم عبر الترويع والتعذيب. وقد امتلك الإسبان أسلحة مرعبة من ضمنها الخيول والكلاب الشرسة، والنشابيات (آلات حربية قديمة) والمدافع والهركوبات (أسلحة نارية قديمة)، والسيوف ذات نصال فولاذية.

رابعاً، لا يمكن تجاهل أثر الأمراض الأوروبية من أجل فهم مراحل الغزو. فقد كان لتلك الأمراض المعدية أثر فوري ومباشر على صحة السكان واستقرارهم عامة، وعلى الوحدات العسكرية خاصة داخل وحول العاصمة الأزتية. كما تم خلال القرن

التالي للغزو تدمير مادي هائل للحقول الزراعية والمدن والبلدات والتجمعات البشرية. وعند العودة إلى إحصائيات حول الغزو، ندرك أن عدد سكان أمريكا تناقص من قرابة 80 مليون نسمة في عام 1492 إلى أقل من 10 ملايين في عام 1600. وفي أمريكا الوسطى عاش 25 مليون نسمة في عام 1519، لكن لم يبق من الأمريكيين الأصليين في عام 1592 سوى مليون حيّ يرزق في المنطقة نفسها.

ويبدو أن جميع تلك العوامل، وهي دينية وعسكرية وسياسية وبيولوجية، تعطينا إجابة عادلة عن السؤال الذي استهللنا به هذا الفصل. كما أننا نختم بكلمات بيرنال دياز ديل كاستيلو، والذي رثى، بعد سنوات على الغزو، سقوط المدينة وقال: «أؤكد من جديد أني عندما وقفت هناك أنظر حولي وأعجب من جمال الطبيعة وسحر المكان، ولأنه لم تكن بيرو قد اكتشفت بعد، فقد ظننت أنه لا يوجد مثيل لتلك المنطقة، وأن كل ما عداها أكاذيب وهراء»(158).

الفصل التاسع

المسيرة الطويلة للثقافة الأزتكية

«ليس ثمة في مكسيكو سيتي مأساة، بل غضب وحسب. إنها مدينة من غضب مضطرم، وهي مدينة تشهد على كل ما نسيناه، مدينة ذات شمس ثابتة، قديمة في فجر التاريخ، مسكونة بالبشائر والنذر، عصفت بها القباب ونسجها النسيان وفقدان الذاكرة. إنها مدينة ضائعة جائعة، وهي صورة حقيقية من سماوات هائلة. إنها أشبه بثمرة كمثرى براقة شائكة».

كارلوس فوينتس (159)

تمهد لنا تلك الكلمات المأخوذة من رواية كارلوس فوينتس «حيث يصفو الجوّ» الطريق لاختتام دراستنا حول عالم الأزتك، لأنها تؤكد لنا أن مكسيكو سيتي المعاصرة كانت في يوم ما مدينة قديمة (قديمة في فجر التاريخ)، ومدينة مستعمرة (مدينة من غضب مضطرم)، وهي مركز حديث لثقافة تاريخية (مدينة تشهد على ما كل ما نسيناه). لكن خلال كل ما شهدته المدينة من هجرات ومستوطنات وعلوم كونية، وحياة أسرية، وحركات تمرّد وثورات وزلازل، وغزوات وأمراض ولوحات جدارية وإبداعات موسيقية، ما زال موقع عاصمة الأزتك «صورة حقيقية من سماوات هائلة» وهي أشبه بـ (كمثرى براقة شائكة). فقد شهدت المدينة وسكانها، الذين يربو عددهم على عدة ملايين، تحولاً كبيراً بفعل الغزو الأوروبي والتاريخ الاستعماري باضطراباته وتلونه، وعبر ثورات قامت منذ عام 1810 وحتى عام 1910، إلا أن حضوراً أزتكياً رائعاً ما زال بادياً في الوجوه واللغة والطعام، والفنون والعلوم، والأحلام والديانات الخاصة بشعوب المكسيكا.

وسيكون هذا الفصل أشبه برحلة طيران سريعة نحلق فيها فوق أجزاء من الحقول الثقافية المكسيكية، والتي تشمل رموزاً وأفكاراً وطقوساً أزتكية مهمة. وسنركز، على وجه الخصوص، على ثلاث ديانات وممارسات ثقافية لمكسيكيين معاصرين يعيشون

في المكسيك والولايات المتحدة الأمريكية، وهي تعكس درجات متنوعة لتأثير السكان الأصليين والأزتك في الحياة العامة.

وتتمثل تلك الممارسات الثلاث في (1) صورة معاصرة من بحث قديم عن البِيُّوت (نوع من الصبار الأمريكي محتوٍ على مادة مخدرة) مارسه الهويشول الهنود.

(2) الاحتفال الشعائري بديا دي لوس مويرتوس (يوم الموت)، وهو احتفال أوروبي وهندي، و(3) عبادة عذراء جوادالوبي، وهي قديسة مكسيكية. كما سنرى بعض الأمثلة المؤثرة لرموز وصور أزتكية ملهمة للوحات جدارية مكسيكية وشيكانية.

تشكل الكوزمولوجيا والمدينة، وحالات الانتقال من حالة إلى أخرى، والحياة اليومية عند الأزتك شيئاً قريباً مما أسماه العالم فيرنارد برودل «الحدث الطويل» لأمد تاريخي. فقد قصد برودل بقوله «الحدث الطويل» أن بعض الحقائق كالجغرافيا واللغة وعلم الأحياء تؤثر في الحياة اليومية للمجتمع عبر مراحل زمنية متواصلة وطويلة، وذلك في مقابل أحداث قصيرة أو متوسطة الأمد وأقل تأثيراً. إن أحداثاً قصيرة هي من نوعية محاكمة أو.جي سيمبسون، والتي تستقطب اهتماماً فورياً وتظهر في الصحف وعلى شاشات التلفزة، لكنها تختفي بعد بضع سنين. إنها أحداث مهمة لحظة حدوثها، لكن أهميتها عند المجتمع قصيرة الأمد. وإن حدثاً متوسط الأمد هو من نوعية الأحداث التي تؤثر في المجتمع لعدة عقود أو لبضعة أجيال، ويكون لها أثرها المباشر والمهم في حياة المجتمع. وخير مثال على هذه الأحداث اختراع الآلة الكاتبة، والذي أحدث ثورة في عالم الكتابة والتأليف وسرعة إنتاج المعلومات. فقد اخترع كريستوفر لاثان شولز الآلة الكاتبة في عام 1867، وقد صَنعَتْ بسرعتها ووضوح خطها ثورة في عملية كتابة وتوصيل المعلومات إلى عدد كبير من الناس.

وقبل ثلاثين عاماً، كان الاعتقاد السائد بأن الآلات الكاتبة وسيلة فعالة ودائمة لصياغة المعلومات الهامة. وفي الوقت الحاضر، ما زالت مهارة الطباعة مهمة ومفيدة، لكن الحواسب الشخصية حلت مكان الآلات الطابعة. ومن يدري ماذا سَيَحُلُّ، في المستقبل، مكان الحواسب الشخصية؟



مدينة مكسيكو سيتي (بتصريح من سكوت سيثينز).

كما تجري أحداث ذات أمد طويل. وإن الأحداث التي غالباً ما تبدو لنا مجرد أحداث مهمة نسبة لأثرها التاريخي، تكون، في الواقع، أحداثاً طويلة الأمد، كالأحداث التاريخية التي تؤثر في المجتمع البشري لقرون طويلة.

وقد تكون تلك الأحداث هادئة بطيئة الحركة وخفية. وما نود توضيحه هنا، أن عالم الأزتك (وفي الواقع، جميع الثقافات الأصلية في المكسيك) رغم تدميره ظاهرياً بفعل الغزو الإسباني، هو حدث طويل الأمد في ثقافات العالم الجديد، وهو يواصل إعطاء معنى وتأثيراً وقوة وإرشاد لملايين الأشخاص في المكسيك، وما حوله. ومن اللافت أن مدينة مكسيكو سيتي التي تتخذ يوماً بعد آخر صورة لمدينة حديثة، بأنفاقها وناطحات سحابها، ووسائل اتصالاتها عبر الأقمار الاصطناعية، أصبحت أكثر دراية بماضيها الأزتكي القديم. ويوماً بعد آخر يتم الكشف عن آثار وكنوز وتماثيل آلهة ومعابد، وهي تظهر من تحت الشوارع والمباني للمدينة الاستعمارية والحديثة. وعندما شُقَّ نفق تحت الجزء الاستعماري من المدينة، ظل العمال لأيام ينقبون عن معابد ونصب أزتية ارتبطت، بدرجة كبيرة، بطبقات النبلاء الأزتك.

لكن، لا بدّ من الإشارة إلى أن القوى الاستعمارية في القرن السادس عشر استنزفت ودمرت، إلى حد كبير، عالم طبقات النبلاء مع أفكارهم وممارساتهم الدينية، وإيديولوجياتهم العسكرية ومتطلباتهم القربانية. لكن معتقدات المزارعين والحرفيين وخبراتهم، وغيرهم من أبناء العامة الذين عاشوا مع الطبقة الملكية الأزتكية، وإلى جوارها وحولها، ظلت باقية وظهرت من خلال عدة وسائل، كما سنرى لاحقاً. وإن قلة من الناس يدركون أن لغة الأزتك (ناهوآتل) رفدت الإنجليزية بعدة كلمات مثل توميتو (توماتل = طماطم)، آفوكادو (آهواكاتل)، شوكليت (شوكولاتل = شوكولا) وكويوت (كويوتل = ذئب شمال أمريكي صغير) وأسيلوت (اوسيلوتل = نمر أمريكي)، موسكيت (ميسكوتيل = بعوض)، فضلاً عن عدد من الكلمات الإسبانية لبعض الأطعمة والحيوانات المستخدمة في المكسيك. وفي الوقت الحاضر، يستخدم عدة ملايين في المكسيك لغة الناهوآتل، فضلاً عن عشرات من اللغات الهندية الأخرى التي مازال أبناؤها يتخاطبون ويحلمون بها، ويستخدمونها في معاملاتهم اليومية.

التبادل ثقافي وموقع الاحتكاك

في هذه الدراسة المختصرة لما بقي من الرموز والأفكار والممارسات الدينية واللغة الأزتكية، ولما زال أو تبدل منها، نواجه قصة مركبة ومحكمة حول كيفية اختلاط معاني وممارسات أوروبية بمعان وممارسات أزتكية. ولو كان لدينا مجال لتوسيع الدراسة، لكان الأجدر بنا استكشاف الحضور الأفريقي في المكسيك من أجل فهم إسهاماته المهمة أيضاً. فقد تم تجاهل الوجود الأفريقي في أمريكا الوسطى إلى حد كبير، لكن الباحثين بدأوا مؤخراً في الكشف عن الطرق التي سلكها العبيد، والتفاعل الأفريقي الفعلي مع سكان المكسيك. وقد يكون مفهوم التلاقح الثقافي أفضل طريقة لفهم هذا الاختلاط. ومن أجل تعريف معنى هذا التعبير، سنركز على أمرين، وهما المكان الذي تم فيه التلاقح الثقافي والفعل ذاته. فقد جرى التلاقح الثقافي في موقع الاحتكاك، وهو مساحة اجتماعية حيث تلاقت وتصادمت وتلمَّست عدة ثقافات طريقها. إنه مكان صراع، حيث التقى كاهن مسيحي، على سبيل المثال، بتلاماتيمي أزتي، وحيث التقى القدّاس الكاثوليكي بممارسات الابتهاج الجماعي، أو حيث التقى القساوسة الكاثوليك بالتلاتوك الأصليين. إنه مكان اتصف بالتمايز الطبقي الاجتماعي، وبالهيمنة النفسية، وفي بعض الأحيان، بالتهديد العسكري. ويشمل التلاقح الثقافي أعمال الإتباع أو المجموعات الهامشية ممن «يختارون ويبتكرون أشياء من مواد وصلت إليهم عبر ثقافات مهيمنة أو حضرية. وفي حين لا تكون الشعوب الخاضعة قادرة على التحكم بكل ما ينبعث من الثقافة المهيمنة، فإنها تقرر، وبدرجات متفاوتة، ما يضمونه إلى ثقافتهم، وما يستفيدون منه. إن التلاقح الثقافي من سمات موقع الاحتكاك»(160).

ومن أجل المساعدة في فهم كيفية صمود الافكار والمعاني والمعتقدات الأزتكية حتى يومنا هذا، يفيدنا استخدام مصطلحي موقع الاحتكاك والتلاقح الثقافي، عوضاً عن مصطلح شاع استخدامه، وهو التوفيق بين المعتقدات المتعارضة. وإن التوفيق بين المعتقدات المتعارضة يشير إلى اختلاط وتجانس معتقدات وممارسات مختلفة ينشأ عنها شكل من التوافق أو اتفاق متوازن.

وثمة بعض الأمثلة على هذا النوع من التوفيق بين المعتقدات المتعارضة، وهو ذلك التمازج المرن ظاهرياً بين الأفكار الأزتكية والأوروبية والأفريقية، لكن القصة الإنسانية الحقيقية تروي عن مواجهات وخصومات، وعمليات رفض وإعادة ترجمة أو تسمية، وسرقة واستلاب وابتكارات. ونتيجة لذلك، لا يوجد حالياً في المكسيك عالم أزتكي نقي، ولا عالم إسباني أو أوروبي أصيل. فقد تغير بدءاً من عام 1492، وبدرجات متفاوتة، كل شيء قدم من أوروبا أو من أفريقيا، وكل ما كان متجذراً في الأمريكتين. وفي حالة الاستعمار في أمريكا الوسطى، أطلق الأوروبيون خيالهم الجامح إلى جانب حملاتهم الاستعمارية، وحاولوا تحويل الأراضي والناس إلى امتدادات لأنفسهم. وهكذا أصبح، من الناحية الظاهرية، اسم سيماناهواك نيفا أسبانّا (إسبانيا الجديدة)، وأصبحت قبائل المكسيكا هنود، وعُدَّت دياناتهم من عمل الشيطان. لكن من تحت السطح، اختلطت التقاليد الأصيلة بالأوروبية، ونتجت عنها سلسلة من مجموعات ثقافية مؤتلفة جديدة. فقد تحولت إلى أشكال اجتماعية ورمزية جديدة كل من اللغات والأفكار والمأكولات وطرق العلاج، وأيضاً الصفات البيولوجية والثقافية للسكان. وكما أشارت المؤرخة إليزابيث وايزمان في دراستها القيمة حول فن النحت المكسيكي الاستعماري: «لقد امتص نوعان مختلفان من الحياة أحدهما الآخر، مما أدى لإنتاج أشياء جديدة مختلفة عن أي شيء آخر في العالم»(161).

وكان لابدّ لتلك الأشياء الجديدة والمختلفة (جديدة على الأوروبيين وكذلك على الأفارقة، وعلى الأمريكيين الأصليين) من أن تؤسس لعلاقات جديدة فيما بينها. وربما يكون الأهم من كل ذلك، هو الجهود التي بُذلت لمساعدة السكان الأصليين والهجين (من أبوين أحدهما أوروبي، والآخر هندي أمريكي) للتأقلم مع الأنظمة الاجتماعية والقانونية والدينية الجديدة. وجاءت النتيجة على شكل صورة رمزية واجتماعية، غامضة أحياناً، وهي تضم تقاليد الأزتك والمايا والأوتومي والهويشول والتزوتوجيل، وعدداً آخر من التقاليد، مع أنماط ثقافية ودينية من العالم القديم، ومنها كاثوليكية وأسبانية وفرنسية وبرتغالية.

وكما أشار الروائي المكسيكي كارلوس فوينتس، يجد الباحث في تاريخ أمريكا

الوسطى الاستعماري والحديث نفسه في مواجهة عالم غاضب، حيث الكنائس المسيحية، وإنكار الدمار الذي تمّ على أيدي المستعمرين، واستمرارية وجود الصور القديمة في الحياة اليومية، وبقاء الأفكار الكونية المطمورة في أكبر مركز حَضَرِيٍّ في العالم، أي مدينة مكسيكو سيتي «هي صورة حقيقية لسماوات هائلة». فقد واصلت تقاليد أمريكا الوسطى ما قبل الإسبان، خاصة تقاليدها الأزتية، في لعب دور حيوي داخل المجتمعات الاستعمارية، وما بعد العهد الاستعماري في المكسيك. كما من الممكن إيجاد آثار جذابة وذات مغزى لتلك التقاليد بين أوساط الأمريكيين اللاتينيين المقيمين في الولايات المتحدة.

خلال الفصل الحالي، سنبحث في سلسلة من الإجابات الثقافية والدينية الخلاقة حول معضلة الاستعمار والتحديث، ما يفسر استمرارية بعض الأشياء وتحول بعضها الآخر في أمريكا الوسطى. ومن أجل رسم خريطة لتلك التحولات والاستمراريات، ومن أجل توضيحها، سوف نستخدم كلمة «الحج» دليلاً لنا على طريق الشرح والتوضيح. إن رحلات الحج تقوم دوماً على وجود بيت أساس، ورحلة أو معاناة، ومن ثم الوصول إلى الجهة المقصودة. وفي كل من الأمثلة التالية، سنرى أشخاصاً، أو أرواح أشخاص، يبدؤون رحلة نحو، أو عبر، أراض مقدسة من أجل اكتساب تجربة رشيدة، أو لاكتساب معرفة جديدة بأشياء مقدّسة.

العالم الجديد لأمريكا الوسطى

في نهاية الفصل السابق، تطرقنا بإيجاز إلى عملية تحول استعمارية عنيفة، بدأت في العقد الثاني من القرن السادس عشر في المكسيك وجواتيمالا، ومناطق أخرى في أمريكا الوسطى. وقد أدت تلك العملية لإحداث تغيّر جذري (وبدرجات متفاوتة) في العالمين الاجتماعي والرمزي، أي في المجتمعات البشرية وفي المراكز الاحتفالية على نطاق واسع. وقد أُشير إلى تلك العملية بكونها خلقت «عالماً جديداً» أو إسبانيا جديدة، ومن ثم تحول الاسم إلى نيو مكسيكو، أي المكسيك الجديدة.

وعلى موازاة الساحل الشمالي للمحيط الأطلسي، أُطلقت أسماء نيويورك

ونيوإنجلند ونيوجيرسي ونوفاسكوتيا وهكذا دواليك. لكن، السكان الأصليين في أمريكا الوسطى، ممن عايشوا عملية التحول الاستعماري، وجدوا في تلك الأشياء الجديدة أشكالاً من التبعية والتجويع، والأمراض والوَفَيات، والتجريد من الصفات الإنسانية، عوضاً عن أن تكون فرصاً للنجاة وحياة جديدة. فقد كانت «حداثةً» هم في غنى عنها. كما جاء تشكيل حركات دينية جديدة، ومزج معان ومفاهيم دينية كاثوليكية بأخرى قديمة (سابقة لوصول الإسبان) كاستراتيجيات للمحافظة على التكامل البشري والتمسك بالأرض.

ومن الجدير بالذكر أن العملية الاستعمارية في أمريكا الوسطى بدأت قبل قرابة قرن من استكشاف الإنجليز لساحل شمال الأطلسي، وإقامتهم مستوطنات في ماساتشوسيتس وفيرجينيا. وفي أوائل القرن السابع عشر، وعندما انتشرت في شمال أوروبا شائعات وحكايات وآراء مجحفة بحق سكان وأراض وعن أشياء من العالم الجديد، ومن الأمريكيتين (رشحت تلك الحكايات والآراء المسبقة من إسبانيا والبرتغال)، كانت معظم المراكز الشعائرية والمعابد المحلية في ممالك الأزتك والتلاكسكالانيين والتاراسكانيين وغيرهم قد دُمرَّت أو حلَّت مكانها كنائس. ولهذا السبب، لم يبدأ التاريخ الأمريكي في نيوإنجلند أو فيرجينيا، كما لا يزال يُدرّس في المدارس العامة في الولايات المتحدة. لقد بدأ التاريخ الأمريكي في يوكاتان وسيمبوآلا وتلاكسكالا، وشولولا وتينوشتيتلان، وتميّز بسوء فهم وأطماع وحروب، وسرقات وأمراض، وجدال وتبادل اقتصادي، وصدامات ضارية بين نوعين من الآراء والمعتقدات.

وتجري حالياً في جميع أرجاء أمريكا الوسطى، احتفالات تقيمها مجموعات أصيلة وهجينة، ويجمعون فيها بين رموز أصلية وأخرى كاثوليكية (وفي الآونة الأخيرة دخلت التقاليد البروتستانتية على أعداد كبيرة من السكان، وأصبحت جزءاً من عملية التلاقح الثقافي).

ومن أكثر الصور المسيحية تأثيراً في السكان الأصليين، وقد ضموها إلى معتقداتهم الدينية الأصيلة، هي صورة المسيح كمخلِّص من العذاب. فقد كان لصورة المسيح المتألم النازف على الصليب، جاذبية خاصة لدى جميع الطبقات الاجتماعية في

أمريكا اللاتينية، بمن فيهم المجموعات الأصيلة، والذين رأوا في صورة المسيح نسخة من معاناتهم ونضالهم وأحوالهم. وعند إمعان النظر، يبدو واضحاً أن تلك الصور عن المسيح والصليب تعكس صورة تلاقح ثقافي وقوة جديدة وتوقعات مفيدة. وفي معظم الحالات، يبادر السكان الأصليون أو الهجين إلى صياغة المجموعات المؤلفة الجديدة في مناطق الاحتكاك في المكسيك، وبين أوساط المجموعات المكسيكية داخل الولايات المتحدة.

صيد البِيُّوت عند الهنود الهويشول

ليست جميع الممارسات الثقافية والدينية في المكسيك المعاصرة نتاج مزيج من رموز ومعتقدات أصيلة ومستوردة. وفي بعض الحالات، يمارس سكان ناطقون بلغتي ناهوآتل والمايا طقوساً يعود زمنها لما قبل العهد الإسباني، وليس للكاثوليكية أو البروتستانتية أو العلمانية المعاصرة أثر كبير فيها. وفي بعض الحالات القليلة، اقتبس السكان الأصليون قدراً محدوداً من الرموز والأفكار الأوروبية أو الأفريقية. ومن أبرز الأمثلة على ذلك، ما أشارت إليه المختصة بعلم الإنسان الثقافي، باربارا ميرهوف، في دراستها حول حجّ الهويشول السنوي إلى ويريكوتا، وهي أرض الأجداد، حيث ينمو هيكوري (البِيُّوت). ولابدّ من أن نجد هنا تشابهاً بين المعتقدات الكونية عند الأزتك وطقوس الانتقال التي وردت سابقاً. إذ على الرغم من أن الهويشول ليسوا من سلالة طبقات النبلاء الأزتك، إلا أن البحث الشعائري نفسه عن البِيُّوت مارسه عدد من المجتمعات الأزتية.

وتعيش قبائل الهويشول في المناطق الجبلية لمقاطعات دورانجو وجاليسكو وناياريت وزاكاتيكاس المكسيكية. وقد اشتهر الهويشول بلوحاتهم الملونة المصنوعة ببراعة من غزل قطني أو صوفي. وتصور تلك اللوحات أساطير وصوراً وكائنات خيالية من عالمهم ومحيطهم. إن الحياة الاجتماعية والرمزية للهويشول مركبة وشديدة التنوع، ولكنهم يشتهرون برحلتهم السنوية إلى أرض الأجداد ويريكوتا، والتي تبعد قرابة مائتي ميل عن مدينة جودالاهارا، بحثاً عن البِيُّوت وأطيافه. وتتم رحلات الحج هذه

دوماً بقيادة مارا آكامي أو كاهن ـ شامان، مثل رامون مدينا سيلفا، والذي كان المخبر والمساعد الرئيس لإتمام دراسة باربارا ميرهوف.

إن دور رامون وقراره الأوَّلَ في أن يصبح مارا آكامي يعكس دور مهنة بشرية في تحديد مركز العالم أمام فئة اجتماعية. إذا عندما كان رامون طفلاً ما بين السادسة والتاسعة من العمر، رأى في المنام سلسلة من الأحلام المذهلة حدثه فيها إله الهويشول (أبونا الشمس)، وكشف له بأنه اختير كي يغدو زعيماً روحياً للهويشول. قال رامون: «حدثني تايا أوبا، وقال لي انظر يا بنيّ. لا تقلق. يجب أن تكبر قليلاً وتصبح رجلاً حكيماً، وقادراً على كسب عيشك. ستصنع أشياء جميلة ملونة. وستعي هذا وذاك. لقد خلقت لهذا الهدف». وقال رامون: «في بداية الأمر، كنت مرعوباً، ولم أدرِ مكنونَ ذلك الشيء. وأمعنت في التفكير»(163).

وخلال تلك المرحلة من التفكير والتمحيص العميقين، لسعت أفعى رامون، وأشرف على الموت. وقد عالجه جده، والذي كان أيضاً مارا آكامي. كما علم السكان شيئاً فشيئاً أن آلهة الهويشول اختارت رامون كي يصبح كاهن ـ شاماني. وإن الجمع بين الأحلام الدينية والإصابة ومن ثم الشفاء هو نموذج للأفراد المتميزين عن بقية أفراد المجتمع، والذين يصلون إلى مرتبة زعيم مقدس.

وبعد سنوات، تعرفت باربارا ميرهوف إلى الفنان الشامان رامون مدينا، وأصبحت صديقة مقربة من أسرته. وبعد أن أمضيا فصلين صيفيين في زيارات وجلسات حوارية، وتسجيل أشرطة لأسئلة وإجابات، دعيت ميرهوف للمشاركة، تحت إشراف رامون، في رحلة حج مقدسة إلى ويريكوتا.

وتمتاز رحلة البحث عن البِيُّوت، والتي وصفتها ميرهوف بشيء من التفاصيل، والتي ظهرت عام 1969 في فيلم «كي نجد حياتنا» لبيتر فورست، بمراحلها العديدة كما تتخللها تحولات كبيرة. وكما ورد في بحث ميرهوف، تعتبر الرحلة إلى ويريكوتا، وهي تقع على بعد مائتي ميلٍ شمالاً، ترجمة عملية عند الهويشول لرحلة بحث إنسانية كونية، أي البحث عن الجنة، أو المركز الأوَّل للعالم، حيث عاشت الآلهة والبشر والحيوان والنبات منسجمين معاً في العصر البدائي. وينعكس هذا البحث عن

الوحدة الكاملة، أو الكومونيتاس، مع جميع أوجه الحياة في ملمحين أساسين لرحلة البحث عن البِيُّوت. أولاً، تحول الحجاج، عبر الطقوس، من الحجاج الأوائل الباحثين عن البيّوت، وكانوا آلهة، إلى صور حية. وهكذا أصبح الحجاج آلهة في هيئة بشرية. وهنا تجدر ملاحظة وجه الشبه مع الإيكسيبتلا عند الأزتك. ثانياً، تم التماثل أيضاً بين نبات البِيُّوت والغزال (جدّ الحيوان). وفي الماضي البعيد عند الهرشول، كان الغزال مصدر الغذاء والجمال، وهو حيوان سحري يذكر بأنه قَدَّم أَوَّل بِيُّوت إلى أول صيادي البِيُّوت. وفي كل رحلة صيد لاحقة يعتقد أن الغزال الجد ينزل من السماء وترك لهم البِيُّوت. ولا يستطيع رؤيته سوى المارا آكامي، في حين يرى بقية الحجاج آثار أقدامه في صورة نبات البِيُّوت في الأرض الصحراوية. ويتعزز هذا الاتحاد بين الحيوان والنبات عبر رمزية الذرة في فكر الهويشول. وإن الذرة هي مصدر الحياة الحالية، وهي وفيرة ومنتشرة في كل مكان. ويعتقد الهويشول أن صيد البِيُّوت يمثل اتحاداً بين الزمن والفعل، ويجمع بين الحيوان والنبات، وبين الماضي والحاضر، وبين الجد والروح والإنسان. ونتيجة لذلك كله، يجب أن تتم عملية صيد البِيُّوت بعناية فائقة.

وتتحقق تجربة الاتحاد عبر سلسلة من المراحل التي تكوّن رحلة الصيد. ويقوم الهويشول بالغناء والرقص وعزف الموسيقى أثناء صيد البِيُّوت، والذي يقال إنه يتألف من تسع مراحل، وهي (1) الاستعداد والتمرين (2) تسجيل أسماء الآلهة (3) تجهيز النار والاعترافات. وتتم تلك المراحل الثلاث داخل منزل خاص قبل المرحلة الرابعة، وهي المغادرة نحو ويريكوتا، وهي تبعد مسيرة عشرين يوماً عن أماكن سكن الهويشول. وفي الوقت الحاضر يستخدمون السيارات والشاحنات. وفي المرحلة الخامسة يصلون إلى تاتي ماتينيري (حيث تقيم أمنا)، وهو مكان توجد فيه ينابيع طبيعية وسط الصحراء. وهناك يشهد الحجاج شروق الشمس و«يساعدون تايا أوبا على الظهور».

وتشهد كل مرحلة لحظات عاطفية ذات مغزى تجمع بين الحزن والفرح والحماسة والوقار، وفقاً للمناسبة. وفي المرحلة السادسة تتم عمليات انقلاب، إذ يُشار إلى

الرحالة، الذين يعتبرون صوراً حية لحجاج البِيُّوت الأوائل، بعكس ما هم عليه في الواقع. على سبيل المثال «ملأت السيارة الضحكات وصيحات الفرح. ومن أجل تفسير سبب الضحك، أمسك رامون بخصلات من شعره وقال إنها تحولت إلى ألياف نبات الصبار. ثم أشار إلى نفسه، وقال إنه كان طفلاً صغيراً قبيحاً»(164).

ويشير مغزى تلك التحولات إلى أن صيادي البِيُّوت يشاركون في تنفيذ شكل آخر من الوجود، وهي طريقة دينية للتعبير عن الكينونة الإنسانية وإجراء انقلاب أو تحول لما هم عليه في الواقع. ويعود ذلك، في جزء منه، إلى حقيقة أن كل رحلة لصيد البيّوت هي تكرار لأول عملية صيد للبِيّوت عندما انتقلت الآلهة إلى ويريكوتا.

ويتم عند المرحلة السابعة الوصول إلى ويريكوتا، وهي مرحلة تشهد «صنع عُقَدٍ»، أي توحيد الحجاج بواسطة عُقَدٍ يَعْقِدونها في حبل يربط فيما بينهم عند مدخل الأرض المقدسة. وتشمل المرحلة الثامنة «الصيد» الفعلي للبِيُّوت، والذي يعتبر غزالاً تِبعاً لرمزية الهويشول. وإن وصف ميرهوف يساعدنا في فهم هذا التماثل بين النبات والحيوان:

> «ينطلق الهيكوريتاميتي (رفاق البِيُوت) عبر الأراضي الصحراوية بسرعة كبيرة باتجاه الجبال. لكنهم ينتشرون على شكل مروحة عوضاً عن تتبع خط وحيد كما يلاحظ عادة عند سير المواكب الشعائرية. وفي تلك المرحلة يتحلى جميع الرحالة بالهدوء والحزن، وينظرون عن قرب إلى التربة بحثاً عن البيّوت. ومع اقترابهم من الجبال، تتباطؤ حركتهم لأن البيّوت يوجد عادة هناك، وترتفع حدة التوتر في نفوسهم. وقد تصرفوا كمن يطارد حيواناً خلسة. لم تكن هناك حركات مفاجئة، ولا تبادل أحاديث. وقد انحنى الحجاج بالقرب من التربة، وتنقلوا وسط الأغصان على رؤوس أصابعهم، ورفعوا بحذر شديد غصناً، ودسّوا رؤوسهم تحت شجرة صبار على أمل العثور على نبتة بِيُوت صغيرة رمادية ـ خضراء، وهي نبتة غير واضحة المعالم، وتنمو في موازاة سطح التربة، ولها لون النباتات

> ذاته المنتشرة في تلك المنطقة ... وفي نهاية الأمر، استدعى رامون الجميع للاقتراب منه، فقد عثر على البِيُوت، ورأى الغزال. وسرعان ما اجتمعنا خلفه في حين استلّ سهمه وجهز القوس. وقد نظرنا عن كثب إلى النبات ذي الرأس الدائري المفلطح، والذي لا يزيد قطره على خمسة سنتيمترات، وهو مقسم ثمانية أقسام. وقد صلّى الجميع في حين أخذ رامون في الاقتراب منه إلى أن أصبح على بعد خطوات، ثم أطلق سهماً نحو الجهة الشرقية من جذر النبات، وسرعان ما أتبعه بسهم آخر نحو الجهة الشمالية بحيث أصبح البِيُّوت مطوقاً، ولم تعد أمام البيّوت ـ الغزال فرصة للهرب(165).

وفي أعقاب سلسلة من الأعمال الشعائرية المفروضة، يجمع صائدو البِيُّوت عدداً كبيراً من أزرار البِيُّوت ويصنفونها وينظفونها. ويتم خلال عدة ليال لاحقة تناول البِيُّوت أثناء تجمع الرحالة (الصيادين) حول النار من أجل استجلاب الرؤى والتخيلات. ويضحك الحجاج ويتحدثون حول الألوان الجميلة والحيوانات الصغيرة في رؤاهم، ومن ثم يصمتون وينامون، وهم يحدقون في النار. وأثناء تلك المرحلة بأكملها، يواصل المارا آكامي التحديق في النار، ويتخيل الحجاجَ القدماء، وهم أرواح الكونيات عند الهويشول. إنه يرى كبار الآلهة ويتواصل معهم، ويتلقى معلومات جديدة حول العالم والمقدسات.

وفي المرحلة التاسعة يغادر الحجاج ويريكوتا. وتتضمن هذه المرحلة إطلاق أسماء البِيُّوت وتناول الملح، وفكّ الحبل الذي وحد أفراد المجموعة قبل دخولهم إلى الأرض المقدسة. وفي إطار هذه الرحلة المقدسة يحيي الهويشول إحساسهم بهويتهم. وكما ورد على ألسنتهم «نجد حياتنا» مما يعني أنهم يتبادلون الأفكار والعواطف مع قوى ويريكوتا وجمالها الطبيعي، ويختبرون ما يشعر به ويراه المرء عندما يكون من أبناء الهويشول. ويأتي كل ذلك في سياق تكرار أول رحلة صيد للبِيُّوت. وكما كان حال الأزتك من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر، يقوم هذا الطقس على الحاجة للتواصل مع البدايات الخلاّقة للمجتمع من خلال سرد الحكايات وإعادة تمثيل ما

جرى قديماً، واسترجاع ذكريات.

وبعد أن استعرضنا رحلة حج يسافر فيها الناس إلى مكان مقدس لإيجاد حياتهم، سنبحث حالياً في احتفالات سنوية يطلق عليها اسم «يوم الموتى»، حيث تعود أرواح الأقارب الموتى إلى عالم الأحياء.

ديا دي لوس ميورتوس (يوم الموتى)

يُعدّ ديا دي لوس ميورتوس (يوم الموتى) من أبرز الاحتفالات السنوية في المكسيك، وفي أرجاء أمريكا اللاتينية كافة. ويتم هذا الاحتفال لمدة أسبوع في نهاية شهر أكتوبر وبداية نوفمبر. ويكرس هذا الاحتفال المعقد لإله الموتى (ويشار إليه أيضاً باسم تودوس سانتوس ـ يوم جميع القديسين)، وهو يجمع بين معتقدات وطقوس مورست قبل وصول الإسبان وبين رموز وممارسات كاثوليكية. ورغم أن طقوس وشعائر يوم الموتى معقدة ويصعب تصنيفها، يمكن التركيز على ثلاثة أبعاد مهمة (1) الإعداد للاحتفالات (2) رمزية المركز، وهو يتجسد في مذبح الأسرة (3) المأدبة الاحتفالية بالموتى والاتحاد الروحي مع الموتى في البيت وعند المقبرة، مما يمنح الإحساس بالتجدد الروحي. وتتركز الفكرة الأساس لهذا الاحتفال إلى أنه خلال هذه المرحلة من الطقوس الخاصة والعامة، ينضم الأحياء إلى الموتى من الأصدقاء والأقارب في جو من المشاركة والانبعاث الروحي.

ويرى باحثون أن عناصرَ مهمة من احتفالات «يوم الموتى» في وسط المكسيك، كانت تمارس من قبل الأزتك، وقد تكاملت مع التقاليد الكاثوليكية في المكسيك ومناطق أخرى من أمريكا اللاتينية. وقد اكتشف ساهاجون الممارسات الشعائرية التالية المرتبطة بشهر تيبيلهوتيل في عاصمة الأزتك. ونرى في هذا الوصف أهمية تقديس الموتى المرتبطين بموقع الاحتفال. كتب ساهاجون: «اعتادوا على وضع صور الموتى فوق أكاليلَ من الحشائش. ومن ثم عند الفجر يضعون تلك الصور داخل معابدهم، وفوق طبقة من عيدان القصب وقشور الجوز وأوراق البُرْديّ أو الأَسَلْ. وحال وضع الصور هناك، يقدمون لها الأطعمة والطامال والثريد، أو أطباقاً مصنوعة

من لحوم الدواجن (ديك رومي) أو الكلاب. ثم يقدمون إلى الصور بخوراً من خلال مبخرة، وهي عبارة عن فنجان كبير مملوء بقطع من الفحم. وقد أطلقوا على هذا الاحتفال اسم كالونواك. ويغني الأثرياء ويشربون البلْكة المتخمرة، على شرف آلهة الموتى، في حين يقدّم لها الفقراء الأطعمة وحسب، كما ذكرنا آنفاً»(166).

وفي الوقت الحاضر، يُمارس النموذج الاحتفالي نفسه لوضع: صورالموتى/المذبح/الأطعمة/الصدقات/البخور/مطارحة الأفكار والعاطف، وذلك بعد إجراء استعدادات معقدة، تُخْتَصَرُ أحياناً بسبب ضغوط اقتصادية.

ومن الجدير ذكره أن الطقوس والرموز والديكورات المكلفة والمعقدة، والتي تتم عند المذبح داخل البيت وفي المقابر، تختلف نوعاً ما من منطقة إلى أخرى. ففي حين تركز بعض المجتمعات على الديكورات عند المقابر، تُولي طوائف أخرى اهتماماً أوسع للمواكب الجنائزية ما بين البيت والمقبرة. ومازالت بعض الفئات الاجتماعية تُولي اهتماماً كبيراً لتزيين بيوتها إكراماً لأرواح الأجداد. كما يبذل أصحاب تلك البيوت جهوداً كبيرة وأموالاً سخية. وتقيم بعض الطبقات مسابقات في الهواء الطلق لتزيين المذابح، وَمنْحِ الهدايا لأرواح الموتى. ويرتفع، تبعاً لذلك، عُلُوُّ بعض المذابح لأكثر من ثلاثة أمتار، ويزيد طولها على خمسة عشر متراً. لكن جميع احتفالات «يوم الموتى» تركز على الانسجام الروحي بين الأحياء والكائنات الخارقة للأقارب والأصدقاء، أو رجال الدين الموتى. وفي النص التالي، نطّلِعُ على وصف لاحتفالات «يوم الموتى» في ولاية تلاكسكالا المكسيكية، شرق مدينة مكسيكو سيتي، كما كتب هوجو نيوتيني: «في كل بيت، وهو يُعَدُّ مركز تقديس المتوفى، يُعْتَقَدْ أن أرواح الموتى خرجت في رحلة إلى العالم الآخر. كما يعتقد المكسيكيون أن أرواح الطيبين تسافر عبر طريق مستقيم وضيق إلى عالم آخر، في حين تسلك أرواح الخبيثين الأشرار طريقاً واسعة معقدة. وتصل جميع الأرواح إلى نهر عميق وعريض لا يمكن عبوره من دون مساعدة كلب، يرفع الأرواح فوق كتفيه ويحملها نحو الضفة الأخرى. كما يسود اعتقاد بأن الأرواح الخبيثة تُحْرَمُ من الانتقال عبر النهر، في حين تُفْلِحُ الأرواح الطيبة في إقناع الكلب بحملها بسهولة أكبر إن كان لديها عملات نقدية توضع عادة في يد

أو فم المتوفى في أثناء الجنازة. ويعتقد بين أوساط اجتماعية عديدة بضرورة إحسان معاملة الكلاب في الحياة الدنيا لأنها تساعد الأرواح في العالم الآخر».

وإن الشيء اللافت في جميع الحالات (منذ زمن الأزتك وحتى الوقت الحاضر) هو الاعتقاد بأن ما يجري في حياة الإنسان على هذه الأرض يعتمد، في جزء منه، على حسن معاملة الموتى. كما يعتقد الناس أنه ما لم يتم عبادة الموتى وتغذيتهم وتذكرهم بالطريقة المناسبة، فإن أمانهم المعيشي واستقرارهم الأسري وصحتهم ستكون في خطر. ونتيجة لذلك، تجري استعدادات دقيقة وسخية للاحتفال بـ «يوم الموتى».

الاستعدادات

تشكل أزهار القطيفة (الأذريون) أهمية خاصة عند تزيين المذبح سواء في البيت أو في المقبرة. وإن مرادف أزهار القطيفة في لغة الناهوآتل هو زيمبو آل إكسوشيتل (وهي كلمة تعني عشرين زهرة). ويزرع معظم أصحاب المنازل نبات زيمبو آل اكسوشيتل في حدائقهم، حيث يزرعون البذور في منتصف شهر أغسطس كي تُبَرْعِمَ الأزهار في نهاية أكتوبر. ويشتد الإحساس بوجوب الاستعداد لاحتفال ديا دي لوس ميورتوس في بداية شهر أكتوبر، عندما يخصص الناس الأموال والسلع الضرورية لاستخدامها في تجهيز الديكورات السخية عند المذابح والقبور، ولأجل إعداد الولائم الاحتفالية بالموتى والأحياء. كما تجري ترتيبات دقيقة للتحرر من الالتزامات الوظيفية من أجل تولي المهام الضرورية لإقامة الطقوس بالشكل المناسب. وتنطوي هذه المسؤوليات الشعائرية على إحساس بالتضحية من جانب الأسرة، حيث ينتشر الفقر في جميع أرجاء أمريكا اللاتينية. وتقام الرحلات إلى الأسواق المرحلية والمناطقية، والتي تبعد أحياناً مسافة مئات من الأميال، من أجل جلب الأغذية ومعدات الزينة المناسبة في الموعد المحدد للاحتفال بالأسبوع المقدس.

ومن أهم تلك الاستعدادات قاطبةً تحضيرُ أطعمةٍ خاصةٍ بالموتى. وتشمل تلك الأطعمة الكعك ومربيات الفاكهة، وجماجم مصنوعة من السكر وتماثيل بشرية صغيرة مصنوعة من بذور اليقطين، فضلاً عن معلبات التفاح والكمثرى والسفرجل. كما

تباع أو تصنع تماثيلُ من ورق معجَّن من مختلف الأنواع لاستخدامها في تزيين المذابح والقبور. وإن آخر وأهم مادة تشترى أو تقطف، هي أزهار الزيمبو آل إكسوشيتل. ونظراً لكون هذه الأزهار لا تعيش لأكثر من أربعة أيام، فإنها توضع عند المذابح والقبور وعلى الطرقات بين المدافن والبيوت قبل يوم واحد من بدء الاحتفال ب ديا دي لوس ميورتوس.

مذبح الأسرة

تظهر مذابح «يوم الموتى» في الساحات العامة والمدارس، وحتى عند إجراء المسابقات، ولكن أهم مذبح يظهر داخل البيوت. ويعتبر، تبعاً لذلك، بمثابة المحور الرئيس في الممارسات الشعائرية والاحتفالية للأسرة. وينتصب داخل معظم البيوت في منطقة تلاكسكالا مذبح على مدار العام، ولكنه يُزَيَّن بأجمل أنواع الزينة خلال هذه الفترة الاحتفالية. ويصبح هذا المذبح منطقة مقدسة أو مركزاً احتفالياً داخل البيت، ويتشكل مما لا يقل عن عشرة أشياء وهي خبز وحلويات وأطباق مطهية ومربيّات، وفاكهة وخضار ومشروبات روحية وعصائر، وأزهار ونباتات وملابس وحليّ، وصور ولوحات وتماثيل (وقد تكون من أهم الأشياء). ويتم عادة وضع تلك الصور والتماثيل داخل ريتابلو (رف يشكل خلفية المذبح)، حيث تشرف صور العذراء والمسيح والصليب والكهنة على الأفريندا، أو الهدايا للموتى.

وتتخذ هذه الهدايا شكل وليمة فاخرة خاصة بأرواح الموتى، الذين يعودون ويأكلون في أمسيات محددة خلال احتفال ديا دي لوس موريتوس. ومن الأفريندا النموذجية في تلاكسكالا هرم رباعي الجهات مزيّن من جوانبه بأزهار الزيمبو آل اكسوشيتل. وعند كلٍّ من الأركان الأربعة توضع أكوام من ثمار اليوسفي والبرتقال فوق أعواد من قصب السكر. ويتكون القسم الأكبر من الهدايا من أطعمة مطبوخة وعصائر وأرغفة بان دي ميورتوس (خبز الموتى)، ومربيّات الفاكهة والطامال والموز والبرتقال. ومن أبرز الأشياء التي تقدم ضمن الأفريندا جماجم مصنوعة من سكر مبلور بأحجام مختلفة وبأنواع متنوعة من الزينة. وتمثل تلك الجماجم الرضّع والأطفال

والراشدين الموتى الذين تمَّ تكريمهم في ذلك العام.

كما يتم التعبير عن عدد من الرموز والمعاني الاجتماعية ضمن هذا المركز الشعائري العضوي والمزدحم. وترمز تلك الوفرة من السلع إلى البحث عن النماء والخصوبة وتجديد العلاقات مع الأصدقاء والأقارب الموتى. لكن الصورة الإجمالية ترمز إلى جبل معيشي مقدس يغذي كامل أفراد الأسرة. وإن ذلك الجبل المعيشي، والذي نذكر ارتباطه بجنة تلالوك، فيما قبل الكاثوليكية، لهو رمز للمطر والخصوبة، وهو مخزن يحوي أهم القوى الخارقة . ومن هذا المنطلق، ترمز مذابح ديا دي لوس ميورتوس والأفريندا لكتلة تجمع بين الأرض الواهبة للحياة وقوى التجدد الروحي.

تبادل الأفكار والعواطف مع الموتى

يتم التنسيق بدقة وهدوء للحظات فعلية لإعادة التواصل مع الموتى وتجديد العلاقات الأسرية. وثمة، في الواقع، وفقاً لممارسات مفصّلة في منطقة كلاكسكالا، خمس فئات من الأرواح الميتة، وهي أرواح من قَضَوْا في حوادث، ومن ماتوا جراء أحداث عنف، ومن ماتوا وهم رضَّعْ، أو في مرحلة الطفولة، أو راشدين، وهم يعودون في خمسة أيام متعاقبة. وفي يوم 2 نوفمبر، وهو ذروة توروس سانتوس، يتم تذكر جميع الموتى.

وكما ورد في دراسة للباحث هوجو توتيني في كلاكسكالا، يعتقد الناس أن أرواح الموتى تبدأ في العودة، والطواف حول بيوت أسرهم بدءاً من الساعة الثالثة من مساء يوم 31 أكتوبر. ومن أجل عودة أرواح الموتى إلى البيت الذي عاشوا فيه، يجب أن يوضع خارج البيت صف مستقيم من أزهار زيمبو آل إكسوشيتل لهدايتهم إلى الطريق. وفي الصباح الباكر، تجهز نساء الأسرة سلة تضم بتلات (تويجات) أزهار عطرة نثرت عليها مياه مقدسة جلبت من الكنيسة. ثم يقوم الرجال والأطفال بوضع البتلات في خط مستقيم، صانعين مساراً يقود من الشارع عبر فناء البيت باتجاه قاعدة مذبح الأسرة. ويُقْصَدُ من ذلك المسار الوردي هداية أرواح الموتى إلى طريق العودة من المقبرة إلى البيت. ومن الضروري أن تكون الأزهار عطرة، لأنهم يعتقدون أن



صورة مقربة لمذبح يوم الموتى (بتصريح من شكوت سيشينز).

أرواح الموتى ضريرة. لكنها، تتمتع بحاسة شم حادة تدلها على طريق العودة إلى البيت عن طريق شذا الأزهار التي وضعها الأحياء.

كما يُعتقد أنه بحلول التاسعة من مساء يوم 1 نوفمبر تعود أرواح جميع الموتى على طول الطريق العطرة إلى بيوتها السابقة. وفي بعض البيوت تغلق الغرفة التي تحوي المذبح/أفريندا ما بين الساعة 10 مساءً وإلى 6 صباحاً، كي تستمتع الأرواح العائدة بالأطعمة والحلويات، وكي تسترجع الذكريات الجميلة حول حياتها السابقة في عالم البشر. كما يعتقد أن أرواح الموتى تعود بعد ذلك إلى المقبرة لمشاركة الأحياء في سهرة لتبادل الأفكار والعواطف. وتسمى تلك السهرة باسم اكسوشاتل بلغة ناهوآتل، وباسم لا لورادا (البكاء) بالإسبانية، وفيها يجتمع الأحياء والموتى كمجتمع روحي حيّ. وفي هذه السهرة يكرر الموتى للأحياء تأكيدهم مواصلة حمايتهم، كما يؤكد الأحياء للموتى أنهم سيذكرونهم ويغذونهم في حياتهم اليومية.

وفي المقبرة المحلية، تقوم فرقة موسيقية يحمل أفرادها طبولاً وقيثاراتٍ بعزف ألحان تارةً حزينة وتارةً نابضة بالحياة لمدة ثماني ساعات. كما تضاء الشموع فوق القبور، وتُتْلى الصلوات مع قرع أجراس الكنائس لتهدئة وإسعاد أرواح الموتى الذين يوشكون على العودة إلى قبورهم. ويلتمس الأحياء من أرواح الموتى الحماية لهم ولأسرهم، ولمحاصيلهم وأعمالهم التجارية، وصحتهم وممتلكاتهم لمدة عام آخر.

ومما يقال في تلك الخطب الدينية «أيتها الأرواح المباركة، يا من أسعدتنا عودتكم إلينا كي تشاركونا في يوم التذكر هذا، ندعو أن تظللونا برحمتكم وحمايتكم»(147).

يمثل النص السابق أحد الاحتفالات العديدة المتنوعة ليوم الموتى التي تقام في جميع أرجاء المكسيك. وفي حقيقة الأمر، تم إحياء تلك الممارسات داخل المكسيك وبين الأوساط المكسيكية ـ الأمريكية في الولايات المتحدة.

عذراء جوادالوبي

من أبرز الأمثلة على الإيمان بالحماية الروحية لدى جميع المنحدرين من أصول أزتكية وإسبانية وهجينة، معجزة جرت فوق هضبة تيباباك في عام 1531، عندما

ظهرت عذراء جوادالوبي لخوان دييجو، وهو معلم هندي. وقد تمت المعجزة في موقع احتكاك، وهو مكان عبد فيه الأزتك أمهم المقدسة، توناتزين. وقد ظهرت عذراء جوادالوبي في صورة العذراء أم المسيح سمراء البشرة، وقد تحدثت بلغة ناهوآتل وصرحت بأنها جاءت لحماية السكان الأصيلين المظلومين. وتظهر قصتها أنها تمثل جانبي الاستمرارية والتحول عند الأزتك.

وتأتي عذراء جوادالوبي في إطار عبادة مريم العذراء النقية الطاهرة، وهي عبادة تظهر في الفنون الدينية وفي مناحي الحياة في جميع أرجاء أمريكا اللاتينية. وتظهر صور مقدسة مختلفة لعذراوات في تماثيل وملابس وحليّ في جميع المناطق والمحال في دول أمريكا اللاتينية، وفي كل مكان يمكن تخيله بما فيها الكنائس والحانات وصالات الرقص، والمطاعم والملاعب والفنادق، والمتاحف والكنائس الصغيرة ومحال بيع الآيس كريم، والحدائق العامة والسيارات.

وبدءاً من عام 1540 وإلى وقتنا الحاضر، هيمنت عبادة مريم العذراء على أجواء الكنائس وفي جميع أرجاء القرى، حيث يتجه إليها الناس بالسؤال بوصفها، كما يعتقدون، صلة وصل بينهم وبين الرب، وهم يعتقدون أن مصير المجتمع بأسره يعتمد على قواها. وقد تكرست عبادة مريم العذراء، وظهرت في صور عذراء لوس ريميديوس، وعذراء كانديلاريا في سان خوان دي لوس لاجوس، وفي عذراء زابوبان. وهكذا يصبح من المؤكد أن الأوروبيين جلبوا عبادة مريم العذراء معهم إلى أمريكا الوسطى. فقد رافقت كل غزوة إيبيرية استعمارية، إن لم تقدها، صورة للعذراء، والتي حمت الغزاة وألهمتهم، وهدّأت من روعهم عندما قاموا بضم أراض وشعوب جديدة إلى الإمبراطورية الإسبانية.

لكن في كل حالة، أضيفت معانٍ جديدة إلى عذراء الإسبان، من قبل الهنود والسكان الهجين والكريللوس (إسبان ولدوا في العالم الجديد). ويظهر ذلك الإبداع الفكري المهم أن السكان الأصيلين والهجين، تبنوا، وإن بدرجات متفاوتة، المعتقدات المسيحية، وأصبحوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مسيحيون، لكنهم طوروا أشكالاً جديدة من القصص والفنون والممارسات الدينية. لكن ذلك التحول إلى المسيحية

وترجمة المفاهيم والممارسات المسيحية، كان عملية بالغة التعقيد، ومن الصعب، بالتالي، وصفها.

وتشمل عبادة عذراء جوادالوبي عدة أنماط غنية من الحياة الدينية، ومن ضمنها رحلات حج لمحور العالم، وتجديد العالم، والتبادل الثقافي. ووفقاً للتقليد المكسيكي، ظهرت عذراء جوادالوبي السمراء لهندي وديع كان في طريقه عبر هضبة تيباك لتلقي تعليمه الكاثوليكي في عام 1531، أي بعد عشر سنوات من سقوط العاصمة تينوشتيتلان أمام قوات هيرنان كورتيز وحلفائه من السكان الأصليين. فقد ظهرت العذراء وخاطبت خوان دييجو بالناهوآتل، واستخدمت عبارات لوصف نفسها شبيهة بما استخدم من عبارات لوصف الآلهة قبيل وصول الإسبان. قالت في وصف نفسها إنها إن تلوك ناهواك أي «إله ما يحيط بنا وما يلامسنا»، وهو تعبير استخدمه الأزتك في وصف إلههم المهيمن. وقد طلبت جوادالوبي من الهندي خوان دييجو أن ينقل إلى أسقف المكسيك رغبتها في بناء «بيت صغير مقدس» خاص بها تستطيع من خلاله إلقاء نظراتها الحنون. كما قالت له إنها جاءت كي تحب وتعطف على «جميع من عاشوا في تلك الأرض، جميع المنحدرين من سلالات مختلفة.... من ينادونني، ومن يسعون إليّ، ومن يثقون بي... سأتدبر جميع مشكلاتهم، ومختلف أشكال أحزانهم ومآسيهم». وعندما وصف خوان دييجو الشبح لسلطات الكنيسة، سخروا من فكرة ظهور طيف أم المسيح والتعبير عن رغباتها لهندي. ولدى عودة خوان دييجو إلى الموقع لطلب معونة الشبح، أخذ في النواح والتفجع «أنا هندي فقير، أشبه بحبل حمّال، بإطار خلفي، أو ذيل. إني رجل لا قيمة له». وإن تلك العبارات شبيهة إلى حد بعيد بعبارات متواضعة استخدمها عمال أزتك في وصف أنفسهم لساهاجون عندما أجرى دراسته حول السكان الأصليين.

قالت له العذراء بلغة ناهوآتل إنه كان «في جوف عباءتي، داخل ثنيات ذراعي».

وأخذت وروداً من غصن قريب كان مزهراً في غير أوانه ووضعتها داخل عباءته. وقد نفذ ما أُمر به، وعندما خلع العباءة أمام الأسقف، سقطت الورد وظهرت صورة ملونة عجيبة لعذراء جوادالوبي وهي محاطة بهالة ضوئية منيرة. ومن ثم تمَّ تصديق



صورة لعذراء جودالوبي. لوحة تصور خوان دييجو وهو يفتح عباءته كي يرى الأسقف زوماراجا الورد الذي جلبه من هضبة تيبياك (الصورة معروضة بإذن من خدمة الأنباء الوطنية الكاثوليكية).

تلك المعجزة المدهشة، واختير مكان البوح والإلهام لبناء كنيسة جديدة كما أمرت العذراء. وفي الوقت الحاضر، ثمة أكبر كاتدرائية كاثوليكية في المكسيك عند سفح تل الهضبة، ويزورها يومياً آلاف الزوار الذين يحدقون النظر في العباءة المغطاة بطبقة زجاجية، وقد رسمت عليها صورة للعذراء. كما يأتي بعضهم في رحلات حج من مسافات تبعد مئات الأميال، ويقطعون القسم الأخير من الطريق على ركبهم وهم يصلّون طوال الطريق.

كما اشتكى قساوسة في منتصف القرن السابع عشر من وجود تماثيل وثنية، يعود زمنها إلى ما قبل العهد الإسباني، أو تذكارات لتماثيل خلف المذابح الكاثوليكية في أماكن مثل تيبياك. لكن، من جانب أول، كان طيف جوادالوبي شائعاً ومؤكداً من قبل الإسبان الذين جلبوا تقاليد الأطياف والأضرحة إلى العالم الجديد. وهكذا أضحت المكسيك منطقة تدريب للقساوسة الذين توقعوا رؤية الأطياف كجزء من كهنوتهم. ومن جانب آخر، لاحظ القساوسة الفرانسيسكانيون والدومينيكانيون، ممن تحدثوا بلغة ناهوآتل، أن السكان الأصليين تأقلموا بصعوبة شديدة مع النظام الاستعماري، وأدركوا أن أبناء البلاد الأصليين لم يتبنوا الممارسات الكاثوليكية فحسب. وعوضاً عن ذلك، مزجوا بين معتقدات أصيلة وأوروبية، وفي بعض الأوقات تظاهروا بتقديس مريم وغيرها من القديسين، في حين واصلوا عبادتهم لأرواحهم وآلهتهم وأجدادهم.

فقد ابتدعوا شكلاً جديداً للديانتين. وقد عرف قديماً أن مكان لقاء خوان دييجو بطيف العذراء جوادالوبي كان الهضبة المقدسة التي كُرِّسَتْ عند الأزتك للآلهة الأم تونانتزين، والتي عُبدت طوال تاريخ الإمبراطورية الأزتكية. وفي الآونة الأخيرة، أظهر المختصون بعلم الفلك القديم والمؤرخون كيف ارتبطت هضبة تيبياك بطرق احتفالية مهمة سبقت قدوم الإسبان. فقد سلك الأزتك الهضبة من أجل حثّ الجبال المانحة للأمطار على إطلاق مياهها الحيوية. وبات من المؤكد أن احتفالات الأزتك شملت رحلات حج ومواكب اتجهت نحو عدد من الجبال المقدسة حول حوض المكسيك، وأن هضبة تيبياك والهضاب المجاورة شكلت معابد ذات أهمية كبرى

لعبادة إله المطر في مدينة تينوشتيتلان. ومن هنا تأتي أهمية عبادة جوادالوبي، والتي رغم مغزاها الكاثوليكي القوي، فإنها تعبّر أيضاً عن إحساس هندي بقدسية المكان وعبادة الآلهة.

وتتمثل أشقّ المفاهيم التي يواجهها طلاب الثقافات في الصور أو الرموز الدينية التي تحمل أكثر من معنى، وقد تكون معان متناقضة. فقد يكون لرمز ديني وحيد، عدة معانٍ، سواءً كان ذلك في أمريكا الوسطى أو أوروبا أو الصين. ويعدّ الصليب المسيحي مثالاً واضحاً على تعدد القيم والمعاني. فمن جهة، يرمز الصليب إلى الخيانة والمعاناة، والتضحية وموت المسيح. ومن جهة أخرى، يمثل الانبعاث والحياة، والانتصار على الموت والإيمان بالرب. وعندما جلب الإسبان الصليب إلى المكسيك، رأى الأزتك في تصميمه معاني أخرى. لقد وجدوا في الصليب شكلاً مختلفاً من الشجرة الكونية، أو شجرة الحياة، والتي وجدت عند أركان ومركز عالم الأزتك، فدعمته ومنحته نظاماً وتجدداً. فقد بدا المسيح وهو مصلوب في صورة الشجرة الكونية التي لا تعيد بعث الحياة وحسب، بل تدعم السماء وتمنح العالم الاستقرار والتوازن. كما ينبثق تعدد المعاني تبعاً لموقع الرمز أو المعبود في التاريخ أو الجغرافيا أو السياسات أو البيئة المحلية. فإن عدداً من المعاني والقصص المحلية ترتبط بالعذراوات المقدسة المختلفة في المكسيك. وفي الوقت نفسه، تمتاز جوادالوبي بمكانة خاصة لأنها تدمج التوترات بين الهنود والإسبان، وبين الهجين والهنود، وبين الإسبان والهجين، وتوحدهم في مجتمع واحد مؤمن ومخلص.

ونستطيع رؤية عدة صور ومعان مختلفة ارتبطت بجوادالوبي في المكسيك. فإن ظهورها يعتبر بحق حدثاً طويلاً تخللته أحداث عديدة متوسطة الأمد.

أولاً، منذ القرن السابع عشر عُدّت جوادالوبي بمثابة الأم المعطاء التي تحتضن شعب المكسيك وتحميه وتحبه. إنها رؤوم محبةٌ متسامحة، وموجودة في جميع المعابد والتماثيل المكرسة لها. ثانياً، عندما لاحظ علماء اللاهوت في القرن السابع عشر، تنامي شعبيتها، أصبحت الوسيط الذي يلجأ إليه الناس لكي تصلهم بالقوة الإلهية الكبرى. ثالثاً، أصبحت في القرنين الثامن والتاسع عشر مقاتلة في الثورة. وقد لجأ

إليها رجال الدين والمتمردون، طوال الاضطرابات العنيفة في تاريخ المكسيك، مستلهمين قوتها ونفوذها للقضاء على الحكومات الفاسدة والظالمة. وقد أصبحت حليفاً طبيعياً لعامة الشعب، خاصة الهنود والهجين، المتمردين على أوضاعهم. كما طلبوا دعمها ومساندتها في مقاومتهم للضرائب الجائرة. على سبيل المثال، في مدينة تولانسينجو الهندية، طالب قادة المتمردين في ثورة عام 1769 بقتل جميع المسؤولين الإسبان، وإنشاء كهنوت هندي «حلموا بأن يأتي يوم يركع فيه الأساقفة ويقبّلون خواتم القساوسة الهنود. وقد لقّب زعيمهم الثيوقراطي (مؤيد لحكم رجال الدين) نفسه باسم المخلّص الجديد، وعرفت مساعدته باسم عذراء جوادالوبي»(148).

ولتلخيص كل ما سبق، نرى أن جوادالوبي كانت مثالاً لتبادل ثقافي غريب وغاضب. إنها هندية وإسبانية، وهي أم أرضية وأم مقدسة. إنها هادئة، رضيّة البال وثورية. إنها تجتذب رحلات الحج، وهي حاجّة بذاتها، حيث تسافر في مقدمة الجنود المتمردين، وتدخل إلى كل قلب يحتاج لحمايتها ورعايتها، كما فعل الهندي الفقير، خوان دييجو في عام 1931. فقد ظهرت في منطقة احتكاك، حيث سعى قساوسة مسيحيون لاجتذاب مهتدين جدد في ظل آلهة الهضبة المقدسة عند الأزتك. وقد اختارت العذراء جوادالوبي أن تظهر لفقير عامل، هندي هامشي، وهو خوان دييجو، الذي أصبح شريكاً لها في تحويل كل من الأسقف وعامة الهنود والهجين والإسبان وإقبالهم على عبادتها.

رسامو الجداريات المكسيكية.. جدران شيكانو

كان من أبرز الحركات الاجتماعية والفنية الخلاقة في أمريكا اللاتينية إبّان القرن العشرين حركة الرسوم الجدارية المكسيكية. وقد قاد تلك الحركة الرسامون دييجو ريفيرا وجوزي كليمينتي أوروزكو وديفيد آلفارو سيكويروس وروفينو تامايو. وإلى جانب عشرات الرسامين الآخرين، ومنهم الرسامة البارزة فريدا كاهلو، أنعش أولئك الرسامون اهتماماً قومياً بماضي الأزتك الذي ما زال ينمو في قلوب المكسيكيين وأبناء جلدتهم من المكسيكيين الأمريكيين. وقد سعى رسامو الجداريات المكسيكيون

لإظهار وتسليط الضوء، وإن بوسائلَ مختلفة، على التاريخ الغني والمتناقض والمؤلم، والروحي والجسدي الجميل والسياسي للشعب المكسيكي. وقد تجلّى ذلك في أعمال دييجو ريفيرا، على سبيل المثال، باحتفائه بالماضي المكسيكي في داخل وطنه وفي لوحاته وفلسفته. وقد كان القصد من ذلك الاحتفاء بالأزتك والمايا والتوتوناك والهواكستيك، انتقاد النمط الثقافي المحتفي بالمدارس الفنية الأوروبية، وبالتأثيرات الوافدة من إسبانيا وفرنسا على المجتمع المكسيكي، والذي ساد في نهاية القرن التاسع عشر. فقد رسم ريفيرا عدداً من اللوحات الجدارية المذهلة على جدران مبانٍ عامة وحكومية ركزت على مشاهد لملوك وأكوان وقوة روحية وإنجازات زراعية حققها الأزتك وجيرانهم. ويستطيع الزائر لنيومكسيكو أن يشاهد اليوم رموزاً ووجوهاً ومشاهد مصوّرة فوق عدد من المباني الحكومية والتعليمية المهمة.

وعندما سعى أحفاد شعوب المكسيك الذين استقروا (بدءاً من القرن السادس عشر) فيما يعرف اليوم بجنوب غرب الولايات المتحدة، لفهم هويتهم وثقافتهم ومسؤولياتهم، اتجهوا نحو رموز وصور تعبّر عن الثقافات الأصيلة في المكسيك. وفي حين ساهمت عشرات من المجتمعات الأصيلة في رفد الجهود الاستعمارية والحديثة لتشكيل الهوية المكسيكية والشيكانية، لابدّ من الإشارة إلى غلبة وهيمنة الرموز الأزتية والماياوية على غيرها من الرموز الأصلية في المكسيك. ويبدو هذا واضحاً في حركة شيكانو والتي امتدت إلى كل تجمّع سكاني يعيش فيه أمريكيون من أصول مكسيكية. ويعرف الشيكانو بأنهم شعب من أصول مكسيكية شكلوا حركة مقاومة لتحرير أنفسهم من قوالب الأنجلو الجامدة، وللتحرر من القمع السياسي ومن الفقر وعدم تكافؤ الفرص، والشلل الروحي. وقد تجلّت تلك الحركة عبر «اتحاد العمال الزراعيين» بقيادة سيزر شافيز، وحركة «حملة لتحقيق العدالة» بزعامة كوركي جونزاليز في دينفر، وعن طريق حركات اجتماعية لتحقيق المساواة في التعليم ولاستعادة أرض الأجداد في مدينة مكسيكو سيتي. وتعبّر تلك الحركات عن أنفسها أكبر تعبير من خلال الموسيقى واللوحات الجدارية وبرامج الخدمة الاجتماعية المنتشرة في كل تجمع سكاني لأمريكيين من أصول مكسيكية، بدءاً من إيل باسو



إحدى الجداريات التي رسمها دييجو ريفيرا، وهي تصور موضوعات قديمة سبقت وصول الإسبان إلى أميركا الوسطى (بإذن من سكوت سيشينز).

وتكساس وبوسطن، وصولاً إلى ماساتشوسيتس. وإن الزائر إلى أي من تلك المدن سيجد جداريات جميلة وملهمة تصوّر كويتزالكوآتل وهويتزيلوبوشتلي وماليِنش، ونيزاهوالكويوتل وتلاماتينيم، وتجاراً ومحاربين ومزارعين، ومظاهر أخرى من حياة الأزتك والمايا والأولميك والتولتيك ومجتمع تيوتيهواكان. ومن بين عشرات رسامي جداريات شيكانو، والذين رفدوا الحركة الثقافية في المجتمعات المجاورة الأمريكية المكسيكية في الولايات المتحدة، سنأتي على ذكر ثلاثة رسامين، وهم ريي باتالان وجوزيه أنطونيو بورسياجا وجورج يبيس.

وثمة في مدينة شيكاغو، حيث اكتسب الشيكانيون نفوذاً سياسياً كبيراً، مركز كاسا آزتلان، وهو مركز خدمات اجتماعية يضم جداريات ملونة رسمها ريي باتالان، وهي تصوّر التاريخ المكسيكي من زمن التولتيك وصولاً إلى الوقت الحالي.

وقد حمل المركز اسم كاسا آزتلان، وهو الموطن الأسطوري شمال عاصمة الأزتك، والذي خرج منه أسلاف المكسيكا من أجل بناء مركزهم الكبير، تينوشتيتلان. ويدّعي الشيكانو في مدينة شيكاغو أن ذلك الوطن الأصيل يتمثل داخل أحيائهم، حيث يتضافر النضال مع الاحتفالات في حركة دائبة للتخفيف من معاناة الحياة المدنية. إنهم يدركون أن آزتلان تقع جغرافياً في مكان جنوبي بعيد. لكن في الخيال الإبداعي للأمريكيين من أصل مكسيكي، يمكن لمكان مقدس أن يوجد في أيّ مكان يتم فيه التعبير عن العناصر الروحية والفنية التي ترعى مصير الناس. وكسواه من الفنانين الأزتك، اكتشف ريي باتالان (اسمه الثاني يأتي من لغة ناهوآتل)، بأن فنه يبعث رسالة إلى قلوب الناس. وتغطي جدارياته جدران مركز كاسا آزتلان بصور نابضة بالحياة تبدو كأنها تتحرك حول الزوار الذين يفدون إلى المركز بحثاً عن مساعدة تعليمية أو قضائية أو أسرية. وتتجلى أعمال باتالان بالديناميكية الفنية، وهو يستخدم أسلوباً أكثر تطوراً من أسلوبَيْ أوروز وريفيرا، تبعاً لاستخدامه ألواناً نارية كالأحمر والبنيّ الترابي، وألوان شروق الشمس، والتي تضخ الحياة في شخصيات تمثل التولتيك والثوار المكسيكيين وعمال المزارع من ديلانو في كاليفورنيا، وصراعات الحياة اليومية بين أفراد الشيكانو في شيكاغو. وبفضل عبقرية باتالان الفنية في نقل تطلعات الشعوب

المكسيكية وماضيها، يعدّ كاسا آزتلان مركزاً احتفالياً معاصراً يسترجع من خلاله الشيكانو الماضي ما قبل الإسبان، والصراعات مع المستعمرين، فضلاً عن استلهام روح ثورية تقوّيهم وتعزز ثقتهم بأنفسهم.

كما تعد جامعة ستانفورد مركزاً آخر تلهم الرموز الأزتكية فيه المُشاهد وتنتقده وتثقفه. وقد تمّ في عام 1972 في جامعة ستانفورد (ونتيجة لضغوط من قبل حركة شيكانو) إنشاء كاسا زاباتا، وهو مركز رئيس لدعم الطلاب الأمريكيين من أصل مكسيكي. وفي ذلك المركز رسم جوزيه أنطونيو بورسياجا في ثمانينات القرن العشرين ثلاث جداريات كبيرة تصوّر مظاهر مختلفة من التاريخ والثقافة الأزتكية. وتحمل كل لوحة رموزاً مهمة من عالمي الأزتك والمايا. وتصوّر إحدى الجداريات وعنوانها «ميثولوجيا الذرة» خلق الجنس البشري والذي تم بفضل الجهد الخلاق لكويتزالكوآتل، وهو إله التولتيك/الأزتك الذي ذُكر في فصول سابقة. ومن بين الأشخاص الذين قدمهم بورسياجا نماذج معاصرة من باشوكوس وشولوس وشولاس، وهم ممثلون شباب للطبقة العاملة الذين أدى صراعهم ضد العنصرية والعنف والفقر لتوريطهم مع بعض القوى المدمرة في الثقافة الأمريكية. كما تظهر تماثيل أزتية في جدارية أخرى في كاسا زاباتا وتحمل اسم «العشاء الأخير لأبطال شيكانو». فقد رسم بورسياجا مجموعة من الأبطال جلسوا ووقفوا في العشاء الأخير (ومن بينهم شي جيفارا وبينيتو جواريز، ومارتن لوثر كينج وسور جوانادي لاكروز، وكارلوس سانتانا، وسيزر شافيز ودولوريس هويوتا). وإلى جانب هؤلاء الأبطال المعاصرين، رسم بورسياجا نسخة من تمثالين لتولتيك لا يزالان يقفان حتى هذا اليوم في موقع تولا الأثري، وهما لتولان العظيم حاكم مملكة كويتزالكوآتل. وتخيم عذراء جوادالوبي على المشهد بأكمله، وهي العذراء السمراء التي جاءت لرعاية وضمّ جميع أبناء المكسيك بين ذراعيها.

ومن أبرز الرسامين وأكثرهم تأثيراً في الولايات المتحدة في الوقت الحالي، الرسام جورج يبيس، والذي تظهر لوحاته في مراكزَ اجتماعية وجامعات وكنائس ومدارس في لوس أنجلس في كاليفورنيا. وقد تُعْزى شهرة يبيس إلى لوحته «لا بيستولا يو ايل



أعضاء من الجالية المكسيكية في الولايات المتحدة تجمعوا لمشاهدة الاحتفال بعرض لوحة تيبياك دي لوس أنجليس، والتي رسمها رسام الجداريات جورج ييبس فوق جدار كنيسة لوسي(جورج رودريجوس، بتصريح من استوديو جورج ييبس).

كورازون»، والتي ظهرت في ألبوم لوس لوبوس بالاسم نفسه. وقد ابتاع أعماله عدد من المشاهير، من أمثال مادونا وشون بين، وغيرهم من الممثلين والفنانين الذين جذبتهم إبداعاته ودقة تصويره لموضوعاته. ويغطي أحد أهم أعمال يبيس واجهة كنيسة سانت لوسي الواقعة في أحد الأحياء المضطربة في مدينة لوس أنجليس. وفي هذه الجدارية التي تحمل اسم «تيبياك دي لوس أنجلو=يس»، ينقل يبيس معجزة جوادالوبي من هضبة الأزتك تيبياك إلى سفح هضبة في لوس أنجليس حيث بنيت الكنيسة، وهي تقدم خدماتها لمن يعانون صعوبات العيش في المدينة.

وقد تحول طيف العذراء الذي ظهر أمام ناظري خوان دييجو، بفضل عبقرية يبيس، إلى لوحة لمولد طفل تحرسه ملائكة الأمل والحب، وهم يجلسون في حِجْرها وتضمهم بين ذراعيها. كما رسم يبيس صورة الشاب جوان دييجو كرمز لمدينة لوس أنجليس، وفي حجره فتى آخرُ يوشك أن يُطعن حتى الموت في تجسيد لعنف الشوارع في المدينة. ولكن ملاكاً ينقذه بأعجوبة ويدفع عنه الأذى.

ومن أجمل أعمال يبيس لوح مضيء(سلسلة من ثلاث لوحات) لآلهة الأزتك هويتزيلوبوشتلي، وكوآتيلكو وكويول اكسوجي (وقد ذكروا في الفصلين الثاني والثالث)، ولكن يبيس أعاد تصويرهم من خلال الصراع اليومي للمكسيكيين في شرق لوس أنجليس. فقد حوّل يبيس آلهة الأزتك الغاضبين الذين خَلَقوا (حسب اعتقادهم) الأكوان ومعبد الأزتك العظيم، إلى مراهقين وراشدين مفتولي العضلات وشهوانيين وحساسين، يناضلون بقوة ضد العنف والاستغلال الجنسي وإذلال النساء.

وفي هذا السياق، يستخدم يبيس، عند رسمه تماثيل نابضة بالحياة ومفعمة بالحماسة، رموزاً أزتية لكشف النقاب عن أساليبَ قمعية يطبقها رجال ومؤسسات معاصرة، أدى سعيهم للتسلط والقوة المطلقة لوقوع أحداث عنف، وإذلالٍ لنساء شابات، وضياع آمال حديثي الولادة. لكن جداريات يبيس تظهر أيضاً الحدث الطويل للصراع الخلاق وثمار الخيال البشري الشافي، والذي بدأ قبل إطلاق المحارب الشيشيميكي، إكسولوتل، سهامه نحو الجهات الأربع للوعاء الأخضر المائل إلى الزرقة.

كما تؤكد لوحات يبيس المعبّرة أن هذه المخيّلة مازالت حاضرة في عقول الأمريكيين

المكسيكيين وقلوبهم، الذين يسعَوْنَ لتأمين حياة كريمة آمنة لأسرهم، وتعليمٍ إنسانيٍّ لمراهقيهم، وتربية صالحة لأطفالهم.

المراجع والحواشي

1ـ كتاب «أبناء الأرض المهتزة» من تأليف ايريك آر. وولف (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، 1959).

2ـ أود التعبير عن شكري لماريا إيلينا بيرنال– جارسيا لتوضيحها فكرة «الوعاء الأخضر المائل إلى الزرقة والتي وردت في أطروحتها لنيل شهادة الدكتوراة بعنوان «نحت الجبال في وعاء أخضر مائل إلى الزرقة: التخطيط الميثولوجي المديني في أمريكا الوسطى (جامعة تكساس في أوستين، 1993).

3ـ كتاب» الحياة اليومية عند الأزتك» تأليف وارويك باري (لندن: بي. تي. باتسفورد، 1968)، ص. 114

4ـ مخطوطات فلورنتاين: التاريخ الشامل للأشياء في إسبانيا الجديدة، لبريناندو دي ساهاجون، وقد حررها وترجمها آرثر جي. أو. آندرسون وشارلز أي. ديبل، 13 مجلد. (سانتا في: معهد الأبحاث الأمريكية وجامعة أوتاوا، 1950ـ 1982)، المجلد التمهيدي، ص82.

5ـ المصدر نفسه.

6ـ المصدر نفسه، ص. 54.

7ـ المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص. 93–94.

8– كتاب «أرسطو والهنود الأمريكيون: دراسة في الأحقاد العنصرية في العالم الحديث». والكتاب من تأليف لويس هانكي (جامعة شيكاغو: هنري ريجينري، 1959)، ص. 6.

9– ساهاجون، مخطوطات فلورنتاين، المجلد الثاني، ص. 7.

10– المصدر نفسه، المجلد السابع، ص. 6.

11– كتاب» جغرافيا ديل إنفراموندو» دراسات في ثقافة ناهوآتل، 21 (1991)، ص. 46.

12– كتاب» الفكر والثقافة الأزتكية» تأليف ميجول ليون ـ بورتيللا (نورمان: مطبعة

جامعة أوكلاهوما، 1963)، ص. 44.
13- المصدر نفسه، ص. 45.
14- كتاب «تاريخ الهنود في إسبانيا الجديدة» تأليف دييجو دوران، وقد ترجمته دوريس هايدن (نورمان: مطبعة جامعة أوكلاهوما، 1995)، ص. 43-44.
15- كتاب «الفكر والجسد البشري: مفاهيم حول الناهواس القدماء» تأليف آلفريدو لوبيز أوستن، وترجمة بيرناردو أورتيز دي مونتيللانو وثيلما أورتيز دي مونيللانو (مدينة سولت ليك: مطبعة جامعة أوتاوا، 1988، ص. 52.
16- كتاب «فكر الأزتك وثقافتهم» تأليف ليون- بورتيللا.
17- المصدر نفسه، ص. 107- 109.
18- انظر كتاب ديفيد كاراسكو «قربان تيزكاتليبوكا» في فصل تغيير المكان: المواقع الاحتفالية عند الأزتك (نيويت: جامعة كولورادو، 1992)، ص. 42.
19- مخطوطات فلورنتاين، ساهاجون، المجلد الثالث، ص. 223.
20- ورد ضمن كتاب لوبيز أوستن «الفكر والجسد البشري»، ص. 328.
21- كتاب «عالم الأزتك» تأليف إليزابيث هيل بون (مونتريال وواشنطن: مطبعة سانت ريمي وسميثسونيان بوكس، 1994)، ص. 115
22- كتاب اكتشاف المكسيك وغزوها، 1517- 1521» تأليف بيرنال دياز دي كاستيللو وتحرير جينارو جارسيا، وقد ترجمه وأضاف إليه شروح وتعليقات أي. بي. مودسلاي (نيويورك» فارار، ستراوس وجيروكس، 1956)، ص 190- 191.
23- المصدر نفسه، ص. 191.
24- المصدر نفسه، ص. 218- 219.
25- كتاب «كويتزالكوآتل وسخرية الإمبراطورية: أساطير وتكهنات في تقاليد الأزتك» والكتاب تأليف ديفيد كاراسكو (شيكاغو: جامعة شيكاغو، 1992)، ويجدر التركيز على الفصل الثالث الذي يوضح العلاقة بين النموذج والمحاكاة. وانظر أيضاً كتاب «ميرسيا إيلياد» أسطورة العودة الأبدية، أو الأكوان والتاريخ، ترجمة ويلارد إف. تراسك *(برينستون، جامعة برينستون، 1954)*.

26– كتاب «الحياة اليومية عند الأزتك»، تأليف بري، ص. 116.
27– المصدر نفسه، ص. 117
28– كتاب جيمس لوكهارت «الناهواس بعد الغزو: التاريخ الاجتماعي والثقافي للهنود في أمريكا الوسطى، منذ القرن السادس عشر وإلى القرن الثامن عشر (ستانفورد، جامعة ستانفورد، 1992)، ص. 14.
29– كتاب بري «الحياة اليومية عند الأزتك»، ص. 111.
30– «رسائل من المكسيك» لهيرنان كتورتيز، تحرير وترجمة أنطوني باجيدن (نيو هافن، سي تي، جامعة ييل، 1986)، ص. 103.
31– كتاب بري «الحياة اليومية عند الأزتك»، ص. 112.
32– المصدر نفسه، ص. 104
33– المصدر نفسه، ص. 106
34– كتاب «اكتشاف المكسيك وغزوها» لدياز دي كاستيلو، ص. 212– 213.
35– «رسائل من المكسيك»، كورتيز، ص. 105– 106.
36– ورد ضمن كتاب «الآداب المكسيكية قبل الكولومبيين»، تأليف ميجيل ليون– بورتيللا (نورمان: جامعة أوكلاهوما، 1969)، ص. 87.
37– «تاريخ الهنود في إسبانيا الجديدة» لدوران، ص. 43– 44.
38- « رسائل من المكسيك» لكورتيز، ص. 102.
39– « اكتشاف المكسيك وغزوها» لدياز ديل كاستيللو، ص. 436.
40– مخطوطات فلورنتاين، لساهاجون، المجلد السادس، ص. 215.
41– المصدر نفسه، ص. 210
42– ورد ضمن كتاب آلفريدو لوبيز أوستن «أدوكاسيون مكسيكا: أنطولوجيا دي دوجيومينتوس ساهاجونتينوس (المكسيك: يونيفرسداد ناكيونال اوتونوما دي مكسيكو، 1985)، ص. 39.
43– مخطوطات فلورنتاين، لساهاجون، المجلد السادس، ص. 171.
44– المصدر نفسه، ص. 160.

45– المصدر نفسه، ص. 168.

46– المصدر نفسه، ص. 198.

47– مخطوطات ميندوزا، تحرير إف بيردان وباتريسيا ريف آناوالت، أربعة مجلدات (بيركلي، جامعة كاليفورنيا، 1992)، المجلد الرابع، ص. 120.

48– مخطوطات فلورنتاين، لساهاجون، المجلد السادس، ص. 122.

49– المصدر نفسه، ص. 122.

50- المصدر نفسه، ص. 93.

51– المصدر نفسه، ص. 96.

52– المصدر نفسه.

53– مخطوطات ميندوزا، المجلد الثاني، ص. 166.

54– المصدر نفسه، ص. 178، مخطوطات فلورنتاين، المجلد الثاني، ص. 102–103.

55– كتاب «الحياة اليومية عند الأزتك: عشية الغزو الإسباني»، تأليف جاك سوستيل وترجمة باتريك أوبريان (ستانفورد، جامعة ستانفورد، 1970)، ص. 55.

56– مخطوطات فلورنتاين، لساهاجون، المجلد الثاني، ص. 102.

57– ورد ضمن كتاب «الحياة اليومية عند الأزتك» لسوستيل، ص. 55.

58– المصدر نفسه، ص. 167.

59– مخطوطات فلورنتاين، لساهاجون، المجلد السادس، ص. 130.

60– من الممكن الحصول على تلخيص بليغ عن شراب البلْكة أو عبادة أوكتلي في كتاب اتش. بي. نيكولسون «عبادة الأوكتلي في وسط المكسيك قبيل العهد الإسباني»، وفي فصل «من أجل تغيير المكان»، ص. 158–183.

61– «الحياة اليومية عند الأزتك» لمؤلفه بري، ص. 28.

62– المصدر نفسه، ص. 29.

63– المصدر نفسه، ص. 33.

64– كتاب «تلالوكان تالمانيك: كائنات خارقة» تأليف تيم كناب من سييرا دي بويبلا، آكتيس دو إكللي جونجريس انترناشيونالدي أميريكانيستيسن جونجريس دو

سينتينير، باريس، ص. 209 سبتمبر، 1976(باريس: سوسييت دي آميريكانيستس، 1979)، المجلد الرابع، ص. 127– 136.

65– « الفكر والجسد البشري»، لمؤلفه لوبيز أوستن، ص. 311.

66– المصدر نفسه، ص. 424.

67– المصدر نفسه، ص. 331.

68– مخطوطات فلورنتاين لساهاجون، المجلد الثامن، ص. 27–28.

69– ورد ضمن كتاب لوبيز «الفكر والجسد البشري»، ص. 399.

70– مخطوطات فلورنتاين لساهاجون، المجلد السادس، ص. 90.

71– ورد ضمن كتاب «الفكر والجسد البشري» لمؤلفه لوبيز، ص. 385–386.

72– المصدر نفسه، ص. 387.

73– المصدر نفسه، ص. 392.

74– مخطوطات فلورنتاين، لساهاجون، المجلد السادس، ص.90.

75– المصدر نفسه، ص. 47–54.

76– المصدر نفسه، ص. 51.

77– كتاب «الحروب الأزتكية: توسع إمبراطوري وهيمنة سياسية» تأليف روس هاسيج (نورمان: جامعة أوكلاهوما، 1988)، ص. 124.

78– مخطوطات فلورنتاين، ساهاجون، المجلد الثامن، ص. 52.

79– المصدر نفسه، ص. 52.

80 ـ المصدر نفسه.

81– المصدر نفسه، ص. 53.

82– كتاب «تاريخ الهنود في إسبانيا الجديدة» لمؤلفه دييجو دوران، ص. 554– 555.

83– المصدر نفسه، ص. 283

84– المصدر نفسه، ص. 327.

85– كتاب «الآلهة والطقوس والتقويم القديم» لدييجو دوران، الطبعة الثانية، تحرير وترجمة فيرناردو هوركاسيتاس ودوريس هايدن (نورمان: جامعة أوكلاهوما،

(1977).

86- مخطوطات فلورنتاين لساهاجون، المجلد الثامن، ص. 52.

87- المصدر نفسه، ص. 153.

88- المصدر نفسه، المجلد التاسع، ص. 3.

89- المصدر نفسه، ص. 4.

90- المصدر نفسه، المجلد السادس، ص. 63

91- المصدر نفسه، المجلد التاسع، ص. 9.

92- المصدر نفسه، ص. 11.

93- المصدر نفسه، ص.11.

94- المصدر نفسه، المجلد الخامس، ص. 155.

95- المصدر نفسه، المجلد التاسع، ص.30.

96- المصدر نفسه، ص. 47.

97- المصدر نفسه، المجلد العاشر، ص. 42.

98- المصدر نفسه، ص. 26.

99- المصدر نفسه، ص. 93.

100- المصدر نفسه، ص. 65.

101- المصدر نفسه، المجلد السادس، ص. 224.

102- المصدر نفسه، المجلد العاشر، ص. 224.

103- المصدر نفسه، ص. 166.

104- كتاب «الروحية الأصلية لأمريكا الوسطى: أساطير وخطب وحكايات ومفاهيم وتراتيل وأشعار قديمة من تقاليد الأزتك والياكاتيك والكوينشي - مايا» للمحرر والمترجم ميجول ليون بورتيلا (نيويورك، مطبعة بوليست، 1980)، ص. 244.

105- ورد ضمن كتاب ليون - بورتيللا «الفكر والثقافة الأزتكيين»، ص. 172-173.

106- المصدر نفسه، ص. 10.

107– كتاب ليون – بورتيللا «الروحية الأصلية لأمريكا الوسطى»، ص. 241–242.

108– مخطوطات فلورنتاين لساهاجون، المجلد السادس، ص. 113– 114.

109– المصدر نفسه، ص. 230– 240.

110– المصدر نفسه، ص. 241– 247.

111– كتاب «تأويل الأزتك» لإندا كلنديِنن (جامعة كامبريدج، 1991)، ص. 226.

112– كتاب «مشكلة مطابقة الصورة الرئيسية الظاهرة على التقويم الحجري الأزتكي» للمحرر والمترجم ميجول ليون بورتيلا. ويضاف إليه عناوين رئيسية لدراسات أزتكية للكاتب إتش. بي نيكولسون، وقد حررتها آلانا كوردري – كولينس، ودوجلاس شارون (سان دييغو: متحف الإنسان في سان دييغو، 1993)، ص. 3.

113– مخطوطات فلورنتاين، لساهاجون، المجلد التاسع، ص. 89.

114– المصدر نفسه، المجلد العاشر، ص. 25.

115– المصدر نفسه.

116– المصدر نفسه، ص. 90.

117– المصدر نفسه، المجلد الحادي عشر، ص. 233.

118– المصدر نفسه، ص. 234.

119– المصدر نفسه، المجلد السابع، ص. 29.

120– «كتاب الآلهة والطقوس» لدييجو دوران، ص. 316.

121– المصدر نفسه.

122– مخطوطات ميندوزا، المجلد الثاني، ص. 230.

123ـ مخطوطات فلورنتانين لساهاجون، المجلد الثاني عشر، ص. 30.

124– « اكتشاف المكسيك وغزوها» لدياز ديل كاستيللو، ص. 191.

125– بحث بعنوان «القربان البشري» للكاتب كي أي . ريد، وقد ورد ضمن موسوعة الأديان (نيويورك: ماكميلان، 1986)، المجلد السادس، ص. 516.

126– كتاب «ديانة شعبية: من بابل إلى جونز تاون»» لجوناثان زيد. سميث (شيكاغو،

جامعة شيكاغو، 1982)، ص. 102.

127– انظر في ملحق مخطوطات فلورنتاين، لساهاجون، المجلد الثاني (الشعائر)، خاصة في الصفحتين 175– 193.

128– كان القربان البشري والقربان الذاتي موضع نقاش محموم خلال السنوات الأخيرة. وقد لاقى كتاب ميشيل هارنر «الأساس البيئي للقربان الأزتكي» انتقادات شديدة. والمؤلفة أمريكية متخصصة في علم الأعراق البشرية، وقد صدر كتابها في عام 1977. وقد لخص برنارد أورتيز دي مونتيللانو ما ورد ضمن الصفحات 117 إلى 135، وكتب مقالاً نقدياً بعنوان «إحصاء الجماجم: تعليق على نظرية الوحشية وأكل لحوم البشر عند هارنر– هاريس» (1983)، ص. 403–406. وانظر في كتاب بيجي ريفز ساندي «جوع إلهي: أكل لحوم البشر كنظام ثقافي(نيويورك: جامعة كامبريدج، 1986). وأنظر أيضاً في كتاب ديفيد كاراسكو «فك كوني: نأكل الآلهة وتأكلنا الآلهة»، «مجلة الأكاديمية الأمريكية للديانات» 63 (1995)، ص. 101–135، و كتاب «أعطني بعضاً من الجلود: كاريزما وقربان المحارب الأزتكي»، تاريخ الديانات 35 (1995)، ص. 1–26.

129– ارتبطت القرابين (خاصة الاستعراضات العامة للقرابين البشرية) بشكل وثيق بالعمل على ترويع دول المدن الحليفة والمعادية باعتبارها وسيلة لكسب عائدات ضخمة من الضرائب، والتي كانت تأتي على شكل ذرة وبقوليات وملابس وخدمات حربية وعمالة. وتعد الإكسوشيايوتل (الحروب الوردية) التي استمرت منذ عام 1450 وحتى 1519 خير مثال على القرابين الجيوسياسية بين الأزتك. وقد تكونت تلك الحروب من سلسلة من المعارك المبرمجة وفق مواعيد محددة بين محاربي حلف ثلاثي ومحاربي من مملكة وادي تلاكسكالا– بويبلا. وتدعى مصادر أزتكية أن تلك «الحروب» شنت في المقام الأول لتوفير القرابين لاستخدامها في الاحتفالات الشعائرية، ومن أجل إبقاء المحاربين في حالة تدريب. وقد شبه زعيم سياسي أزتكي، وهو تلاكايليل، المحارب المشارك في الحروب الوردية بتاجر متجه إلى أسواق نائية لشراء أشياء نفيسة. وكان الإله وجيشه يخوضون المعارك

بهدف شراء الدماء والقلوب، ونفائس للمعابد، ولكن في حقيقة الأمر، كانت الحروب الوردية حروباً فعلية، وقد استخدمت تعابير سياسية من أجل ترويع الحلفاء والخصوم ولإبقائهم في وضع دوني في علاقتهم مع العاصمة الجزيرة القائمة في وسط بحيرة.

130– أعيدت صياغة هذه الأنشودة المأخوذة من مخطوطات فلورنتاين لساهاجون، المجلد الثاني، ص. 66–68، وهي تقدم وصفاً دقيقاً للصفات اللازمة في التيوتل إكسيبيتلا.

131– المصدر نفسه، ص. 71.

132– انظر في بحث آلفريدو لوبيز أوستين المركز على القرابين البشرية في «الفكر والجسد البشري»، 1: 375–380، وخاصة الصفحة 376، حيث يكتب أن التيوتوايمي إيكسيبيتلاهوان كانوا «رجالاً امتلكتهم الآلهة، ولذا ماتوا في طقس من التجديد. ولم يكن من ماتوا رجالاً بل آلهة في غطاء مادي جعل مماتهم الشعائري على الأرض أمراً ممكناً».

133– مخطوطات فلورنتاين لساهاجون، المجلد الثاني، ص. 53.

134– المصدر نفسه، ص. 48.

135– المصدر نفسه، ص. 53.

136– المصدر نفسه، ص. 54.

137– المصدر نفسه، ص. 50. كما تظهر صورة أخرى لهذا الاحتفال في مخطوطات فلورنتاين في المجلد الثامن، ص. 85، حيث يتم وصف المناوشات في الشوارع بشيء من التفصيل: «وعندما بدأ الزعماء في التقدم وسقطوا فوق التوتوتيكي، أمسكوا بهم من منطقة السرة. وسرعان ما يقرصونهم ويجرون خلفهم ويخوضون معهم مناوشات في مكان يعرف باسم توتيكتزونتيكنوتيتلان».

138– المصدر نفسه، المجلد الثامن، ص. 85، نجد تفاصيل شيقة حول دخول الممثلين لشخصيات رفيعة إلى البيوت: «يزور التوتوتيكتي بيتاً إثر بيت. ولا يتجاوزن بيتاً، بل يدخلون إلى كل مكان، حيث ينتظرهم السكان، وقد استعدوا لزيارتهم، لكي

يقدموا لهم هدايا انتظروها، مثل مجموعات من أكواز الذرة، وكعك محلى مصنوع من ذرة غير مطهية، وطامال من الذرة، وبذور نبات القطيفة الممزوجة بالعسل. ويواصلون الانتقال من بيت إلى بيت طوال اليوم، ويعاملون باحترام وتقدير».

139– المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص. 60.

140– ورد النص ضمن كتاب تزفيتان تودوروف «غزو أميركا: قضية الآخر»، ترجمة ريتشارد هوارد (نيويورك: هاربر ورو، 1984)، ص. 138.

141– المصدر نفسه، ص. 141.

142– كتاب كارلوس فوينتس «شجرة البرتقال»، ترجمة ألفريد ماك آدام (نيورك: فارار، ستراوس وجيروكس، 1994)، ص. 21.

143– كتاب ميجيل ليون بورتيللا «الآداب قبل تأسيس كولومبيا»، ص. 83.

144– كتاب ميجيل ليون - بورتيللا «الرماح المتكسرة: رواية الأزتك عن غزو المكسيك»، ترجمة ليساندر كيمب (بوسطن، مطبعة بوسطن، 1961)، 137–138.

145– مخطوطات ميندوزا، المجلد الرابع، ص. 34.

146– المصدر نفسه.

147– كتاب دياز ديل كاستيللو «اكتشاف المكسيك وغزوها»، ص. 209.

148– مخطوطات فلورنتاين لساهاجون، المجلد الثاني عشر، ص. 1–3.

149– المصدر نفسه، ص. 9.

150– المصدر نفسه، ص. 39.

151– ورد في كتاب بون «عالم الأزتك»، ص. 149.

152– مخطوطات فلورنتاين لساهاجون، المجلد الثاني عشر، ص. 88.

153– المصدر نفسه، ص. 95.

154– المصدر نفسه.

155– المصدر نفسه، ص. 103–104.

156– المصدر نفسه، ص. 116، مع تأكيد إضافي.

157– كتاب بون «عالم الأزتك»، ص. 151.

158– مخطوطات فلورنتاين لساهاجون، المجلد الثاني عشر، ص. 30.

159– كتاب كارلوس فوينتس «حيث يصفو الجو» ترجمة سام هيلمان (نيويورك: فارار، ستراوس وجيروكس، 1971)، ص. 5.

160– كتاب ماري لويز برات «العيون الإمبراطورية: كتابة رحلات وتبادل ثقافي» (نيويورك: روتليدج، 1992)، ص. 6.

161– كتاب إليزابيث ويلدر وايزمان «المكسيك في المنحوتات 1521– 1821» كامبريدج، ما: جامعة هارفارد، 1950)، ص. 2.

162– كتاب ميرهوف، «صيد البِيُّوت: الرحلة المقدسة للهيوشول الهنود» (إيثاكا، نيويورك: جامعة كورنيل، 1974).

163– المصدر نفسه، ص. 33.

164– المصدر نفسه، ص. 147.

165– المصدر نفسه، ص. 153.

166– ورد في كتاب هوجو نوتيني «تودوس سانتوس في ريف تلاكسكالا: تحليل حول التوفيق بين المعتقدات، رمزية تقديس الموتى» (جامعة برينستون، 1988)، ص. 56.

167– المصدر نفسه، ص. 152.

168– كتاب ويليام بي. تايلور «عذراء جوادالوبي في إسبانيا الجديدة: تحقيق في التاريخ الاجتماعي حول تقديس مريم» والمؤلف أمريكي متخصص في علم الأعراق (فبراير 1987)، ص. 21.

مسرد بمعاني الكلمات

آلتيبتل (آل–تي–بتل) «جبل مملوء بالمياه» ويعني «قرية» أو «مجتمعاً» وقد تشكلت من كلمات في لغة ناهوآتل، وهي «ماء» (آتل) و«جبل» (تيبتل).

آلتيبي يوللوتل (آل–تي–بي–يول–لو–تل) «قلب المدينة» أو «قلب المجتمع» وقد تشكلت من كلمات في لغة ناهو آتل، وهي «ماء» (آتل)، و«جبل»(تيبيتل) و«قلب» (يوللوتل).

آتل (آ–تل) «ماء».

آتلكاهوالو (آ–تل–كا–هوا–لو) «احتباس الماء» أو «نقص الماء» الشهر الأول والاحتفال السنوي في التقويم الشمسي.

آزتلان (آزت–لان) «موقع مالك الحزين الأبيض» الوطن الأسطوري، شمال حوض المكسيك، حيث بدأ أسلاف المكسيكا هجرتهم.

كاسيك (آرواك: كا–سي–ك) قائد من السكان الأصليين أو شيخ قبيلة.

كاللي (كال–لي) «بيت».

كالميكاك (كال–مي–كاك) «صفّ من البيوت» مدارس دينية حيث يتلقى الفتية من الذكور والإناث تعليمهم وتدريبهم كي يصبحوا كهنة.

كالبولليك (كال–بول–لي–ك) زعيم كالبوللي.

كالبوللي (كال–بول–لي)، جمع كلمة كالبولتين (كال–بول–تين) مجموعات أو فصائل اجتماعية قامت استناداً لصلة القرابة أو العشيرة في تينوشتيتلان، وكان لها معابدها ومدارسها الخاصة، وعمالها المنظمين. وقد وفرت تلك المجموعات المحاربين في زمن الحروب.

سيماهواك (سيم–آ–نا–هواك) «أرض محاطة بمياه»، الطبقة الأرضية للأكوان التي عاش فيها الأزتك.

سينتزون هويتزناهوا (سينت–زون هويتز–نا–هوا) الـ «أربعمائة جنوبي» إخوة كويول إكسواكوي وهويتزيلوبوشتلي في أسطورة كوآتيبيك.

شالشي أوتليكو (شال–شي–اوت–لي–كو) «سيدة تنورة حجر اليشب الثمين»، وهي إلهة مياه البحيرات والأنهار والجداول.

شالكو (شال–كو)1. تجمع سكاني على ضفاف بحيرة جنوب شرق تينوشتيتلان. 2. إحدى البحيرات في حوض المكسيك.

شيشيهوالكواكو (شي–شي–هوال–كوا–كو) مكان يذهب إليه عقب الموت رضع ماتوا وهم ما زالوا يرضعون من أمهاتهم.

شيشيميك (شي–شي–ميك) أو شيشيميكا (شي–شي–مي–كا) «رتل أو حبل من الكلاب» أفراد من شمال حوض المكسيك أنحدر من سلالتهم المكسيكا أو الأزتك.

شيكوموزتوك (شي–كو–موز–توك) «موقع الكهوف السبعة» موقع أسطوري لمنشأ أبناء المكسيكا.

شيماللي (شي–مال–لي) ترس استخدمه المحاربون.

شينامبا (شي–نام–با) نظام زراعي وفير الإنتاج تم تطويره في منطقة الحوض ويقوم على زراعة حقول مستطيلة ممتدة تشكلت من تربة مستنقعات.

سيهوكوآتل (سي–هوا–كو–آ–تل) «المرأة الأفعى» أم الآلهة وهي إلهة الأرض»، وهو أيضاً لقب القائد السياسي والحربي الثاني بعد التلاتوآني.

سيهواتلاماكازكوي (سي–هوات–لا–ما–كاز–كوي) امرأة كاهنة.

كوآتيبيك (كو–آ–تي–بيك) أو كوآتيبيتل (كو–آ–تي–بي–تل) «فوق هضبة الأفعى» أو «جبل الأفعى» وهو مسقط رأس هويتزيلوبوشتلي.

كوآتليكو(كو–آت–لي–كو) «سيدة تنورة الأفعى» إلهة الأرض وأم هويتزيلوبوشتلي في أسطورة كوآتيبيك.

كوبالتيماليزتلي (كو–بال–تي–ما–ليزت–ليي) القيام بتبخير مكان لإقامة الطقوس أو الاحتفالات.

كويول إكساكوي (كو–يول–إكسا–كوي) «سيدة الأجراس» إلهة القمر وابنة المحارب كوآتليكو وشقيقة هويتزيلوبوشتلي، والذي قتلها وقطع أطرافها في

أسطورة كوآتيبيك.

كريوللوس (كلمة إسبانية): أبناء إسبان، أو أوروبيون ولدوا في العالم الجديد.

كواهويتليكاك (كو–هويت–لي–كاك) ابن أم الآلهة، كوآتليكو، والذي حذرها من هجوم وشيك من قبل كويول إكساكوي وأخوتها الأربعمائة في أسطورة كوآتيبيك.

كواتيمو (كو–تي–موك) «الصقر الغواص» آخر تلاتوني أزتكي، وهو الذي سلم تلاتيلولكو إلى كورتيز في عام 1521.

كوإكسيكاللي (كو–إكسي–كال–لي) «وعاء الصقر» حجر يتلقى الهدايا القربانية، خاصة القلوب البشرية والدماء المقدمة إلى الآلهة.

كويكاكاللي (كو–كا–كال–لي) «بيت الأناشيد» مدرسة إعدادية يتعلم فيها الأطفال أناشيد مقدسة ورقصات شعائرية ودروساً مهمة في التاريخ والميثولوجيا.

كوزتيك تيوكويتلابيتزكوي (كوز–تيك–تي–أو–كويت–لا–بيتز–كوي) صاغة الذهب.

ديفراسيسمو (إسبانية:دي–فرا—سيس–مو) وسيلة لغوية شائعة في لغة ناهوآتل يتم بواسطتها الجمع بين كلمتين أو عبارتين أو أكثر لتشكيل مفهوم أو استعارة تضم معاني من الكلمات أو العبارات الأصلية.

إيهيكاتل (اي هي–كا–تل) إله الرياح، طيف كويتزالكوآتل، الأفعى ذات الريش.

هاب (من لغة المايا: هاب) تعداد من 365 يوماً يرتبط بالدورة الشمسية في تقويم المايا.

هيكوري (هويشينول: هي–كو–ري) بِيُّوت.

هواكتلي (هواكت– لي) «الصقر الضاحك» والذي بشرت صيحاته التجار ـ المحاربين بنجاح المهمة أو فشلها.

هويهويتل (هو–هوي–تل) طبل خشبي كبير عمودي.

هويهويتلاتوللي (هو–هو–تلا–تول–لي) «الكلمات القديمة» أو «أقوال العجائز» كلمات بليغة تمثل التعاليم القديمة للأجداء.

هوي تيكويلهويتل (هوي تي–كويل–هو–تل) «احتفال كبير للآلهة» الشهر السابع والاحتفال السنوي في التقيم الشمسي.

هوي توكوزتلي (هوي تو–كوزت–لي) «السهر العظيم» الشهر الخامس والاحتفال السنوي في التقويم الشمسي.

هويبيللي (هو–بيل–لي) قميص كثوب تلبسه النساء.

هويتزيلوبوشتلي (هويت–زي–لو–بوشت–لي) «الطائر الطنَّان من جهة اليسار» أو «الطائر الطنان من جهة الجنوب» إله الشمس والحرب والإله الحامي للمكسيكا.

إيهييوتل (اي هي–يو–تل) قوة روحية توجد في كبد الإنسان، وهي تجتذب القوى السحرية وتطلقها على البشر والنبات والحيوان والأحداث.

إن أكسوشيتل إن كويكاتل (إن أكسو–سي–تل إن كوي–كا–تل) «أزهار وأغان»، وهو تعبير مجازي يستخدم للتعبير الفني في صورة كلمات وأغانٍ ورسوم ربطت بين الشخصية الإنسانية والمقدسات.

إيكسيبتلا (ايكسيبت–لا) انظر تيوتل ايكسيبتلا.

إيزكاللي (ايز- كال - لي) «النمو» اشهر الثامن عشر والاحتفال السنوي في التقويم الشمسي.

إيزتاك سهواتل (ايز - تاك - سي - هوا - تل) «المرأة البيضاء» 1. بركان تغطيه الثلوج يقع عند الجانب الشرقي لحوض المكسيك. 2. مساعدة كاهنة مهمتها إعداد منطقة لإقامة الشعائر وإشعال وإطفاء النار الشعائرية خلال مهرجان أوشبانيزتلي.

إيزتلي (ايزت - لي) السكين الإلهية.

ماجوي (ما - جوي) نبات ذو قيمة كبيرة، وهو يشبه نبات الصبر، صنع سكان أميركا الأصلية من أوراقة وأشواكه وعصيره شراب شعائري أطلقوا عليه اسم»البلْكة» (أو اكتلي).

ماليناللي (ما- لي - نال - لي) زوجان من الأشرطة المتداخلة مع بعضها الآخر وهي تتحرك بشكل متواصل لمساعدة أرواح العالم السفلي على الصعود إلى سطح

الأرض، ولمساعدة قوى العالم السماوي على الهبوط إلى الأرض.

مانتا (مان ـ تا) عباءة ملونة يرتديها المحاربون.

ماكواهويتل (ما ـ كوا ـ هوي ـ تل) عصا خشبية يحملها المحاربون.

مارا آكامي (هويشول: ما ـ را ـ آ ـ آ ـ كا ـ مي) كاهن ـ شامان يعيش بين الهنود الهويشول.

مي ـ آ ـ هويل (ماي ـ آ ـ هويل) «طوق من الأسلحة» آلهة نبات الماجوي، والبلكة، والمشروب الشعائري.

ميكوي (مي ـ كوي) مجموعة اجتماعية تضم عمالاً زراعيين عملوا في أراضٍ مملوكة لآخرين ودفعوا أجوراً لهم.

ميستيزو (ميس ـ تي ـ زو) شخص من أصول هندية وأوروبية.

ميتاتي (مي ـ تا ـ تي)

ميكسيكا (مي ـ اكسي ـ كا) مجموعة عرقية، استقرت، بعد هجرة طويلة من الشمال، في منطقة تينوشتيتلان وتلاتيلولكو واستطاعت السيطرة على تحالف ثلاثي أو إمبراطورية الأزتك.

ميكتيكاسيهواتل (ميك ـ تي ـ كا ـ سي ـ هوا ـ تل) «سيدة العالم السفلي» إلهة الموت.

ميكتلامبا (ميكت ـ لام ـ با) «منطقة الموتى» العالم السفلي.

ميكتلان (ميكت ـ لان) الطبقة التاسعة من العالم السفلي حيث تسكن أرواح من ماتوا ميتة طبيعية.

ميكتلانتي سيوتلي (ميكت ـ لان ـ تي ـ سو ـ تلي) «إله العالم السفلي»، إله الموت.

متل شيماللي (مي ـ تل ـ شي ـ مال ـ لي) «ترس وسهام» استعارة أزتكية تعني «الحرب».

موتيكوزوما إيلهويكامينا (مو ـ تي ـ كو ـ زو ـ ما ال ـ هو ـ كا ـ مي ـ نا) خامس تلا تو آني لمدينة تينوشتيتلان، وقد حكم من عام 1440 إلى عام 1469.

موتيكوزوما إكسكويوتزين (مو ـ تي ـ كو ـ زو ـ ما ـ إيكس ـ كو ـ يوت ـ زين) تاسع تلاتوآني لمدينة تينو شتيتلان، وقد حكم من عام 1502 إلى عام 1520، وكان

الحفيد الأكبر لموتيكوزوما إيلهويكامينا.

ناهواتل (نا ـ هوا ـ تل) اللغة التي تخاطبت بها شعوب الناهو في منطقة حوض المكسيك.

نيمونتيمي (ني ـ مون ـ تي ـ مي) «أيام فارغة» خمسة أيام مشؤومة ومتعاقبة تأتي في نهاية السنة الشمسية المؤلفة من 365 يوماً.

نيتي أوتوكويلليزتلي (ني ـ تي ـ أو ـ تو ـ كوي ـ ليزت ـ لي) «تمثيل إله» شعيرة دينية يضع فيها رجال فوق أجسادهم جلود محاربين قربانيين، ويسيرون في أرجاء المدينة ويخوضون معارك وهمية، ويتسولون الأطعمة وغيرها من المواد.

نيتزاهولكويوتل (نيت ـ زا ـ هوال ـ كو ـ يو ـ تل) «كويوت الصائم» شاعر ـ فيلسوف وحاكم تيزكوكو.

نيتزاهوالبيللي (نيت ـ زا ـ هوال ـ بيل ـ لي) «الأمير الصائم» فلكي ـ حاكم تيزكوكو.

نيكستلا اوآللي (نيكست ـ لا ـ اوآل ـ لي) «تسديد الديون» قربان للآلهة.

نيزاهواليزتلي (ني ـ زا ـ هوا ـ ليزت ـ لي) مرحلة تمهيدية تتكون من أربعة (أو أربعة أضعاف) أيام من «الصيام الكهني» قبل تنفيذ القرابين الشعائرية.

أوشبانيزتلي (أوش ـ با ـ نيزت ـ لي) «إزالة الطريق» الشهر الحادي عشر والاحتفال السنوي في التقويم الشمسي.

أوكتلي (أوكت ـ لي) شراب شعائري، عرف أيضاً باسم البلْكة، يحضر من عصير متخمر لنبات الصبار الأمريكي.

أوفرندا (كلمة إسبانية أو ـ فرن ـ دا) «صدقة».

أوللاماليزتلي (أول ـ لا ـ ما ت ليزت ـ لي) لعبة كرة مورست بواسطة كرة مطاطية داخل ملعب على شكل الحرف الإنجليزي I.

أولميك(أول ـ ميك) «أشخاص ينتمون لأرض أشجار المطاط»، أول حضارة كبرى في أميركا الوسطى ظهرت حول ساحل الخليج حوالي عام 1800 ق.م.

أوميتيوتل (أو ـ مي ـ تي ـ او ـ تل) «واهب الحياة» أو «إله الثنائية» إله سماوي مزدوج (ذكر/ أنثى) مثله زوج من الآلهة هما أوميتكوتل واومسيهواتل، وهو الخالق

الأول للكون.

أومي يوكان (أو ـ مي ـيو ـ كان) «مكان الازدواجية» أو «السماء المزدوجة» الطبقات الثانية عشرة والثالث عشرة من الأكوان السماوية.

بان دي مويرتوس (إسبانية: بان دي موير ـ توس) «خبز الموتى» خبز خاص محلي يصنع خصيصاً للاحتفال بشعائر يوم الموتى.

باتوللي (با ـ تول ـ لي) لوحة ألعاب شبيهة بلوحة البرجيس أو النرد.

بيوتيروس (إسبانية: بي ـ أو ـ تي ـ روس) صائدو البيُّوت.

بللي (بيل ـ لي) وجمع الكلمة بيبيلتن، نبيل من النبلاء أو الطبقة الحاكمة.

بوشتيكا (بوش ـ تي ـ كا) محاربون تجار.

بوتوكاتيبيتلي (بو ـ بو ـ كا ـ تي ـ بي ـ تل) « لجبل الدخاني» بركان شديد الارتفاع تعلو قمته الثلوج يقع في الجانب الشرقي لحوض المكسيك.

بولكة (بول ـ كة) شراب شعائري، يعرف أيضاً باسم أوكتلي، وهو يحضر من عصير مخمر من نبات الأغاف (الصبار الأمريكي).

كويشوللي (كوي ـشول ـ لي) الشهر الرابع عشر والاحتفال السنوي في التقويم الشمسي.

كوتزالكوآتل(كويت ـ زال ـ كو ـ آ ـ تل) «الأفعى ذات الريش» أو «الأفعى الثمينة» معبود هام في أميركا الوسطى ذي رمزية معقدة.

كوينكويشانايا (كوين ـ كوي ـشا ـ ناي ـ آ) «يمدون رقابهم» شعيرة خاصة بالنماء تقام كل أربع سنوات في شهر ايزكاللي، وذلك عندما يتم تطهير الأطفال من كلا الجنسين بواسطة النار، وتثقب شحمات آذانهم وتعلق بها أقراط. ويتم رفع الأطفال من خلال جباههم وتمدد أطرافهم.

ريتالبو (إسبانية: ري ـ تال ـ بلو) بنية تشكل خلفية مذبح حيث تسند صور.

تامو آنشان (تا ـ مو ـ آن ـ شان) الجنة التي خلقت فيها الآلهة البشر.

تيشكاتل (تيش ـ با ـ تل) حجر قرباني.

تيكباتل (تيك ـ با ـ تل) سكين حادة قربانية.

تيلبوشكاللي (تيل ـ بوش ـ كال ـ لي) «بيت رجل شاب»، مدرسة درب فيها الشباب على فنون القتال.

تيمالاكاتل (تي ـ ما ـ لا ـ كا ـ تل) حجر دائري استخدم عند ذبح القرابين.

تيمبلو مايور (إسبانية: تيم ـ بلو ـ ماي ـ أور) المعبد الكبير في مدينة تينوشتيتلان، وهو مركز رمزي ونسخة مادية من كونيات الأزتك.

تينوشتيتلان (تي ـ نوش ـ تيت ـ لان) عاصمة التحالف الثلاثي الذي أسسته قبائل المكسيكا حوالي عام 1325، وقد نشأ فوق جزيرة وسط حوض المكسيك.

تيوآتل تلاشينوللي (تي ـ او ـ آ ـ تل ـ تلا ـ شي ـ نول ـ لي) «سائل مقدس وأشياء محترقة» استعارة تعني «حرب».

تيوكاللي (تي ـ أو ـ كال ـ لي) «بيت مقدس»، معبد.

تيوكواكوي (تي ـ أو ـ كوا ـ كوي) «صائمون» كهنة وكاهنات صاموا لأطول من عام قبل إقامة شعيرة قربانية محددة.

تيوتهواكان (تي ـ أو ـ تي ـ هوا ـ كان) «مدينة الآلهة» أو «مكان يتم فيه تقديس شخص ما» موقع أثري مهم ومركز احتفالي يقع شمال شرق تينوشتيتلان ازدهر منذ عام 150 ق.م. إلى عام 750 ب.م..

تيوتل (تي ـ أو ـ تل) قوة مقدسة ظهرت في أشكال طبيعية، وفي شخصيات رفيعة المقام، أو في أماكن غامضة غير منظمة.

تيوتل إكسيبيتلا (تي ـ أو ـ تل ـ إي ـ أكسيبت ـ لا) جمع الكلمة تيتيو اكسيبيتلا(تي ـ تي ـ يو ـ أي ـ اكسيبيت ـ لا) كائن بشري أو حيواني أو نباتي أو مادي يتحول إلى صورة أو ممثل لإله.

تيبانيك(تي ـ با ـ نيك) تحالف قوي لقوى كانت تسيطر على منطقة البحيرة عند وصول قبائل المكسيكا واستقرارهم في حوض المكسيك.

تيبيلهويتلي(تي ـ بيل ـ وي ـ تل) «مهرجان الجبل» الشهر الثالث عشر والاحتفال السنوي وفق التقويم الشمسي.

تيبتل (تي ـ بي ـ تل) «جبل» أو «هضبة».

تيبونازتلي (تي ـ بو ـ نازت ـ لي) طبل صغير مفلطح.

تيتيكوهتين(تي ـ تي ـ كوه ـ تين) أفراد من طبقة النبلاء وصلوا إلى مراتبهم نتيجة تميز عسكري.

تيتزاهويتل (تيت ـ زا ـ هوي ـ تل) شخص أطلق قوى ضارة وولد خوفاً وفضيحة ومخاطر.

تييوليا (تي ـ يول ـ اي ـ يا) القوة الروحية الساكنة في القلب البشري، والتي تزود صاحبها بالذكاء والعواطف.

تيزكاتليبوكا (تيز ـ كات ـ لي ـ بو ـ كا) «المرآة الدخانية» معبود مرتبط بالحرب والسلطة والسحر والليل.

تيزكوكو (تيز ـ كو ـ كو) 1. مدينة وعضو في التحالف الثلاثي تقع على الساحل الغربي للبحيرة التي تطل عليها تينوشتيتلان. 2. بحيرة وسطى مركزية في حوض المكسيك.

تيانكويزتلي (تي ـ يان ـ كويزت ـ لي) «موقع سوق».

تيانكويزتلي، مجموعة نجوم أو كوكبة معروفة بالنسبة إلينا باسم «مجموعة الثريا».

تلاكاهواباهوا (تلا ـ كا ـ هوا ـ با ـ هوا)، تلاكازكالتيا (تلا ـ كاز ـ كال ـ تي ـ آ) تلا ـ كاز ـ كال ـ تي ـ آ) «تقوية الأفراد» أو «مساعدتهم على النمو» وتعليمهم.

تلاكاتلاأوللي (تلا ـ كات ـ لا ـ اول ـ لي) يخنة معدة من ذرة مجففة أضاف إليها النبلاء قطعاً صغيرة من لحوم محاربين أسرى قدموا قرابين إلى الآلهة.

تلاكاإكسبيهواليزتلي(تلا ـ كا ـ إكسي ـ بي ـ هوا ـ ليزت ـ لي) «مهرجان سلخ جلود الرجال» الشهر الثاني والاحتفال السنوي في التقويم الشمسي.

تلاشتلي (تلاشت ـ لي) صالة رياضية مورست فيها لعبة كرة.

تلاكوبان (تلا ـ كو ـ بان) مدينة انضمت إلى التحالف الثلاثي مدينتي مع تينوشتيتلان وتيزكوكو.

تلاكويلو (تلا ـ كوي ـ لو) وجمع الكلمة: تلاكويلوكوي (تلا ـ كوي ـ لو ـ كوي).

تلاهويزكالبانتيكوتلي (تلا ـ هويز ـ كال ـ بان ـ تي ـ كوت ـ لي) «إله بيت الفجر» إله

يمثل كوكب الزهرة بوصفه نجم الصباح المرتبط بكويتزالكوآتل.

تلالوك (تلا ـ لوك) «من يساعد على نمو النبات» إله المطر والخصوبة.

تلالوكان (تلا ـ لو ـ كان) جنة جبل تلالوك، حيث تقيم أرواح من ماتوا نتيجة الغرق أو حوادث مائية.

تلالوكوي (تلا ـ لو ـ كوي) خدم أو مساعدو تلولوك.

تلالتيكوتلي (تلال ـتي ـ كوت ـ لي) «إله الأرض» وحش الأرض.

تلاماكازكوي (تلا ـ ما ـ كاز ـ كوي) كبير الكهنة.

تلاماتيني (تلا ـ ما ـ تي ـ ني) جمع الكلمة: تلاماتينيمي (تلا ـ ما ـ تي ـ ني ـ مي) «العالم بالأشياء»، رجل حكيم أو باحث.

تلاتيلولكو (تلا ـ تي ـ لول ـ كو) مدينة شقيقة لتينوشتيتلان، تقع على الجانب الشرقي من الجزيرة، حيث وجد السوق الكبيرة.

تلاتوآني (تلا ـ تو ـ آ ـ اي) جمع الكلمة تلاتوك (تلا ـ تو ـ ك) «الحاكم الأعظم».

تلاتوكايوتل (تلا ـ تو ـ كا ـ يو ـ تل) دول محلية صغيرة أو دول المدن.

تلا كسكالا (تلاكس ـ كا ـ لا) حكومة قاومت غزو الأزتك، وتحالفت مع الإسبان للسيطرة على تينوشتيتلان وتلاتيلولكو في عام 1521.

تلازولتي أوتل (تلا ـ زول ـ تي ـ أو ـ تل) «آلهة الفاحشة» آلهة الرذيلة الجنسية والآلهة الداعمة للنساجين والقابلات.

توشياكاتل (توش ـ يا ـ كا ـ تل) قصة شعر خاصة بالمحاربين الموسميين، ويزين الشعر بريشة وحيدة من ريش مالك الحزين بالإضافة لريشة من طائر الكتزل.

توسي (تو ـ سي) «جدتنا» الآلهة الأم.

تولَلان (تول ـ لان) «مكان عيدان قصب السكر» مدينة قديمة في الأسطورة الأزتكية.

تولتيك (تول ـ تيك) حضارة ازدهرت في وسط المكسيك بدءاً من عام 950 إلى عام 1150 ومنها استقى الأزتك شرعية حكمهم وإرث السلطة.

تولتي كاتل (تول ـ تي ـ كا ـ تل) «القيمون على التقاليد الفنية التولتكية العظيمة القائمة

على التميز والجودة والإبداع.

توناكاسيهواتل (تو- نا- كا- سي- هوا- تل) «سيدة الرزق والمعيشة» آلهة خالقة.

توناكاتيكوتلي (تو- نا- كا- تي- كوت- لي) «إله الرزق والمعيشة» إله خالق.

تونالاماتل (تو- نا- لا- ما- تل) «كتاب الأيام» مخطوطة على شكل رسوم صورت التقويم العشائري استخدمه الكهنة.

تونالي (تو- نال- لي) القوة الروحية المتركزة في الجمجمة البشرية، وهي التي تقرر مزاج المرء ومصيره.

تونالبوالي (تو- نال- بو- وال- لي) «إحصاء الأيام» دورة شعائرية ضمن التقويم تتألف من 260 يوماً.

تونانتزين (تو- نانت- زين) «أمنا المقدسة» أم الآلهة.

توناتيه (تو- نا- تي- هي) آلهة شمسية سيطرت على عصر «الشمس الخامسة» الذي عاش فيه الأزتك.

توبيلتزين كويتزالكوآتل (تو- بيلت- زين- كويت- زال- كو- آ- تل) «أميرنا الشاب الأفعى ذات الريش» حاكم تولان الكاهن في الأساطير الأزتية، وقد طرد من المدينة لكنه وعد بالعودة إليها.

توكسكاتل (توكس- كا- تل) «فصل جاف» الشهر الخامس والاحتفال السنوي في التقويم الشمسي.

توكسيومولبليا (تو- إكسي- يو- مول- بيل- أي- يا) «طي السنين» احتفال النار الجديدة، شعيرة تجديد تتم في نهاية كل اثنين وخمسين عاماً عند نهاية أو بداية دورة تقويم.

توزوهواليزتلي (تو- زو- هوا- ليزت- لي) سهر لعدة ليال يجري قبيل شعائر قربانية محددة.

تولا (تو ت لا) مركز شعائري يقع شما تينوشتيتلان ازدهر منذ عام 950 إلى عام 1150 ب.م.

تزولكين (مايان: تزول- كين) دورة شعائرية في تقويم خاص بقبائل المايا تتألف من

260 يوماً.

تزومبانتلي (تزوم ـ بانت ـ لي) «حامل جماجم»، حيث علقت رؤوس الضحايا القربانية فوق أعمدة عند المعبد الكبير في مدينة تينوشتيتلان.

إكسكالتوكان (إكسكال ـ تو- كان) 1. قبائل أقامت على سطح جزيرة شمال تينوشتيتلان. 2. إحدى البحيرات في حوض المكسيك.

إكسيبي توتيك(إكسي ـ بي ـ تو ـ تيك) «إلهنا المسلوخ جلده» إله مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقربان البشري.

إيكسبيمي (إيكسي ـ بي ـ مي) المحاربون الذين قدموا قرابين في احتفال تلاكا إكسيبي هواليزتلي وآسريهم الذين لبسوا جلود الضحايا في تجسيد لايكسيبي توتيك.

إيكسيوبوهواللي (إيكسي ـ بو ـ هوال ـ لي) التقويم الشمسي المكون من 365 يوماً.

إيكسويوتيكوتلي (إيكسي ـ يو ـ تي ـ كوت ـ لي) إله النار، إله الموقد.

إيكسيوتوتوتل (إيكسي ـ يو- تو ـ تل) «طائر الفيروز»

إيكسي ويتل (إيكسي ـ وي ـ تل) أو إيكسي هوتل (ايكسي ـ هوي ـ تل) «عام»، «فيروز»، «حشائش» أو «مذنب»، كما تعني الكلمة استعارة لـ «وقت ثمين».

إيكسوشيكاللي (إيكسو ـشي ـ كال ـ لي) «بيت الأزهار» حمام بخار جهزته القابلة للحامل استعداداً للولادة.

إيكسوشيميلكو (إيكسو- شي ـ ميل ـ كو) 1. قبائل أقامت على ضفة البحيرة شمال تينوشتيتلان، حيث أنشئ نظام شينامبا الزراعي. 2. إحدى بحيرات حوض المكسيك.

إيكسوشيكوتزال (إيكسو ـ شي ـ كويت ـ زال) «ريشة وردية ثمينة» آلهة الحب والرومانسية، وقد ارتبطت بالأزهار والاحتفالات والمسرات.

إيكسوشيا أويوتل (إيكسو ـ شي ـ يا ـ يو ـ تل) «حروب وردية» مواجهات حربية مبرمجة بين محاربين من عدة ممالك.

إيكسولوتل (إيكسو ـ لو ـ تل) «كلب مقدس».

إيكسومبانجو (إيكسوم ـ بان ـ جو) إحدى بحيرات حوض المكسيك.

ياكاتيكوتلي (يا ـ كا ـ تي ـ كوت ـ لي) إله التجار.

يوللوبيلتيك (يول ـ لو ـ بيل ـ تيك) «صاحب قلب عاطفي نبيل» نبيل حقق إنجازاً كبيراً في القيادة أو في الفنون التعبيرية.

يولتيوتل (يول ـ تي ـ أو ـ تل) «قلب متجذر بإله» رسام متميز قادر على تصوير الحقيقة المقدسة في مخطوطات أو لوحات جدارية.

زيمبوآل إيكسوشيتل (زيم ـ بو ـ آل ـ إيكسو ـ شي ـ تل) «عشرون وردة» ورود برتقالية وصفراء استخدمت لتزيين المذابح المنزلية والمقابر عند إقامة شعائر خاصة بيوم الموتى.

ببليوغرافيا مختارة

Armillas, Pedro. "Gardens on Swamps." *Science* 174 (1976): 653–661.
———. *Program of the History of American Indians*. Washington, DC: Pan-American Union, 1958.
Aveni, Anthony F. *Empires of Time: Calendars, Clocks, and Cultures*. New York: Basic Books, 1989.
———. *Skywatchers of Ancient Mexico*. Austin: University of Texas Press, 1980.
Bernal-García, María Elena. "Carving Mountains in a Blue-Green Bowl: Mythological Urban Planning in Mesoamerica." Ph.D. dissertation, University of Texas at Austin, 1993.
Bierhorst, John. *Four Masterworks of American Indian Literature*. New York: Farrar, Straus and Giroux, 1974.
Boone, Elizabeth Hill. *The Aztec World*. Montreal and Washington, DC: St. Remy Press and Smithsonian Books, 1994.
Bray, Warwick. *Everyday Life of the Aztecs*. London: B. T. Batsford, 1968.
Broda, Johanna. "Tlacaxipeualiztli: A Reconstruction of an Aztec Calendar Festival from the Sixteenth-Century Sources." *Revista española de antropología americana* 5 (1970): 197–279.
Broda, Johanna, Davíd Carrasco, and Eduardo Matos Moctezuma. *The Great Temple of Tenochtitlan: Center and Periphery in the Aztec World*. Berkeley: University of California Press, 1987.
Brundage, Burr. *The Fifth Sun: Aztec Gods, Aztec World*. Austin: University of Texas Press, 1979.
Carrasco, Davíd. "Cosmic Jaws: 'We Eat the Gods and Gods Eat Us.' " *Journal of the American Academy of Religion* 63 (1995): 101–135.
———. "Give Me Some Skin: The Charisma and Sacrifice of the Aztec Warrior." *History of Religions* 35 (1995): 1–26.

———. *Quetzalcoatl and the Irony of Empire: Myths and Prophecies in the Aztec Tradition*. Chicago: University of Chicago Press, 1992.
———. *Religions of Mesoamerica: Cosmovision and Ceremonial Centers*. San Francisco: Harper and Row, 1990.
———, ed. *To Change Place: Aztec Ceremonial Landscapes*. Niwot: University Press of Colorado, 1992.
Clendinnen, Inga. *Aztecs: An Interpretation*. Cambridge: Cambridge University Press, 1991.
Codex Borbonicus. *Códice borbónico*. Introduction and commentary by Ferdinand Anders, Maarten Jansen, and Luis Reyes García. Mexico and Graz: Fondo de Cultura Económica and Akademische Druck- und Verlagsanstalt, 1991.
Codex Borgia. *Los tiempos del cielo y de la oscuridad: oráculos y liturgia, libro explicativo del lamado Códice Borgia*. Introduction and commentary by Ferdinand Anders, Maarten Jansen, and Luis Reyes García. Mexico and Graz: Fondo de Cultura Económica and Akademische Druck- und Verlagsanstalt, 1993.
Codex Fejérváry-Mayer. *El libro de Tezcatlipoca, señor del tiempo: libro explicativo del llamado Códice Fejérváry-Mayer, M/12014, Free Public Museum, Liverpool, Inglaterra*. Introduction and commentary by Ferdinand Anders, Maarten Jansen, Luis Reyes García, and Gabina Aurora Pérez Jiménez. Mexico and Graz: Fondo de Cultura Económica and Akademische Druck- und Verlagsanstalt, 1994.
Codex Magliabechiano. *The Book and Life of the Ancient Mexicans*. Introduction, translation, and commentary by Zelia Nuttall. Berkeley: University of California Press, 1903.
Codex Mendoza. *The Codex Mendoza*. Edited by Frances Berdan and Patricia Anawalt. 4 vols. Berkeley: University of California Press, 1992.
Cortés, Hernán. *Letters from Mexico*. Translated and edited by Anthony Pagden: New Haven, CT: Yale University Press, 1986.
Davies, Nigel. *The Aztec Empire. The Toltec Resurgence*. Norman: University of Oklahoma Press, 1987.
———. *The Aztecs: A History*. London: Macmillan, 1973.
———. *Human Sacrifice: In History and Today*. New York: William Morrow, 1981.
———. *The Toltec Heritage: From the Fall of Tula to the Rise of Tenochtitlan*. Norman: University of Oklahoma Press, 1980.
———. *The Toltecs: Until the Fall of Tula*. Norman: University of Oklahoma Press, 1977.
Díaz del Castillo, Bernal. *The Discovery and Conquest of Mexico, 1517–1521*. Edited by Genaro Garcia; translated with notes by A. P. Maudslay. New York: Farrar, Straus and Giroux, 1956.
Durán, Diego. *Book of the Gods and Rites and the Ancient Calendar*. Translated and edited by Fernando Horcasitas and Doris Heyden. 2nd ed. Norman: University of Oklahoma Press, 1977.
———. *Códice Durán*. México: Arrendadora Internacional, 1990.
———. *The History of the Indies of New Spain*. Translated by Doris Heyden. Norman: University of Oklahoma Press, 1995.
Edmonson, Monro S., ed. *Sixteenth-Century Mexico: The Work of Sahagún*. Albuquerque: University of New Mexico Press, 1974.

Eliade, Mircea. *The Myth of the Eternal Return, or Cosmos and History*. Translated by Willard R. Trask. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1954.

———, ed. *Encyclopedia of Religion*. 16 vols. New York: Macmillan, 1986.

Fuentes, Carlos. *The Orange Tree*. Translated by Alfred MacAdam. New York: Farrar, Straus and Giroux, 1994.

———. *Where the Air Is Clear*. Translated by Sam Hileman. New York: Farrar, Straus and Giroux, 1971.

Hanke, Lewis. *Aristotle and the American Indians: A Study in Race Prejudice in the Modern World*. Chicgao: Henry Regnery, 1959.

Harner, Michael. "The Ecological Basis for Aztec Sacrifice." *American Ethnologist* 4 (1977): 117–135.

Hassig, Ross. *Aztec Warfare: Imperial Expansion and Political Control*. Norman: University of Oklahoma Press, 1988.

Heyden, Doris. *Mitología y simbolismo de la flora en el México prehispánico*. Mexico: D.F. Instituto de Investigaciones Antropológicas, UNAM, 1983.

Jones, Lindsay. *Twin City Tales: A Hermeneutical Reassessment of Tula and Chichén Itzá*. Niwot: University Press of Colorado, 1995.

Katz, Friedrich. *Ancient American Civilizations*. New York: Praeger, 1972.

Keen, Benjamin. *The Aztec Image in Western Thought*. New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1971.

Klor de Alva, J. Jorge, H. B. Nicholson, and Eloise Quiñones Keber, eds. *The Work of Bernardino de Sahagún, Pioneer Ethnographer of Sixteenth-Century Aztec Mexico*. Albany: Institute for Mesoamerican Studies, State University of New York, 1988.

Knab, Timothy. "Geografía del Inframundo." *Estudios de cultura náhuatl* 21 (1991): 31–57.

———. "Tlalocan Talmanic: Supernatural Beings of the Sierra de Puebla." *Actes du XLIIe Congrès International des Américanistes, Congrès du Centenaire: Paris, 2–9 Septembre 1976*, VI: 127–136. Paris: Société des Américanistes, 1979.

León-Portilla, Miguel. *Aztec Thought and Culture*. Norman: University of Oklahoma Press, 1963.

———. *Pre-Columbian Literatures of Mexico*. Norman: University of Oklahoma Press, 1969.

———, ed. *The Broken Spears: The Aztec Account of the Conquest of Mexico*. Translated by Lysander Kemp. Boston: Beacon Press, 1961.

———, ed. and trans. *Native Mesoamerican Spirituality: Ancient Myths, Discourses, Stories, Doctrines, Hymns, Poems from the Aztec, Yucatec, Quiche-Maya and Other Sacred Traditions*. New York: Paulist Press, 1980.

Lienzo de Tlaxcala. *El Lienzo de Tlaxcala: explicación de las láminas*. Edited by Alfredo Chavero. Mexico: Editorial Cosmos, 1979.

Lockhart, James. *Nahuas After the Conquest: A Social and Cultural History of the Indians of Central Mexico, Sixteenth Through Eighteenth Centuries*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1992.

Long, Charles H. *Alpha: The Myths of Creation*. New York: G. Braziller, 1963.

López Austin, Alfredo. *Educación mexica: antología de documentos sahaguntinos*. Mexico: Universidad Nacional Autónoma de México, 1985.

———. *Hombre-dios: religión y política en el mundo náhuatl*. Mexico: Universidad Nacional Autónoma de México, 1973.

———. *The Human Body and Ideology: Concepts of the Ancient Nahuas*. Translated by Thelma Ortiz de Montellano and Bernardo R. Ortiz de Montellano. Salt Lake City: University of Utah Press, 1988.

López Luján, Leonardo. *The Offerings of the Great Temple*. Translated by Bernardo R. Ortiz de Montellano and Thelma Ortiz de Montellano. Niwot: University Press of Colorado, 1994.

Matos Moctezuma, Eduardo. *The Great Temple of the Aztecs: Treasures of Tenochtitlan*. New York: Thames and Hudson, 1988.

———. *Life and Death in the Templo Mayor*. Translated by Bernard R. Ortiz de Montellano and Thelma Ortiz de Montellano. Niwot: University Press of Colorado, 1995.

Myerhoff, Barbara. *Peyote Hunt: The Sacred Journey of the Huichol Indians*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 1974.

Nicholson, H. B. "The Problem of the Identification of the Central Image of the 'Aztec Calendar Stone.' " In *Current Topics in Aztec Studies: Essays in Honor of H. B. Nicholson*. Edited by Alana Cordy-Collins and Douglas Sharon. San Diego: San Diego Museum of Man, 1993.

———. "Religion in Pre-Hispanic Central Mexico." In *The Handbook of Middle American Indians, 10: Archaeology of Northern Mesoamerica*, Part One: 395–446. Austin: University of Texas Press, 1976.

Nutini, Hugo. *Todos Santos in Rural Tlaxcala: A Syncretic, Expressive, and Symbolic Analysis of the Cult of the Dead*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1988.

Ortiz de Montellano, Bernardo. "Counting Skulls: Comment on the Cannibalism Theory of Harner-Harris." *American Anthropologist* 85 (1983): 403–406.

Pasztory, Esther. *Aztec Art*. New York: Henry N. Abrams, 1983.

Pratt, Mary Louise. *Imperial Eyes: Travel Writing and Transculturation*. New York: Routledge, 1992.

Read, Kay A. "Human Sacrifice." In *Encyclopedia of Religion*. 16 vols. New York: Macmillan, 1986. 6:515–518.

Sahagún, Bernardino de. *El códice florentino*. Mexico: Secretaria de Gobernación, 1979.

———. *Florentine Codex: General History of the Things of New Spain*. Translated and edited by Arthur J. O. Anderson and Charles E. Dibble. 13 vols. Santa Fe: School of American Research, and University of Utah, 1950–1982.

Sanday, Peggy Reeves. *Divine Hunger: Cannibalism as a Cultural System*. New York: Cambridge University Press, 1986.

Sanders, William T., Jeffrey R. Parsons, and Robert S. Santley. *The Basin of Mexico: Ecological Processes in the Evolution of a Civilization*. New York: Academic Press, 1979.

Schele, Linda, and Mary Ellen Miller. *The Blood of Kings: Dynasty and Ritual in Maya Art*. Fort Worth, TX: Kimball Art Museum, 1986.

Smith, Jonathan Z. *Imagining Religion: From Babylon to Jonestown*. Chicago: University of Chicago Press, 1982.

Soustelle, Jacques. *Daily Life of the Aztecs: On the Eve of the Spanish Conquest*. Translated by Patrick O'Brien. Stanford, CA: Stanford University Press, 1970.

Taylor, William B. "The Virgin of Guadalupe in New Spain: An Inquiry into the Social History of Marian Devotion." *American Ethnologist* 14 (1987): 9–33.
Todorov, Tzvetan. *The Conquest of America: The Question of the Other*. Translated by Richard Howard. New York: Harper and Row, 1984.
Townsend, Richard. *State and Cosmos in the Art of Tenochtitlan*. Washington, DC: Dumbarton Oaks, 1979.
van der Loo, Peter L. *Códices, costumbres, continuidad: un estudio de la religión mesoamericana*. Leiden: Archeologisch Centrum Rijksuniversiteit. Leiden, 1987.
van Zantwijk, Rudolph A. M. *The Aztec Arrangement: The Social History of Pre-Spanish Mexico*. Norman: University of Oklahoma Press, 1985.
Weismann, Elizabeth Wilder. *Mexico in Sculpture, 1521–1821*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1950.
Wheatley, Paul. *The Pivot of the Four Quarters: A Preliminary Enquiry into the Origins and Character of the Ancient Chinese City*. Chicago: Aldine, 1971.
Wolf, Eric R. *Sons of the Shaking Earth*. Chicago: University of Chicago Press, 1959.

نبذة عن المترجمة:

ولدت في سوريا، وتخرجت في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها في جامعة حلب. عملت في حقل الترجمة لمدة 25 عاماً في مجلة زهرة الخليج ومن ثم في جريدة الاتحاد الإماراتية. كما شاركت في عرض وتلخيص عدة كتب نشرت على حلقات في جريدة الاتحاد. وقد ساهمت في ترجمة أفلام وبرامج علمية ووثائقية لصالح مؤسسة العين للإعلان في الإمارات. كما ترجمت رواية «الخصم» للكاتب جنوب أفريقي «جي إم كويتزي» ورواية «الفتاة الإيطالية» للروائية البريطانية الشهيرة «آيريس موردوخ». فضلاً عن عدة قصص قصيرة موجهة للأطفال. وقد ترجمت عدة كتب ورواية لصالح مشروع «كلمة» التابع لهيئة أبوظبي للسياحة والثقافة.

عصر الأزتك - أمة الشمس والأرض

يركز هذا الكتاب على الحياة اليومية للأزتك، خاصة أولئك الذين أقاموا داخل جزيرة تينوشتيتلان وحولها. كما يقدم لنا فكرة واضحة عن الوجه الإنساني لهذا الشعب، الذي تساءل شعراؤه عن مصائر قلوبهم، وسعيهم لإقامة صداقات دائمة، وكيف ينظر الآباء والأمهات إلى الأبناء بوصفهم «عقوداً ثمينة». كما حيًّا أبناء هذا الشعب الشمس عند شروقها، وقتلوا أثناء الحروب، وهم على يقين بأنهم، رغم دفنهم في باطن الأرض، أو نثر رماد أجسادهم فوق تراب الوطن، فإنهم سيخلدون في بيت الإله الشمس. ويسعى هذا الكتاب لعقد مقاربة جديدة للعلاقات المركبة بين الممارسات الثقافية والنظام الاجتماعي، والأساطير والرموز الدينية.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة KALIMA

Madarek مدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

9789948018605